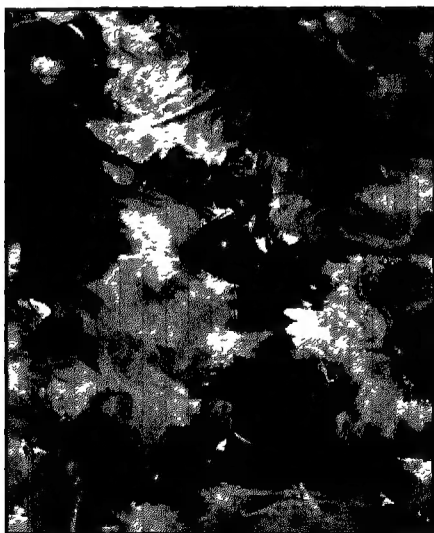


كَيْثِينَ لِيَمَانَ

# شخصية المولود البكر نشأة وبلوغاً

الأثر السلبي والإيجابي للموقع الأول في ترتيب الولادة



ترجمة: إيساد الحوراني

دار الكلمة





شخصية المولود البكر

- \* شخصية المولود البكر
- \* الدكتور: كيثين ليمان
- \* الطبعة الأولى 1999
- \* جميع حقوق الترجمة محفوظة للناسر
- \* دار الكلمة للنشر والتوزيع والطباعة
- سورية - دمشق - ص. ب : 2229
- هاتف ، فاكس : 2126326

Alkalemah for publishing and Distribution  
Baramikah - Damascus - Syria  
P. O. Box . 2229. Telephone/Fax: 2126326



الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
رقم التسجيل	١٠٠٠٠٠
رقم الترخيص	١٠٠٠٠٠

د. كيثين ليان

# شخصية المولود البكر نشأة وبلوغاً

الأثر السلبي والإيجابي للمولود الأول في ترتيب الولادة

ترجمة: إياد الحوراني



Organization Of the Alexandria  
Library (GOAL)

*Organization of the Alexandria Library*

إلى شقيقتي سالي ليما تشول: البكر  
النمذجية. لقد كنت منارةً لحياتي، والتي  
يصعب على أخ صغير شق دروبها بدون أخت  
كبيرة. لك حبي ومودّتي.

## مقدمة الناشر

هل كنت الطفل الأكبر سنّاً بين أقرانك في العائلة؟ أم هل أنت بنتٌ بكرٌ؟ أو ابنٌ بكرٌ؟ أو هل أنت الطفل الأول بعد فترة انقطاع عن الولادة لمدة تزيد عن الخمس سنوات؟ إذا كان الجواب بالإيجاب، فأنت إذن تنتمي إلى فئة من البشر تتمتع بنسقٍ مميزٍ من محدّدات الشخصية، تلك التي ستتحكم بصياغة نمط سلوكك ونمط تفاعلِكَ مع الآخرين، وأيّ الأشخاص سيكون مصدر جاذبية لك، وأيّ مسار ستختاره لحياتك.

وإذا كان من المستحيل عليك أن تغيّر ترتيب ميلادك، فإن بإمكانك أن تستثمر معظم مؤهلاتك الإيجابية، وأن تقلل من سلبياتك إلى الحدود الدنيا. وهذا ما سيبنيّه لك الدكتور كيثفين ليمان، الخبير والمرجع الرئيس في نظام التصنيف حسب موقع الولادة، في هذا الكتاب الدليل، الشيق، والمحكم المعالجة، والذي سيزيد في معارفك في هذا المجال.

ويتمتّع المولودون بكرةً بالسّمات التالية:

- \* قادة.
- \* ذوو ضمائر حيّة.
- \* يمكن الاتكال عليهم.
- \* مسالمون.
- \* منظمون.
- \* منطبقون التفكير.
- \* يرسمون مجرى حياتهم بجداول أولويات.
- \* حذرون.
- \* ذوو نزعة أوامرية.
- \* مؤجّهو الأهداف.
- \* طموحون.
- \* مخطّطون.

ولهذه السمات جميعاً مظاهر إيجابية، ربما تؤدي بك، أنت المولود البكر، لأن تحرز نجاحات كبيرة، فحظوظك كبيرة لأن تصبح رئيساً ما، سواء رئيس لـ PTA<sup>(\*)</sup>، أم رئيس لموقع عمل، أم رئيساً لدولتك. لكن في المقابل، ستجعل لديك هذه الميزات نفسها، نزوعاً للمبالغة في انتقاد الآخرين، وذاتك أيضاً، ولأن تبالي في إجهاد نفسك، ولأن لا تتوقف في حياتك سوى حين محدود للمرونة، ولأن تعمل فكرك في كل أمر إلى حدود غير مقبولة، ولأن يطغى على شخصيتك الطابع الجدّي، ولأن تقع ضحية سهلة لمن هم أقل شعوراً بالمسؤولية، ولأن تكون أنانياً أحياناً، ولا تراعي مشاعر الآخرين. من الواضح إذن أن حياتك لا تخلو من المتاعب.

سيساعدك الدكتور ليان على معرفة هذه المظاهر من سماتك الشخصية، وسيعرض لك بعد ذلك عدداً من الطرق ببصيرة نافذة، تدعوك لِّلجم طموحك المنفلت من عقله، ولأن تتعلم قبول الأكمال، ولأن لا تتوانى عن رصد حين من وقتك للاستمتاع بالحياة بعيداً عن المسؤوليات، ولأن تكون علاقتك مع الوالدين والقرين الزوجي والأطفال إيجابية وودّية.

وبعد قراءتك لكتاب «شخصية المولود البكر، نشأة وبلوغاً»، ستشرع بالنظر إلى نفسك وإلى الآخرين على نحو لم تعهده، سابقاً، مع صفاء في الرؤية وقدرة أعلى على الفهم.

يُعد الدكتور كيثين ليان أخصائياً نفسانياً معروفاً على النطاق العالمي، وتشتمل قائمة كتبه الأكثر مبيعاً على: «تصنيف الترتيب الولادي»، «هقل ذهنية الطفل دون فقدانك لرشدك»، «الأرعن»، «المُؤيَّتون»، «مجاراة مقاييس السلوك الرفيع»، «إماطة اللثام عن أسرار ذكريات طفولتك»، وكان الأخير بمشاركة راندي كارلسون.

ويقوم الدكتور ليان مع زوجته ساند، وأطفالهما الأربعة في تكسون، في ولاية أريزونا.

---

(\*) Parent teacher association: مجلس الآباء والأساتذة.

## الباب الأول

### نموذج شخصية المولود البكر(\*)

---

(\*) - المقصود دائماً بالبكر ذكراً أم أنثى. إلا إذا تمّ تحديد الجنس. م.



## الفصل الأول

### كم هو شاق، احتلالك موقع الإبن البكر!

هناك الكثير من الأعمال الخطرة في هذا العالم، والتي لا يقدرها الآخرون حق قدرها. ويُرد إلى ذهني، الآن، ضابط شرطة المدينة، والذي يواجه الخطر يومياً، لسبب بسيط، وهو أنه يعتقد أن للمواطن العادي حقاً في رد يد الإجرام عنه، وأذكر أيضاً رجل الإطفاء، ذلك الذي يقتحم البناء المشتعل لهباً، ساعياً لإنقاذ حياة شخص ما، غير مبالي بما يمكن أن تتعرض له حياته نفسها، وهناك أيضاً عامل المنجم، ذلك الذي يمضي حياته في عالم معتم، في الأعماق السحيقة من طبقات الأرض.. يستحق كل أمثال هؤلاء الرجال إعجابي واحترامي.

لكن إذا تناولت الموضوع من جانب آخر، أجد نفسي مدفوعاً للقول، إن هؤلاء الرجال لا يمتلكون أية فكرة عن أن ثمة شخصاً، يحتل الموقع الأشد مشقةً في الأسرة؛ وأنا لأقصد الأب، مع أن موقعه في الأسرة يُحمله غالباً أعباء لا يستهان بها؛ ولا أقصد الأم أيضاً، مع أننا نعرف جميعاً أن الأم هي الملاط الحقيقي الذي يشد أركان الأسرة لبعضها؛ بل إن الموقع الأشد مشقةً في الأسرة يعود، وبدون أدنى ريب للإبن البكر.

فإذا كنت مولوداً بكرًا، فإنك ستعرف من خبرتك الأصلية والمباشرة عن ماذا أتحدث، فأنت تعرف جيداً بأنك أمضيت كامل حياتك، ومنذ أبصرت النور، والأضواء مسلطة عليك، ولقد كنت دائماً الشخص المفترض به أن يلعب دور مثال الكمال بالنسبة للآخرين، وأنت تعرف جيداً أيضاً ماذا يعني أن

تستحوذ على المرء تلك الرغبة الجامحة في أعماقه، والتي تقوده قسراً لاقتحام أسوار العالم، أو ليهلك دونها.

هذا في الوقت الذي أعني فيه جيداً أن هناك عدداً هائلاً من البشر لن يفهموا عمّا أتحدث، وسيردّون فوراً بتنكّر: «عن أي شيء يتحدث هذا الرجل؟ وما الداعي يا تُرى لاعتبار الإبن البكر أمراً شاقاً إلى هذا الحد». فإذا كان ذلك لسان حالك، فإنني في وارد إخبارك بأمر يصبح إطلاقه عليك، وهو أنك لست ابناً بكرًا، وإلا فإنك لن تتحدث على هذا النحو.

وسيردني اعتراض آخر يقول: «حسنًا، دكتور ليمان، أظن أن السبب الذي دفعك لأن تعدّ الإبن البكر أمراً شاقاً إلى هذا الحد، أنك نفسك ابنٌ بكرٌ. ألسنٌ محقاً في ذلك؟».

أنا آسف جداً لأن يكون جوابي بالنفي، فالحقيقة أنني الإبن الأصغر في عائلتي. وذلك يعني أن بإمكانني المصادم على الحقيقة التي تقول إن الكوكب الأصغر في مجموعة كواكب العائلة، لا يتوقّر لديه غالباً سوى قدرٍ محدود من التجربة الحياتية الخاصة والمستقلة، وأنه ليس أمراً مبهجاً على الإطلاق كون المرء ابناً أصغر، لأن ذلك يعني أنه يمضي معظم حياته وهو يرتدي ألبسة مستعملة، والتي إما أن تكون مهترئة، أو مصمتة وفق طراز ولّى عهده منذ زمن بعيد، أو أنها مازال فضفاضة جداً عليه بعد. ولأن ذلك يعني أيضاً أن تُؤنّب بمناسبة أو بدون مناسبة، وأنه ربما تُكْنى بلقب يحمل قدراً كبيراً من السخرية، كما جرى معي، فلقد كنت أدعى «ذو الرأس البركاني»، بسبب آثار جذري الماء التي تجوّف وجهي كآبار الهوام.

وأشهد أيضاً أنني أخذت نصيبي من الضرب المبرح على يدي شقيقي الأكبر جاك، والذي اعتدت أن أناديه هزءاً «الرب»، كأن أخاطبه أحياناً بالقول: «آه، أمرك يا رب البيت»، أو «هيي، أيها الرب، هاتف يطلبك». ولا تفارق ذاكرتي أيضاً صورتي وأنا أركض من مكانٍ إلى آخر، وكتفاي مدميان أبداً، لأن



شقيقي جاك لايمتلك أي جراب للتدرب على الملاكمة سوى هذين الكتفين، وهو لايتوانى عن استغلال أي فرصة سانحة لكيال للكلمات لهما.

لكن لابدّ لي بالمقابل أن أعترف، أن كون المرء ابناً أصغر يؤمّن له بعض الامتيازات الجديرة بالاعتبار أيضاً، ويمكنني الدلالة على ذلك بأمر واحد فقط، وهو أن حقيقة كون شقيقه الأكبر يقرّعه باستمرار، لايعني أنه في وارد السماح لأي شخص آخر بأن يعامله بأدنى قدر من الخشونة، ولا في أي حال من الأحوال، فإذا استقوى عليه أحد زملاء المدرسه ونصبه دريئة لتحزّشاته، فكل ما على الإبن الأصغر فعله للتخلص من المأزق، هو أن يشير لأخيه الأكبر إليه، وهكذا ترون أن كون المرء الولد الأصغر يتيح له أن ينفذ بجلده غائماً من مأزق ماء، مثل المجرم بالضبط!

ولا يعامل الأب والأم الولد الأصغر بقدر كبير من الصرامة، ومن المحتمل أن ذلك يعود لكونهما ألفيا نفسيهما واهني القوى إثر الجهد الذي بذلاه لحمل الأولاد الأكبر من صبيان وبنات على الالتزام بقواعد الأخلاق العامة.

وهكذا، فإن الإجابة الوحيدة التي لايدّ لي من توجيهها لكل أولئك الذين يعتقدون أن احتلال المرء موقع الإبن الأصغر في العائلة، يعني احتلاله الموقع الأشد مشقّة، أن ذلك «محال».

وسيتقدم شخص ليقول: «دكتور ليتمان، ما رأيك في الإبن الأوسط؟، فأنا أسمع باستمرار عن أعراض حالة مرضية تسمى (أعراض الإبن الأوسط)، وأن الإبن الأوسط، نتيجة لها، يتحمّل القسط الأشد مشقّة في العائلة».

لا، أبدأ، وربما تعثريك الدهشة إذا أعلمتك أن الإبن الأوسط تتكوّن شخصيته لتصبح الأكثر قدرة على التكيف، والأكثر التزاماً بأحادية العلاقة مع الجنس الآخر في مرحلة البلوغ.

بالطبع، لابدّ لي أن أسلم معك بأنه لايجوز تشبيه انحشار المرء في الموقع الأوسط بالنزّهة، وأنه من البديهي أن لا يحصل الولد الأوسط على الاهتمام

نفسه الذي يحصل عليه الأولاد الأكبر أو الأصغر. فالأكبر جدّ بالاهتمام لكونه وبكل بساطة الأكبر سنّاً، حيث لا يكلّ الوالدان من التردّد مرات على سريريه في كل ليلة لتفقّده والاطمئنان على استغراقه في النوم. وحالهما مثل حال من يكاد لا يصدق أن ارتباطهما الزوجي قد أثمر هذا الكائن الحي الجديد، وبالجملال هذا الكائن الحي الجديد. ونخلص إذن إلى القول بأن انشغال الأبوين بأداء مهامهما الجديدة في الأبوة والأمومة، يبدو لهما شيئاً مثيراً للغاية، وهذا ما يعطي مسألة الإبن البكر هذه الدرجة من الخصوصية. أما بالنسبة للولد الأصغر فيكتسب خصوصيته من كونه الطفل الصغير، حيث تلازمه دائماً هذه الصفة، حتى لو صار يمتشق طولاً يتجاوز 185 سم، واكثر جسداً فاق وزنه 105 كغ.

ومما يتميز به الولد الأوسط أيضاً أنه يعيش في ظل نوع من العتم الذي لا تبيّن فيه معالم الأشياء، وليس ذلك شيئاً من جميع وجوهه، فكون المرء مُغفَل الهوية يعني أن بوسعه، دون أن يخشى لومة لائم، الاستكانة لحالات من الكسل واللامبالاة، فهو لا يتعرض للدرجة نفسها من الضغط الخارجي الذي تعرض له من وُلِدَ قبله ولا أحد يترقب منه أن يحقق مآثر بالقدر الذي كان معمولاً على الولد الأكبر ويرتد عدم وجود ضغط خارجي شديد على الولد الأوسط في عاقبة سلبية وهي أن لا يستغل كل إمكانياته، لكن يعتبر ذلك أفضل من أن يجد نفسه معرضاً لضغط زائد عن الحد، أو أن يُطلب منه تحقيق ما هو فوق طاقته، وإمكاناته، كما يحصل غالباً مع الولد البكر.

فالبكر يتولى مسؤولية تنظيف البيت من القمامة، ويظل مسؤولاً عن ذلك ما دام مقيماً في البيت، وإلى اللحظة التي يقدّم فيها أوراق انتسابه إلى الجامعة. ويحدث أن يأتي بعدها إلى البيت بمناسبة عطلة عيد الميلاد ورأس السنة، فاحزروا ماذا يجد؟ يجد كومة من القمامة يزيد وزنها عن المئة كغ في انتظار من يقطرها خارجاً وربما تظنون أنني أبالغ من تصوراتي، لكن يمكن لأي ابن بكر أن يؤكّد لكم أنني لأبالغ كثيراً، فمن المقدّر دائماً على الإبن البكر أن يتولّى شؤون الأعمال الروتينية اليومية في البيت، إلى اللحظة التي يغادره فيها لتأسيس أسرته الخاصة. فمن الذي يجزّ مروج الحديقة؟ إنّه البكر.

من الذي يللم الأوراق المتساقطة في الخريف على أرض الحديقة؟ إنه البكر.

من الذي يتولى الإشراف على الأطفال الصغار وحضانتهم في حال غياب الأبوين؟ إنه البكر.

من ينتظر مد يد المساعدة للأم في شؤون الطبخ وفي جلي الأطباق في الأماسي؟ إنها البنت البكر.

ومن الواضح لنا هنا، أنه اعتيد على تقسيم تلك الأعمال الروتينية اليومية التقليدية وفقاً للجنس - ولست الآن بصدد المناقشة فيما إذا كان ذلك صحيحاً أم لا - لكن الحقيقة التي أبغى الإشارة إليها هنا، هي أن الابن البكر سواء ذكر أم أنثى هو المقدر له عادةً، أن يتخذ الطريق الأشد وعورة في الحياة.

فلنأخذ حالة جوني على سبيل المثال، والذي واطب طوال عشر سنوات متواصلة على تنظيف البيت من القمامة ورميها في الخارج، والذي يقرر الآن أنه آن الأوان ليتولى ألبرت أو روث القيام بهذه المهمة، لكن من يضمن حدوث ذلك، إذ يبدو أن مسألة الأعمال اليومية، يُقرر من سيتولاها مرةً واحدة وإلى الأبد. ومن المحتمل أن ذلك يعود لسبب أن الأبوين لا يريدان دفع ما يترتب عليهما من بذل مزيد من الجهود لـ «تدريب» ولد آخر على تولي أمر العمل المعني، لكن ذلك ليس عدلاً، وانظروا على سبيل المثال إلى الطفل الصغير بوفورد، الذي ربما يكون الولد الأصغر في العائلة، لكنه يستطيع ببساطة، مثله مثل أي فرد آخر في العائلة، التقاط روث الكلب المتناثر في الفناء الخلفي ورميه من فوق السور إلى فناء بيت الجيران. وتعرض الأبناء البكر مشكلة أخرى، وهي أنه يُؤمل منهم كقاعدة، مراعاة أكثر صرامة لقواعد السلوك القويم مقارنةً بأخواتهم وأخوتهم الأصغر سناً. وانظروا على سبيل المثال إلى حالة البنت البكر بيتسي التي تجلس إلى طاولة العشاء، وعيناها مصوبتان باتجاه أخيها الصغير ريخنالد الذي يبعد عنه صحن البازلاء اشمزأزاً، قائلاً: «شيء قميء، إنها غير صالحة للأكل». فتجيبه أمه: «طيب، حبيبي أنت غير مضطر لتناولها، إذا كنت لاتحبها، ولم يصدر عن بيتسي أي تعليق، لكن لا يغيب عن ذهنها ما يمكن أن

يحدث لها، لو قدر لها أن ترفض تناول صحن البازلاء المغدّ لها، إذ كانت ستطرد من طاولة الطعام، ويطلب منها أن تقضي بقية لينتها في غرفتها.

مثال آخر عن الابن البكر آرنولد الذي يجلس في مكانه في الكنيسة وينظر إلى الولد الصغير ميجان الذي يضطجع باسترخاء في المقعد، ويرسم - شارد الدهن - خطوطاً عشوائية على خلفية نشرة الكنيسة، مدلاً بوضوح على أنه لا يعير أي انتباه للخطبة الكنسية. ويتوارد إلى ذهن آرنولد العبارات التي تُوجّه إليه في مثل هكذا حالات: «إجلس جيداً»<sup>(٥)</sup>، «انتبه، جيداً»<sup>(٥)</sup>، «امتنع عن الجلوس هكذا»<sup>(٥)</sup>، وهكذا دواليك.

ليس غريباً إذن، أن يكبر الأبناء البكر، ليصبحوا شخصيات رقيقة التنظيم، ومتعددة الإنجازات والمآثر، بل نمادج حقيقية من أعمدة المجتمع.

واسمحوا لي الآن أن أحدثكم قليلاً عن شقيقتي سالي، فسالي امرأة رائعة، وأنا أكرّ لها مودة خاصة، ولقد كان لها تأثير هائل على حياتي، ولا أعرف ما كنت سأكون ولا أين سأكون لولاها، ولا تظنّوا أنني أبالغ فأنا أعني هذا تماماً، فسالي كائن بشري رائع وفريد، وإذا كان لي أن أعتبرها «نموذجاً» في مجال ما، فليس لي إلا أن أعتبرها نموذجاً مثالياً للبنات البكر، لكونها تحرص دائماً على الإنجاز أعمالها بدقة وإتقان، وغالباً تنجح في تحقيق ذلك.

زارتني منذ وقت غير طويل برفقة أخي جاك في بيتي في تكسون، واضطربنا نحن الثلاثة أن ننزل إلى أحد البنوك في مركز المدينة لتوقيع بعض الأوراق القانونية. وحين كنا منتظرين في الصالة، لاحظت فجأة ودون أي سابق

---

(٥) - استخدم الكاتب كثيراً في لغة الحوار عبارات وكلمات عامية، وقد استخدم المترجم العامية المتداولة المقابلة في قليل منها، مع الإشارة إلى ذلك بحرف (ع)؛ لكننا لكوننا نتج الكتب للقارى العربي في أنحاء الوطن العربي كلّ، ولأن العامية في قطر ليست مفهومة بالضرورة في قطر آخر، لذلك ارتأينا استدال العامية بالفصحى أو بالعامية المشتقة من الفصحى والتي نفترض أنها مفهومة من قبل كل القراء العرب. وقد اكتفينا بوضع نجمة فوق الكلمات ذات الأصل العامي. الناشر.

إنذار، أننا فقدنا أحدها، أين أختي سالي؟ - آه، إنها هناك، ورائنا بعدة خطوات، لكن ماذا تفعل هناك؟ تحزيت المسألة عن قرب، فتبين لي أنها تعيد صف وترتيب أكداش من الكراسيات المكوّمة على إحدى الطاولات، كراشات تحمل عناوين مثل «كل ما تريد أن تعرفه عن الصكوك والائتمان» «هل لديك وصية؟»... وتوجهت إليها بالسؤال «ماذا تفعلين؟، أتردين اقتناء بعضها؟».

فأجابت: «لا، أبداً، كنت فقط...».

فتابعَتْ كلامها بسؤال: «تقومين بترتيبها؟».

فأجابت وقد علت وجهها مسحة من الارتباك: «نعم، إنه كذلك».

ولم أتمالك نفسي عن الضحك والقول لها: «لا أحد سواك يهتم بترتيب وصف كراشات في قاعة بنك». وبالطبع لم يكن الأمر كما لو أن الكراشات كانت مرمية على الأرض، لكنها لم تكن مرصوفة بالترتيب المفترض أن تكون عليه، وهذا ما دفع سالي إلى أن تخرج عن طورها، وهل هناك غير الإبن البكر ليهتم بترتيبها؟، لكن تلك هي الحالة التي تستحوذ على معظم المولودين البكر، والتي لا يستطيعون مغالبتها.

وأملك في مكتب في تكسون لوحتين مؤطرتين، علقتهما بشكل مائل لغاية في نفس يعقوب، لكن هذا بحد ذاته كافٍ لأن يجعل الأبناء البكر يتصبّبون عرقاً بارداً، ويهرعون فوراً لتقويمهما، وبالكاد يصدّقون ما أقوله لهم، بأنهما معلّقتان بهذه الطريقة لغاية معيّنة.

فإذا أردتَ لعمل ما أن يتم بطريقة صحيحة، فاتركه إذن لإبن بكر ليتولاه. وليست مستغرباً إذن حقيقة كون عدد كبير جداً من المولودين البكر دكاترة ورجال قانون ومهندسين، وأن لهم مواقع في مجلس إدارة المدارس وفي مجالس المدينة وفي برلمان (كونغرس) الولايات المتحدة الأمريكية، بنسب مئوية أعلى بكثير مما تقتضيه نسبتهم إلى مجموع السكان.

وإذا كنت ابناً بكراً، فإني أخالك الآن متفش الصدر زهواً، وربما تقلّب الأمر في ذهنك على النحو التالي:

«ما الداعي يا ثرى لكل هذا القيل والقال، فما تؤكّده، أننا الأبناء البكر

أناسٍ أخيار بامتياز، فأين وجه الخلل في ذلك؟» وجوابي على ذلك، أنه لا يوجد على الإطلاق أي نقيصة في كل ما ورد، لكن المشكلة تبدأ عندما يبالغ المولدون البكر في التنظيم، وعندما ينزعون إلى تنكب عبء قدرٍ من الأعمال زائد عن الحد وعلى حساب صحتهم وراحتهم، وعندما لا يشعرون بالرضى عما بذلوا من جهود، أو عندما يشعرون بأنهم مكبلون في الصورة التي يريدون أن يعطوها عن أنفسهم، أو ربما أيضاً الصورة التي يريد الآخرون أن يرسموها عنهم.

ويحدث لي أن أصادف أشخاصاً يريدون انتقاداً حاداً جداً لكل ما يمت بصلة لمسألة دور الترتيب الولادي على شخصية المرء، ويعتقدون بأن موقع المرء في الأسرة ليس له أي تأثير على خط سلوكه. وعندها أتوقع أنني أقف أمام عينايت من الأبناء البكر، مستنداً إلى حقيقة أن لدى الأبنكار ميلاً فطرياً للتمعن فكراً في كل أمر وفق المنطق التحليلي، وإلى عدم قبول أي شيء إلا بعد تمحيص وتدقيق شامل. ولقد قابلت أحد هؤلاء الشكاكين ولأسمه سكييتيكال<sup>(\*)</sup> ستيفن في وينيبغ في كندا، أثناء وجودي هناك لإلقاء كلمة في مؤتمر حول الأسرة.

استهلّ حديثه معي متحدّياً فيما إذا كنت أستطيع الاستدلال على ترتيب ميلاده في الأسرة، فلم أتمالك نفسي، وأنا جالس مقابله على طاولة العشاء وعيناي في عينيه، عن الضحك إلا بصعوبة، فلو قُيِّض لي مقابلة نموذج مثالي ومطابق لجميع مواصفات المولود البكر، فإنه بالتأكيد هو عينه، فلقد كانت ثيابه بادئ ذي بدء منسجمة الألوان بتناسق تام، حيث يناسب لون ربطة عنقه لون بدلتته، وكذلك جرابه، وحذاءه ملّمع إلى الدرجة التي لن يخفي أي رقيب قاسٍ وعجوز في الجيش ابتسامته ورضاه إثر رؤيته له، بل أكثر من ذلك، ارتصفت كل شعرة من شعر رأسه بمحاذاة الأخرى في تسريجه مرتبة، وتُلم شارباه ومُشْطاً بعناية، وقُصّت أظافره باستواء تام، وباختصار بدا مرتباً ومهنّداً بعناية، أو على نحوٍ أكثر تحديداً بدا كمولود بكرٍ. فقلت له:

«أنت الابن البكر في عائلتك».

---

(\*) - Skeptical: شكّاك أو غير متيقن. م.

فارتسمت للحظة معالم الدهشة على تقاطيع وجهه، لكنه استعاد تماسكه وضبط نفسه سريعاً، وقال مع إيماءة موافقة برأسه: «حسناً، لقد أصبت في حالتي». وأتبع ذلك بهزة من أكتافه كما لو أنه يريد القول: «يمكن لأي شخص أن يمرّ ويحالفه التوفيق في ذلك»، وتوقفت الخادمة في هذا الوقت قرب طاولتنا، وأعدت ملء كأسَي الماء ثانية، فنظر ستيفن إليها ومن ثم إليّ، متحدّياً من جديد: «ماذا تقول عنها؟».

فقلت، متسائلة: «ماذا تقول: عني، يا أستاذ؟»  
فأجابها ستيفن: «بوسع هذا الرجل أن يحزر موقع ولادتك في أسرتك عبر النظر إليك فقط».

فأوضحت لها ضاحكاً: «لا، لا يمكنني ذلك، لكن إذا أحببتي علي مجموعة مترابطة من الأسئلة، فعندها أعتقد أن بوسي ذلك».  
فقلت: «أكيد؟ إن ذلك يبدو ممتعاً، هلّم أسألني!».

فسألتها عدة أسئلة، عن حال والدها، وماذا تريد أن تحقق بحياتها.... الخ. وأكدت لي إجاباتها على أسئلتي شكوكي الأولى، فقلت لها: «أصبح واضحاً لي يا لورين إنك البنت البكر في الأسرة، وأنا شبه متيقن أن لك أخاً أكبر منك». فرجعت برأسها إلى الخلف ضاحكة، وقالت: «إن ذلك مثير للدهشة، كيف عرفت؟».

فقلت: «ليس ذلك عويصاً».

فقلت: «اسمع، أنا مضطرة لأن أغادرك فوراً، لكنني سأعود لاحقاً لمتابعة الموضوع، فأنا أرغب بسماع المزيد عنه». وعقب إنهايتها لتفقد سريع لحاجات الزبائن الآخرين، والاطمئنان على تيسر أمور عشائهم، أخذت أوضح لها كيفية قدرتي على التحديد الدقيق لمدارها الخاص ضمن مجموعة كواكب العائلة، حيث انطلقت من أمر واحد، وهو أنها وصفت والدها بأنه «مهندس انضباطي جداً»، ثم أردفت أنه يحب أولاده كثيراً «جداً»، وأنه ودود ولطيف المعشر لكنه صارم «جداً»، وتحدثت عن انضباطه ونمط حياته مستخدمة عبارات إيجابية، وشكل ذلك مفتاحاً آخر لحل الأحجية.

فالأبناء البكر يزعون لاستخدام المفردة «جداً»، والمفردات التفضيلية الأعظمية مثل «الأفضل» و«المفضل» وما يشبهها، ويعتون أيضاً التنظيم والانضباط نعوتاً إيجابية، وترتب كل هذا مع بعضه دون علم من لورين ليكشفها ولم أستند في وصولي إلى معرفة ذلك لإجابات لورين فقط، بل إلى نمط سلوكها أيضاً وطريقة تعاملها مع طلباتها والكيفية التي تقدم بها الأطباق وترتيبها على الطاولة أمامنا، فلقد شئت في كل حركة أتت بها عن اتزان وتنظيم وكفاءة، إنها بنت بكر بدون أي شك. أما تأكيد على أنها ليست الإبن البكر الوحيد في الأسرة، فلقد توصلت إليه إثر سماعي لأجوبتها على بعض أسئلتني. وأشير هنا إلى أنه من الممكن أن يوجد على أرض الواقع أكثر من ابن بكر أو ابنتين في العائلة نفسها، وسأشرح المزيد عن ذلك في مكان قريب لاحق من هذا الكتاب.

وإثر متابعتي لحديثي مع صديقي سكييتكال عن مسألة ترتيب الولادة، تبين لي أن موقفه قد تغير، ويجوز لنا الاستدلال من كل هذا الذي جرى، أن الأبناء البكر، وكاحتمال مرجح، لديهم ميل قوي لأن ينحوا في سلوكهم طرقاتاً تظهرهم بمنزلة طرز من «كبار رجال الدولة» في عائلاتهم.

وحين شارفنا صديقي وأنا على إنهاء حديثنا، عادت لورين إلينا من جديد لتسألنا فيما إذا كنا نريد أي حلوى أو فاكهة، وكان هذا على الأقل السبب الذي قدمته لتبرر عودتها إلينا، فلقد كانت ترافق خادمة أخرى، وهي امرأة شابة ممشوقة القند ونحيفة، وبحدود العشرين عاماً، وتدعى كاثيري.

وسألت لورين بلهجتها الكندية المحببة: «هل يمكنك أن تفعل ذلك معنا؟ هل يمكنك الاستدلال على ترتيب ولادتها في أسرتها؟ فأجبت: «موافق، لكن...».

لكنها قاطعتني قائلة: «آه، آسفة، إنها صديقتي كاثيري».

وكانت كاثيري واقفة بدواعة وهدوء بمحاذاة لورين، مبدية ابتسامة محتشمة، كما لو أنها مرتبكة بعض الشيء بكل هذا الذي يجري أمامها، وتلفت بعينها



صوبي كما لو أنها تريد إن تقول: «أسفة على إزعاجك على هذا النحو، وبودّي لو تعرف أن هذا الأمر ليس بالتأكيد من بنات أفكاري».

ويّتن كل ذلك لي بوضوح أن التعامل معها صعبٌ بعض الشيء، إلا أنني أخبرتها أنه من دواعي سروري أن أتيتن فيما إذا كان بإمكانني أن أحمّن موقعها الولادي في عائلتها، لو تفضّلت بإجابتي على بعض الأسئلة، وكانت الأسئلة نفسها التي وجهتها للورين. وسرعان ما حَسَمْتُ موقعي بأن كاتي بنتٌ وسطى، فلقد كانت أستاذة ضليعة في التفاوض والحلول الوسط، وامرأة تميل إلى الحياء وإلى الغموض والسريّة. وحدثتني عن أوضاع أسرتها وعن مشاعرها في أشدّ إيجاز ممكن، ورغم الطريقة الوديّة في الحديث إلا أنها لم تستطع إخفاء ميلها لعدم كشف أشياء كثيرة، وتعتبر كل هذه الصفات دلائل نموذجية على شخصية ابن أوسط.

وعندما أخبرت كاتي بهذا، وافقتني على أنه صحيح تماماً، وعلى أن لديها أختين أكبر سنّاً منها وأخ أصغر منها.

وفور مغادرة المراتين لطاولتنا، أعلن سكيثيكال ستيف استسلامه برفع يديه إلى الأعلى وقال: «كان تقديري خاطئاً عن ترتيب الولادة هذا، وها أنت الآن جعلتني مؤمناً».

فأجبت: «حسناً، أرجو أن تصدقني فيما إذا أكّدت لك أنني لست قادراً على الوصول إلى الجواب الصحيح في كل المرات»، وأنا فعلاً غير قادر على هذا، فترتيب ولادة المرء في أسرته، إنما هو إحدى القوى الرئيسية التي صاغته كما هو عليه اليوم، لكن هناك قوى أخرى لها فعلها في حياته أيضاً، بما فيها تصميمه الخاص وثباته على أمر ما، ورغباته الخاصة أيضاً، فمن المستحيل أن تحصر وتقيد أي كائن بشري في قوالب صمّاء جامدة، لكننا في الآن نفسه لا يمكننا أبداً نكران حقيقة كون معظم الأولاد البكر يميلون لإظهار صفات شخصية معينة، وكذلك الحال لمعظم الأولاد الوسط ولمعظم الأولاد الأصغر أيضاً.

وأخبرت ستيف أمراً آخر أيضاً، ألا وهو أن ترتيب الولادة أعلى قيمةً بكثير من كونه لعبة جيّلة شبيهة بتخمين وزن شخص ما، بل إنها نظرية علمية مدعّمة

بسنوات من الدراسة والبحث، وأنها وسيلة ناجعة عندما تُستخدم لمساعدة البشر على معرفة أنفسهم وتحسين ظروف حياتهم.

وبالطبع لم يكن ستيف الشكّاك الوحيد الذي قابلته طوال هذه السنوات، بل كانت هناك المئات منهم، بما فيهم عشرات من الرجال والنساء ممن ارتادوا عيادتي في تكسون للاستشارة، لكنهم جميعاً عاجلاً أم آجلاً غيروا مواقفهم فاقنعوا بما أقوله، وباستيعاب الدور الذي يلعبه ترتيب الولادة في كل مناحي حياتنا.

واليكم الآن حوايز نموذجي بيني وبين أحد المواليد البكر المرتاب بصحة النظرية، حيث يجري الحوار على الشكل التالي:

■ - مولود بكر: «أنت تقول أن الأبناء البكر يُفترض فيهم أن يكونوا رفيعي التنظيم، ولا حيلة لهم إلا بأن يكونوا كذلك، بيد أنني لست كذلك، وما عليك إلا أن تلقي نظرة على مكتبي، وستتحقق بنفسك كم أنت مخطئ فيما تقوله».

■ - دكتور لي مان: «حقاً؟، إذا كان الوضع بهذه الدرجة من الفوضى، فكيف يمكنك معرفة مكان شيء ما تريده».

■ - مولود بكر: «آه، ذلك سهل، فأنا أستطيع بطريقة أو بأخرى أن أعرف أين بالضبط أجد أي شيء أريده».

\* - دكتور لي مان: «وهكذا، أنت تخبرني بكلمات أخرى، أن فوضيتك منظّمة بطريقة ما».

\* - مولود بكر: «عذراً، لم أفهم ما تقصدا».

\* - دكتور لي مان: «إني أقدم لك تفسيراً بأنك لست على تلك الدرجة من الفوضى التي حاولت أن تتظاهر بها في أول الأمر، فإذا كنت تعرف مكان أي غرض تريده، فإن ذلك يدلّل بوضوح على أنك جيد التنظيم، أليس كذلك؟».

\* - مولود بكر: «طيب.... صحيح.... أعتقد ذلك».

■ - دكتور ليمان: «على أي حال، ماذا تعمل في هذا المكتب؟ ما هي وظيفتك؟».

■ - مولود بكر: «أنا مهندس معماري».

\* - دكتور ليمان: «مهندس معماري، ربما يهتك أن تعرف أن معظم المهندسين المعماريين الذين أعرفهم، هم إما مولودون بكر أو أبناء وحيدون، لكن بغض النظر عن ذلك، أعتقد أنه يُفترض في المهندس المعماري إبداء أناة شديدة أثناء أدائه لعمله، أليس كذلك؟».

■ - مولود بكر: «بوسعك المراهنة على أنه يتصرف كذلك، فلا مجال هنا لأي حيز للأخطاء، أو لأن تكون منزاحاً انزياحاً طفيفاً جداً عن المقياس».

\* - دكتور ليمان: «وُتعتبر هذه صفة بارزة أخرى من الصفات الشخصية للإنسان البكر، فكل عمل يأتيه، يؤديه على الوجه الأمثل، وليس بوسعك أن تسمع ابناً بكراً يقول: (أه)، يكفي بالنسبة لي أن تكون نتيجة العمل مقبولة)، أو: (إنه لا يصل إلى درجة الكمال تماماً، لكنه يفي بالغرض). بل إن ما تسمعه باستمرار من الإبن البكر، وما يبالغ في ترديده لأصدقائه كشعار، هو: من قام منكم بعمل فليعتبه بإتقان. ويمكنني القول، على ضوء ما سمعته منك، أن ملامحك كبكر تفصح عن نفسها أكثر فأكثر بالنسبة لي».

\* - مولود بكر: «حسناً، مازلت غير متيقن بعد، من أنني مستعد لتقبل هذا، وخصوصاً تلك المسألة النافلة المتعلقة بكون مكتبي المهمل الترتيب، يعتبر على أرض الواقع منظماً، ويبدو لي بأنني لو كنت حقاً منظماً، وأؤدي أعمالي بإتقان كما تقول، لكنت في هذه الحالة، كما تعرف، أخصص مكاناً لأي غرض من الأغراض، وأبقي كل غرض في مكانه الخاص».

\* - دكتور ليمان: «طيب، صدق أو لا تصدق، أن الناس ذوي المكاتب المهملة الترتيب، يصبح عليهم أحياناً صفة الكمال أكثر من الناس الذين يبدون ظاهرياً على أنهم مرتبون ومنظمون. وربما يصبح على الشخص الذي لديه مكتب غير مرتب، ما أدلل عليه بعبارة (استكمالين مثبتي المهمة)، فهو يريد لكل شيء في حياته أن يصل إلى درجة الكمال، ولأنه يعرف استحالة بلوغ

ذلك، فإنه يميل لأن يترك مشاريعه نصف منجزة، أو مطوية طوياً، وهو، بكلمات أخرى، يخشى محاولة الإقدام على ما يعرف أنه غير قادر على إنجازه على نحو يصل إلى درجة الكمال.

■ - مولود بكر: «حسناً، كيف تستقيم أفكارك مع الوضع التالي؟ لدي أخت صغيرة، تربيها الثالث من بين ثلاثة أبناء تضمهم أسرتي، وهي تبدو، وفقاً لما تقول، وكأنها بنت بكر أكثر مني، فهي دائماً الأفضل في أي أمر تأتبه، فلقد كانت ترأس هيئة طلابية في المدرسة الثانوية، وترأست نادي الأخوة والصدقة في الجامعة، ومحررة في مجلة الكلية، ورئيسة لجمعية العزة القومية، وحازت على درجة امتياز في القانون من جامعة واسعة الشهرة ورغم كونها أصغر مني بثمان سنوات إلا أنها تتفوق علي في كل شيء. وأعني بهذا أن ما عرفته منك حتى الآن حول ترتيب الولادة، جعلني أفترض أن الأولاد الأصغر سناً من النوع الذي لا يحمل همّاً، ويتعاملون مع الحياة كما هي أمامهم، وكنت أظن أنه يفترض فيهم التعاطي مع الحياة من جانبها المرح، ولا يجهدون أنفسهم كثيراً».

■ - دكتور ليان: «ما تقوله صحيح» لكن يجوز أن لا تكون أختك إحدى نماذج الأولاد الأصغر، بل ربما تكون في الحقيقة بكرّاً مثلك تماماً».

\* - مولود بكر: «عن أي شيء نتحدث؟ كيف يمكن يا ترى أن تكون بكرّاً؟».

\* - دكتور ليان: «هل أنا مصيب في تصوّري أن الإبن الفاصل بينكما ضمن ترتيب الولادة إنما هو ذكر؟».

■ - مولود بكر: «أنت مصيب».

\* - دكتور ليان: «وبكم سنة يصغرك؟».

\* - مولود بكر: «ثلاث سنوات».

\* - دكتور ليان: «أصبح لكل جوانب الوضع الآن معنى كاملاً في ذهني؛ إن أختك الصغيرة، هي في الحقيقة بكر، وذلك وفقاً لاعتبارين اثنين؛ فهي، بادئ ذي بدء، بكر لأنها البنت الوحيدة في الأسرة، وهذا لا يكفي لوحده

لأن يعني لنا، أنها لا بد أن تتمتع بكل الموصفات الشخصية للبكر، لكن هذا يعني أن هناك إمكانية معتبرة لذلك. أما السبب الثاني لاعتبارها بكرًا، فهو وجود فاصل زمني لمدة خمس سنوات بينها وبين الولد الأوسط، ففي حالة وجود فجوة زمنية من خمس سنوات أو أكثر بين الأولاد، فإن الولد الذي يولد بعدها، يمكن اعتباره بكرًا.

\* - مولود بكر: «لقد اختلط عليّ الأمر فعلاً الآن، لقد كنت تحت تأثير انطباع بأنه من غير الممكن وجود إلا بكرًا واحداً في كل أسرة، وها أنت تخبرني الآن أنه من الممكن وجود أكثر من واحد».

\* - دكتور لي مان: «هذا صحيح، فعادةً يوجد بكر واحد أو على الأكثر اثنين إذا أخذنا الاختلاف الجنسي بعين الاعتبار، لكن إذا فصل بين تواريخ ميلاد أولاد عائلة معينة، مسافات زمنية طويلة بحدود معقولة، عندها من الممكن لنا أن نعتبر أن فيها أربعة أو خمسة أولاد يتمتعون جميعاً بالموصفات الشخصية للأولاد البكر، وأنا في شك من أنك واجدٌ عدداً كبيراً من الأسر اللواتي تضم عدة أولاد يفصل بين ميلاد كل واحد منهم والآخر فترة زمنية من خمس سنوات أو أكثر، لكنه أمرٌ واردٌ على كل حال».

\* - مولود بكر: «ولماذا يُحدث فارق العمر خلافاً كبيراً كهذا؟».

\* - دكتور لي مان: «بادئ ذي بدء، لأنه يضعف من حدة المنافسة بين الأخوة، وأخوك يصغرك... بكم؟، بثلاث سنوات؟، إن هذه مسافة زمنية قريبة، كافية لأن تزداد احتمالية أن يكون له على الأقل المدرسين نفسهم الذين كانوا لك، وعندما يأتي إلى المدرسة يتذكرك الناس ويتذكرون مآثرك، وسيجد نفسه مدفوعاً لمجاراتك. فكما تعرف أن الإبن البكر، لديه ميلٌ فطري لأن يتطلع لأمه وأبيه، ويسعى لأن يصير مثلهما، فلا أحد غيرهما أمامه ليحتل دور القدوة والنموذج المثال، وهذا أحد الأسباب التي تجعلك تجد عدداً كبيراً جداً من الأولاد البكر ممن يتبعون إيقاع خطوات والدي كلٍّ منهم نفسها، ومن يخوضون غمار سيرة حياتية مشابهة، لكن ها هو ثمة أخٌ أصغر يأتي بدوره، ويتطلع أمامه، فلا يجد فقط الأم والأب ليطلق خطاه على آثار خطاهما،

لكنه يجد الأخ البكر كذلك، ويرى أيضاً أخاه وهو يؤدي دوره على نحو رائع في مجال إثبات قدرته على مجازاة آمال والديه فيه، و...! (\*)، يبدو أنه سترتب عليه شق طريقه الذاتي الخاص لدفع الآخرين إلى ملاحظته. دعنا نقل على سبيل المثال إنك ماهر جداً في المجال الرياضي....».

■ - مولود بكر: «نعم أنا كذلك».

■ - دكتور لي مان: «طيب، هذا يعني أن أخاك الأصغر سيواجه صعوبة في منافستك على المستوى البدني، وإذا لم تحدث مصادفة، بأن يتمتع خلقياً بقسط وافر من القدرة البدنية الطبيعية، فإنه سيلجأ على الأغلب، إلى البحث عن طريق آخر لإبراز قدراته فيه».

\* - مولود بكر: «نعم، إنه حقاً انخرط في ميدان الموسيقى، وهو عازفٌ على الغيتار في فرقة روك أند رول».

■ - دكتور لي مان: «لذلك يجوز لنا القول بأن صفات الولد الأصغر تنطبق على أخيك الأصغر منك أكثر من أختك الصغيرة، فالوضع النموذجي بالنسبة للأبناء الأصغر سناً، هو السعي وراء الأضواء، وهم يحثون البقاء دائماً مركزاً لاستقطاب الاهتمام، وأظن أن هذا أحد الأهداف التي يحصلها أخوك من العزف في فرقة روك. فليكن بعلمك أن الأبناء الأصغر وكاحتمال مرجح، يتفانون ليلفت انتباه الآخرين إليهم، فليس هناك الكثير مما يستطيعون تحقيقه، مما لم يكن قد قام به أخوتهم وأخواتهم الأكبر، ولذلك فهم، ومنذ اللحظة التي يبصرون فيها نور هذا العالم، يبحثون بدأب عن الوسيلة التي يستحوذون عبرها على قسط ملحوظ من الاهتمام بهم، وهذا ما يعجز معظمهم عن الحصول على نصيب كافٍ منه. وعلى سبيل المثال، أتذكر الشخص الذي كان يلعب على الدوام دور مهرج الصف عندما كنت في المدرسة؟».

■ - مولود بكر: «هاري ويلسون».

\* - دكتور لي مان: «حسناً، إن هاري المسكين هذا، وعلى الأغلب، الأخ الأصغر في أسرته، ومعظم مهرجي الصف من هذا الصنف من البشر، وخصوصاً إذا



العالم إلا عددٌ محدود من نماذج الشخصية، وهي: موليد بكر، وموليد  
وسط، وموليد أخرون».

\* - دكتور ليமான: «بالإضافة إلى الأولاد الوحيدين».

■ - مولود بكر: «لكن الأولاد الوحيدين، وعلى أرض الواقع، ليسوا إلا تنويغ  
قصوري من الموليد البكر. صحيح؟».

■ - دكتور ليமான: «صحيح».

■ - مولود بكر: «وهذا يعني أنّ ثمة فقط ثلاثة أو أربعة نماذج مميزة للشخصية. أنا  
أقصد أنه حتى علم التنجيم يتيح المجال لإثني عشر برجاً فلكياً. وإذا نطلعت  
حولي فإني أشاهد تنوعات لاحصر لها من البشر والشخصيات، وهذا ما  
يجعل من العسير عليّ الاقتناع بأن لترتيب الولادة هذا الدور الهام في صياغة  
شخصية المرء».

■ - دكتور ليமான: «ينبغي عليّ توضيح أمرين متعلقين بهذه النقطة، بادئ ذي  
بدء، أنا لم أقل مطلقاً أن ترتيب الولادة هو العامل الوحيد الداخل في صياغة  
الشخصية البشرية، فهناك عددٌ هائل من العوامل الداخلة في تركيب المعادلة  
التي تصل بالمرء إلى ما هو عليه. بل إن ترتيب الولادة نفسه يخضع لعدد من  
المتغيرات. فلنأخذ على سبيل المثال حالة الإبن البكر الذكر، فمن له أخوة  
ذكور فقط أصغر منه، فشخصيته ستماثل شخصية مدير عام قاس، أي الرجل  
الذي يمسك بكل خيوط الوضع، ومن القادرين على تحقيق مآثر في الحياة،  
لكنه في الوقت نفسه من الحالات التي لن تفهم جيداً النساء كحالة عيانية  
خاصة، ولن يسلك، على الأرجح، في زواجه ما يجعله واحداً من الأزواج  
الصالحين. أما البكر الذكرى، فمن لديه أخوات فقط أصغر منه، فسيكون على  
الغالب أكثر عاطفية، لكنه مع ذلك من القادرين على تحقيق المآثر أيضاً،  
وسيشف في سلوكه عن جوانب من اللطافة والحنان، وهذا ما تعلمه من  
خلال علاقته مع شقيقاته، حيث يغدو أكثر تعاطفاً مع النساء وحاجاتهن،  
ويتدبر أمره كزوج على النحو الأمثل، وعلى كل حال، فإنه يظل شخصاً  
أكبر سناً من شقيقاته، واعتاد على أن يقف إلى جانبيهن ويحميهن، لذلك



سيتصرف على الأرجح بطريقة تعكس نوعاً من التعصب في هذا المجال، وسيعتقد أن النساء بحاجة لمساعدته وحمايته. ولدنيا أيضاً حالة ابن ذكر لديه أخت أو عدة أخوات أكبر سناً منه، فهذا على الأرجح، سيبرهن عن قدرة أعلى في إعطاء النساء حق قدرهن، وما يستحقن من قيمة، ولتجري الآن تحويلاً لعناصر المسألة وسترى أن البنت البكر والتي لديها أخوات فقط أصغر منها، ستنتظر إلى الحياة على نحو أحادي البعد، مجبراً لصالح تصوّرات وأفكار نسوية حصراً، بينما ستشف البنت البكر والتي لها أخوة ذكور فقط أصغر منها عن ملامح شخصية مختلفة».

\* - مولود بكر: «م م م م».

■ - دكتور ليمان: «دعنا الآن نعمل النظر في حالة الابن الوحيد. فبوسعي تقصّي الأمر في مجلدات من الأبحاث، وإخبارك بشكل عام عن طريقة تربية حياته، لكنني لن أكون دقيقاً جداً، أو مصيباً مئة في المئة، لأن هناك متغيرات كثيرة جداً داخلية في تكوين الوضع. وأجد المتغيرات المهمة التي تستحق التوقف عندها، هو لماذا كان ابناً وحيداً؟ وأنا أدرك أن ذلك يبدو غريباً بعض الشيء، إلا أنه اعتباراً جديراً بالاهتمام. فهل حدث ذلك لأن والديه كانا غير قادرين جسمانياً على إنجاب أولاد آخرين؟، فإذا كان الأمر كذلك، فإنهما سيعاملان دوتهما الوحيدة هذه، بطريقة خاصة، وخصوصاً إذا بذلا المستحيل لإنجاب أولاد آخرين، وعجزا عن ذلك. وربما كان ابناً وحيداً، لأن والديه وليا الأدبار إلى خارج الغرفة وهما يقسمان بأغلظ الأيمان بأنهما لم يعودا راغبين أبداً في إنجاب أي طفل آخر، وذلك إثر إلقائهما أول نظرة على وجه صغيرهما البشع. أو ربما كان ابناً وحيداً لأنهما خطّطا مسبقاً للاكتفاء بإنجاب طفل واحد فقط معتبرين ذلك الوسيلة الوحيدة التي تمكنهما من امتلاك القدرة على منحه الأفضل من كل شيء أي الألعاب الأفضل، والألبسة الأفضل، والتربية الأفضل. ويبيّن لك كل هذا، كيف تبدّل هذه المتغيرات الطريقة التي يتعاملان بها معه، مما يؤدي بدوره إلى تنوع طريقة مقارنة الحياة».

■ - مولود بكر: «نعم، أوافق على ما تقوله».

■ - دكتور ليमान: «ليس ثمة أمر سحري فيما يتعلق بترتيب الولادة، وليست المسألة مسبوكة في قالبٍ إسمنتِي بأنك ستصرف على هذا النحو إذا كنت بكراً، وبذلك النحو إذا لم تكن كذلك. بل إن ترتيب الولادة يفعل فعله فينا وفقاً لطريقة آبائنا في التعامل معنا، ولكيفية تفاعلنا مع أخوتنا، ولجنس أخوتنا، وللحالة الاقتصادية لأسرنا، ولمكان إقامتنا.... الخ. حيث تدخل كل هذه المتغيرات في صياغة المصفوفة الأسروية».

\* - مولود بكر: يبدو لي أنَّ الأمر بمجمله مفيدٌ وممتع، ولكنني ما زلت غير مقتنعٍ بعد بقاعة يقينية بالأمر، ومن الضروري أن أتمنَّ فيه لبعض الوقت».

\* - دكتور ليमान: «بصراحة، لو كان ردُّ فعلك مختلفاً عن ذلك، لكان وقع الأمر مفاجئاً لي، فالابن البكر، كما أخبرتك آنفاً، ينحو لأن يكون حذراً وذا عقل تحليلي في التعاطي مع أي أمر، وينتمي لصنف البشر الذين يريدون جمع كل دلائل حقيقة معينة على نحوٍ مرتَّبٍ وجلِّيٍّ قبل إقرار موقف منها، لذلك خذ ما تريد من الوقت للتفكير في الموضوع، وستحدث مرة أخرى لاحقاً».

\* \* \*

ربما مازال صديقنا البكر هذا غيرَ مقتنع بعد بالدور الذي يلعبه ترتيب الولادة في صياغة مصائرنا، بيد أن عدد الناس الذين بدأوا بإعارة انتباه خاص لهذا الموضوع، يتزايد باستمرار، بما فيهم الناس الأكثر نفوذاً في الولايات المتحدة. كنت، في أحد الأيام، في كاليفورنيا تلبيةً لدعوة للمشاركة في برنامج تلفزيوني صباحي، فأُتيحت لي، أثناء جلوسي في غرفة الاستراحة منتظراً دوري فرصة الحديث مع ت. بون بيكينز، والذي كان مقرراً أن يشارك في البرنامج نفسه، في الدور الذي يسبق دوري مباشرة. وتبيَّن لي من الحديث مع (بون) - وهو يحب أن ينادى كذلك - أنه شخص جذاب وساحر في الحديث، وهذا ما استوقَّعونه أنتم أيضاً حال معرفتكم أنه أحد الرجال الأكثر نفوذاً في حياة الأعمال الأمريكية اليوم. وائر تطرَّقنا في حديثنا إلى مسألة ترتيب الولادة، بدأت مظاهر الاهتمام بالموضوع لديه تتزايد شيئاً فشيئاً. فلم يكف عن توجيه السؤال إثر السؤال لي، ثم التوقف قليلاً لتقليب الأمر في ذهنه، ثم العودة من جديد لإهالة ثلاثة أو أربعة

أسئلة جديدة. لكن لم يدم حديثنا وقتاً طويلاً، إلى أن حلّ موعد (بون) للانضمام إلى المذيع التلفزيوني المضيف أمام الكاميرا، وبعد مرور عشر دقائق حلّ دوري أيضاً، ولكن، فجأة، جرى أمر لم يسبق أن حدث معي طوال كل السنوات السابقة في أيّ من أحاديثي التلفزيونية والتي وصلت لحدود ألف وخمسمئة مقابلة. فما يجري عادة في هذا البرنامج أن يتخلّل بين كل مقابلة قصيرة وأخرى، مشهدٌ فاصلٌ للإعلانات التجارية، يجري خلاله إتاحة الفرصة للضيف الأول للمغادرة، وتهيئة الضيف التالي للجلوس أمام الكاميرا، ولم يحدث ولا مرة أن بقي الضيف الذي اعتاد الظهور في هذا البرنامج، لمشاهدة ما يجري في المقابلة التالية له، لأن من طبيعة هؤلاء الضيوف أنهم من النوع الذي يهرع من موعدٍ إلى آخر، ولا يستطيعون خرق ارتباطاتهم إلّا في حالات طارئة استثنائية، لذلك ما إن دخلت قاعة التصوير، حتى همّ كل مرافقي (بون) بتهيئة أنفسهم لمواكبته لموعده التالي، ولكن بدلاً من أن يمضي (بون) قدماً معهم، أشار إليهم أن يبقوا في أمكنتهم، قائلاً لهم «ليبق كلّ منكم في مكانه، فأنا أريد أن أسمع ما سيفوّه به حول ترتيب الولادة».

والآن، ها هو رجل لديه ثروة تُقدّر بـ... هل تعرفون كم؟ ليس أقل من 3 مليارات دولار، ومع ذلك فهو مهتم بترتيب الولادة. وأعتقد أن ما أثار اهتمامه، إنما هو في الواقع معرفته أن رجال الأعمال سيجنون فائدة قصوى فيما إذا أدخلوا مسألة ترتيب الولادة في حساباتهم عند تعيين الأشخاص في وظائف إدارية هامة. وبالطبع لا أقصد القول بأن تقتصر الأسس التي تُبنى عليها قرارات من هذا النوع على عامل ترتيب الولادة حصراً، لكنني أقصد أنه جزءٌ قيمٌ إضافي للمعلومات تهمله معظم الشركات، فهم اعتادوا على أن يوجهوا للمرء كل أنواع الأسئلة النفسية، وإخضاعه لدزينة من الاختبارات، لكنني لم أسمع مطلقاً أن هناك اختباراً واحداً يتضمّن السؤال عن أمر واحد وحيد متعلق بترتيب ولادة المرء، رغم أن التدقيق في ترتيب الولادة يمكن أن يؤدي في حالات كثيرة إلى توفير سنوي للملايين الدولارات في أي مشروع كان، فبإمكانكم أن تستدلّوا على الأفراد المهتمين لأن يكونوا التجار الأفضل، ومدراء المبيعات الأفضل، وأنهم الأكثر تنظيماً... وهكذا دواليك.

## صورة توضيحية رقم 1

عائلة جونسون ومواليدها البكر الخمسة.

لنفترض أن ثمة أرملة تدعى سالي بارنز، تزوجت حديثاً من أرمل يدعى لو جونسون، وكان لها عند زواجها ولدان: ابنها البكر توم والذي يبلغ الثانية عشر من العمر، ولاري وعمره أربعة أعوام، والذي يصنّف كإبن بكر أيضاً بسبب فارق العمر بينه وبين شقيقه. ولدى (لو) أربعة أولاد أيضاً، مكوّنين مع أولاد سالي ما مجموعه خمسة مواليد بكر في عائلة واحدة ويجري الأمر على الشكل التالي:

- بيل : 25 سنة، الإبن البكر لـ لو.
- جورج : 23 سنة، الإبن الأوسط لـ لو.
- روندا : 19 سنة، البنت البكر لـ لو.
- توم : 12 سنة، الإبن البكر لسالي.
- أليسون : 10 سنوات، وهي بنت لـ لو، وبكرٌ لكونها أصغر بأكثر من خمس سنوات من روندا.
- لاري : 4 سنوات، ابن لسالي، وهو بكرٌ لكونه أصغر بأكثر من خمس سنوات من توم (أو أليسون، وللأمر نفسه!).

وما دام رجلٌ كـ ت. بون ييكنز قد اقتنع أنه سيجد فائدة في استيعاب مسألة ترتيب الولادة، وأن ذلك سيحسن أدائه لأعماله، فمن الطبيعي أن يؤدي ذلك الغرض نفسه عندك وعندني.

وكنت في مناسبة أخرى ضيفاً، في لقاء على الهواء، في أحد البرامج التلفزيونية المعروفة على نطاق واسع في سبيل، ويدعى سيتل اليوم، وبعد أن أنهيت قسماً من حديثي «قال مقدّم البرنامج: «دكتور ليمان، ما فهمته منك أن بوسعك أن تعرف وتحدّد ترتيب ولادة المرء في أسرته»، فاحترت ماذا أردّ عليه، لذلك لجأت إلى شيء من الهمهمة للحظة أو لحظتين، ثم أومأت برأسي بالإيجاب، قائلاً: «حسناً، في الواقع، نعم إن بوسعي ذلك».

فقال: «آه، ما أشدَّ سروري لسماعي ذلك، لأنك ستحصل على فرصة للقيام بهذا الأمر تحديداً، عقب هذا الفاصل الإعلاني التجاري مباشرة». وبدأ القلق يستحوذ عليّ وأنا جالس، قائلاً بيني وبين نفسي: «أوه، هذا أمر يتجاوز الحد، فهو سينتقي على الأغلب أناساً يحدون كثيراً عن المعيار الطبيعي، ولن يكون بوسعي تخمين وضعهم على الوجه الصحيح».

وأعلن مقدم البرنامج إثر انتهاء الفاصل الإعلاني، أنه اختار عشوائياً أربعة أشخاص من الحاضرين في القاعة، مبدئياً لي رغبته في أن أستدلّ على ترتيب ولادتهم». وأبقاهم واقفين، ثم سألتني: «حسناً، دكتور ليمان، ماذا تقول؟».

فقلت له: «اسمع، أنا لست هوديني<sup>(\*)</sup>، ألا أقوم على الأقل بإجراء حديث مع هؤلاء الناس؟ أسمح لي بثلاثين ثانية معهم؟».

وأبدت امتناناً شديداً له إثر إجابته بالموافقة، وبعد توجيه عدد من الأسئلة البسيطة لكل منهم، كان من السهولة أن أعرف موقع الأربعة في ترتيب الولادة، فالأول كان ولداً وحيداً، والثاني كان بكرًا، والثالث ولداً أوسطاً والرابع ولداً أصغراً. وبما ليحكم رأيتم التعابير المرتسمة على وجه مقدم البرنامج، فلقد أخذته الدهشة كلياً لكوني استطعت الوصول إلى التحديد الدقيق للترتيب الولادي لكلٍ منهم، وعلى الأرجح أنه قدّر في ذهنه مسبقاً، أن حساب الحقل غير حساب البيدر، وأن مخططات ترتيب الولادة هذه ستبرهن عن ارتبايبتها عند اختبارها واقعياً، وكل ما كان يأمله هو الحصول على قليل من المتعة، لكنه حالما شهد بنفسه دقة الأمر واقعياً، انقلب البرنامج إلى حوار استفساري معمّق حول الموضوع.

وتحققت بنفسني في هذا البرنامج التلفزيوني الخاص والذي تركّز على الرد على المشاهدين الذين اتصلوا هاتفياً، قدرتي على تزويد آلاف من البشر برؤية جديدة وعميقة عن أنفسهم، وكان في ذلك متعة قصوى لي، لأن مساعدة الناس هي بالحصلة الهدف الكلي والنهائي لاستيعاب الدور الذي يلعبه ترتيب الولادة في حياة المرء.

---

(\*) - عزافة. م.

إن الاستشارات الطبية التي قدمتها لآلاف من الزبائن في عيادتي الخاصة على مدى أكثر من خمسة عشر عاماً، هي التي أقنعتني أكثر من أي شيء آخر، بأهمية ترتيب الولادة، والدور الرئيسي الذي يلعبه معظم المواليد البكر في مجتمعنا.

وإذا لم تكن بدورك مقتنعاً بهذا، فالعب لعبة صغيرة معي. هل أنت جاهز؟  
سمِّ إحدى الأخوات في عائلة ماندريل<sup>(\*)</sup>.  
انتهى الوقت. أقلت باربارا؟ ثمة احتمال كبير بأنك قلت ذلك، وهناك سبب معقول لذلك، فهي البكر والآن سمِّ أحد الأخوة في عائلة سموزورز<sup>(\*)</sup>.  
أقلت تومي؟ ليس ذلك مفاجئاً فهو البكر.

لكنك لن تتمالك نفسك عن القول لي: انتظر لحظة، أليس تومي شخص أخرج ويزعق باستمرار على طريقة الأخ الأصغر، نعم، هذا صحيح، لكن ذلك ليس إلا دوراً، يمثل، لكن الحقيقة هي أنه أكبر من أخيه، وهو من يخطر عادة على بال الناس أولاً.

تجربة أخرى، سمِّ أحد الأخوة في عائلة رايت<sup>(\*)</sup>.

أسمعتك تقول ويلبر؟ إنه أكبر بحوالي أربع سنوات.

وإن أكثر من نصف رؤساء الولايات المتحدة، وبالتحديد 52٪ منهم، مولودون بكر<sup>(1)</sup>، وإذا أردت مثلاً مأسوياً عن الاختلاف الموجود بين الأخ البكر والأخ الأصغر، فأمعن النظر إذن في حالة جيمي وبيلي كارتر.

فجيمي، الأخ البكر، جِدِّي، ومولع بالدراسة، ونموذج الشخصية الذي رصّف طريقه بمثابرة ودأب إلى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية. لكن كان ثمة في بليز في جورجيا أخوه الصغير بيلي (والذي مات مع الأسف في ريعان الشباب)، واشتهر بيلي في شربه المفرط للبيرة، ولتعلقاته الفظة السوقية، ولكونه يتصرف دائماً كما لو أن هيكله تشكّل بدون إدخال أي عظمة جديّة فيه. فالذي كان رئيساً هو جيمي، إلا أن من كان في مركز الضوء فعلياً، هو بيلي (ويمكنني

(\*) - أسر أمريكية معروفة. م.

التأكيد لك - أنا الصبي الأصغر في أسرتي - أننا الأولاد الأصغر نعرف كيف نسرق مركز الضوء، بطريقة أو بأخرى. فإذا لم يكن بوسعنا تدبّر أمرنا بأن نصبح أحسن منك، أنت الإبن البكر، فإننا ندبّر أمرنا بأن نصبح أكثر حماقة - كما فعل (بيلي).

وليكم نتيجة سير مصغّر، كنت قد قوّرت إجراءه منذ وقت قريب، لأرى فيما إذا كانت قناعاتي عن الأبناء البكر، ستبرهن من جديد عن صحتها. وأجريت هذا السير على حلقتي بحث لمجموعات من موظفي إدارة شركات، وهذا ما أشرف عليه بين حين وآخر، ففي حلقة بحث لمجموعة من مدراء إدارة كان (19) من أصل (20) من الحاضرين مواليداً بكرًا. أما في اجتماع حلقة بحث لرؤساء شباب، فلقد ذكر لي (23) من أصل (26) من حضر من الرجال والنساء الشباب الأكثر حيويةً، إنهم مواليد بكر.

ويظهر المواليد البكر في أعداد أكبر بكثير من أشقائهم في برامج مثل (الشخصيات الفاعلة في أمريكا)<sup>(\*)</sup> و (نساء ورجال علم أمريكيون)<sup>(\*)</sup>، وأيضاً بين صفوف علماء وأساتذة جامعة درودس<sup>(2)</sup>.

هل ثمة درس نتعلّمه من كل ما ذكر؟ بوسعي القول، نعم. فإذا كنت مولوداً بكرًا، فمن الأفضل لك الانتباه، فمن المحتمل أن تصبح رئيساً يوماً ما، ربما لبلادك، أو لموقع عمل، أو كما هو محتمل أكثر لـ (مجلس الآباء والأساتذة) في حيّك السكني، وأياً كان الموقع الذي تصبو إليه، فأنت المولود البكر، ولدت لتقود!

لماذا يُعامل الأبناء البكر على نحو مختلف عن الأبناء التاليين لهم؟ أعتقد أن هذا الأمر يجد تفسيره إلى حد كبير في حقيقة أن الأبناء البكر لا يُتاح لهم البقاء لوقت طويل أطفالاً.

لنقل إن الصغيرة دوري كان لها من العمر ثلاث سنوات عندما وُلد أخوها، ومع ذلك سيشرح والداها اعتباراً من هذه اللحظة بالنظر إليها باعتبارها

(\*) - برامج تلفزيونية أمريكية. م.

بنتاً كبيرة، وخصوصاً أن أخاها مازال صغيراً جداً وعدم الحيلة كلياً. وبعد مرور ثلاثة أعوام أخرى، سيُنظر إلى دوري البالغة السنة السادسة من عمرها على أنها عملياً راشدة، بينما سيتواصل النظر إلى أخيها الصغيرة باعتباره مازال طفلاً صغيراً بعمر ثلاث. ويتبين لنا من ذلك كيف يعمل كثير من الآباء على النظر إلى أولادهم البكر، على أنهم أكبر سنّاً مما هم عليه في الواقع، وهم يأملون منهم أن يكبروا بسرعة مفرطة، ويأملون منهم أيضاً أن يضربوا في سلوكهم مثلاً جيداً لجميع من يولد بعدهم من الأخوة. فمن المنتظر من الإبن البكر أن يكون الأكثر نباهةً، والأفضل سلوكاً، والأكثر أناةً، ومن أصحاب الضمير الأكثر صحواً، والأقوى جسداً... وهلمّ جراً. ويفشل عدد كبير جداً منهم في مجارة المعايير الحديثة لآبائهم.

إن الأبناء البكر مهتأون كقاعدة عامة، لأن يصبحوا استكماليين أو شبه استكماليين، فهم يرسمون حياتهم وفق غايات محددة، ومنظّمون بشكل رفيع، ومن طراز البشر الذين يعرفون إلى أين يمشون، وكيف يصلون إلى الضفة الأخرى، وما المدة الزمنية التي سيستغرقها ذلك. فما الخطأ في هذا؟ لاشيء مطلقاً. لكن المشكلة تبدأ مع أولئك الذين لسبب أو لآخر يصبحون ما أَدعُوهم استكماليين مثبطي الهمة، وهم البشر الذين يعجزون عن مجارة ما كان معوّلاً عليهم من قبل آبائهم، وهم الآن، وبعد أن أصبحوا راشدين يعجزون عن مجارة ما يصبون إليه في أنفسهم.

ومن الممكن أن يتقدّم العمر بالمواليد البكر ويتحرّروا من سيطرة آبائهم، ومع ذلك لايتحررون من أسلوب الحياة الذي غرسه في داخلهم آباؤهم وترتيبهم الولادي في الأسرة، ويجدر بي الآن أن أخصص قدراً ضئيلاً من الوقت لأوضح ما أقصده بعبارة أسلوب الحياة.

يتبع كل كائن بشري أسلوب حياة خاص به أو مخطط لاواعي (Subconscious) لحياته، وهو ما يبدأ في التشكّل باكراً منذ مرحلة الطفولة. فما تأتيه من أفعال، ومن خيارات، والطريقة التي نعرف فيها أنفسنا، وكل الأمور المشابهة الأخرى، إنما تُقرّر وتُحسم إلى حد كبير جداً، وفق أسلوب الحياة الذي



يسم مسار حياتنا. وانظروا، على سبيل المثال، إلى حالة البنت الصغيرة لوز، والتي حدث أن اكتشفت أن الطريقة الوحيدة التي تمكّنها من الاستحواذ على الاهتمام، إنما هي وقوعها في سورة مرض، لذا ما انفكت طوال عمرها تصارع مرضاً إثر آخر. وهي ربما لاتدرك أن هذه الأمراض المتنوعة ما هي إلا مجهود لاواع من قبلها للاستحواذ على الاهتمام. لكن ذلك كان أسلوب الحياة الذي وسم مسار حياتها.

ولقد طوّر مفهوم أسلوب الحياة من قبل رائد علم النفس ألفرد أدلر، والذي كان يعتقد أن معرفة وفهم غايات امرئ ما، هما مفتاح لفهم سلوكه. حيث يرى أن كل واحد منا يسير وفق (خطوط حياة) فردية، أو مسالك باتجاه غايات خاصة به سواء كان المرء يعي أو لا يعي ماهية هذه الغايات<sup>(3)</sup>.

ولن يصدق الاستكمالي المثبط الهمة مطلقاً، أن غايته الأساسية المضمرة، هي أن يفشل، أو على الأقل، أن يفشل بعد أن يوشك على الوصول إلى المقاييس المعيارية التي وضعها لنفسه. لكنني أؤكد أن هذا بالضبط ما يفعله دائماً، في أي دور يلعبه، إنه يعطل قدراته.

ويؤدي بنا ذلك إلى القول بأن هناك بين الاستكمالي والاستكمالي المثبط الهمة اختلافات هائلة.

فالاستكمالي يُلقي نفسه مسيراً لأن ينجز كل أمر يقوم به على النحو الأمل الممكن تحقيقه. ولديه ميل فطري لأن يمنح كل أمر كامل طاقته، ويشعر بالرضى عما حققه من إنجازات، مادام واعياً أنه بذل في الأمر كل ذلك.

في حين أن الاستكمالي المثبط الهمة يجد نفسه على الدوام غير راضٍ مطلقاً عما حققه. ويعتقد دائماً أنه كان بإمكانه إنجاز أي أمر قام به على نحو أفضل، وأياً كانت درجة الجودة التي تمّ بها عمله. ويستحوذ عليه جزاء ذلك شعورٌ بالإحباط، ويعتبر نفسه فاشلاً.

وتعكس الكلمات التالية للعقري ليوناردو دافنشي، إلى هذا الحد أو ذاك، موقف الاستكمالي المثبط الهمة، فهو يقول: «لقد أسأتُ أمام الله وإلى الجنس البشري، لأن عملي لم يصل إلى المستوى الذي ينبغي الوصول إليه»<sup>(4)</sup>.

وتُعتبر هذه الكلمات مفاجئة من الرجل الذي وهبنا الموناليزا والعشاء الأخير وغيرها من الأعمال الفنية الرفيعة، والذي أظهر عبقريته أيضاً في عددٍ كبير من المجالات الأخرى، لكن يُعتبر هذا الموقف موقفاً أتمودجياً للاستكمال المثبط الهمة. وبالمناسبة، يصنّف ليوناردو كمولود بكر بامتياز لأنه ابن وحيد، فتأمل يا رعاك الله!

## صورة توضيحية رقم 2

سمات الإبن البكر		
سمة الإبن البكر	المظاهر الإيجابية لها	المظاهر السلبية لها
استكمالي	يعمل كل شيء بإتقان	ذو طبع، مغالي في توجيه النقد، ولا يشعر بالرضى عن أدائه الذاتي
حياته موجّهة	طموح، يرصف طريقه باتجاه النجاح	يرزح دائماً تحت وطأة ضغط زائد عن الحد.
منظم	قادر على بلوغ القمة في أي أمر	ليس ثمة حيّز للمرونة في حياته.
ذو ثقافة عالمية	قادر على معالجة المشاكل وحلها	يبالغ أحياناً في التفكير، ويبالغ في الجذية
يرسم مجرى حياته بجداول أولويات	ينجز أعماله، ويعرف إلى أين يمضي	يقولب نفسه في قالب، ويصبح أسيراً لأولوياته
منطقي التفكير	يتجنّب مآزق ممارسة السلوك الذي يتضمّن إكراهاً للآخرين	يثبّت في ذهنه أنه على حق حتى لو لم يكن كذلك
قائد	يحتل موقع مهم في أسرته، في مجتمعه... الخ	يُعَوّل عليه تحقيق الكثير، ويتكل عليه الآخرون
مُرضي	معروف بكونه شخص طيّب	معروف بكونه ضحية سهلة
عدواني	يشق طريقه في الحياة بجسارة، يهابه الآخرون	لديه استعداد لارتكاب حماقة، ولا يراعي مشاعر الآخرين

وأنا أحب أن أصوّر الاستكمالي المثبط الهمة كلاعب قفز فوق العارضة في فريق ألعاب قوى، حين يأتي راكضاً بأقصى ما يستطيع من سرعة، كالبرميل المتدحرج على المضمار، وساقاه تخفّان، وذراعه يلوحان إلى أقصى مداهما، وما أن يوشك على الوصول إلى العارضة حتى يدفع بنفسه إلى الأعلى والأعلى، ومن ثم فوق العارضة! لكن ما أن ينتهي من محاولته الناجحة هذه، حتى يصرخ بأعلى صوته محتجاً: «تلك العارضة ليست على ارتفاع كافٍ! إرفعوها قدماً آخر!».

وإذا حدث وقفز فوق عارضة ارتفاعها ستة أقدام، فإنه يعتبر عن رغبته بأن توضع على ارتفاع سبعة أقدام، وإذا فعلها وقفز فوق عارضة ارتفاعها سبعة أقدام، فإنه يرغب بأن تُرفع مجدداً لارتفاع ثمانية أقدام، وهكذا، حتى يخسر في نهاية المطاف. ويكذّس الاستكمالي المثبط الهمة بهذه الطريقة، وعلى نحوٍ مطّرد، أوراق اللعبة ضده، فلقد كان بإمكانه اعتبار نفسه ناجحاً، فيما إذا سمح لنفسه أن يكون كذلك، لكنه، ببساطة، لا يستطيع أن يسمح بذلك!

وفي الحقيقة، إن أحد الأمور المثيرة للدهشة لدى ليوناردو، هذا إذا كان حقاً استكمالياً مثبطاً الهمة، هو واقع أنه استطاع إنجاز عددٍ هائلٍ من المآثر. فالاستكمالي المثبط الهمة الحقيقي غير قادر، في الغالب بل الغالب جداً، على إنجاز أي شيء، حيث يكبله خوفه من الإخفاق، وهذا ما يؤدي إلى شلّه وجعله عاجزاً عن أداء أي عمل على الإطلاق. فهو يعرف مسبقاً أن جهوده لن تثمر عن نتائج كافية الجودة، لذلك يخشى الشروع بالعمل. ويمكننا تصوّر ذلك في المدرسة بأنه الطالب الذي يدخل قاعة الامتحان في اليوم المقرّر، ويجد نفسه مدفوعاً للاستسلام لحالة من عدم الرغبة في تأدية الامتحان، وهذا ما يُعتبر غالباً من قبل المراقب الخارجي على أنه دلالةٌ على كسله وإهماله، لكن الحقيقة ربما تكمن في أنه ليس إلا استكمالياً مثبطاً الهمة، وقد يكون قفّ عشرة أرتالٍ من وزنه، تتأكله حالةٌ من القلق والتفكير في ورقة الامتحان هذه، بل ربما تهيجت عليه قرحة مؤلمة في معدته، لكن أبى قلمه أن ينصاع له، ويسطر به حتى حرفاً. ونتصوّر أيضاً هذه الحالة بأنها الموظفة التي تتأخر دائماً في إعداد تقاريرها،

في نهاية مرحلة من الماطلة والتأجيل، أو التي تبدو تقاريرها كما لو أنها أنجزت بسرعة خلال نصف الساعة الأخير. لكن من الخطأ هنا أيضاً، اعتبارها فوراً على أنها ليست إلا موظفة غير منظمة أو قليلة الاهتمام، فمن الممكن أن تكون استكمالية مثبّطة الهمة.

ويرد الاستكماليون المثبطو الهمة في جميع الألوان والأحجام والأشكال والأعمار، وهم يردون أيضاً من جميع مواقع التشكيلة العائلية، لكن النسبة الأعظم منهم مواليدٌ بكّر، وبفارق كبير عن النسب الأخرى.

ولن نغيب عن ذاكرتي أبداً ملامح ذلك الشاب، والذي كان طالباً متفوقاً في الجامعة، حيث لم يحصل أن تلقى أي علامة نجاح أقل من درجة امتياز، وكان مهيباً ليحرز Summa cum laude<sup>(\*)</sup>، وينتظره مستقبلٌ باهر. وكنا نقدّر جميعاً أنه سيلقى نجاحاً في كل أمر يأتيه، بيد أنه أقدم، دون أي مقدّمات، على الانتحار، وترك ملاحظة تقول في جزء منها:

«لقد عجزت مطلقاً عن أن أكون على مستوى المعايير المعمول بها في هذا العالم، وربما أفلح في العالم الآخر في تحقيق نتائج أفضل». إنه أمرٌ محزّنٌ جداً، أن يشعر شاب يافع رائع كهذا، بأنه مهزومٌ ومحبطٌ إلى الحد الذي أوصله إلى أن يزى أن وسيلة الخلاص الوحيدة هي هذه العملية من الإنهاء الذاتي. فلقد كان استكمالياً مثبّط الهمة، ويلزمه إحساس وحيد ودائم من عدم الرضى عمّا استطاع بلوغه في الحياة ولم يرَ أي بصيص أمل في تغيير الوضع.

لكنني أرغب بأن أبيّن أنه بوسعكم التغلّب على المشاكل التي تتورطون فيها لكونكم مواليداً بكراً، مهما كانت طبيعة هذه المشاكل، ودرجة العمق التي أثّرت عليكم.

فإذا وقعت في شرك الاستكمالية المثبّطة الهمة، فإن بإمكانك تخلص نفسك من إسارها.

وإذا كنت تشعر بالحنق من والديك، بسبب الطريقة التي عاملاك بها،

(\*) - Summa cum laude: عبارة لاتينية تعني التخرّج بامتياز. م.

مقارنةً بما عاملاً أخواتك وأخوتك الأصغر، فيمكانك التغلب على شعورك هذا، وتؤسس لعلاقة أفضل معهما.

## لماذا يتمتع أطفال بطبائع غير متماثلة؟

يأتيني أحياناً كثيرة آباء في استشارات طبية، ويسألونني كيف ولماذا يتباين أطفالهم إلى هذا الحد في طبائعهم، مع أنهم ينشأون وترعرعون في كنف أسرة واحدة، ويردفون القول: «بالخصلة، إنهم جميعاً نشأوا في البيئة المحيطة نفسها. ألا ينبغي إذن أن يتصرفوا جميعاً على المنوال نفسه؟»، ويكمن تشوّش الرؤية هنا من الاعتقاد بأن الأولاد الذين ينشأون في كنف عائلة واحدة إنما ينشأون في البيئة المحيطة نفسها، فالأمر ليس كذلك على الإطلاق، صحيح أن الوالدين هما نفسيهما، والبيت نفسه، وربما الجيران والمدارس أيضاً أنفسهم، لكن العلاقات فيما بين أفراد العائلة غير متماثلة أبداً.

فالإبن البكر على سبيل المثال، هو من يحرص على رعاية من هم أصغر سناً منه، لذلك من الوارد أن يتمثّل في سلوكه شخصية الحامي أو حتى شخصية المدير المشرف. وأتذكّر على سبيل المثال، شقيقتي سالي، وارتقاءها درجات الواجهة الأمامية لأحد المنازل، وهي ماتزال بنتاً صغيرة، وقزعتها جرس الباب، ووقوفها وجهاً لوجه أمام امرأة عمرها (38) سنة، كان ابنها قد اعتدى على أخيها الصغير، والذي كان بالتحديد، أنا. وأفهّمتها بوضوح بأنه إذا لم يتوقف ابنها، هذا المستقوي على من هم أضعف منه، عن الاعتداء على الأطفال الذين في نصف عمره، فإنها شخصياً ستقوم بتلقينه درساً لن ينساه! تلك هي الطريقة التي يتصرف وفقها الأبناء البكر. ففي حين أن الوالدين يظنّان أنهما يؤدّيان واجبهما على هذا الصعيد، نرى أن الإبن البكر يعرف واجبه على النحو الأفضل، وهذا ما يعرفه أشقاؤه الأصغر أيضاً.

وبالطبع، يقودنا هذا للقول إن للأخت الصغرى أيضاً بيئتها المحيطة الخاصة بها، ممّا يؤدي بها إلى مواجهة نسبيّ خاص من المشكلات، ولنقل على سبيل المثال، إنها على الأقل تشهد في بعض الأوقات مشاعر بينية متناقضة بين إتيان ما

تريدها أمها إتيانه، وبين إتيان ما يريدتها أخوها الأكبر إتيانه. ولنقل أن الأم أخبرتها أنه من غير المسموح لها امتطاء دراجتها إلى البقالية الواقعة على مفترق الطرق، خشية تعثرها ووقوعها أرضاً إن هي فعلت ذلك. غير أن أخاها الأكبر يُقدم بعد فترة نحوها، ويدي لها رغبته، بشيء من الفظاظلة التي تسم سلوكه هذه الأيام، بأن عليها أن تترك دراجتها، وتذهب إلى تلك البقالية لشراء قالب من الحلوى له، وإنه سيشتبعها ضرباً، إن لم تستجب له، (وإذا كان أخوها الأكبر مهذباً، فإنه لن يقدم على ضربها فعلياً، لكنني بالمقابل أشك بأن يوجد أخ أكبر في هذا العالم، لم يقم بالتهديد بذلك في مناسبة أو أخرى)، وهكذا وجدت تلك الأخت المسكينة نفسها محاصرة في خضم حالة «مُدانة إن فعلت»، ومُدانة إن لم أفعل»، وهذا كان نوع البيئة المحيطة التي ألقت نفسها فيها.

أما في حالة البنت الوسطى، فإنها ستجد نفسها ممزقة بين مداراتها شطحات أخيها الأكبر النكدة من جهة، ومتابعة الاهتمام بشؤون أخيها الصغير من الجهة الأخرى.

والآن، ماذا نقول حول حالة الأخ الأصغر؟. إن بيئته المحيطة ليست محكومة فقط بطبيعة علاقته مع أخوته الأكبر منه، بل أيضاً بماهية المعالم التي كانوا قد خلّفوها له ليسير على هديها، فعندما يذهب إلى المدرسة، سيواجهه المدرّسون بالقول: «بالطبع، نأمل أن تكون طالباً جيداً، تماماً مثل أخيك وأختك الأكبر منك».

أو سيسمعهم وهم يتهايمسون بصوت خفيض: «نأمل أن لا يكون فتى مشاغباً مثل أخيه».

وفي كلتا الحالتين، محكوم على الأخ الأصغر مسبقاً، ويوقع منه مسبقاً نمط معين من السلوك، وسيكون أمراً عسيراً عليه أن يثبت أنه شخص مستقل وقائم بذاته.

وصار بإمكانكم الآن تصوّر ما قصدته بأبناء من العائلة نفسها، ومع ذلك ينشأون في بيئات محيطة مختلفة كلياً. وإليك هذه الكلمات لألفرد أدلر حول الدور الذي يلعبه ترتيب الولادة في حياة كل منا، وهو غالباً ما نشهد آثاره فعلياً

على أرض الواقع: «يترك موقع المرء في الأسرة بصمات لامتجى على أسلوب حياته. وتعود كل صعوبة من مصاعب التطور الحضاري أصلاً إلى جو المنافسة والنقص في التعاون بين الأخوة في العائلة. وإذا ألقينا نظرة شاملة على حياتنا الاجتماعية، فإن تساؤلاً سيطر على نفسه أمامنا، وهو لماذا كانت روحية المنافسة والتسابق مظهرها الأكثر جلاءً؟ - وهذا ما يمدّ ظلاله في الواقع على كل جوانب عالمنا، وليس في حياتنا الاجتماعية فقط - عندئذٍ يجب علينا الإقرار أن الناس أينما كانوا يسعون بدأب وراء هدف تحقيق الانتصارات، والتغلب والتفوق على الآخرين، وأن هذا الهدف هو محصلة لتدريب في مرحلة الطفولة المبكرة من التزاحم والكفاح التنافسي بين الأخوة الذين لا يحسّون أنفسهم بأنهم أطراف متساوية القيمة من الوحدة الكلية للعائلة»<sup>(5)</sup>.

وكتب كارل كونينغ بعد عدة سنوات لاحقة: «تعطي طبيعة تشكيلة كل عائلة، الشكل الذي سيكون عليه السلوك الاجتماعي للإنسان فهي تحدّد الأسلوب الذي سيتفاعل بمقتضاه مع الآخرين، ومدى قدرته على إقامة علاقات صداقية، أو عدم قدرته على ذلك، وماهية العلاقات الرفاقية والتجمّعات التي ينتسب إليها، وحتى أن اختيار القرن الزوجي يتأثر إلى حد بعيد بالوقائع المتعلقة بتشكيلة العائلة»<sup>(6)</sup>.

وبدأ من اللحظة التي خطّ فيها كونينغ هذه الكلمات، وعلى مدى أكثر من خمسة وعشرين عاماً، أُنِدَّ عددٌ هائل من الدراسات صحة ذلك، فترتيب الولادة دورٌ هام جداً في صياغة شخصية المرء، ويترك الموقع الولادي للإنسان أثراً عميقة على تكوينه، سواء أدرك ذلك أم لم يدرك.

لكن تذكروا ما ذكرته آنفاً، بأنه لا يقتصر تصنيف المرء كإبن بكر على من هم فقط الأكبر بين الأخوة، فبإمكاننا مصادفة أبناء بكر في كل موقع تقريباً من المصفوفة العائلية. فكل أخ يصغر أخاه أو أخته الأكبر منه مباشرة بأكثر من خمس سنوات، يتحلّى بخصائص الإبن البكر، وهذا ما أتيح لي معاينته واقعياً مرات ومرات. فمن الواضح أن فترة زمنية من خمس سنوات ستوفّر للأخ الأصغر حيزاً كافياً للتنفس» تجعله في منأى عن أن يشعر بالاختناق أو بالتهديد بما كان قد

حققه أخوته الأكبر. ومن المرجح جداً، في الوقت نفسه، أن يعامله والداه مجدداً كما عاملاً الإبن البكر، ويؤمل منه إتيان مستوى أعلى من الاستقلالية، ولن يُسمح له بالتصرف كطفل صغير.

### صورة توضيحية رقم (3)

#### ماهو بديهي بالنسبة للإبن البكر

يتكل كل أفراد الأسرة علي.  
لا أستطيع إلا أن أجد نفسي معنياً بكل شيء.  
كم هو شاق، احتلاك موقع الإبن البكر.  
لم يُسمح لي إطلاقاً، أن أكون طفلاً.  
إذا لم أتول القيام بأمري ما، فإنه لن يُنجز.  
إذا لم أتول القيام بأمري ما، فإنه لن يُنجز على النحو الصحيح.  
أنا لم أقل مطلقاً أنني أريد لعب دور النموذج المثال.  
ولدا لو أنني تصرفت مثلك له...!  
لم تسمح أُمي لي إطلاقاً إتيان ذلك عندما كنت في عمرك.  
لماذا يترتب علي تولي القيام بذلك؟ فهم لم يقوموا بأي أمر من كل هذه الأمور.

من الممكن إذن أن تكون الأخ الأصغر لثمانية أخوة وأخوات، ومع ذلك تستصنف، بسبب الفترة الزمنية الفاصلة بين عمرك وعمر الأخ الأكبر منك مباشرة، باعتبارك إبناً بكرًا. ففي حال كنت أماً لأولاد يفصل بين ميلاد كل منهم والآخر مسافة زمنية كافية، فمن الممكن أن يتوفاً بين يديك ثلاثة بل حتى أربعة أبناء بكر.

وننتهي إلى القول: إنه عندما يتأتى لك أن تتبين بوضوح كيف يؤثر ترتيبك الولادي على شخصيتك، فإن ذلك يعني أنك قمت بخطوة واسعة لمعرفة نفسك بصورة أفضل، وسيمدك هذا بالقدرة على أن تتبين وتفهم بوضوح جوانب قوتك وجوانب ضعفك، وأن تدرك السبب الذي يجعلك تختار خيارات معينة في الحياة، سواء كانت صالحة أم طالحة. وسيكون بوسعك، حالما فهمت نفسك، الشروع بتعزيز جوانب قوتك، وإجراء تحسينات على جوانب الضعف في شخصيتك، مما يؤدي إلى تقوية شخصيتك ككل. وفي حال كان لخياراتك في



الحياة عموماً منحى خاطئاً، فسيكون بإمكانك أن تتبين وتدرّك العامل الكامن في بنيتك الشخصية، والذي يدفعك لاتخاذ هذه الخيارات، وما هي الوسيلة التي تمكّنك من تغيير ذلك. والآن، أرجو أن لاتسيء فهمي، فأنا لم أقل أن لدى الأبناء البكر، كثرة من الناس، قدرأ من المشاكل أكثر من الحصة الطبيعية لكل البشر، أو أنهم يستدعون المساعدة أكثر من كل الفئات الأخرى. لكني أقول إن للأبناء البكر نسقاً فريداً خاصاً من المشكلات، وسأسعى، على امتداد صفحات هذا الكتاب، لمساعدتك على إحكام الخناق على هذه المشكلات وذلك عبر تبييني لك.

- كيف تستفيد ممّا تتمتع به من امتيازات نتيجة لترتيك الولادي.
  - كيف تستدل على ما تريده فعلياً في الحياة.
  - كيف تتغلّب على الاستكمالية الخائفة، وتشعر بالرضى عن نفسك.
  - كيف تتغلّب على الرضّات التي يُصاب بها كل مولود بكر.
  - كيف تستعيد رباطة جأشك بعد الإخفاق.
  - كيف تتخذ الخيارات الصحيحة في مجمل مناحي حياتك.
  - لماذا من الضروري لك عدم إلقاء السلاح.
  - كيف تنمّي علاقات ذات معنى هادف.
  - كيف تتغلّب على الأذى الذي يولّده السلوك العدواني للوالدين عليك.
- ولنتقل الآن إلى الفصل التالي: الكلفة المرتفعة لاحتلاك موقع الإبن البكر.



## الفصل الثاني

### الكلفة المرتفعة لاحتلالك موقع الإبن البكر

يخطر على بالي أحياناً، حين أكون متولياً للإشراف على إدارة حلقة بحث معينة، إجراء تجربة محدودة على مسألة ترتيب الولادة في مسعى لسبر أغوارها واكتشاف حقائق جديدة عنها، وهذا ما يمكنك أنت أيضاً تجريبه في عينات بشرية أكبر، للتحقق فيما إذا كانت نتائجك ستطابق نتائجي.

أتوجه بالطلب من المشاركين، عند نقطة معينة من مجرى حلقة البحث، لأن ينقسموا وفقاً لترتيب الولادة، فيتجمع الأبناء البكر في إحدى الزوايا، والأبناء الوحيدون في زاوية أخرى، والأبناء الوسط في أخرى، والأصغر في أخرى. وأطلب منهم إثر ذلك أن ترتب كل مجموعة من المجموعات نفسها على شكل حلقة.

وأثناء عملية ترتيب أنفسهم في حلقات، أتنقل في أرجاء القاعة، وأضع قطعة من الورق على الأرض في مركز كل مجموعة، مدوّناً على وجه الورقة السفلي الملاصق للأرض، هذه الرسالة: «تهانني! فأنت قائد هذه المجموعة، أرجو منك أن تعرّف نفسك لبقية أفراد مجموعتك، وأن يعمل الآخرون الأمر نفسه، وبعد إجراء حديث قصير فيما بينكم، دوّن لائحة بالخصائص التي يتبيّن لك أنها مشتركة بينكم جميعاً، أعدّ نفسك على نحو تكون جاهزاً لإعادة تلاوة تقريرك لبقية مجموعات حلقة البحث، بحيث يتضمن الصورة الإجمالية المتشكّلة عن مجموعتك. أرجو أن تقلع بالعمل فوراً ودون أي إبطاء».

وبعد الانتهاء من وضع الأوراق على الأرض، أجلس مكاني دون الإتيان بأي فعل، فجلس المجموعات كل في مكانه، متبادلين النظرات فيما بينهم بعصبية، ثم يوجهون بصرهم صوبي في نظرة متسائلة عن اللحظة التي يحين فيها إخبارهم بما يفترض أن يفعلوه، لكنني بالطبع، أمتنع عن الإدلاء بأي إشارة.

وما يحدث عادة أنه بعد مرور وقت غير طويل نسبياً، يبادر أحد الأشخاص في كل من مجموعتي الأبناء البكر والأبناء الوحيدين، يلتقط الورقة من الأرض، وثمة احتمال محدود جداً جداً أن يلتقط أحد أفراد مجموعة الأبناء الوسط، وكذلك أحد أفراد مجموعة الأبناء الأصغر ورقة كل من مجموعتيهما قبل المجموعتين الأوليين، لكن هذا يحصل بندرة المرات التي يتساقط فيها الثلج في مسقط رأسي في تكسون.

والذي يحصل غالباً أن تنغمس مجموعة الأبناء الأصغر والمحبة للعشرة الجماعية، في ثرثرة لاضابط لها، آخذين في التعرف على بعضهم، إلى الحد الذي يجدر بي الوصول إلى افتراض وحيد، وهو أنهم. نسوا كلياً هدف حلقة البحث.

وعادةً ما أنتظر عشرين دقيقة أو ما يقارب ذلك ثم أعلن: «مازال لديكم خمس دقائق للانتهاء من أعمالكم». وإثر هذا التنبيه، تأخذ المجموعات التي تشتغل لوائحها بتسريع إيقاع عملها، في حين أن المجموعات الأخرى إما أن ينظروا إليّ وقد امتنع لونها، كما لو أنني فقدت عقلي كلياً، أو يتجاهلونني تماماً ويتابعون أحاديثهم المتقطعة.

وعندما يصل الوقت المخصص إلى نهايته، وأطلب من كل المجموعات تقديم تقاريرها، من الطبيعي أن يكون الأبناء البكر، والأبناء الوحيدون، جاهزين دائماً لذلك على أكمل وجه، بينما يحاول الأبناء الأصغر المرتبكون مع الأبناء الوسط أن يوضحوا، وهم يضحكون ضحكات متوترة، أنهم لم يفعلوا شيئاً لأنني لم آتين لهم مطلقاً ما كان مفترضاً أن يفعلوه، فلقد رأوني أضع تلك القصاصة من الورق على الأرض، وهذا مما لا يمكنهم نكرانه، لكنهم قدروا أنني سأخبرهم لاحقاً بالغرض منها.

ويبين هذا التمرين الصغير أن الأبناء البكر يتميزون عموماً بأنهم في غالب

الأحيان القادة، وبأنهم الأشخاص الذين يدركون ما يستدعيه أي وضع، ثم الانغماس فوراً في أتون العمل. حيث يتميز الأبناء البكر بالاحتراس الدائم كمن يسير على حذ السكين، وبأنهم جريئون في اقتحام المخاطر. هذا في الوقت الذي يلجأ فيه غالباً لإخوتهم وأخواتهم الأصغر في انتظار إخبارهم بما يفترض أن يكون عليه دورهم بما يجري أمامهم.

ويعتبر أخذ زمام المبادرة نزوعاً طبيعياً أصيلاً لدى الأبناء البكر، وهي الميزة التي تؤدي بهم غالباً إلى احتلال مواقع القيادة (ولاعجب في ذلك، فكما ذكرت في الفصل السابق، فإن من الشائع جداً وجود أبناء بكر بين صفوف رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية، وبين تجمعات بشرية معتبرة أخرى). وإن امتلاك هذه المقدرة الفطرية على القيادة ليس، على أي حال، أمراً مزعجاً بالنسبة للإبن البكر، فهو في الواقع، لا يتضايق من حقيقة أن لأحد سواه يدرك ما يستدعيه أي وضع، ما لم يُشير إليه بنفسه.

لكن ما سيؤدي به إلى الخروج عن طوره، واقع أنه بالرغم من إشارته إلى المشكلة، وتبليانه بوضوح ما يتوجب إجراؤه، يظل مع ذلك كل الآخرين تقريباً واقفين بلا مبالاة، وناظرين إليه بنظرات ساهمة خالية من المعنى، وهازئين أكتافهم تعبيراً عن الاستغراب، حيث سيبدو موقف أولئك الذين أتوا بعد الإبن البكر في الترتيب الولادي، وكأنهم يقولون:

«نعم، أنت محق تماماً، فتحة ضرورة لإجراء معين تجاه هذه المسألة، وأنا أتساءل عن الشخص الذي سيتولى القيام به».

أما الابن البكر فهو ما يفتأ يعطي لنفسه وعوداً على الشكل التالي: «لن أكون من يتولى إجراء ذلك هذه المرة. نعم، إنني أرى أن هناك ضرورة لرمي القمامة خارجاً، لكنني لن أفعل ذلك، فليتول ذلك شخص آخر».

وستمر عليه ثلاثة أيام، وهو يطوف في أرجاء البيت، قائلاً لنفسه:

«لن أرميها خارجاً، رغم أنني أدرك أن الأمر ليس تلك القضية الكبيرة، لكن المسألة مسألة مبدأ».

وستمتلئ بسرعة ملحوظة كل سلالات المهملات في البيت حتى تخومها القصبوى، وتترامى القمامة على جنباتها، وتنطرح على أرضية المطبخ ثلاثة أكياس ممتلئة بالقمامة. ويستمر الإبن البكر في صراعه معانداً ومعانداً. إلى أن يستسلم أخيراً، قائلاً لنفسه: «عجرت عن الصمود أمام هذا الوضع أكثر من ذلك! حسناً، أقّر بعجزى، وسأرمي القمامة خارجاً».

وربما تظنون أن تناولنا مسألة رمي القمامة باعتبارها مقياساً لنمط الشخصية، إنما هو شيء سخيف، لأن القضية مثار البحث، أكبر بكثير من ذلك، وهذا ما يمكنكم إثباته بوضوح. لكن إذا تناولنا المسألة من زاوية المواليد البكر، فإن ما سيبدأ معهم في بداية حياتهم كمسألة ليست ذات قدر كبير من العبء، كقضية رمي القمامة مثلاً، ستأخذ مع الزمن حجماً أكبر، وتستأهل النظر إليها بقدر أعلى من الجدية، بعد أن تترافق معهم إلى ما بعد الزواج، وربما على مدى حياتهم ككل، فرمي القمامة سيصبح مع الزمن تنكّباً للعالم من أطرافه أو على نحو ما عبّر عنه مرة أمامي أحد مُستخدمي شركة طيران أمريكية:

«تدرّبنا على أن نتناول القمامة من الناس، مبتسمين، وقائلين لهم: شكرًا».

فعندما يكون الإبن البكر ما يزال طفلاً بعد، يكون هو في غالب الأحيان تقريباً من ينتبه متى يحين إطعام الكلب، ومتى يترتب تقديم ماء جديد للسّمور، ومتى يُنظّف قفصه، وسيحافظ بنفسه، على الأغلب، على غرفته مرتّبة ونظيفة، ومن الممكن أن يؤدي هذا إلى حدوث بعض المعارك الصاخبة، في حال شاركه الغرفة أحد أشقائه الأصغر والأقل تنظيمًا.

أما في مرحلة الزواج، فسيكون القرين الزوجي البكر، من يدي ميلًا للانتباه متى تحتاج الجدران لطلاء جديد، ومتى يصبح ضرورياً استبدال أثاث المنزل، ومتى يقتضى جزّ العشب، (وسيكون من يترتب عليه الانتباه، متى ينبغي على قرينه إنقاص وزنه عدّة كيلوغرامات، ومتى يُقتضى منه تغيير تسريحة شعره، أو يتوقف عن الثرثرة التي لا طائل منها، وهذا هو السبب الجوهرى لتحوّل الزواج بين شخصين مصنّفين بكرًا إلى قتال مفتوح بدون أي حدود، بيد أن ثقة المزيد حول هذا الموضوع في الفصل الثالث عشر). وتميل الأنثى البكر على وجه

الخصوص، لأن تتحمل كافة الأعباء الزوجية، فهي من ينتطح لأي أمر، ويتوقف كل شيء عليها، وهذا ما يؤدي إلى تكريس طباع اللامسؤولية عند زوجها.

وإحدى هكذا بنات بكر، امرأة تدعى لوريتا، أدّى بها نمط حياة زوجية من هذا النوع إلى أن تُصاب بالإحباط الشديد إلى حد أنها تفكر بهجر عشها الزوجي، الذي عاشت في كنفه مدة خمسة عشر عاماً. ولقد ذكرت لي:

«الرجل كائن لا يمكن تحمّله أبداً، ولقد وصلت إلى قناعة أن أكثر ما يرضيه ويجعله سعيداً، إنما هو أن يجلس بلا مبالاة، غير مكترث برؤية العالم يتقوّض وينهار من حوله».

فاستغربت ذلك قائلاً: «هل الوضع سيء إلى هذا الحد؟!».

- «سيء إلى هذا الحد؟»، أعتقد أن هذا الرجل لن يكثرث لرؤية طرف قميصه يلامس النار ويحترق، ولن يأتي بأي حركة لإطفائه، ما لم أطلب منه ذلك!«.

كان لابدّ لي إثر ذلك من موافقتها قائلاً: «إن ذلك سيء جداً، على نحو لا يقبل الشك».

وأقوت لوريتا أن زوجها يعينها أحياناً في أعمال البيت، وفي متابعة شؤون الأولاد، ولكن كان ذلك يحدث فقط عندما تدفعه دفعاً وتدله على ما يقتضى إجراؤه، ولماذا.

لقد كانت حياة لوريتا تبدو بعيدة كل البعد عن أن تكون أشبه بنزهة، فبالإضافة إلى عملها كسكرتيرة استقبال بدوام كامل في أحد المكاتب، فإنها مشرفة في (مجلس الآباء والأساتذة)، وتخدم كأُم مربية للأطفال الصغار الذين يشاركون ابنها في بيت الطفولة، وكما أخبرتني: «لايجزّ مروج الحديقة أحد غيري، وإذا أتكلت على بوب في القيام بذلك، فلن يتأخر كثيراً ذلك الوقت الذي تستطيع فيه الجمعية الجغرافية الوطنية تصوير أحد أفلامها التلفزيونية الخاصة في حديقتنا الأمامية».

وهكذا تبدو حياة لوريتا كدوّامة لانهاية لها من العمل واللقاءات، ثم مزيد

من العمل ومزيد من اللقاءات، وجزّ المرج، ودهان الجدران، وغسل الثياب، ورتق الثياب، وتنظيف البيت وكنسه، ومساعدة الأولاد في واجباتهم المدرسية، وغيرها وغيرها، فإذا أصيب بالعطب أحد أغراض البيت، فإنها، دون غيرها، إما تحاول إصلاحه بنفسها، أو تكتسّر وقتاً خاصاً لأخذه إلى محل التصليح. أما بوب فإنه يكرّر دائماً عبارات شبيهة بما يلي.

«ما عليك إلا أن تكفّي يدك عن المسألة، وعندها أتولّى أنا لإنجاز المطلوب». لكن لوريتا متيقّنة أنه لن يقوم بالمطلوب. وفي إحدى المرات، أمضت ثلاثة أسابيع بدون غسالة ثياب، ففي كل يوم كان يعد بأنه سيلقي عليها نظرة فاحصة فور توفّر قليل من الوقت لديه، لكن يحتاج المرء إلى طول نفس مديد جداً إذا قرّر إلقاء مسؤولية الاهتمام بالأشياء على بوب في الوقت الذي يبدو عليه الاسترخاء الكامل والسكينة، تستحوذ على زوجته حالة إرهاق شديد مترافقة مع صداد مزمن، ونوبات عسر هضم متتالية. وعندما سألتها عن عدد المجالات المنغمسة فيها، والتي تُعتبر ضرورية بالنسبة لها، على نحوٍ لافكاك منه، بدا عليها في الوهلة الأولى أمارات عدم الفهم، فلقد كان جوابها: «لماذا؟... إنها كلها ضرورية». وهزّت رأسها، ونظرت إليّ بطريقة تدلّ على الحيرة والتساؤل، بحيث بدت وكأنها تقول لي: «ألم تكن تصغي إلى ما أقوله؟».

فقلت: «طيب، ماذا عن بيت الطفولة؟ أضروريّ على نحوٍ لامفرّ منه؟».

- «أنا... آه...».

ولما تبين لي أنها لم تلتقط تماماً الفكرة التي أرمي إليها، قرّرت أن أواصل الضغط عليها بالحاح:

«شيء عظيم أن تكوني أم مربية، لكن ألا تعتقدين أنه عمل يناسب أكثر أمّاً لاتعمل في عمل ذي دوام كامل مثل عمك؟».

- «أظن ذلك، لكن... طيب، كان لابد أن يتولّى ذلك أحدّ ما...».

- «كم عدد الأطفال الذين تشرفين عليهم؟».

- «دعني أعدهم، آه... صحيح، يوجد الآن خمسة عشر».



- «ألا تعتقدن أنه من بين الأربع عشرة أما أخرى، ثمة على الأقل متطوعة أخرى بوسعها الخدمة كأم مربية».

فكرت لدقيقة ثم أومأت برأسها بحركة بطيئة علامة الموافقة، فلم يكن أمامها بد من موافقتي على رأيي.

بيد أنني أردفت: «وماذا عن (مجلس الآباء والأساتذة)؟، أنا أعلم أنها جمعية جيدة، لكن هل من الحكمة بالنسبة لك أن تورطي نفسك في عمل كهذا في الوقت الذي تحفل فيه حياتك بعدد من النشاطات زائدة عن الحد؟».

- «لقد أدركت الهدف الذي ترمي إليه من كل هذا، لكنني أريدك أن تعرف أنها ليست غلطتي أن تكون حياتي على ما هي عليه، فلو أنني استطعت حمل بوب على إبداء درجة أعلى من الاثزان، وقليل من الشعور بالمسؤولية، وقليلاً من روح المبادرة، لكان ذلك سيجعل مني واحدة من أكثر النساء سعادة في العالم».

ولحسن الحظ، أن بوب كان قلقاً على زواجه ويريد إنقاذه، وييدي رغبة شديدة بالتحدث معي عن المشكلة الواقعة بينه وبين زوجته، وكان موقفه يطابق تماماً ما كنت أتكهّن أنه قائم، فلقد شكاً لي:

«إنها تدفعني لأن أخرج عن طوري، فهي لاتدع لدقيقة واحدة أي أمر، دون التدخل به، وهي تتحدث باستمرار عما يُقتضى إجراؤه هنا، وعما يترتب علينا عمله هناك، وفي ظني أنني قد تعلمت جيداً على مدى هذه السنوات كيف أبعد عن المناكدة معها».

وعندما تطرّقنا في حديثنا إلى انغماس زوجته في نشاطات خارجية عديدة، هزّ بوب رأسه، وقال بصوت شبه هامس.

«أتعلم أيضاً أنها تجزّ مرج الحديقة أسبوعياً؟ فماذا تتصوّر حقيقة مشاعري في تلك اللحظة التي تخرج فيها زوجتي إلى الحديقة لجزّ المرج؟ سيظن كل الجيران بالتأكيد أنني أكسل رجل في العالم، لكنها لاتعطيني أية فرصة مطلقاً، لذلك لامفر أمامي من أن أتركها وشأنها».

لكنني تمكنت في النهاية أن أجعله يُقرّ معي على أن اللوم على الحالة التي هما عليها لا يقع بمجمله على لوريتا، فلقد كان ييدي في سلوكه معها نزوعاً للتسوية والمماطلة، ويشهد على ذلك تأجيله إلقاء نظرة فاحصة على غسالة الثياب المعطوبة منذ ثلاثة أسابيع.

يبد أنه أوضح: «لكن معظم سلوكي الذي من هذه الشاكلة عبارة عن رد فعل طبيعي على الدفع الملحاح من قبل لوريتا لي، وكلما ازدادت شدة دفعها لي، كلما أُلقيت نفسي أجزر أقدامي بتشاغل أكبر».

وأضاف القول، إنها أحياناً لاتبدي أي مراعاة لمشاعره. فإذا حدث وكانا في مطعم وأتى النادل إليهما ليسألهما عن رأيهما في الوجبة التي انتهيا منها للتو، فإن لوريتا سترّد فوراً: «أوه، كان كل شيء رائعاً»، في الوقت الذي لا يبدو واقع الأمر كذلك بالنسبة لبوب، فربما يلزم شرائح اللحم المقدّمة له مزيداً من الطهي، أو أنه قدّم له طبق غير الذي طلبه، إلّا أن لوريتا لاتوفر له أي فرصة للتعبير عن رأيه.

وتم التوصل أخيراً إلى الطريقة التي تمكّن بوب ولوريتا من تجنب المشاكل عن تنغيص حياتهما، فلقد وافق بوب على أن يبذل مجهوداً أعلى في إبداء المبادرات، ووافقت لوريتا على أن تحاول التخفيف من درجة توترها، وإراحة نفسها، وأن تسعى بإخلاص للفصل بين ما يلزم إنجازه فوراً ودون أي إبطاء، وبين ما يمكن على الأقل تأجيله لوقت لاحق، وبالطبع لن يكون بوسعها تطويع نفسها على هذا الأمر بسهولة، فهو ليس من طبعها الأصيل، لكنها ستواصل بذل كل ما يمكنها من جهد لتعطي الطرف الآخر فرصة التطوّع لتولّي زمام الأمور أولاً. سواءً على ذلك أن يخرج بوب إلى الحديقة لحزّ المرج، أو أن تتطوّر أم جيمي وليام لمرافقة طلاب الصف الخامس في رحلتهم إلى الريف.

ومضى بوب بالمسألة شوطاً أبعد، ودوّن قائمة بالشؤون البيتية التي سيتولّى مسؤوليتها، وشمل ذلك الإشراف على جزّ المرج، وقال: «ربما لن يكون ذلك أسبوعياً، فهو في الواقع لا يحتاج للجز كل أسبوع، لكن على الأقل كل

أسبوعين» وفُصلت بوضوح واجبات بوب الأخرى. ووافقت لوريتا من قبلها بأن لاتقحم نفسها في هذه المسائل التي أصبحت من مسؤولية بوب، وأن لاتنق<sup>(٥)</sup> عليه أيضاً، إذا وصلت إلى قناعة في لحظة ما بأنه أخلّ بالعقد المتفق عليه بينهما.

واتفقنا على أن يعودا لمراجعتي بعد أربعة أسابيع للكشف عن حالتهم، والتحقق فيما إذا أحرزا تقدماً. وإثر رؤيتي لهما بعد هذه المدة شعرت بالبهجة لأن أجد علاقتهما وقد تحسّنت بمقدار هائل. واعترفت لوريتا بأنه لم يكن يسيراً عليها في البداية أن تنحّي نفسها جانباً، وتنتظر من بوب تأدية واجباته. فلقد حدث في أول عطلة نهاية أسبوع تمرّ عليهما بعد الاتفاق، أن وافق بوب على أن يجرّ المرح في يوم السبت، لكنه لم يفعل ذلك حتى فترة ما بعد الظهر من يوم الأحد، وجعلها الترقّب القلق من الانتظار ليوم إضافي آخر، تكاد تصل إلى حافة الانفجار، لكن قُدّر للوريتا أن تضبط أعصابها، وتتغلب أخيراً على رغبتها الداخلية في أن تسمع آلة جز العشب المكونة جانباً، وقد هدّر صوتها.

إن لوريتا محظوظة بالرغم من كل الذي جرى، بأن تجد في بوب ذلك الزوج الذي أقل ما يمكن أن يقال فيه إنه يفهم طبيعة زوجته، والذي يحاول برغبة صادقة أن يغيّر سلوكه الشخصي الخاص من أجل خاطرهما، فما الذي كان سيحدث لو أن لوريتا لم تكن محظوظة هكذا؟ سترتبّ عليها عندئذ إجراء بعض التعديلات الجوهرية بما يتعلّق بشخصيتها الذاتية الخاصة، ومن ضمنها المسألة التي أرجّح أنها ستصادف أشد المعاناة عند إجرائها، وهي لجم نزواتها الذاتية للاندفاع لإنجاز عمل معين ثمة ضرورة لإجرائه من قبل شخص ما.

فمن الأمور العسيرة، بالنسبة للإبن البكر، إيلاء ظهوره لقدراته القيادية وإبقاؤها مطمورة، بل إن الناس الآخرين أيضاً سينحون في سلوكهم، تلقائياً وعلى نحوٍ طبيعي تماماً، مجرى كما لو أنهم يتطلّعون إليه ليتحمل المسؤولية. وسيكون عسيراً أيضاً بالدرجة نفسها، إن لم يكن أكثر، على الإبن البكر تجاهل تلك المشاعر الحاضرة بقوة في داخله، والتي تدفع به في كل مرة لأن يرى ما

---

(٥) - تنق: (ع) الإلحاح على أمر ما. م.

يجب أن يفعل، ومن ثم تقسره على أن يأخذ المسألة على عاتقه وينجز المطلوب. فإذا ألفت نفسك واقعاً في مصيدة: «إذا لم أفعل ذلك، فلن يقوم به أحد، أو لن يقوم به أحد، أو لن يقوم به أحد على الوجه الصحيح»، فعليك أن تتذكر بادئ ذي بدء بأن تغيير سلوك الآخرين ليس متيسراً لك دائماً، وأكثر ما يتاح لك هو أن تبدأ بنفسك، وإليك عدة خطوات محددة، بإمكان كل مولود بكر أن يتخذها لينتج هذا المظهر لحياته.

## ثماني خطوات للتغلب على المبالغة في الشعور بالمسؤولية

أ - تمزّن على أن تقول لا: يجب على الإبن البكر تعلّم أن يقول لا للآخرين ولنفسه. وإذا لم تكن معتاداً على أن تقول لا، فتدرب على ممارسة ذلك لفترة زمنية معينة. وليس ضرورياً أن يستحوذ عليك الغضب أو الشعور بالدناءة لممارسة ذلك، فبإمكانك أن تكون مهذباً وودوداً، مع أنك تقول لا، بصراحة وقوة لاتترك أي مجال للشك حول حقيقة موقفك.

إذا كنت ابناً بكاراً فمن المرجح أن يُطلب منك دائماً تولّي المسؤوليات، لكنك ستؤدي خدمة عظيمة لنفسك إذا تعلّمت ترداد جملي بسيطة من الطراز التالي: «إني مضطر لأن أقول لا، لأنه ليس لدي وقت حقاً».

«أنا أقدر طلبك مني، لكنني سأقول لا هذه المرة».

«أنا آسف، فليس بإمكانني تحمّل عبء أي مشاريع أخرى في هذا الوقت بالذات».

حتى أن جملة بسيطة مثل: «أنا ممتن لثقتك وطلبك مني ذلك، لكن جوابي هو لا»، ستكون كافية.

وتذكر أنك لست مضطراً لأن تقدّم أي توضيح لأي شخص، فإذا لم يقبل شخص ما الجواب البسيط بـ لا، ومارس عليك مزيداً من الضغط، فذلك هو الوقت المناسب لأن تظهر له جفافاً وتقول له باقتضاب وبأقصى ما تستطيع من صرامة: «لقد قلت لا». وقل، لا، لنفسك أيضاً، كأن تقول: «لا، لست مضطراً لأن أنظف وأرتّب خزانة (جو) اليوم، فهذا عمله، ويمكنه القيام به».

ب - تعلم أن تترك الأمور غير منجزة: وإن تنفيذ ذلك شاق إلى الحدود القصوى بالنسبة لعدد كبير من الاستكماليين البكر فإنهم حين يرون مسألة معينة تتطلب التنفيذ، تتباهم الرغبة بإنجازها الآن ودون أي تأخير.

ولنأخذ على سبيل المثال حالة تلك البنت البكر التي تسير في أرجاء بيتها وشعور بالإحباط يرافقها من أن ترى بقعة أو بقعتين على السجادة، فتلج عليها فكرة: «تحتاج هذه السجادة، في الواقع، إلى غسيل بالمنظفات»، ومن ثم ترى الأمكنة الوسخة العديدة على جدار غرفة العشاء، الخطوط واللطخات السوداء لآثار عدد كبير من الأصابع الصغيرة عليه، وتفكر بينها وبين نفسها: «يتوجب علي أن أطلي هذه الجدران بالدهان من جديد»، وحالما تصل في سيرها إلى الكراج وتدخله، فإنها تضع بين ركام هائل من فوضى الأشياء المبعثرة أمامها هنا وهناك، وعندها تقول لنفسها: «من الضروري أن أجيء إلى هنا وأجري عملية تنظيف وترتيب ممتازة لهذا الكراج»، وتتابع سيرها إلى الفناء الأمامي للبيت، حيث ستتذكر هناك: «يجب أن أجيء إلى هذا الفناء، وأقوم ببعض الترتيب في حديقة زهوري هذه». وإلى أي مكان تذهب إليه، وصبوب أي مكان تلتفت، سترى أموراً وأموراً تحتاج إلى من يقوم بها، وهي تعرف أنها من سيكون عليه تنفيذ ذلك. هل يجري الوضع معك على هذا المنوال تماماً؟، إذا كان الأمر كذلك؛ فيجب عليك أن تأخذي قراراً واعياً، بأن تركزى نظرك بدرجة أكبر على الجوانب الإيجابية من الأشياء، وبدرجة أقل على الجوانب السلبية، وذكرى نفسك دائماً بـ:

«لست عازمة اليوم على رؤية أي شيء، يتطلب مني اهتماماً مباشراً». وبالطبع، لأقصد بقولي إن عليك أن تتجاهلي أي حالة طارئة يمكن أن تبرز أمامك، لكن يجب بذل كل ما بوسعك لئلا تكسبي قائمة طويلة من المشروعات على عاتقك.

ج - انتظر أربعاً وعشرين ساعة قبل أن تهّم بالمبادرة: ذكرت آنفاً أن الأبناء البكر يتمتعون بنزوع طبيعي لأن يمضوا في تحمل المسؤولية إلى حد أبعد من الحد الطبيعي المتوقع منهم، فعندما يجري البحث في أي مسألة عن متطوع،

فإن الإبن البكر، وعلى نحو اعتيادي، يكون على أتم الاستعداد لمواجهة الخطوب، مع أنه ربما يفكر بينه وبين نفسه، وهو ينظر إلى يده ملوَّحة بعنف في الهواء:

«لماذا يا ترى أتولَّى أنا القيام بهذا الأمر؟ فليس لديّ وقت لأن أرافق فتیان الكشفاء لمدة أسبوعين، في رحلتهم إلى الغابة». فإذا كان هذا وصفاً لحالتك، فعليك أن تضع في ذهنك أنك الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يضع حداً لهذا السلوك.

فإذا وجدت نفسك مدفوعاً للتطوُّع للقيام بعمل معيّن أو آخر، فامنح نفسك أربعاً وعشرين ساعةً على الأقل، لتفكر في الأمر ملياً، ولا تصرّح بموافقتك فوراً، ثم تمنى لو كنت أغلقت فمك، بل فكر في الأمر فترة معقولة، وبعدها، وإذا وجدت نفسك مازلت راغباً في التطوُّع فامض قدماً إذن، لكن تذكّر أنك سوف توفّر على نفسك الكثير من المتاعب إذا أثرت تجنّب اتخاذ قرارات اعتباطية ودون أي تمحيص.

ثم أياً يكن ما أنت بصدد القيام به، لاتدع نفسك تتخذ قراراتٍ مستندةً إلى الافتراض «إذا لم أفعل ذلك، فلن يفعله أحد»، فحقيقة أن لأحد غيرك يرغب بالتطوُّع لايعني أن يقع الأمر على عاتقك، فإذا لم يبادر أحد بالتطوُّع، فسيجري اختيار شخصٍ ما للعمل، ومن المحتمل أن لايقع الاختيار عليك.

د - تعلّم أن تجهر بما في نفسك: لست مضطراً أبداً لأن تستشيط غيظاً وتعاني بصمت وخنوع، فإذا كان أفراد أسرتك يعتمدون عليك دائماً في تولّي جميع الأمور، فاجعلهم يعرفون أن التعب بدأ ينال منك، وأنت تترقّب منهم من الآن فصاعداً، تولّي نصيهم العادل من المسؤوليات، واكتب قائمة بالأمور التي تتولّى مسؤوليتها عوضاً عن قرينك الروحي أو عن أولادك، وحاول جدياً إجراء تخفيض ملموس عليها.

أعرف امرأة تقضي في سيارتها الصغيرة الصفراء زمناً أطول من الزمن الذي تمضيه في بيتها، وذلك لسبب وحيد، وهو أنها تنقل الأولاد القاطنين في جوارها في توصيلات متتالية من هذا المكان إلى ذلك المكان، ومن ذلك

المكان إلى آخر. وهكذا، وبطبيعة الحال، ليست سيارتها سيارة أجرة، لكن الناس كما هو باد يتعاملون معها على أنها كذلك.

وإذا كنت تعمل في مكتب يظهر زملاؤك سروراً ورضاً عن توليك أكرية شؤونه، فعليك أن تتحدث معهم بوضوح وإخطارهم أن هذا الوضع غير عادل، وأنتك لن تتكفل بعد الآن بأي عمل عوضاً عنهم. فليس عدلاً أن تتولّى العمل في أربعة أو خمسة مشاريع دفعة واحدة، في حين أن زملاءك في العمل لا يعملون إلّا في مشروع واحد أو مشروعين فقط. ولاتردد في طرق باب مكتب مدير العمل، لإيضاح الحالة له، ولطالبته بتوزيع متساو لعبء العمل.

تذكّر، أن الناس سيتركون عليك في إجراء أي عمل كان، ماداموا يعرفون أنك على استعداد دائم للقيام بأي أمر. وربما تقدّم توجيهات مدير عمل مارتا صورةً عن ذلك بقوله:

«آه، كلّف مارتا بتلك المهمة، فهي كفء حقيقي للقيام بذلك، وهي أيضاً من النوع الذي يؤثر أن يبقى دائماً مشغولاً». فهو لا يعرف أنها مخنوقة بضغط العمل، ومثقلة بما هو فوق طاقتها من أعباء، ما لم تقل له بنفسها حقيقة وضعها بالضبط.

وينسحب الأمر نفسه على ما يجري معك مع أفراد أسرتك، فالطريقة الفضلى لك لأن تدفع الآخرين للشروع، برضى في أداء نصيبهم من العمل، هي أن تخبرهم بما يعمل في صدرك من مشاعر حقيقية تجاه الوضع.

هـ - إسع لأن تخفّف من ذأبك على الاهتمام بالتفاصيل: وهذه خطوة أخرى، لاتتطبق سهولة اتخاذها قولاً في غالب الأحيان، تحقيقها فعلاً، لكنها مع ذلك ممكنة التحقق. فلدى المولودين بكرةً، ميلٌ فطري للدقة والصرامة، فإذا أراد أحدهم إجراء مشوار في سيارته، فإنه يلجأ عادةً إلى فتح خريطته، ويخطّ عليها المسار الأقصر لدربه، والأكثر توفيراً للوقت. وإذا أراد سقي مرج حديقته، فإنه يحاكم الأمر في ذهنه بدقة، ليصل إلى المكان الأفضل الذي يجب أن يضع فيه رشاش الماء، ليحقق أقصى قدر من الفعالية لعمله.

وأختصر حديثي بالقول إن المواليد البكر أساتذة كبار في متابعة التفاصيل. ويمكننا عموماً اعتبار ذلك ميزة جيدة للإبن البكر، إلا أنها في الآن نفسه طريقة فقالة أيضاً لأن تؤدي بك وبالأخرين إلى الخروج عن طوركم، فالتناس سيتركلكم عليكم دائماً، أنت البكر، في تنفيذ جميع الأمور، لأنهم يعلمون أنك الشخص الوحيد الذي يستطيع إتمام أي عمل على نحو يتطابق مع مقاييسك الدقيقة.

فلنأخذ الحالة التي يتولّى فيها ابنك عملية جزّ المرج في الحديقة، مع العلم أنك كنت تأتي إثره، وتعيد إنجاز العمل ثانية، لأنه لم ينفذه بالطريقة المطابقة تماماً لما تريد أن يتم بها العمل، فإنه عندها سيتكوّر على نفسه محبطاً، ويفقد الرغبة بتولّي ذلك مرة أخرى، وكذلك في الحالة التي اعتادت فيها ابنتك على ترتيب سريرها، مع العلم أنك كنت تأتي عقبها مباشرة، وتلخبطين كل نتائج عملها، وتعيدين ترتيب السرير ثانية، فإنها ستصل إلى اتخاذ قرار بأن تدعك لاحقاً تتولّين دائماً إنجاز الأمر بنفسك.

فلماذا يضيعون، بعد ذلك، وقتهم وجهدهم في القيام بعمل ستعود حتماً لتكراره بنفسك، بما يتوافق مع مقاييسك الخاصة.

وأنا لا أقصد القول، بأن تلجأ إلى التغاضي عن الأخطاء، وإلى ترك العمل المنجز على عواهنه يمضي دون أي اعتراض منك. فإذا قامت ابنتك بترتيب سريرها بضربة وخبطتين، وانتهت منه بهيئة نوحى بأن شخصاً مازال نائماً فيه فتمة حاجة في هذه الحالة لإعادة ترتيبه ثانية، لكن يُفضّل ألا تفعل ذلك بنفسك، بل يئتي لها مرة ومرات طريقة ترتيب السرير التي تأملينها منها، فإذا حاولت جدياً لاحقاً بذل طاقتها القصوى لأداء ذلك على النحو الأمثل، وانتهت إلى نتيجة قريبة بحدود معينة لما تريد، فاقبلي منها ذلك واكتفي بهذه النتيجة. وإذا انتهى، من ناحية أخرى، ابنك من عملية جزّ المرج، بنتيجة مزرية، مبقياً المرج على هيئة مساحات وخطوط عشوائية غير منتظمة، فيمكنك التعبير عن عدم قبولك واقع الحال هذا. لكن ثمة فرق كبير بين التعبير عن أن عملاً لم يتم على النحو الصحيح وفقاً لمقاييس جميع البشر



وبين المبالغة في التدقيق في أدق التفاصيل. فإذا كنت ممن يبالغ في ذلك، فتلك علامة مؤكدة على أن من حولك سيعزف عن العمل سواء من أجلك أم عوضاً عنك.

أتتني مرة امرأة من هذا النموذج، وكانت تبالغ في التفاصيل إلى حد أنها لجأت إلى قياس كل أبعاد مفروشات بيتها لكي تعرف بالضبط كيف وأين يوضع كل غرض منه، وبكلمات أوضح إنها تعرف أن هذا الكرسي يقع على مسافة خمسة وثلاثين إنشاً من خزانة الثياب، والتي تبعد مسافة أربعة إنشات عن الجدار... وهكذا. أيمكنك تخيل ما يمكن أن تكون عليه حياة هذه المرأة؟!، وخصوصاً حياتها الجنسية! ومع عدم توقّر حيز كبير للعفوية هنا. وخاصة إذا أضفنا أنها كانت من نوع النساء التي تكوي مناشف الحثام (وبالصدفة، وفي زيارة حديثة العهد لها ومعني أختي سالي، قبضت عليها وهي تكوي صفحات كتاب للطبخ كان قد وقع في مصرف المغسلة وتبلل في الماء، وكانت مصممة على جعل كل صفحات الكتاب مستوية تماماً).

ولابد لي من الإقرار أن المراجعة هذه، إنما هي مثال جدّي عن الحالة التي نتحدث عنها، لكن ذلك هو المآل الذي يمكن أن تصل إليه في نهاية المطاف، إذا لم تتعلم كيف تقلع عن الاهتمام المبالغ به في التفاصيل الصغيرة.

وأتتني مراجعة أخرى، كانت تتشكّى من عدم بقاء أي وقت لديها للاهتمام بشؤونها الخاصة، فهي تستنزف كل وقتها في الاعتناء بأولادها. وعندما اقترحت عليها أن تجد مربية جيدة، ليتسنى لها تمضية بعض الوقت وحيدة مع زوجها، قالت: «آه، صدقني، أنا مرهقة لكنني لم أستطع إيجاد أي واحدة تطابق المواصفات التي في ذهني».

فهي تدقّق في كافة التفاصيل بالمربية المنتظرة، إلى الدرجة التي لن تصل أيّ منهن إلى مطابقة ما في ذهنها من مواصفات، وهكذا يتبين لنا أن جميع «مشاكلها» المفترضة ليست إلا من صنع يديها.

ح - تعلم أن تصبح أكثر تقبلاً للآخرين: وهذه الخطوة ينطبق عليها تماماً كل ما قيل عن ضرورة تخفيف حدة دأبك على الاهتمام بالتفاصيل، فإذا كنت

ترغب بجزء المرج مرة واحدة كل أسبوع، لكن قرينك الروحي يرى أنه يكون كافياً القيام بذلك مرة واحدة كل أسبوعين على الأقل، فعليك أن تروض نفسك على قبول مقاييسه المعيارية. وإذا كانت غرفة ابتلاك تغرق دائماً في حالة من الفوضى العارمة، وتجدين نفسك باستمرار مضطرة لإعادة ترتيبها وتنظيفها في إثرها، عندئذٍ أجري اتفاقاً معها يضمن مصالح كلا الطرفين، وذلك، بأن تتعهد بترتيب وتنظيف غرفتها مرتين في الأسبوع، على أن تكفي عن النق(\*) عليها في غير هذه الأوقات، حين لا تكون غرفتها مرتبة. وهكذا تتعلمين قبول مقاييسها المعيارية الذاتية (وبالطبع، يظل هذا الاتفاق سارياً بينكما شرط عدم تجاوز حدود معينة، فإذا دعيت خوري الاعتراف لزيارة بيتكم، ورفض دخول غرفتها لأن صك التأمين الذي يكفله في عمله لا يسمح له بهذا، فيحين عندئذٍ الوقت الذي ينبغي عليك فيه إعادة معالجة الوضع).

وإذا لم ينجز زميلك في العمل التقرير المكلف به، على النحو الذي ترى أن العمل يجب أن يتم وفقه، تذكر أن ذلك في الواقع ليس شأناً من شؤونك. ففي الوقت الذي يجب عليك أن لا تحجم أبداً عن تقديم النصائح له إذا طلب منك ذلك، لا يوجد أي مبرر على الإطلاق لأن تشعر بأنك ملزم أبداً بإنجاز العمل عوضاً عنه.

يجب أن لا يغيب عن ذهنك أبداً، خدمة لمصلحتك وراحتك الشخصية، أنك لست ضابط شرطة للعالم المحيط بك، وأن ترقبك من الآخرين مجازة لمقاييسك المعيارية الصارمة، إنما هو مسألة لاجدوى منها، وأن إخفاقهم في ذلك لا يستب لك ضرراً.

أنا من الناس الذين اعتادوا على الاستمتاع بمشاهدة أفلام رعاة البقر الأمريكية مثل «الحارس الوحيد» و«القناص» وأشباههما، وكنت دائماً أشعر بالدهشة من مشاهدتي للبطل في هذه الأفلام، وقد تلقى رصاصة في مقدمة صدره، بيد أنه يتابع سيره قائلاً: «وضعي بخير، فالمسألة ليست إلّا جرحاً في اللحم». أو يُطلق عليه النار على مؤخرة رأسه ومن مسافة تسديد قرية،

لكنه، مع ذلك، يبقى بخير لأن الرصاصة «خدشت جمجمتي فقط!». حسناً، عليك الآن أن تضع في ذهنك، وفي أي وقت يخذلك شخص، أو يفشل في رفع مستوى حياته بما يجاري معايير الذاتية، بأن المسألة «ليست إلا جرحاً في اللحم!» وأن الحياة ستستمر بل يجب أن تتابع سيرها!

ط - خصّص وقتاً للاسترخاء والراحة: تعلم أن تخصص وقتاً للترفيه عن نفسك. ثم بدلاً من أن تسأل نفسك: «ماذا يجب أن أفعل اليوم؟»، اسأل نفسك: «ماذا أريد أن أفعل اليوم؟».

ربّما تختار مكاناً هادئاً لتمضية يوم في قراءة كتاب، أو ربما تجد شيئاً من كسر الرتابة في ارتداء جزمك المطاطية ذات الساق الطويل، وتخرج لاصطياد السمك الملوّن المرقط. وباختصار خصص وقتاً لإتيان ما تعتقد أنه سيحدّد روحك، ويعيد شحن قدراتك الداخلية.

فالأبناء البكر من الناس المعروف عنهم الاندفاع الجارف إلى الأمام بأقصى ما بوسعهم، يتمتّعون بقبالية غير عادية على الضغط على أنفسهم، وإثقالها بجهود تتعدّى قدراتهم الطبيعية.

ولقد جاء إلى عيادتي بهدف الاستشارة عدد كبير من الأبناء البكر، ممّن داهمهم شعور بالذنب جرّاء تنفيذهم عملاً ظريفاً يروّحون به عن أنفسهم، وكان يستحوذ عليهم أيضاً شعورٌ ضاغط بأن عليهم أن يثابروا في كدّهم واجتهادهم لإحراز تقدّم في وضعهم، وحصد المزيد، من المآثر والإنجازات، وبأنهم إذا لم يحققوا ذلك سيعتبرون أنفسهم كسالى واتكاليين، فهل هذا غير هراء خالص؟!، حيث إن أحد أفضل ما يمكنك فعله، وفيه خدمة لنفسك وللآخرين المحيطين بك، هو أن تروّج عن نفسك بمسألة ظريفة معيّنة.

ي - لا تَضَعَنَّ في عنقك طوقاً لا يمكنك نزعُهُ إلا بشقّ النفس: إن تحديد أهدافك وغاياتك، وتنظيم لوائح بأولوياتك، إنما هو أمر إيجابي، وسيكون ذلك عوناً لك في حياتك، لكنه سيتحول إلى أمر سلبي عندما تصبح حياتك محكومة

كلياً بلوائحك وأهدافك هذه، فيجب أن تترك لنفسك قدراً من المرونة، وألاً  
تبالغ في أسر نفسك مسبقاً.

جاء إلى عيادتي عدد من الأشخاص ممن كانوا ينظمون لوائح من طراز  
«لأَعْمَلْ» هذه، ولكن مع تقليص وتشديد لبنودها، وذلك بتوزيع البنود  
المدونة عليها على مدى عدة أيام من أيام روزنامتهم، وأعتقد أن تلك فكرة  
جيدة، لكنني أنصح أيضاً بترتيب يوم واحد في الأسبوع حري من الالتزامات،  
لكي يتدارك المرء فيه أموراً عجز عن إنجازها فيما مضى من أيام.

أخيراً، عليك أن تتأكد من أن لوائحك تعمل في خدمتك، لا أن تكون الآية  
معكوسة.

## لكنني لا أرغب مطلقاً بلعب دور النموذج المثال

إن كونك الإبن الأكبر يمكن بالتأكيد أن يتحول إلى عبء، فحياتك قد  
تكون ثقيلة الوطأة عليك، ليس لأن أخوتك وأخواتك يترقبون منك أن تكون  
مثالاً ساطعاً، وقدوة لهم في حياتهم فحسب، بل إن ذلك يعود أيضاً إلى مشكلة  
من المحتمل أن تلازمك دائماً، وتؤدي إلى تكييلك وإرباكك على نحو مزعج  
جداً أحياناً، ألا وهي إلزامك باصطحاب أحد أشقائك معك أينما ذهبت.

«مادمت عازماً على الخروج من البيت يا مارك، فلماذا لاتأخذ أخاك  
الصغير معك؟».

«لكن ماما... لديّ موعداً».

«ذلك شيء ظريف يا عزيزي.... أنا متأكدة أن جيمي سيحصل على  
وقت ممتع».

وهكذا يحدث أن تمضي في طريقك صوب موعدك الأول مع بنت  
استثنائية جداً، بعد أن احتاج الأمر منك ثلاثة أشهر كاملة لامتلاك الجرأة الكافية  
لأن تطلب منها ترتيب موعد معك، والتي لم تكن تحلم مطلقاً بأنها ستجيبك  
بالموافقة على ذلك. ولكن ها أنت تختتم كل ذلك بإجبارك على جرّ أخيك

الصغير معك، الأمر الذي لن يخلف لديها بالتأكيد انطباعاً إيجابياً، وأسوأ ما في الأمر أنه لن يكون بوسعك إحاطة كتفها بذراعتك، عداك عن أن تختلس منها قبلة، لأن سلوكك أمامه يجب أن يتحلى بأكمل صورة، باعتبارك تجسّد دور النموذج المثال!

ومن الممكن أن تكون أيضاً بصدد الخروج من البيت لخوض مباراة حامية في كرة القدم مع ثلّة من الأصدقاء.

- «جودي، أينما كانت وجهتك، أريدك أن تصحب ليذا».

- «لكن ماما.... أماننا مباراة هامة اليوم».

- «أنا متأكدة أن أحتك ستكون شغوفة بمتابعة مجريات المباراة حسبك التفكير في الوقت الممتع الذي ستمضيه».

وها أنت هناك في المباراة الكبرى، مجبّر على ألا ترفع عينيك عن أحتك ليزا ذات الستة أعوام، وتحاول أن تلعب في المركز المخصص لك في اللعبة، لكنك لاتكون في المستوى المطلوب لأنك تشعر بالقلق على أحتك الجالسة هناك فوق المدرجات. أوه لا، إنها تأكل الوسخا «ليزا كفي عن ذلك!»، وتنشغل كثيراً بهذا الصراخ من بعيد عليها، إلى حد أنك لاترى الكرة وهي تتدحرج صوبك ثم تتابع مسارها من أمامك وتتخطاك. ... انتبهي!... تكاد ليزا أن تتلقى خبطة على رأسها بهذه الكرة الحمقاء! وسيكون هذا كافياً لك لأن يجعلك تزعق، لكن النموذج المثال البكر لا يزعق إطلاقاً!

ويحدث من جهة أخرى أن يمضي عدد كبير جداً من الأبناء البكر وقتاً طويلاً جداً قد يستغرق مدى الحياة، وهم أسرى حالة من الاهتمام، البالغ بالأثر والانطباع الذي سيخلّفونه عند أخوتهم وأخواتهم الأصغر، إلى الحد الذي يؤدي إلى وقوع قسم منهم في حالة من الضجر والإشباع من سعيهم للاحتفاظ بصورة الكمال، وهذا ما يؤدي إلى نكوسهم على رؤوسهم وغرقهم في تعاطي كل أنواع الرذيلة، سواء المخدرات أم الكحول أو العلاقات الجنسية المنفلتة. حيث يتتابهم إحساس بأنه لم تُنح لهم فرصة حقيقية، ليعيشوا حياة تلبي رغباتهم

الذاتية، لذلك سيقول الواحد منهم لنفسه: «سأمارس الموبقات، وليكن ما يكون الأثر الذي سيخلفه ذلك عند الآخرين»، ثم لا يحدون أبداً عن هذا الطريق الذي اختاروه كعمر مباشر وسريع صوب حتفهم. فهم قد يظنون أنهم بانغماسهم في حياة التهلكة والخلاعة، سيتحررون من مشاعر المرارة التي كانوا يحسون بها لأن آباءهم كانوا يريدونهم أن يرهقوا دائماً في سلوكهم عن أنهم نماذج قدوة، في حين أنهم بالطبع ليسوا كذلك.

ويعيش أبناء بكر آخرون مجمل حياتهم وهم مخنوقون ومكبّلون لأنهم لا يرغبون بإتيان أمور يمكن أن تؤدي إلى مضايقة أي شخص آخر، لكن ينتهي الأمر هنا أيضاً بشعور الامتعاض والمرارة يجيش في الأعماق، لأنه «لم يُسمح لي أبداً بأن أكون أنا كما أنا»، وتواجه هذه النماذج (المحترفة) من المثل، على الغالب، مشكلة الشعور بالذنب أيضاً، لأنهم يعون أنهم ليسوا حقاً بالسوية التي يتظاهرون بأنهم عليها.

وعلى سبيل المثال، أتذكر دانا، تلك المرأة الشابة المفعمة بالحياة والنشاط، والقرية من القلب، والتي باحت لي أثناء معائتي لها بما لم يكن بوسعها البوح به لأي شخص آخر، فلقد قالت لي باختلاجات نفس مضطربة، وهي تنسج بالبكاء:

- «أنا مجرّد واحدة دجالة».

- «ماذا تقصدين؟ كيف لك أن تكوني دجالة؟».

- «في كل شيء!».

وأردفت بأنها مشوّشة جداً في حياتها، لأنها لاتعرف في أيّ من جوانبها هي أصيلة حقاً، وفي أي جوانب هي مجرّد امتداد لـ «عملها» كنموذج مثال. فلقد كانت واحدة من النساء البكر النادرات اللاتي استطعن أن يجارين آمال آبائهن فيهنّ في كل الحقول والميادين. فلقد كانت طالبة متفوقة، ومملكة جمال، وعازفة موسيقية بارعة، وهي الآن متزوجة ولها طفلان جميلان، لا يصدر عنهما أي سلوك غير مرغوب فيه، إضافةً إلى أن زوجها مغرم بها جداً، ثم إنها أنيقة

الملبس، وشعرها مصفّفٌ بعناية دوماً، وهي في الحقيقة ثوائم في لباسها وتسريحتها مع ما تظهره صفحات مجلات أزياء آخر تقليعة. ويستحوذ على صديقاتها أيضاً، شعور بالإعجاب من تلك الوجبات الرائعة التي تعدّها، وكيف تحافظ دوماً على بيتها في حالة مرتّبة جداً. وهي أيضاً تعطي دروساً دينية في كنيسة حيّهم، ويكنّ لها كل الناس إعجاباً بإيمانها العميق البادي على وجهها. وحين تصادف إحدى نساء الحي أو واحدة من رعايا الكنيسة مشكلة معينة، فإنها تهرع إلى دانا، باعتبار أنها تعرف دائماً ما يُقتضى إجراؤه بالضبط.

لكن هذا كله دجلٌ، أو هذا ما تظن به دانا، على الأقل، فلقد قالت والدموع تسيل من مقلتيها:

«إن بوسعي تلاوة الإنجيل من أوله إلى آخره، لكنني لأعرف على وجه اليقين ما أنا مؤمنة به حقاً من هذا الكتاب...، وإني أيضاً أشتبك مع جيرى في معارك تؤدي إلى إزعاج كلينا، وإن زواجنا لا يمضي في وئام كما نرغب بأن يظن الناس، وإني أخاف من أن يصل ذلك إلى أسماع أي شخص آخر... يلجأ إليّ الناس، لتقديم كل أنواع النصائح والمشورات لهم، لأنهم يعتقدون أنني معين لا ينضب من الحكمة... لكنني أعرف جيداً نفسي، وما أنا عليه على أرض الواقع».

ووصل شعورها بالذنب إلى درجة حادة جداً، إلى حد أنها فقدت متعة النوم الهانئ. ووصفت نفسها بأنها «مثل السيارة المستعملة التي تبدو رائعة الشكل من الخارج، لكنها مصابة بكل ما يمكن تصوره من عيوب في بنيتها الداخلية». وإن تمثيليتها الدائمة هذه بهدف إخفاء حقيقتها، جفّت كل مصادر المتعة التي يمكن أن تحصل عليها في حياتها.

وكلما استرسلت دانا في الحديث عن مشاكلها، تبين لي أكثر فأكثر أن تلك المشاكل ليست أكثر خطورة في الواقع من تلك التي نواجهها جميعاً، لكن ما هو مختلف في حالتها، أنها ترتاع من أن تبدو على حقيقتها، لأنها لا تريد أن تتيح للآخرين أي فرصة للخط من قدرها، أو أن تخبّ أمل أي شخص فيها.

وما لا تدركه دانا، وما لا يدركه كثير من الأبناء والبنات البكر، أننا جميعاً نلعب دور النموذج المثل بشكل أو بآخر. وإذا اختارك الناس نموذجاً يتطلعون لمجاراته، فلا توجد أي حيلة لمنهم من ذلك، لكن بوسعك ألا تدع آمالهم فيك تُثمي عليك مسار حياتك. وثمة حكمة قديمة، مازالت حتى اليوم صالحة، تقول: «أفضل طريقة لأن يكسب المرء نفسه، أن يكون كما هو». لكن لكي تكون حقيقياً مع نفسك، عليك أن تعرف ما أنت عليه حقاً.

وصار بوسع دانا في النهاية، اكتشاف أنها تعيش في كنف زواج له حظ كبير في النجاح والتوفيق، فمع أن حياتها مع جيرى لا تخلو من المشاكل، إلا أنهما قادران على تذليلها. وأنها مؤمنة إيماناً حقيقياً وعميقاً بالرب، وبكل ما رمى إليه الكتاب المقدس، وبكل تلك المواعظ التي كانت تعلمها، ولم تعد تأتيها تلك الأحلام في الليالي. وصارت تحس بضرورة الحصول على يوم عطلة أسبوعي من التعليم، وتخصيص وقت للدراسة والتأمل الروحي، وبالطبع، الصلاة في اللحظات التي تخوض فيها غمار التجربة المؤلمة من فصل الزيف والدجل عن الحقيقي. أما الخطوة الأكبر التي اتخذتها دانا، فهي توقعها عن السعي نحو الكمال. حيث وافقت أخيراً على القيام بتسوقها الأسبوعي دون إجراء عمليات تحميل لوجهها، وبدون تصفيف شعرها، رغم أنها تمتمت عن ذلك في البداية. وربما تبدو هذه الخطوة وكأنها لا تستحق إيلاءها هذه الأهمية الكبيرة، لكنها مثلت من الناحية الواقعية اختراقاً جوهرياً في نمط سلوكها، لأن دانا لم تذهب إلى أي مكان دون تزيين شعرها بتسريحة أنيقة، وتزيين وجهها على نحو يتناسب معها تماماً. وما ذلك كله إلا جانب من الوهم الذي كانت تسعى لتكريسه والتمن الذي كان عليها أن تدفعه لتمثل دور النموذج المثل المفضل لكل الناس.

وأوضحت لي دانا لاحقاً، بأن الأمر بدا لها في دكان البقالية، كما لو أن كل الناس ينظرون إليها، وانتابها إحساس «وكأنني تقريباً عارية من ثيابي»، وأنها ألقت نفسها مدفوعة بالحاح لأن تغطي وجهها بيديها، بهدف الاختباء خلفهما، لكن بعد مرور فترة زمنية معينة، تبين لها أن الناس لا يحدقون فيها، بل ربما لم يخطر في بالهم عندما وقع نظرم عليها أنها السيدة الكاملة، ولا كانوا يفكرون



بينهم وبين أنفسهم عندما كانوا ينظرون إليها: «أتحملين ترهات من هذا النوع؟»، كيف يمكن الاعتقاد أن إنساناً بوسعه المجيء إلى شارع سيفوي<sup>(\*)</sup>، دون أن تصوب أي عين نظرها عليه!.

وجدت دانا نفسها تسترد شيئاً فشيئاً، ثقته بنفسها، في أن تكون كما هي عليه، بدلاً مما يأمل أو يريد منها الآخرون أن تكون.

فإذا كنت أحد هؤلاء الأبناء البكر ممن يقعون في فخ تقمص دور النموذج المثال في كل ما يصدر عنهم من تصرفات، فإليك أربع خطوات محدّدة، أعتقد أن بوسعك القيام بها لكي تستردّ كسب حريتك من جديد.

## أربع خطوات لكي تكسر طوق دور النموذج المثال

1 - اكتشف نفسك وما تريده حقاً من الحياة: ولتبدأ ذلك بإعادة بعض الوقت لنفسك، حيث تجري في عملية تدوين سريع لبعض التصورات عن نفسك. ما الذي تحبه في نفسك أكثر من أي شيء آخر؟ ثم أقل من أي شيء آخر؟ ومتى تكون في أسعد حال؟ وما هي أهدافك البعيدة المدى؟ هل يصدر عنك تصرفات لا ترغب بها في حقيقة أمرك، لكن الناس الآخرين هم من يترقّب منك إتيانها، ولا تخش أثناء إجرائك ذلك من أن تضع نفسك عند المشرحة، ولا تخجل من ذلك، أو تهوّب من الصدق مع نفسك حتى درجة الإيلام؟ وضع في ذهنك أن كل مشكلتك ربما تنحصر في أنك منشغل في لعب الدور الذي يرغب به أي شخص آخر غيرك، إلى درجة أنك لا تعطي إطلاقاً أي أهمية أو اعتبار لما تريده أنت من الحياة حقاً، فابدأ منذ الآن بإعادة الاهتمام لذلك.

2 - لا تهتم كثيراً بما يفكر به الآخرون تجاهك: يشعر الأبناء البكر غالباً، وكأن عليهم أن يكونوا الشخص الأكثر ذكاءً، في أي وسط، أو الأجل أو الأكثر أناقة وتهذيباً أو أي صفة فضلى أخرى تخطر على بالهم. لكن عليك أن تعلم

(\*) - سيفوي: طريق آمن = Safeway.

أن الناس الوحيدين الجديرين بنيل صداقتك، هم أولئك الذين يحبون ما أنت عليه ويحترمون ما أنت عليه. وأنت إذا أعجب بك الناس لأنهم يعتقدون فقط أنك الأحسن مظهراً أو الأكثر نجاحاً؛ فإنهم في هذا يكونون تصوّراً افتراضياً ضحلاً عن شخصيتك.

3 - تعلم أن تضحك على أخطائك: وبكلمات أخرى، خفف من قدر الجدّة التي تتعامل بها مع نفسك. لكن ما هو السبيل لإجرائك ذلك؟ إن ذلك يتحقق عبر إدراكك أن كل الكائنات البشرية ترتكب أخطاءً، وأنك - بمعزل عن كل ما قيل ويُقال - مجرد كائن بشري! وعندما ترتكب حماقات غبية، حاول أن تبسم، وتعامل مع المسألة على أنها طبيعية تماماً، حتى لو أكرهت نفسك في البداية، وأتى تصرفك بشكل غير عفوي، فستكتشف بعد فترة من الزمن أنك تخلصت تقريباً من مشاعر القلق التي كانت تتأبك للوصول إلى الكمال (وهذا مما لا يمكن بلوغه بأي حالٍ من الأحوال) على النحو الذي اعتدت عليه سابقاً

وقد تشعر كما لو أن الناس يلتفتون صوبك، أو أنك تخيّب آمال الآخرين فيك عندما ترتكب حماقة معينة، لكن المسألة ليست كذلك من الناحية الواقعية، بل إنك وعبر تقبّل الأمر بشجاعة، وعبر امتلاك حس الفكاهة والمرح في التعامل مع أخطائك، سيفكّك مساعدة الآخرين على التحرّر من إسار التفكير بأن عليهم أن يكونوا كاملين. ويمكنني القول إن معظمنا محظوظ في أن أخطأنا لاأذاع في نشرات الأخبار كما يحدث عندما يُضبط نائب في الكونغرس متورطاً في فضيحة، أو عندما تعترض نجماً سينمائياً مشكلة تعاطيه للمخدرات. وأن أخطأنا كذلك لاؤطر ضمن لوحة تسجيل النقاط في الصفحات الرياضية ليراها كل العالم، وهو ما يُعتبر مشكلة يصطدم بها كثير من الرياضيين المحترفين.

وهكذا فإنك حين تعالج أخطائك ذهنياً بهذه الطريقة، ستجعل معالجتها تتم على نحو أكثر يسراً.

4 - فكّر ملياً بنقاط القوة التي يوفرها لك دور النموذج المثال: إن قيامك بدور

النموذج المثال، يسبب لك بالتأكيد وفي مرات كثيرة عسراً في الهضم، لكن الأمر كذلك بالنسبة لكثير من الأشياء المفيدة لك مثل السبانخ وزهر القرنبيط. وبكلمات أخرى، إن رؤية نفسك مجبراً على أن تكون بمستوى مقاييس معيارية رفيعة وضعتها لنفسك، ولو بشكل زائف وغير حقيقي، إنما هي مسألة مفيدة على طريق دفعك لتطوير شخصيتك، وتطوير مهاراتك وقدراتك. فلو حدث أن لم يترقب منك أحد مطلقاً أمراً معيناً، فإنك وبدون أي ريب ستعبر السبيل الأسير والأكثر تمهيداً لتحقيق هذا الذي لم يترقب منك. لكنك أفضل حالاً من ذلك وبمعاني كثيرة لأنك ببساطة مدفوع بقوة خارجية لأن تنجح. أخيراً أقول إنه من سوء حظك أن يترقب منك دائماً أن تكون مضرب المثل في التفوق لأولئك الذين يسيرون على هدي خطاك على دروب الحياة. لكنك، ستقدم خدمة جليلة لنفسك إذا لجأت إلى التأمل في النعم الإيجابية التي توصلت لها جراء ذلك، جنباً إلى جنب مع المشاكل التي ولدها لك ذلك.

#### صورة توضيحية رقم (4)

هل تعتبر نفسك مجرد ونيلية (فانيلا) في عالم حافل بواحد وثلاثين نوعاً من المنكهات؟، إذا كان الأمر كذلك، تذكر أن طعم الونيلية لا يزال النكهة الأكثر شعبية في العالم!



## الفصل الثالث

### كيف أغفر لوالدي؟

جلست ساندرا أمامي وهي متكوّرة على نفسها، ويدها مراكوتان في حجرها، ونظرها مثبت نحو الأرض، بينما كنت أنتظر متابعة كلماتها الأولى. وبعد برهة من الزمن ردّت جذعها إلى الخلف، وصوّبت نظرها نحو السقف، وتنهّدت تنهيدة عميقة، ثم استأنفت حديثها أخيراً بالقول: «يُخيّل إلي أن الأمر سيبدو كما لو أنني إنسانة سيئة السيرة جداً، أقصد... أن والدَيَّ شخصان طيبان فعلاً، ويريدان لي دائماً أن أعيش حياتي على أكمل وجه، لكن المسألة على وجه الدقة ليست إلّا.... حسناً، إنها كما لو أنهما يحرصان على أن أبقى مقيدة دائماً برسن، وهو رسن قصير جداً في الواقع، وعندما يظنّان أنني أفكر مجرد تفكير بالقيام بخطوة خاصة بي على نحو مستقل، فإنهما يهزان ذلك الشيء بعنف....».

ورغم أن عمر ساندرا يبلغ الخامسة والثلاثين عاماً فقط، إلّا أنها تبدو اليوم وكأنها أكبر من ذلك، فلقد كانت تغضّبات وجهها تعكس مشاعر الاستياء والمرارة، وهي تتحدث عن والديها. وأضافت:

«من المفترض أن أحبهما، لكنني في الواقع لا أكنّ لهما قدراً كبيراً من الحب».

واعترفت على أنها تقيم معهما في المدينة نفسها، لكنها مع ذلك تحاول المستحيل لكي تتجنبهما، ولكي لاتراهما إلّا ثلاث مرات في السنة على أكثر

تقدير. وها هي الآن وهي تستحضر من جديد تلك المعاناة التي لازمتها في ما مضى من سنين، تبدو التفضنات المسورة لعينيها وفمها، وكأنها تحفر أخاديد أعمق من معالمها الأصلية، وتزداد نبرة صوتها خشونة، وكانت تجسّد فعلاً في كل ما أتت به شخصية الأخت الأكبر الغيرة، فهي لم تكن مستاءة فقط من والديها لكن أيضاً من شقيقاتها الثلاث الأصغر منها واللاتي كانت حانقة عليهن ليس لإثم ارتكبنه في الواقع، لكن لأن والديها كانا يؤثرانهن عليها، فلقد استطعن جميعاً النجاح في إحراز قدرٍ من الحرية أكبر مما تتمتع به.

وبالرغم من أن ساندرا تتمتع بجمال فائق، إلا أن جمالها هذا يقابله واقع آخر معاكس، هو تلك البدانة المفرطة، حيث يزيد وزنها عن الحد الطبيعي بما يعادل خمسة عشر كيلو غراماً على الأقل. فهي مثال نموذجي عن المرأة السمينّة وذات (الوجه الفاتن) والتي كانت قد اكتشفت منذ الصغر، حالها حال كثيرين من الأبناء البكر، أن بإمكانها ساعة الغضب إيجاد بعض الراحة والعزاء في التهام الطعام، وهكذا كانت كلما استحوذ عليها الغضب من أبويها، تلجأ إلى الأكل، وكلما أغاظتها شقيقاتها، تلجأ إلى الأكل. ولهذا السبب فإنها لاتشعر بالانزعاج نتيجةً لاستحضر تلك الذكريات الممّضة فقط، ولكنها أيضاً تلوم أبويها - بوجه حق أو بدونه - على مظهرها الراهن والذي كان يربكها ويعيقها عن الحركة. ثم أضافت أيضاً:

«أتعرف!، لم يكن بوسعي أبداً فعل أي أمر دون أن أتعرض إلى اللوم! ولا شيئاً واحداً إطلاقاً».

وبعد أن سردت لي بقية قصتها، أصبح واضحاً لي أنها لم تكن تبالغ! فلقد منع عليها الانتساب إلى أي مدرسة للرقص لأن والديها لا يريدان لها الاختلاط كثيراً بالصبيان، ولم يُسمح لها بالانضمام إلى فرقة فتيان الكشفة لأنهما لا يحبّذان خروجها أسبوعياً من البيت في الليالي لحضور اجتماعات الفرقة. وتذكر ساندرا أن أباه انتزع أحد الحبال وقبدها به إلى الأرض لمدة ثلاثة أسابيع، لأنها عادت إلى البيت مرة وقد حصلت على درجة وسط في الرياضيات. وواصلت ساندرا حديثها: «عندما صار عمري اثنين وعشرين عاماً خُطبت، لكن

والديّ لم يدعاني أترافق وخطيبي في رحلة (لمسافة مئة ميل) إلى الجبال، لأن هذا سيؤرّق لنا وقتاً طويلاً جداً ثمضيّه معاً وحيدين». ثم إثر ذلك، وقبل يومين من يوم الزفاف، أبى والدها السماح لها بالذهاب وحدها برفقة خطيبها إلى مسكنهما الجديد، لكي يرتّبا ويفرّزا الهدايا التي كانا قد تلقّياها في حفلة الإكليل، بل إنهما، بدلاً من ذلك، أصرّوا على أن ترافقهما اثنتان من شقيقاتها، وما ذلك إلى لكي يتابعا بنظريهما ما سيجري هناك.

«ولم ترفع الواحدة منهما حتى إصبعاً من أصابعها لمُدّ العون لنا، فلقد أرسلتا إلى هناك لكي تتصرفا معنا بصرامة الوصيفات، وليس لتقديم أي خدمة لنا». وهزّت رأسها غيظاً وأضافت: «لأزال حتى الآن أستشيط غيظاً عندما أتذكّر تصرفهما، فلقد اكتفتا بالجلوس على الكنبه ومراقبتنا، بدون إبداء أي نية في مساعدتنا في أي أمر».

لقد كانت مظاهر الضيق والأذى بادية بوضوح على ساندرا جراء القبضة الخائفة التي تطوّق عنقها من تعامل والديها معها، ومن عدم الثقة التي يظهرانها تجاهها، لكن ما كان يحزّ في نفسها أكثر، هو رؤيتها تعاملهما المختلف كلياً مع شقيقاتها الأصغر....

«في الواقع، لا يمكنني القول إنهما يعاملان أختي الأصغر مني مباشرة على نحو مغاير تماماً لما يحدث معي، بل أفضل مني قليلاً لكن ليس كثيراً جداً.... أما بالنسبة للإثنتين الأصغر، فإن الأمر يبدو وكأنه تحوّل شامل، بمئة وثمانين درجة، ففي وسعهما إتيان أي شيء تريده، وخصوصاً الصغرى... فهي الآن تبلغ الخامسة والعشرين من العمر، ويترتّب عليّ، بالقدر الذي يعنيني الأمر، أن أرى أنها يجب أن تُتاح لها القدرة على رسم مجرى حياتها بالطريقة التي تريدها، لكن مازلتُ حتى الآن أغتاط من رؤيتها تهّم بالخروج في رحلة لإقامة معكسر خيمي طوال ليالي بأكملها برفقة صديقها الحميم، ويقف البابا والماما إلى جانبهما لتوديعهما، ولاتفارق البسمة محياهما، ثم يلوّحان لهما بأيديهما كما لو أنهما يصرونّ عليهما بمصاحبة بعضهما في هذه الرحلة. وأرجو أن لاتقل لي الآن أن الظروف قد تغيّرت خلال هذه السنوات القليلة التي أعقبت زواجي!».

وتعيد ساندرا التأكيد على أن الأمور كانت تجري دائماً على هذا المنوال، فلقد قُيّدت على الأرض لأنها نالت درجة وسط، في حين عُرض على ديانا دراجة هوائية جديدة إذا هي حصلت على علامة تخرّج بمعدّل وسط. ولم يُسمح لساندرا المشاركة في فرقة فتيان الكشفاء بينما غادرت ديانا البيت في رحلة تزلّج تدوم أياماً وليالي متواصلة مع ثلاثة من طلاب مدرستها مع أن عمرها كان لا يزال اثني عشر عاماً «وثمة مسألة أخرى، هي أن زوجي شخص رائع، وهو حقاً كذلك، لكن كان والدي يتعاملان معه دائماً بشيء من الاستهتار، في حين أنهما يعاملان صديق ديانا الحميم وكأنه أحد أفراد العائلة الملكية أو شيء من هذا القبيل، وحتى أكون صريحة تماماً في هذا الأمر أقول إنه عبارة عن شخص أحمق جاهل لانفع فيه!».

ومن الممكن أن يظن المرء من كل ما سبق أن ساندرا شخصية حادة الطبع في الحياة أو أنها من النموذج الذي يتشكى، ويستسيغ طعم المرارة، لكن ذلك أمرٌ مجانيّ للصواب بقدر كبير، فساندرا توحى في معظم الأحيان بحالة من الغبطة والسرور، وهي مسألة طبعتها، وتحب العشرة وإقامة العلاقات الحميمة مع الآخرين، وليست ذات طبع انتقادي أو من النموذج السليط، وعلى أي حال فهي حين تتحدث عن أبويها وعن طفولتها، توحى وكأن تحولاً كاملاً على شخصيتها قد طرأ، وأن كل مظاهر شخصيتها قد اتخذت منحى من القسوة والحدّة الزائدة. ياللمسكينة ساندرا، إن قلبي يتفطر من أجلها.

ونصادف لدى معظم الأبناء البكر قدراً من المشاعر التي عبّرت عنها ساندرا، لكن حتماً ليس لها حتماً الحدّة نفسها والعمق نفسه في التأثير، لكنها حاضرة عندهم على كل حال، ولقد حاول عدد منّ أعرف من الأبناء البكر وخصوصاً الرجال منهم دفن تلك المشاعر عميقاً جداً في أعماق لاوعيمهم، ليزعموا بعدها أن تلك المشاعر غير حاضرة عندهم على الإطلاق، لكنها بالتأكيد حيّة في أعماقهم، وستطلّ برأسها في سورات غضب حادة بين آين وآخر.

وليس ثمة جديد في هذا أبداً، فقبل حوالي ألفي سنة فائتة، روى يسوع المسيح قصة نعرفها جميعاً كمثال للعبارة عن الإبن المبذّر<sup>(١)</sup>، وإذا كنتِ منّ



لا يقرؤون الإنجيل بانتظام، أو ممن لا يرتادون مدارس الأحد من آين إلى آخر، فإني سأحرض ذاكرتك. والقصة وما فيها أن أباً كان له ولدان، أحدهما وهو الأكبر كان شخصية مهذبة وخلوقة من كل النواحي، ولم يزعج والده أبداً أدنى إزعاج، وكان ابناً من النوع الذي يُعتبر مفخرة لأي أب. أما بالنسبة للإبن الأصغر، فإذا أردنا أن نلطف توصيفنا له نقول إنه خيبة أمل حقيقية لوالده. وبإمكاننا أن نراهن بثقة بأنه لو قُبِضَ لمحات ألعاب التسلية واللهو (7 - إحدى عشر) أن تكون موجودة في غابر الأيام تلك، فإنه على الأغلب من النوع الذي لن يتزحزح عن هذا المكان طوال الوقت، وهو ينفث السجائر، ويلعب ألعاب الفيديو.

وانتهى به مآله إلى أن يقول لوالده ما يمكننا مقارنته بما يلي:

«إسمعني يا أبي، من المعروف أنني سأرث منك مبلغاً من المال يوماً ما، لكنني ضجرت من المكوث هنا دون أي هدف سوى انتظار تلك اللحظة التي تموت فيها، لذلك ما رأيك بإعطائي حصتي من الميراث في هذه اللحظة فوراً؟».

وهذا ما فعله الأب دون أي تلكؤ، وذلك بهدف الحفاظ على السلام والوئام في العائلة. أما الإبن فإنه وفور حصوله على المال، غادر البيت قاصداً مناطق مجهولة. وكانت الأموال التي بحوزته تكفيه طوال عمره، لكنه اندفع ودون أي تزوٍ ينفقها بتهور على النساء المنحلات والخمر وكل ما يمت بصلة لأجواء الخلاعة والتهتك في القرن الأول الميلادي. ولم يمر وقت طويل حتى صرف الإبن كل ما لديه من أموال ولم يعد يملك شروى فقير، فأضحى بلا بيت يأوي إليه أو عمل يقيه حالة الجوع الرهيب التي تضنيه الآن.

وقرّر الشاب الصغير أخيراً أن يلجأ إلى الشيء الوحيد الذي كان بوسعه فعله، ألا وهو أن يدوس بقدميه على كبريائه، ويعود أدراجه إلى بيت أبيه ومستبعداً في ذهنه تلقّي استقبالي حار، لكن أياً يكن الأمر الذي سيواجهه، فهو أخف وطأة بالتأكيد مما يكابد منه الآن.

حسناً، إذا تذكرتم كامل القصة الآن، فإنكم تعرفون أن الرجل الصغير استقبل في بيته على نحو أفضل بكثير من الاستقبال البارد الذي كان قد توقعه مسبقاً، فلقد أورد الإنجيل أن الأب وفور رؤيته ابنه عائداً إلى البيت، اندفع لملاقاته

ومعاقبته، ولم يُسمعه أي دروس أو مواعظ عن مجرى حياته المتهوّر وطيشه، بل لم ينسق وراء نواذعه الداخليه بالقول له: «ألم أخبرك بذلك من قبل؟!»، بل إنه على العكس من ذلك دعا كل أصدقائه وجيرانه وأقام للصبي الشاب حفلة استقبال لاثنتي من النوع الذي يبعث على الدهشة لضخامتها، كما لو أنه عاد عودة الأبطال أو شيئاً من هذا القبيل.

وتغيبّ الإبن البكر، كما هو متوقع عن الحفلة مقاطعاً إياها، فهو بمعزل عن أي شيء آخر، كان يشكّل في البيت طوال كل هذه السنوات سناً مخلصاً لوالده في إدارة شؤون العائلة، ولم يرفع صوته مرة واحدة في وجه والده، ولم يسبّب أدنى أذى لأي فرد من أفراد عائلته، ومع ذلك، لم يتلقّ من التكرم في حياته حتى حفلة عيد ميلاد، حتى أن والده لم يمنحه في أي من الأيام ما يعادل عنزة. وعلى كل حال، فإن هذه القصة الأمثلة انتهت نهاية سعيدة بشكل معقول، لأن الأب مضى إلى ابنه الأكبر ويّين له أنه احتفل على هذا النحو لأنه يشعر كما لو أن ابنه الصغير كان قد مات، وأنه الآن بُعث إلى الحياة من جديد. ولم يكمل لنا الإنجيل ما حدث إثر ذلك، لكن ترك للقارئ أن يفترض بأن الإبن البكر غير موقفه، وانضم إلى الحفلة، وحاول أن يبدي روحاً طيبة، ومتسامحة عمّا جرى. وبالطبع، إن النقطة الجوهرية في هذه القصة، هي أن الربّ أبّ رؤوف رحيم، وبأنه دائماً على استعداد لأن يرحّب بعودة أولئك الذين أداروا له ظهورهم، وفعلياً، ازدروّه.

وإذا كان ثمة رجل وغد في هذه القصة - وهذا على الأقل ما يرد في معظم التفاسير - فإنه الإبن الأكبر، لأنه شعر بالحنق، ودلّل على روح غير متسامحة.

لكني أريد أن أسألكم أمراً متعلقاً بهذا الموضوع - وهو، أيمكننا اعتبار موقف الإبن البكر مبرّراً؟

أجد نفسي ملزماً بالقول كإجابة عن هذا السؤال، مع المخاطرة بتأليب العالم اللاهوتي كله ضدي: «بالطبع، لقد كان ذلك مبرّراً»، أو أنه إذا لم يكن مبرّراً كلياً، فهو على الأقل موقف متوقّع منه. وأنا من قبلي مستعد لأن أعترف لكم

بأنني لو كنت مكانه وفي الوضع نفسه الذي كان فيه لكنت أظهرت الحدة نفسها من الحنق والاستياء تجاه أخي الأصغر الأناني والأرعن، بل وعلى الأرجح تجاه والدي لكونه أبدى تلك الرغبة الحارّة بالصفح عنه، فهو بهذا كمن يوجه لي صفة على الوجه كتعبير عن الشكر عن كل السنوات من الإخلاص والتفاني والخدمة النبيلة!

والآن، وقبل أن يظن أحد أنني أصبحت مهرطقاً، ويفكر في تعنيفي على ما أقوله، أسبق عليكم وأطلب منكم أن تكونوا صادقين مع أنفسكم، وسترون في هذه الحالة أنني على حق، وأن الإبن البكر سينحو في سلوكه المنحى الذي يتبعه كل كائن بشري عادةً. حسناً، لن أتردد بالقول لكم أيضاً إن العالم حافل بالأبناء البكر ممن تضطرم في أعماقهم مشاعر الحنق والاستياء، وممن لديهم، كل المبررات لذلك. وهم ليسو مرتاحين لحملهم تلك المشاعر من الحنق والمرارة، لكن ليس سهلاً عليهم تجاوزها، وخصوصاً عندما يحدث أن يأتوا بتصرفات متناسبة مع صفتهم كـ «طرف أكبر سناً»، أي عندما لا يتعاملون مع الأمور من منظور ذاتي حصراً، لكن في المقابل تبدو الأمور لهم وكأنهم تلقوا طعنة أخرى في صميم الفؤاد.

وقبل أن أتطرق إلى بعض الأساليب التي يمكن بالاعتماد عليها التغلب على هذه المشاعر غير الصحية، وعلى عدد من المشاكل الشخصية الناتجة عن هذه المصيبة الشائعة عند كل الأبناء البكر تقريباً - أي أن يعاملوا كمواطنين من الدرجة الثانية، وعدم قدرتهم على النجاة من اللوم في كل تصرف يأتونه. اسمحوا لي بالقول عدة كلمات لصالح الوالدين، أقصد أنني أرغب بإخباركم بأن أمهاتكم وآباءكم يعاملون أشقاءكم الأصغر بطريقة أفضل مما عاملوكم لأنه ليس ثمة معلم بإمكانه أن يحل محل الخبرة والتجربة، وأعني في ذلك أنكم لم تأتوا إلى الحياة مزودين بنسق من التعليمات المتكاملة، فربما قرأ أمهاتكم وآبائكم كل ما وقع تحت أيديهم من كتب تربية الطفل قبل ولادتكم، لكن حالما تصبحون واقعاً فعلياً من لحم ودم، سيدركون أن كل نصائح «الحكمة» تعادل تقريباً في فائدتها الفائدة المتعلقة بمعرفة كيفية تجريف الثلوج في الصحراء، فهنا لا يتعامل المرء مع جهاز

توليف أو قرن للموجات الصغيرة، بل مع كائن بشري حي يتنفس ويفكر  
بمشاعر، كائن مخلوق من جسد وعقل وعواطف. هذا من جانب أما من جانب  
آخر، فإن كثيراً من معلومات الآباء المقروءة، إنما هي معلومات مشوشة ومتناقضة.  
وخطر في ذاكرتي الآن إحدى الأمهات الشابات التي أخبرتني مع احتباس الدمع  
في عينيها، أنها كلما قرأت أكثر عن تربية الطفل، كلما شعرت بأنها أقل قدرة  
في هذا المجال، وتزداد قناعتها رسوخاً بأنها ستفشل فشلاً ذريعاً في هذه المهمة  
الفاقة الأهمية.

فالأبوة والأبوة بالنسبة لمعظم البشر عملية مؤلة من التجربة والخبرة  
والخطأ، والسبيل الوحيد لأن يتعلم المرء فعلياً، يمر عبر نجاحاته وإخفاقاته الخاصة،  
فإذا تبين لوالدي جوني بالتجربة أن مسألة معينة لم تؤدّ غرضها معه، فلا يمكن  
تغيير واقع الحال هذا معه، لكهما سيمتلكان معرفة أفضل بالأمر عند التعامل مع  
الطفل الذي يليه.

#### صورة توضيحية رقم (5)

##### تعايير تطنّ في أذن الإبن البكر باستمرار

- لايهمني ما فعله هو - فأنت الأكبر<sup>(\*)</sup>.
- خذ أخاك الصغير (أختك) معك<sup>(\*)</sup>.
- ألم تتمكن من تخليص أخاك الصغير (أختك) من هذه المشكلة<sup>(\*)</sup>؟
- ما هي العبرة من سلوكك هذا؟<sup>(\*)</sup>
- رجاء، لا تتولدن!<sup>(\*)</sup>
- متى ستكبر؟<sup>(\*)</sup>
- هو أصغر منك. يجب أن تكون أعقل منه<sup>(\*)</sup>.

لذلك، أقول لكم - أنتم الأبناء البكر المستأون من الطريقة التي عاملكم بها  
أباؤكم وأمهاتكم، وخصوصاً عندما تقارنون ذلك بما جرى مع أخوتكم  
وأخواتكم الأصغر - إنكم ستفعلون خيراً لأنفسكم إذا أظهرتم رحابة صدر تجاه  
أقرب الناس إليكم، وأن تحاولوا أن تفهموا الدوافع النبيلة لهم وعدم وجود سوء  
نية قصدية عند الكتلة الكبرى منهم. فالمسألة وما فيها أنهم لم يكونوا مزوّدين

بعرفة كافية عن الأمر. وهم لم يتيحوا لك أن تنفذ بجلدك في أي قضية كانت لأنهم أنفسهم يمارسون أمومتهم وأبوتهم دون بوصلة.

وها نحن الآن وصلنا في متابعتنا المسألة إلى سؤالنا المعلق بأنه لو كان المرء ابناً بكرًا تضيئه مشاعر الاستياء من والديه وأشقائه، فما السبيل الذي يعتمد عليه للتحرر من هذه المشاعر التي تضطرم في أعماقه.

## كيف تصالح والديك - ونفسك

لقد اكتشفت من خبرتي طوال كل هذه السنوات، أن ثمة عدة خطوات بوسعك القيام بها لتحقيق ذلك، ويشتمل معظمها على إجراء تغيير في موقفك، وهي ذات فعالية مضمونة، على الرغم من الطابع البسيط إلى حد ما لبعضها.

1 - أعلم والديك بحقيقة مشاعرك تجاههما: إن التحدث بصراحة مع والديك، وبطريقة غير لاذعة ولا متهمّة، بل بأقصى ما يمكن من اللطافة والود، سيكون ذا فائدة لكم جميعاً. فهناك احتمال كبير في أنهما يعلمان أنهما لا يتعاملان معك على الوجه الصحيح، بل قد يتأثران سلباً بالمشاكل التي تحدث بينكما بالقدر نفسه الذي تتأثر به أنت، لكن يشقّ عليهما مواجهتك جهاراً بذلك. ومن المحتمل أيضاً أن لا يكون لديهما أدنى فكرة عن أنك تحمل مشاعر الاستياء تلك، وأنهما حال علمهما بذلك سيسعيان بدأب لفعل كل ما بوسعهما لإصلاح ذات البين. وثمة احتمال آخر وهو أنهما يتلمسان بأن هناك مشكلة بينك وبينهما، لكن ليس لديهما أي تصوّر عن السبب الكامن وراء ذلك. وإذا حدث وأدارا لك الأذن الصّماء أو بدا عليهما عدم الرغبة حتى بالتفكير بإمكانية ارتكابهما تلك الأخطاء، فإنك على الأقل ستشعر بشيء من الرضى عن نفسك لواقع أنك حاولت من جانبك أن تقوم الأمور، وذلك أفضل بما لا يقاس من إبقاء فمك مغلقاً، والانفجار في فورات غضب مكبوت بين فترة وأخرى.

وإذا لم يكن بوسعك التحدث معهما وجهاً لوجه لما يسببه لك ذلك من الألم والإزعاج الشديد، ففي هذه الحال إلجأ إلى الكتابة لهما، لكن تجنّب النقد

اللاذع والقاسي، بل عبّر عن نفسك بوضوح لكن دون استخدام كلمات تضعهما في موقع دفاعي، وتؤدي إلى إقامة الحواجز فيما بينكم، وباختصار كن حازماً، لكن بطريقة دمثة.

أما إذا تعذّر عليك الحديث إلى والديك مباشرةً لأنهما توقيان، فابحث عن شخص آخر لتحدث إليه، وليكن رجل دين أو أي شخص آخر يستحق الأخذ بمشورته، والذي يستطيع إحلال نفسه مكان والديك، ويتصرّف بما يُفترض بأنهما كانا سيفعلانه، ويساعد على إيجاد حل لتقويم الاعوجاج في هذه العلاقة.

وإذا تعذّر عليك إخبار والديك بحقيقة مشاعرك تجاههما، لأنهما أيّا أن يصغيا إليك، أو أبديا مظاهر اللامبالاة، فإن النصيحة نفسها تحافظ على صحتها هنا. أي ابحث عن شخص يستحق الأخذ بمشورته ويدي اهتماماً بحل المسألة عبر إحلال نفسه مكان والديك فإذا تمّتعاً رغم ذلك عن إعاقة اهتمام لمعالجة الخلل في العلاقة بينكما، فلتضع في ذهنك حينئذٍ أنهما الخاسران في ذلك.

2 - ليس ذنبك أن والديك لا يعاملانك كما تفضّل أن يعاملاك: ذكر نفسك بهذه العبارة مرة بعد أخرى، حتى تصل إلى قناعة فعلية بها، فليس في شخصيتك أي أمر «مختلف» يجعل والديك يقرّان ألاّ يحباك، أو أن ينحيا معك منحى، غير عادل، في الوقت الذي يحبّان أختك الصغيرة بإفراط. وقد يبدو لك هذا الأمر وكأن فيه شيئاً من السخافة أو السطحية، لكنني عانيت في عيادتي مئات من الأبناء البكر ممّن كانوا يشعرون بصدق أن ثمة شيئاً معيناً في شخصياتهم - غير وضعهم كأبناء بكر في العائلة، يسبّب حالة الكره التي يكتنّها لهم أمهاتهم وأباؤهم، ويؤدي إلى تأنيبهم بشكل دائم، فالمسألة بكل بساطة ليست كذلك، وإذا لم تعتقد يقيناً بذلك، قف أمام المرأة لأطول فترة ممكنة، وتحدّث مع نفسك مرات ومرات «إنه ليس ذنبي».

3 - اتخذ قراراً واعياً بمسامحة والديك: يجب أن تعلم بأنك إذا اقتصررت على الانتظار على أمل أن تستيقظ ذات يوم وأنت تحمل مشاعر أفضل تجاه هذه المسألة، فإن الاحتمال الغالب أن ذلك لن يحصل، وحتى لو قُيّض لذلك أن

يحدث، فإن عليك أن تتأمل في كل هذا الوقت الذي أضعته في الانتظار! وإذا تابعت بعناد على حمل مشاعر الاستياء واللاتسامح تلك، فما عليك إلا أن تتروى بعض الشيء وتذكر أن أكثر من يتضرر من ذلك إنما هو أنت وليس غيرك. وأخبرتني مرة إحدى النساء عندما زارت عيادتي بأنها وحتى لو عاشت ألف سنة، فلن يكون بوسعها مسامحة والديها على الطريقة التي كانا يعاملانها بها عندما كانت طفلة، وبأن والديها حاولا عدة مرات ردم الهوية بينهما، إلا أنها لم تستجب لأي واحدة من هذه المحاولات، فقرّر والداها أخيراً وبعد أن استنزفا كل حيلهما لترضية ابنتهما وتطبيب خاطرها أن يكفّا عن ذلك ويواصلا حياتهما الخاصة، وخلف ذلك بالتأكيد جروحاً عندهما، إلا أنهما في المقابل لن يسمحا لغضب ابنتهما أن يدمر حياتهما، وهذا ما يبدو لي أنا أيضاً أنها تسعى من أجله.

وإذا تناولنا الموضوع من جهة البنت فإننا نرى أنها في وضع مزٍر كلياً، فلقد جفّت آخر قدرة لها على المرح، وهجرها كل أصدقائها جزاء غضبها وتذمرها الدائم. فهي لم تسبّب فقط الأذى لوالديها، لكنها أدّت إلى تدمير لا يستهان به لبنيتهما الشخصية. ولن يطرأ على حياتها أي تحسّن مادامت غير قادرة على اتخاذ قرارٍ واعٍ بمسامحة والديها.

وأوضحت لها من قبلي عندما أخبرتني أنها عاجزة عن تغيير مشاعرها بين ليلة وضحاها، أن التسامح عمل إرادة وليس عمل عواطف. وينطبق إلى حد كبير على التسامح القول إنه مسألة تقوم بها وليس شيئاً تشعر به.

وقالت لنفسها بعد أن استوعبت ذلك: «سأسامح الماما والبابا». وأخذت بعدها تدلّل بتصرفاتها على أن هذا ما أقدمت عليه فعلاً، وكانت خطوتها الأولى في ذلك إقامة وليمة عشاء على شرف والديها، ممّا لاداعي للقول إنه أدّى إلى إحلال جو من الأريحية الكاملة فيما بينهم، وبذلت بيني خلال الأمسية قصارى جهدها لإظهار أقصى حد ممكن من روح الدمثة واللطف، الأمر الذي كان قسرياً ومتصنعاً بالتأكيد في البداية، لكن مع تقدّم مجرى الأمسية أخذت أعصابها تسترخي شيئاً فشيئاً، وبدأ التعامل مع والديها،

بصفتها أمها وأباها حقاً وفعلاً، يأخذ بالنسبة إليها طابعاً أكثر فأكثر طبيعية. وتلك كانت مجرد خطوة أولى، لكنها كانت بالطبع بداية عظيمة لتعيد «ييني» الآن تأسيس علاقتها من جديد مع أبويها، ولا يرافقها إلا شعور واحد وهو الحسرة والأسف على كل هذه السنوات التي مرّت عليها وهي تكررّ لهما مشاعر الاستياء هذه. ولكن بالمحصلة كان ذلك درساً لها بأن تصرّف المرء كما لو أنه غفر لآخر، إن هو إلا خطوة واسعة باتجاه المغفرة له فعلياً. وجاء إلى عيادتي مراجعون آخرون، وكان موقفهم أنهم على استعداد لأن يسامحوا الطرف الآخر، لكن شرط أن يُطلب منهم ذلك. طيب، أنا آسف للقول بأن ذلك غير مجدٍ أبداً، فإذا كنت حائقاً من أي شخص، وبشكل خاص من والديك وأشقائك، فثمة خطوة تقوم بها تعود عليك بالفائدة في هذا المجال، وهي مسامحتهم الآن وفوراً، فعلم المغفرة واللوم يستبان الأذى لصاحبهما أكثر بكثير ممّا تسبب للطرف الآخر المقصود بها. فأن تستشيط غيظاً على نحو دائم بتأثير مشاعر الاستياء، يمكن أن يكون مؤذياً لصحتك ومن أكثر من ناحية، حيث لا يسبب ذلك فقط غمّاً عاطفياً دائماً لك، لكننا نعرف الآن أن ذلك يمكن أن يسبب لك أيضاً أمراضاً جسدية من كل الأشكال والألوان: قرحة معدية، أو ارتفاع في ضغط الدم، أو صداع مزمن، بل من الممكن أن تحدث لك أمراض مثل السرطان إذا أبيت أن تخلّص نفسك من مشاعر الغضب والمرارة. وإنّ مساعدة نفسك إذن تمر عبر تعلّمك مسامحة الآخرين.

4 - اشغل نفسك باستمرار: وأنا لا أقصد هنا أن تأخذ على عاتقك مشروعات أكثر مما يمكنك تحمّل تبعاته، أو أن تكّدس على نفسك أكواماً من العمل تكفي لإشغالك خمساً وعشرين ساعة في اليوم، بل أن تعود على نفسك بالفائدة عبر الانغماس في أشغال براتية كافية لأن لا تتيح لك مجالاً للجلوس والتندّب، أي شخص بائس ومسكين أنت؟ وأنا على يقين الآن أن شخصاً منكم سيندفع وي طرح سؤالاً فحواه مايلي: «لكن إذا اقتصر المرء على السعي الدؤوب للبقاء في حالة انشغال محموم إلى الدرجة التي لا تترك له مجالاً للتفكير بشيء آخر، فهل يعالج نفسه بهذا فعلاً؟».



وجوابي على هذا هو أنه يجب عليك بالطبع معالجة المشكلة من جذورها، لأن مشاعر الغضب والاستياء مثلها مثلها النباتات الطفيلية، إذا اقتصرنا فقط على قص أجزائها العلوية، فثمة احتمال كبير جداً في أن تنمو من جديد، لكن تأمل الوضع الذي يكون لديك فيه مرج أخضر نضير وكثيف، فليس هناك أي حيز للنباتات الطفيلية لتنمو. وهكذا يتبين أن ما أقترحه هو أنك إذا أشغلت نفسك وأبقيت تفكيرك مركزاً على موضوعات بناءة، فإن ذلك لن يدع للنبات الطفيلي أي حيز للنمو في تضاريس دماغك. وربما يستدعي تحريك الكامل من مشاعر الاستياء هذه التي تمر في أعماقك، لإجراء بعض الخطوات الأخرى، لكنك تكون بهذا قد قطعت شوطاً طويلاً على طريق إضعافها.

املاً ذهنك ووقتك بالجوانب الإيجابية للحياة، ولن يتبقى لديك أي وقت للتفكير بالجوانب السلبية. وثمة أمور كثيرة يمكنك القيام بها في سبيل خدمة الآخرين: التطوع للعمل في مستشفى عام عدة ساعات أسبوعياً، على سبيل المثال، أو الانغماس في أعمال الواجبات المجانية، أو أن تعبري قليلاً من الوقت للعمل في بيت التمريض.. الخ. وعندما تنذر نفسك للآخرين بهذه الطريقة، ستجد أن مشاعر الاستياء والغضب قد تلاشت، وحلت محلها مشاعر سعادة حقيقية.

وأنت بالتأكيد سمعت بالمعادلة المركبة للبرمجة بلغة الكمبيوتر، والتي تقول (لقم كلاماً تافهاً، تحصل على كلام تافه). وهذا يعني بالطبع أن جهاز الكمبيوتر يعتمد عليك في تلقيه بالمعلومات الصحيحة، فإذا زوّدته ببرنامج يتضمن مسائل تافهة، فإنه سيعطيك نتائج تافهة، وإذا حشوت ذهنك بمسائل تافهة مثل الغيرة والحسد والضغينة، فإن حياتك ستظهر ثماراً من ذلك النوع من التفكير ولن يكون ذلك شيئاً باعثاً على السرور.

5 - أخرج من القمقم وجرب أن تطلق لنفسك العنان: عن ماذا أتحدث؟؟ إني أتحدث تحديداً عن كل مجال تظهر فيه لنفسك وللآخرين بأنك شخص قادر وذكي.

وأندكر، على سبيل المثال، ليزا الزوجة والأم الثلاثينية البكر، والتي كانت تُعتبر معاقّة ومشلولة من الناحية العملية نتيجةً لشعورها بالنقص في اعتبارها لذاتها، وعدم ثقتها بنفسها، فهي لم تؤدّ أي عمل في حياتها مطلقاً. ولقد تملكته حالة من الذعر عندما اقترحت عليها أن تبحث عن عمل، وليكن عملاً بدوام غير كامل، ويعود ذعرها هذا إلى أنها لا تستطيع تخيّل نفسها في حالة من يسعى وراء عمل، فكيف إذا استطاعت إيجاداً فعالاً. لكنها بالمقابل كانت راغبة فعلاً بأن تتغيّر، وهي جادة في هذا، لذلك انتهت إلى أن توافقني على أن تجرب إطلاق العنان لنفسها.

وكم كانت فرحتها كبيرة حين استطاعت إيجاد عمل بدوام غير كامل كسكرتيرة استقبال في مكتب عيادة طبيب أسنان ولمدة يومين في الأسبوع فقط. لكن حين حلّ اليوم الأول لدوامها أوشكت على الاتصال بهم وإخبارهم بأنّها غيّرت رأيها في شغل هذا المنصب، أو أن تقول لهم على أقل تقدير بأنها ملازمة للفراش نتيجة لإصابتها بالأنفلونزا، ولكن جرى الأمر لمصلحتها ولم تفعل ما فكرت به.

أما زوجها فقد قدّر عالياً خطوتها هذه، لكنه كان يعتقد أنها لن تستمر أكثر من أسبوع أو أسبوعين، وبصراحة، هذا ما كنت أعتقد أيضاً. لكن مرّ عليها شهرٌ في العمل ثم شهر آخر، واندمجت بعدها بعملها. ومّا زاد في سرعة ارتفاع ثقتها بنفسها، إخبارها من قبل مديرها في العمل لها بأنه يقيّم عالياً العمل الذي أدّته له، فلقد التقطت عدة مرات أخطاءً في جدول المواعيد ارتكبتها أخريات في المكتب فصحّحتها.

وحين استدعاها مديرها إلى مكتبه في إحدى الأمسيات، وسألها فيما إذا كانت قد فكرت بالتقدم بدرجة في عملها ليغدو دواماً كاملاً، لم تستطع تصديق أذنيها بسهولة، وخاصةً ما سمعته منه بعد أن شكرته على ذلك وأخبرته بأن هذا العمل ليس العمل الذي ترغب أن تشتغل به فعلاً، فلقد أجابها بأنه يتفهّم موقفها وأعلمها أنه قرّر أن يمنحها علاوة على راتبها سواء وافقت على اقتراحه الأول أم لا، وكانت الزيادة خمسين بنساً في الساعة فقط، لكنها كانت بمنزلة دليل آخر، ولو كان محدوداً، على أنها تؤدي

عملها على أكمل وجه، فهي تعي أنه غير مستعدٍ للسخاء عليها بهذه الزيادة،  
لمجرد حرصه على العطاء.

وكان للنجاح الذي حققته في حقل العمل أثراً مباشراً في قلب مجرى حياتها جذرياً، فلقد أضحت أكثر اتزاناً، وازدادت ثقتها بنفسها، وبدأت علاقاتها مع أفراد عائلتها وأصدقائها تأخذ مجرى أفضل، لكن لم يكن ليحدث أي شيء من هذا، لو لم تكن على الأقل راغبة في محاولة التجريب.

6 - أجر استشارة علاجية عند أخصائي: إذا كنت قد جرّبت كل ما عرضته سابقاً وزيادة، ومع ذلك لم تنفك عنك تلك المشاعر الرهيبة من الاستياء، عندها يترتب عليك مراجعة طبيب اختصاصي، لمحاولة الحصول على مساعدة من هذه الطرق، وليس هناك أي عيب أو نقيصة من قصد اختصاصي للعلاج، ولن يعني ذلك بالتأكيد أنه دلالة على فشلك أو قصورك عن تحقيق غاياتك.

ولقد قدّمت استشارات طبية لآلاف مؤلفة من الرجال والنساء على مدى سنوات عملي في عيادتي، وأنا سعيد لأنني استطعت مساعدة الأغلبية الساحقة منهم على حلحلة مشاكلهم وتغيير مجرى حياتهم بشكل جذري. ولا يعني ذلك بالتأكيد أنني من نوع صانعي المعجزات، بل يعني حصراً أنني على دراية بجوانب مهنتي. فلقد كرّست مجمل حياتي في تعلّم كيفية معالجة مشاكل الناس. لكن إذا طلبتم مني بناء جسرٍ على نهر، فستقعون في مطب كبير، لأنني لست على دراية بذلك، أما إذا كنتم تركزون جهودكم على التغلب على مشاعر الغضب والاستياء، وباءت محاولاتكم الذاتية الخاصة لمعالجة هذه المشاعر والتحرّز منها بالفشل، فأنا الشخص الذي يمكنكم أن تقصدهوا!. وهذا ما فعّله لغايات مشابهة، كما قلت لكم سابقاً، عدد غير محدود من المحامين والمهندسين والبنائين ورجال الدين وأساتذة جامعات، ورجال أعمال من الرجال والنساء.... الخ، ومعظمهم أشخاص ناجحون بجدارة في ميادينهم، وناس «جماعيون» ولا يحتاجون إلا مجرد مساعدة في حقل معيّن من حياتهم.

وإذا تساءلتم عن مبرر استرسالني بهذا القدر في هذه الفقرة، أجيبيكم أن الأمر يعود ببساطة إلى أن الأبناء البكر غالباً ما يستصعبون طلب العلاج من طبيب اختصاصي، فالسعي وراء استشارة طبية يُنظر إليه من قبلهم على أنه علامة على الضعف والفتل، وهم من النوع الذي يُفترض فيه ألا يفشل مطلقاً. لكن لاجدال في حقيقة أن استشارة طبيب نفسي اختصاصي، يمكن أن تكون مكسباً عظيماً لكم، فيجب ألا تشعروا بالحنجل وتناؤا عن طلب مساعدته!

وشئلت أكثر من مرة فيما إذا كان بوسعي تحديد طرق معينة لتأكدوا فيما إذا كنتم قد اخترتم الطبيب الأفضل. حيث يهتمكم بالطبع، أن تجدوا الطبيب الذي تراحون له، والذي تكونون مستعدين لمنحه ثقتكم. وجوابي على ذلك أن اقصدوا الأخصائي النفسي الذي يرغب في التخلص منكم، وبكلمات أخرى، اسعوا لملاقة الشخص الذي يرغب بتقديم العلاج لكم عبر رؤيتكم تؤدّون الأمر اعتماداً على أنفسكم، لا الشخص الذي يجعلكم تابعين له. ويجب عليكم أيضاً أن تبحثوا عن أخصائي نفسي لديه أبناء من صلبه، ويعطي للزواج القيمة التي يستحقها، وكفاءته مضمونة بشهادات من الدولة ومن التجمعات المهنية الوطنية.

## الفصل الرابع

### المنافسة بين الأخوة جاءتنا مذ بدأها هابيل

من الأمور السيئة بالتأكيد بالنسبة للمولود البكر الأول في التاريخ، أن لا يكون لديه شخص يساعده في التعامل مع مشاعر غضبه واستيائه، فلو كان لديه هذا الشخص، لاتخذت الأمور مجرى مختلفاً عما جرى. ولاني أشير بالطبع، بذلك، إلى قابيل الذي تعاضم باطراد إحساسه بالاستياء من شقيقه الأصغر إلى الدرجة التي أدّى به الأمر أخيراً إلى ارتكاب جريمة. وبوسعكم قراءة هذه القصة القذرة من أليفها إلى يائها، في الكتاب المقدس في الإصحاح الخامس من سفر التكوين. لكن ما أرغب أن أذكره لكم الآن، إذا كنتم تعتقدون أن ثمة مشاكل بينكم وبين أخوتكم وأخواتكم الأصغر سناً، أن تختلوا فقط قابيل وكيف أخذته مشاعره.

فلقد كان في حينها، الطفل الصغير الأوحـد في أربع أصقاع الياـسة، وهذا يعني احتكاره لكل اهتمام ورعاية أمه وأبيه! ثم وعلى حين غرّة، ها هو هابيل يُبصر النور، ومن المتوقع أن يشاركه كل أحجاره وأنياب الماموث، وكافة المسائل الأخرى التي تخصّه. ويمكننا الآن القول إن قابيل بوغت بمجيء أخوه هابيل إلى هذا العالم، فلم يحدث أن أخبره أي شخص إطلاقاً أن هذا مقدّر له أن يحدث، ولم يكن لديه أيّ أصدقاءٍ ممّن ترتّب عليهم التعامل مع أخوة أصغر منهم.

هل بوسعكم تخيّل الحالة التي استحوذت على قابيل جرّاء تعامله مع هذا الأمر؟. فخلال كل الزمن السابق لولادة هابيل، كان قابيل يسخر كل موجودات

العالم لمصلحته الخاصة وحده - كل شجرة للتسلق عليها، وكل نهر للسباحة فيه، وكل غابة لسبر أعماقها في جولة استكشافية .. أما الآن، فهو ودون أي سابق إنذار، لم يعد قادراً على الذهاب إلى أي مكان بدون أخيه الأصغر الذي يلزمه دائماً في حركته وتنقله من مكان إلى آخر.

يالمسكين قايل! لقد جسّد النصيب<sup>(٥)</sup> العفوي لكل الأبناء البكر الذين استسلموا كلياً لحالة من الإحباط والغضب إثر اعتراض مجرى حياتهم بولادة أخ أو أخت لهم.

وبالرغم من كل ما شكّله حياة هايل بحد ذاتها على قايل، إلا أن القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة له، كانت بدون أي شك ما أظهره هايل من عصمة عن ارتكاب الأخطاء. وهكذا وفي أحد الأيام، وعندما كان الصبيان متواجدين في الحقل، نَشَّ شيء في أعماق قايل، ثم ارتكب ما لا يصح ذكره، لقد قتل أخاه الأصغر (قلت «لا يصح ذكره»، ولم أقل «لا يصح التفكير به»، لأنني على يقين تام من أن كل أخ بكر أو أخت بكر، ومنذ فجر التاريخ، راودتهم خواطر قتل الأخ أو الأخت في وقت أو آخر).

لماذا انتهى الأمر بقايل لأن يصبح مجرماً؟ لأنه أولاً وقبل كل شيء، لا يعرف كيف يتعامل مع مشاعره، فهو لا يعرف كيف يضع حداً لمشاعره الذاتية من الغيرة والضغينة والدونية، والتي كان الباعث على ظهورها (كمال) هايل الملحوظ.

وكان يمكن لشروط قايل أن تكون أفضل بكثير وبمنأى عن هذه الحالة - ويصح الكلام نفسه على هايل - لو قُبِضَ له اتّباع الخطوات المفيدة في التعامل مع مشاعر الغضب والاستياء التي أتينا على ذكرها آنفاً.

وسأنتقل الآن بالأمر خطوة إضافية، وأشير إلى أن ثمة بضعة حقائق مهمة أخرى، كان ينبغي عليه أن يضعها في ذهنه:

- 1 - المرء كفيل بنفسه وبما يصدر عنه حصراً، لا بما يصدر عن أي شخص آخر.
- 2 - يجب على المرء أن يحاول فهم وتشرح مشاعره، مُعملاً ذهنه في السبب الذي يجعله يشعر بهذه الطريقة.

3 - يجب على المرء أن يتعلم ممارسة ما أدعوه (ضبطاً واعياً للنفس)، والذي يتضمن مضي المرء ضد مشاعره. «وأقصد في هذا، أننا إذا ربنا جميعاً حذرنا في مهت الرّيح، واتبنا مشاعرنا، فإن العالم سيصبح مصدر رعب رهيب، وأنصوّر أن المآل الذي سينتهي إليه معظمنا عاجلاً أو آجلاً، هو السجن!، أو على أقل تقدير سيكف معظم أصدقائنا عن الحديث معنا. أو ربما كانت علاقاتكم السابقة هادّة للقوى إلى الحد الذي تأخذ ضريبتها، بتصوير مشاعركم لكم أن لاشيء في هذا العالم يجري معكم على النحو الصحيح، فإذا أصغيتم إلى تلك المشاعر، فإنكم عدتُذ لن تمنحوا أنفسكم أية فرصة».

4 - يجب على المرء تعلّم تطوير حس الفكاهة لديه.

دعونا الآن نلقي نظرة أشمل على هذه الحقائق واحدة فواحدة.

## المرء كفيل بنفسه وبما يصدر عنه حصراً

وبعد مرور قليل من الزمن، تساءل قابيل وبطريقة تهكمية: «وهل أنا العين الحارسة لأخي؟»<sup>(1)</sup>، وبالطبع، قصّد في هذا، أنه لا يعرف ولا يبالي أين هو أخوه، لأنه غير جدير به متابعة مجريات مسائل من هذا الطراز.

لكننا نشهد في الواقع عدداً كبيراً من الأبناء البكر، ممّن يضربون بأنفسهم لأنهم يشعرون فعلاً وبِقوة أنهم كفيلون بأخوتهم وأخواتهم الأصغر وبما يصدر عنهم، وهم ليسوا كذلك. بل إن ما هم ماهرون به على نحو لا يجارى، إنما هو مقارنة أنفسهم بأشقائهم الأصغر، ومن ثم الشعور بالإحباط والغضب بدلاً من الافتخار عندما يتفوّق عليهم أحد أفراد العائلة الأصغر سناً في مجال أو آخر.

وما أقوله هنا بأنك وُهبّت قوى وقدراتٍ معيّنة تخصّك أنت، أنت وحدك، وتصح المسألة نفسها بالنسبة لأي فرد آخر في العائلة، فإذا أمّلت في نفسك أن تصبح الأكثر أناقةً، والأقوى عضلياً، وذا الموهبة الفنية الأفضل... الخ، فأنت في هذا تنتظر ما هو أبعد بكثير من قدراتك، فليس ثمة أي مبرر أبداً لك لأن تمضي في مقارنة نفسك بالآخرين من كل حدب وصوب، فأنت ستكون أفضل في بعض المجالات وليس بالدرجة نفسها من الكفاءة في مجالات أخرى، هكذا صُمّمت الحياة، إنها تحافظ دائماً على إبقاء الأمور أكثر تشويقاً. فيحب عليك

إذن أن لا تكون كفيلاً إلا بالوصول بنفسك إلى أفضل ما يمكنك أن تكون، ولا يعني هذا أنه مطلوب منك أن تكون أفضل من الآخرين.

تذكر دائماً بأن التنوع والاختلاف مُحكَّم البناء ضمن انتظام معيّن في أكثر من ناحية، ومنها تنوع المهارات التي يتمتع بها كل فرد من أفراد العائلة.

## حاول فهم وتشريح مشاعرك

عندما ذكرت هذا لعددٍ من الأبناء البكر، انتفضوا وردّوا فوراً بحماس: «إني أفهم بالطبع، لماذا أشعر على هذا النحو، فهذا راجع لأن والديّ تربّيا معي ما هو أكثر من الحد المقبول»، أو «لأن والديّ لم يكونا منصفين إطلاقاً»، أو عدد من الأجوبة المشابهة.

ومن الممكن أن يكون الوضع كذلك فعلاً، وفي هذه الحال تكون قد تقدمت خطوة إلى الأمام، لأنك فهمت بالضبط لماذا تشعر على هذا النحو. لكن من الضروري أن تتيقّن فيما إذا كنت صادقاً مع نفسك، فهل أنت متأكد على نحو لا لبس فيه أن المشكلة تقع على عاتق والديك؟ أم من الممكن أنك تلجأ إلى لوم والديك، في حين أن جذر المشكلة يقع على عاتقك؟ واسمحوا لي أن أقول في هذا الموضوع بالذات، إنه أصبح شائعاً جداً في مجتمعنا إلقاء اللوم على الوالدين في أي أمر أتى به الأبناء، وذلك ليس عدلاً. فالوالدان يُحمّلان المسؤولية عندما يخرق الأبناء القانون، أو عندما يهجرّون بيوتهم أو عندما يُطردون من المدرسة. بيد أنني أعرف عدداً كبيراً من الناس اللطفاء والخلّوقين، ثمن بذلوا قصارى جهدهم لتحقيق أفضل صورة ممكنة من الآباء والأمهات، لكنهم كوفئوا بأولاد يُضبطون دوماً في مشاكل كخرق القانون، أو يتركون مقاعد الدراسة دون أن يكون بادياً عليهم أي سمة من سمات النجاح في أي مجال على الإطلاق.

ولقد وجّه لي بعض الآباء السؤال التالي: «ما الخطأ الذي اقترفته؟»، وباءت كل محاولاتي في التدقيق والتحميص لمعرفة الجواب بالإخفاق فلقد وجدت أنهم، وإلى أبعد حدٍ أستطيع فيه التمعّن في الأمر، لم يقترفوا أي خطيئٍ بتاتاً، مع العلم أنه لا يوجد دائماً أثر سلبي واضح ومباشر، من السهولة إذن إلقاء اللوم على



الأم والأب في كل المشاكل التي نتعرض لها، لأنهما تحت مرمى نظرنا مباشرة، وقريران جداً من متناول أيدينا، لكن من الأجدر بنا أن نتأكد فيما إذا كنا لانهدف إلا إلى اتخاذهما دريقة، أو نبحث فيهما عن كبش فداء.

أما من الناحية الأخرى، فلقد عاينت في عيادتي زبائن لم يكن بوسعهم فهم السبب الذي يجعلهم يُبتَلون بمشاعر من الغضب والاستياء تجاه آبائهم وأمهاتهم، في حين كان واضحاً لي في حالتهم أن الآباء والأمهات يستحقون اللوم، على الأقل جزئياً.

### صورة توضيحية رقم (6)

■ مولود بكر، و«مشاعر» هدامة	
الشعور	ما يستدعيه من عمل
الاستياء من الوالدين	بُغ بمشاعرك صراحةً، سواءً وجهاً لوجه أم عبر توجيه رسالة؛ اسع لتفحص الحالة، وكن متسامحاً مع الطرف الآخر، وتجاوب مع سماحته.
حنق على الذات	تعلم أن تتسامح مع نفسك، حاكم الأمر ذهنياً على أن جميع البشر يرتكبون أخطاء.
الغيرة والحسد من الأخوة	أفصح عن مشاعرك لأشقائك، واطرحها للمناقشة معهم. حاكم الأمر ذهنياً على أنه من الوارد أيضاً أنهم يفارون منك.
الخوف من الإخفاق	حلّل كل حالة من هذه الحالات، وما هي العاقبة الأسوأ الناتجة عن فشلك؟
الشعور بالدونية	أجر حواراً ذاتياً إيجابياً، واكتب قائمة بجوانب القوة في شخصيتك.
عدم الثقة بالذات	ارفض الاستسلام والخنوع للأفكار السلبية، مارس الضحك على ذاتك.

وواحدة من الزبائن، كانت امرأة شابة، تشعر بحنق شديد واستثنائي تجاه والديها، الأمر الذي استعصى عليها فهمه لأنهما «يذلان قصارى جهدها في سبيلي»، وهذا ما كان عليه الأمر حقاً، فهما لم يقصّرا عن بذل أي مجهود أو

دفع أي تكلفة في سبيل رؤية ابنتهما وقد تفوقت في كل مجال من مجالات الحياة. فلقد بدأ في إعطائها دروساً في العزف على البيانو مذ أتمت عامها السادس، وواظبت أيضاً على دروس في الفروسية، وأصبحت فارسة بارعة، وكانت شعلة من النشاط أيام المدرسة الثانوية، وتوّجت ملكة في عدد كبير من مهرجانات الجمال، وقصّرت قليلاً عن احتلال المرتبة الأولى في تخرج دفعتها في المدرسة الثانوية، ونجحت بمعونة والدها، بالحصول على منحة تعليمية في واحدة من أعرق جامعات البلد، والتي صدف أن تكون الجامعة نفسها التي تخرج منها والدها، واستطاعت عبر مثيرتها وعملها تحقيق سمعة رفيعة لنفسها. وكان أمراً طبيعياً تماماً أن تكون موضع حسد لأخويها الأصغر، اللذان قارباً في هذه الآونة أن يضارعاها في إنجازاتها ومآثرها.

نعم يا سيدي، ليس ثمة أي شك في أن والديها بذلا كل ما بوسعهما ليحسّنا من شروط حياتها. لماذا إذن، كانت تضطرم تلك المشاعر من الغضب في أعماقها؟ إن السبب الذي استخلصته من حديثها معي، هو أن والدي هذه المرأة الشابة لم يراعيا أبداً مشاعر ابنتهما، فها هي قد ناهزت الثلاثين عاماً، مع نجاح في عالم العمل، تُلّفي نفسها، في لحظات الصديق التي تعيشها مع نفسها، غير راغبة أبداً بإعارة العمل مقاماً متقدماً من اهتمامها، ولا تعرف في الواقع ما تريد أن تفعل بحياتها، وما ذلك إلا لأنها لم تُعطَ أي فرصة أبداً للتأمل والتفكير بنفسها، لقد كان والدها يتخذ كل القرارات عوضاً عنها، إلى الدرجة التي شعرت فيها كما لو أنها لاتعيش حياتها الخاصة بها حصراً.

وسارعت، إثر إخبارها برأيي هذا، بالرد عليّ على أنني مخطئ. لكن مع تقدّمنا المشترك في مناقشة وضعها على ضوء تصوّري هذا لوضعها، بدأ هذا النموذج في الشخصية يتوضّح أمام أعيننا أكثر فأكثر.

فهي في الواقع، لم تكن قد طلبت في أي لحظة من لحظات حياتها، تلك الدروس في العزف على البيانو، أو دروس التدريب على الفروسية، ولم تكن تهتم مطلقاً بمهرجانات الجمال تلك، التي كان يبدو أنها تعني الكثير لأُمها. أما في الجامعة فلقد ذهبت في اختيارها الكلية ولوموضوع اختصاصها إلى التنفيذ الحرفي

لما طلبه والداها منها، حتى في أدق التفاصيل. وفور فهمها للسبب الذي جعلها تحسّ بهذه المشاعر، صار بإمكانها التعامل مع هذه المشاعر بقدر أكبر من الحرية، لكن لا أريد لأحد الآن، أن يسيء فهمي، فإن آخر ما أسعى إليه هنا، العمل على وضع إسفين بين هذه الصبية والديها فالإسفين موجود سابقاً بينهما، ولا تكفّ أبعاده عن الاتساع شيئاً فشيئاً. إن مشاعر الحنق والاستياء من أبويها حاضرة في أعماقها بقوة، رغم أنها لاتستطيع فهم السبب في ذلك.

وأفضت لي بعد ذلك، أنه يتابها أحياناً ما يشبه الإحساس كما لو أن ثمة سرّاً عميقاً موصداً عليه بإحكام في أعماقها، شيئاً منسياً، بيد أنه هو الذي يترك بصمته عليها، ويدفعها إلى الإحساس بالحنق والفيظ من والديها، اللذين تَكُن لهما قدراً من الحب لا يُحد.

إن أي خطوة تقطّعها على طريق فهم السبب المؤلّد لمشاعرها هذه، إنما هي خطوة واسعة ابتدائية باتجاه بذل جهد واع لمسامحتها، وهي لاتستطيع الاقتصار على تلويح يديها في الهواء، قائلةً لهما: «لاني أسامحكما يا ماما ويا بابا»؛ إذا لم يكن لديها أدنى فكرة عمّا تسامحهما به.

ولو قُدّر لها أن انصَبَ حنقها على ذاتها بدلاً من والديها، لأنها أحسّت أنها خيّت أملهما فيها، حين لم تبلغ في حياتها المستوى الذي يرتبها لها، فسيترتب عليها في هذه الحالة، بسط تسامحها في اتجاهين، باتجاه والديها لكونهما مارسا عليها ضغطاً من الأعباء غير واقعية، وباتجاه نفسها لأنها حطّت من قدر نفسها، ولكونها مارست على نفسها الضغوط ذاتها.

لا بد لي من الإشارة أخيراً، بأنه ليس سهلاً على المرء إلقاء نظرة فاحصة على الخلفيات والدوافع السلوكية للناس الآخرين، وخصوصاً عندما تتعلق المسألة بأناس قريين جداً منه، ويحبّونه، كما في حالة الوالدين، وهو ما يُطرح في جلّ الحالات التي من هذا النوع. لكن إذا شرع المرء بإلقاء نظرة تحليلية متأنيّة وصارمة على حيثيات هذه الدوافع كما تجري في الواقع، فإنه سيصبح أكثر تبصراً في معرفة السبب الذي يجعله يشعر على ذلك النحو، وحالما يصل إلى فهم الحالة، يصبح التعامل معها على النحو الصحيح في متناول اليد. إن فهم خلفيات ودوافع

البشر تساعد المرء على التسامح معهم، وهو ما أؤكد مجدداً على ضرورته بالنسبة للإثنين البكر الحانق، سواءً كان باتجاه ذاته أم باتجاه من يشعر بالحنق والاستياء منهم.

## ممارسة ضبط واعٍ للنفس

كي يمارس المرء ضبطاً ذاتياً واعياً للنفس، يلزمه معرفة حقيقة نفسه، بما فيها قدراته وجوانب القوة والضعف فيها. وكذلك قطع شوط على طريق فهم الأحداث الجارية، والعلاقات مع البشر الآخرين التي تجعل المرء كما هو ومن هو. ويلزمه كذلك فهم المواضيع التي تشغله، والتي قد تبقيه دائراً في حلقة من التردد بين إتيانها أو نبذها وإهمالها. لذلك يلزم أيضاً تعلّم كيف يمضي المرء ضد أهوائه لكي يتمكن من النجاة من حالة اللف والدوران في هذه الدوامة الموهنة للعزيمة.

إذا رجعتم بداكرتكم إلى الوراء، إلى ما كان رائجاً في سنوات الستينات، فستذكرون أن أحد الشعارات الأكثر انتشاراً في تلك الأيام كان «إذا هَذَاكَ أهواؤك إلى أمر فافعله»، حسناً، لا بدّ لي من القول إن عدداً كبيراً جداً من الناس قبلوا ذلك الشعار وطبقوا على أنفسهم «اتّبع هواك بغير هدى»، وهكذا كان مآلهم أن ينتهوا إلى صبّ اللوم على أنفسهم، ونعت أنفسهم بأنهم غير أسوياء، مسبّين لأنفسهم من جرّاء ذلك آلاماً ممّضة.

ولا يُعتبر أيّ من هذين الشعارين صالحاً لاتباعه، لأن انقياد المرء لأهوائه، يمكن أن يكون مصدر تنغيص له أحياناً. فلا يجدر بالمرء إغماض عينيه عن الواقع، والاقصّار على الاعتماد على الغريزة الفطرية والحدس ليدلّاه على ما يريده، وخصوصاً عندما يكون عارفاً أنه قد ورّط نفسه سابقاً في مشاكل، جرّاء فعله ذلك تحديداً.

ماذا توحى لك مشاعرك؟ هل تهمس في أذنك أنك مقبل على الإخفاق، ولاداعي إذن لإزعاج نفسك في إجراء أي محاولة؟ هل توحى لك أن أمراً معيناً سيُتخذ مساراً خاطئاً لأنه يسير هكذا دوماً؟ هل تؤبّك ساخرة، موحية لك أنه ما لم تأتِ بأمر معيّن كاملاً، فهو غير ذي جدوى على الإطلاق؟. إذا كان واقع

الحال كذلك، فالأحرى بك رفض الإصغاء إلى ما تدلّك مشاعرك عليه، عداك عن التسليم به، لأنك إذا كنت مقتنعاً أنك ستخفق، فأنت ستخفق إذن كاحتمال شبه قاطع، وإذا كانت لديك قناعة بأن أي تقصير عن حدود الكمال يعني أنه لا يوجد حدّ كافٍ من الصلاحية والجودة في الأمر، فستؤدي بنفسك لأن تصبح محبباً لدرجة تجعلك مقصراً كثيراً عن إنجاز الأعمال الرفيعة التي بوسعك فعلها. وتحدثت سابقاً عن نمط الشخصية الذي دعوته استكمالياً منبسط الهمة، وهو من فئة البشر الذين تلجهم مشاعرهم عن أنفسهم، إلى الدرجة التي يفقدون عندها القدرة على فعل الكثير في أي أمر كان، حتى لو كانوا يتمتعون بمواهب وقدرات. وتتلخص المشكلة الخفية في الاستكمالي المنبسط الهمة - ومعظمهم أبناء بكر - في أنه يؤخّل عموماً بدء الأعمال، لأنه يعلم أنه لن يصل إلى الكمال فيها، فلنفترض أن عليه واجباً كتابة تقرير فستتابه آلام المحاض في كل كلمة، لأنه يخشى عدم الكمال، وأي تقصير عن حدود الكمال لا قيمة له في ذهنه، وهكذا سيتصبّب عرقاً فوق الورقة البيضاء عدّة ساعات، ثم ينجس نفسه: «سأقلع في هذا العمل غداً، بعد استيصار جوانب الأمر أكثر». لكن ما هو الغد يأتي، ويتركز الأمر السابق نفسه، فهو يرفض كل جملة ترد إلى خاطره لتدوينها على الورقة كبداية، لأنها تقصّر إلى هذا الحد أو ذاك عن حدود الكمال، مما يؤدي إلى إضاعة وقت طويل في ذاك، إلى الدرجة التي ينتهي به الأمر لأن يرتجل في اللحظات الأخيرة عملاً متعجلاً غير مدروس بإمعان.

وكان يلزمه ممارسة ضبط نفس - ذاتي واع، وتقليل الأمر في ذهنه على الشكل التالي: «لن يصل هذا التقرير إلى الكمال، لكن بوسعي الوصول به إلى المستوى المقبول، والجملة الأولى أصعب من كل الحمل الأخرى على الأغلب، لا بدّ لي من الانتهاء من كتابة هذا التقرير، والطريقة الوحيدة لإنجازه، هي البقاء في مكاني جالساً والشروع في الكتابة». يدلنا المثل القديم على أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة، وهو ما يجب أن نحفظ به في ذاكرتنا دائماً. والنجاحات الكبيرة تركز على نقاط استناد من نجاحات أصغر، نجاح طفيف فنجاح طفيف فنجاح طفيف وهكذا. فإذا كنت مركّزاً ذهنك على النظر إلى كامل اللوحة الواسعة، متسائلاً بامتنعاب كيف يمكن تحقيق أمر معيّن على أكمل

وجه، فإنك كاحتمال على الترحيح ستهمل الأمور الصغيرة وتتركها غير منجزة، أو لن تنجزها بالكفاءة نفسها التي تتمتع بها أو التي كان من المفروض أن تنجزها بها.

## ظور حس الفكاهة من نفسك ومما يصدر عنك

هل تتذكر أول مرة هزأ منك أول شخص؟ ربما كنتم شخصين أو ثلاثة، حين تقوهمت أو صدر عنك تصرف معين دفع المحيطين بك لأن يضحكوا غصبا عنهم، إنهم لم يسعوا إلى جرح مشاعرك، لكن المسألة وما فيها أنهم عجزوا عن السيطرة على أنفسهم. ذكر لي أحد أصدقائي في هذا المجال أنه لن ينسى أبداً تلك اللحظة حين كان يتلو أمام جمهرة من الناس في الكنيسة المزمور الثالث والعشرين من مزامير داوود، وكان عمر صديقي وقتها حوالي الخمس سنوات، وأدى ذلك ببراعة إلى أن وصل إلى «وجعلني أستلقي على المراعي الخضراء (green pastures)»، وكان يدرك ما يعني قوله، لكن لسانه زل لسبب أو لآخر، فقرأها «وجعلني أستلقي على اللاصق الأخضر (green plaster)»، وكما تتخيلون ضجّت القاعة بموجات من الضحك، ويستعيد صديقي الآن حالته في تلك اللحظة، وكيف كان وجهه متورداً بالحمرة، وعينه مترغرغتين بالدمع، فلقد شق عليه تصديق كونه صار أضحوكة لمثل هؤلاء الناس في مسألة كهذه. وما هو الآن يضحك من نفسه بعض الشيء حين روايته تلك القصة لي، فلقد مضى على الحادثة ثلاثون عاماً. لكنه علّق أيضاً أنه لا ينسى حدة ما أحسّه من ألم وغضب حينئذ.

روت أيضاً صديقة أخرى لي عمّا أحسّت به من ألم عندما كانت في التاسعة من العمر، وذلك عقب محاولتها صنع بسكويت لما سبّرتك من انطباع جيد لدى أهلها، يشيدونها عليه فيما يلي من سنوات، إلّا أن خطأ معيناً حدث، فأدى إلى ألا ينفش البسكويت، ثم أخذ قواماً كقوام الإسمنت، وبدا ككرات الهوكي المسطّحة أكثر من كونه بسكويت بالحليب والزبدة وحاول والداها أن يُبدّيا رد فعل لطيف على ما جرى، بل لإنهما حاولا أكل قطعة أو اثنتين، لكن ما قرأته في وجهيهما كان يؤكّد لها موقفهما الحقيقي بأن المسألة مضحكة، وبأنهما

يمسكان ضحكتهما بصعوبة بالغة. لكن أخاها كان فظاً معها وذكر لها صراحةً بأن ذلك البسكويت كان «أحد أكثر الأشياء غباءً»<sup>(٩)</sup> رآه في حياته، وأخذ القطع بعدها بيده مع أحد أصدقائه المقرّين، وذلك إلى عرض الشارع صوب بركة صغيرة من الماء، واستخدمها كأحجار دوامة للانزلاق على سطح الماء، يا له من تصرف شائن!

وتضحك الآن وتقول: «طيب، لا بدّ لي أن أعترف، أنها أدت غرضها جيداً كأحجار للانزلاق على سطح الماء. واعترفت لي أيضاً أنها حتى فترة متقدمة من ذلك الحدث، ولحدود سنوات قليلة سابقة لهذه اللحظة الحاضرة، لا يرد إلى ذهنها هذا الحادث بدون الإحساس بوخزات من الألم.

والآن، لديّ كامل الاستعداد للمراهنة على أنكم تذكّرتم أثناء إخباركم بهذه القصص، حوادث مماثلة جرت معكم أيضاً، فجميعنا ارتكب حماقات، وجميعنا ضُحِك عليه جرّاء عمل معيّن، ووجد معظمنا صعوبة في التعامل مع ذلك وخصوصاً عندما كنا أطفالاً. لكن ماذا عن الوضع الآن بعد أن كبرنا؟ أما زال الأمر صعباً بالنسبة لكم أن تضحكوا قليلاً على أنفسكم؟

ولا تظنّوا أنني أبالغ في التوكيد على أهمية تطوير حس الفكاهة لديكم. فكّروا في قابيل، ذلك الرجل المسكين المفرق في القدم هل يمكنك تصوّره مبتسماً، وضاحكاً على نفسه من أخطائه الشخصية؟ بالطبع لا، فلقد كان صارماً وعبوساً إلى حد الموت، وشخصية نموذجية لمن يرى الحق إلى جانبه دائماً، ولمن يرغب بنيل إعجاب الآخرين واحترامهم، وهو أيضاً لا يقبل بأن يكون أقل جدارة من أخيه الأصغر في أي شيء ولو لدقيقة واحدة. تخيّلوا إذن كم سيكون مجرى الأمور مختلفاً، لو كان يمتلك حسّاً في الفكاهة نامياً، أو على الأقل الشجاعة لأن يقابل ما يحققه أخوه بابتسامة.

وثمة عدد قليل فقط من الأبناء البكر ممن اشتهروا بوجود حس الفكاهة لديهم، والنسبة الأكبر منهم غير معروف عنهم بأنهم من نوعية البشر الذين يؤثرون التهوين من قيمة المسائل، وخاصةً عندما تكون على حسابهم. لكن أكرر مرة ثانية وجهة نظري بأنه بوسعك، أنت المولود البكر أن تتعلّم الضحك على نفسك، إذا وضعت في ذهنك ثلاثة قضايا:

1 - يرتكب كل البشر حماقات بين آني وآخر، فأنت لست الوحيد إذن في ذلك.

2 - يجعلك بعض الناس أضحوكة لهم لأنهم يغارون منك، أو لأنهم يدركون أن ذلك يمكن أن يغيظك.

3 - الضحك نافع ومفيد لك - جسمانياً، وعقلياً، وعاطفياً، ومعنوياً.

وعندما يتأبك الغضب مستقبلاً لارتكابك حماقة في قضية معينة، أو لأن شخصاً حطّ من قدرك، فالأجدر بك أن تضحك. وربما استدعى الأمر إجبار نفسك على ذلك، بل ربما استدعى بذل كل ذرة من طاقتك ومهارتك في التمثيل، لكن سيكون من مصلحتك تمثيل الابتسامة على وجهك، وإدارة ظهرك لكل ما جرى. وربما كنت تستشيط غيظاً من الداخل، لكن ليس في صالحك إتاحة الفرصة للآخرين لمعرفة ذلك. لك أن تصدقني أو لا تصدقني إذا قلت لك إنك إذا تدربت على مواجهة أخطائك الشخصية بالضحك والابتسام، ستصبح بعد فترة محدودة جداً قادراً على إتيان ذلك بدون أي جهد، وتعيه حقاً.

وإن ضحكك على نفسك لا يعني أنك تحط من قدر نفسك، بل إن هذا يبين أنك تحترم نفسك حقاً، وإلى الحد الذي يجعلك تعي أن أخطائك ليست أكثر فحشاً من أخطاء أي شخص آخر، ويبين أيضاً أنك واثق كل الثقة بنفسك، إلى الحد الذي يجعلك تعي أنك قادر على تجاوز هذه الأخطاء.

لا تسمح للغضب بأن يسيطر عليك، ولأفانك ستدفع ثمناً غالياً لذلك، ولن تصبح حياتك مباشرة بأي حالٍ من الأحوال... حسبك التمعّن بما أدى إليه ذلك مع قاييل المسكين.



General Organization Of the Alexan-  
dria Library (GOAL)

*Bibliotheca Alexandrina*



## الفصل الخامس

### الاستكمالية(\*)

اقتبست في كتابي<sup>(١)</sup> (تصنيف الترتيب الولادي) إعلاناً شخصياً، كنت قد قرأته في إحدى الصحف اليومية. أنا أكره تكرار نفسي، لكنها واحدة من تلك الروائع الفنية الرفيعة التي تقبل التكرار، فلقد كان ينص على ما يلي:

«امرأة مسيحية، شقراء، زرقاء العينين، طول قامتها خمسة أقدام وإنشين، وزنها مائة رطل إنكليزي، أستاذة، من العرق الأبيض، مستقلة في التزاماتها. ترغب بقاء رجل مسيحي بروتستنتي، أستاذ جامعي، في الثلاثينات من عمره يحمل شهادة جامعية عليا، ومدافع عن حقوق الحيوان والإنسان، يحب الطبيعة، سليم جسمانياً، ويواظب على ممارسة الرياضة، غير ملتزم بفريق رياضي، يحب الموسيقى والرقص، يواظب على التردد على الكنيسة، ويؤثر حياة البيت. لا يبدى أي رغبة بتعاطي التدخين ولا المشروب الكحولي. نحيف القامة، طوله بين خمسة أقدام وستة إنشات وبين ستة أقدام، شعر رأسه كثيف، أجرد الصدر، ذكي، صادق وأمين وجدير بالثقة، حسه بالفكاهة نام، قادر على عقد صلات وثيقة مع من يعاشر، حساس جداً، لبق، حنون، مقتنع بدور متساو للمرأة والرجل في الحياة، معطاء، مشجع ومساعد للآخرين، ليست له أهواء أنانية أو مزاجية، مؤمن على نفسه وأمواله، لديه وعي صحي نام، مرتب ونظيف، مراع جداً لمزاج الآخرين، يمكن الاتكال إليه. وأنا متمسكة بالقيم والأخلاق ذات الطابع المحافظ. فإذا كان لديك الرغبة نفسها، وكنبت على استعداد لعقد قران مسيحي، فاكتب

(٥) - استكمالية (Perfectionnisme): رغبة مَرَضِيَّة في بلوغ الكمال. م.

إلى صندوق بريد 82533 . وأرجو أن تُضمّن جوابك صورة ملوّنة حديثة مع العنوان».

فهل تظنون أن المرأة وجدت بغيتها في ملاقة الأمير الذي تُشير لأجله الإعلان؟ أنا لأظن ذلك. بل لو كانت إحدى الشركات العملاقة، ولتقل في نيوجرسي مثلاً، تصنع رجالاً، فإني في الواقع أتخيّل أنهم سيواجهون قدراً كبيراً من المصاعب في توليف وتركيب النموذج القابل لأن تمنحه تلك المرأة موافقتها ومباركتها.

أنا لأعرف شيئاً عن تلك المرأة التي دفعت تكلفة هذا الإعلان، لكن لديّ كامل الاستعداد لأن أراهن أنها بنتٌ بكر، فإذا كان ثمة شرك يميل الأبناء البكر للوقوع فيه أكثر من أيّ شيء أخرى من البشر، فهو شرك الاستثمارية. دُلّني على شخص استثماري - وخصوصاً من النموذج الذي اصطلحت عليه كاستثماري مثبط الهمة - وستكون الأرجحية عشرة إلى واحد أنك تدلّني في الآن نفسه على ابن بكر.

ولاكتشاف نفسك فيما إذا كنت استثمارياً مثبط الهمة، إليك امتحان اختياري مختصر يساعدك على ذلك:

1) - طُلب منك إجراء دراسة لحساب تكاليف تجهيز أرضية ملعب رياضي جديد، وأن تقدّم عرضاً شفهيّاً لما توصّلت إليه في الاجتماع القادم للجمعية الحي. فما هو رد الفعل الأكثر ترجيحاً لأن تُقدّم عليه من بين الاحتمالات التالية:

أ - يتولّد عندك شعورٌ بالخوف من عدم إنجاز التقرير في الوقت المحدد وقبل حلول موعد الاجتماع.

ب - تستحوذ عليك الخشية من أن لا يكون الأشخاص الذين ستتلو عليهم تقريرك منصّفين، أو أن لا تحصل على أرقام تكلفة مناسبة.

(ج) - تشعر بالفخر والاعتزاز بنفسك، لأنه تمّ الاعتراف بك شخصاً جديراً بتسلّم هذا التعهد، وتبدأ بالعمل به فوراً.

2) - قصديّ بيت أفضل صديقة لديك، لتناول فنان من القهوة عندها، فعبّرت

لك عن أسفها لكونها مشغولة جداً، ولانستطيع استقبالك الآن. فما هو رد الفعل الذي ستقدمين عليه من بين الاحتمالات التالية:

- (أ) - تُنقبين في ذهنك عن تصرف صدر عنك وكان مؤذياً لها.  
 (ب) - يستحوذ عليك الغضب جزاء وصولك إلى قنعة سلبية عن حقيقة موقفها منك الذي كشفه لك سلوكها.  
 (ج) - تعبرين لها عن تفهمك للوضع (وتعنين ذلك حقاً)، وتطلبين منها الاتصال بك عند توفر الوقت لديها.  
 3- إذا صدف أن تأخرت خمس عشرة دقيقة عن عملك، فما سيكون عليه رد فعلك من بين الاحتمالات التالية:

- (أ) - تحاكم الأمر في ذهنك على أن جميع من في المكتب رآك تأتي متأخراً، والجميع على الأرجح يتحدثون عنك.  
 (ب) - تقولك خطاك إلى غرفة المدير، وتعرف له بعملك المشين، ثم لاتتوقف عن العمل خلال فترة الغداء لتعويض ما أضاعته.  
 (ج) - تحاكم الأمر على أن الجميع يتعزق بعائق معين بين وقت وآخر، وتعاهد نفسك على أن تحاول أن لاتتأخر مرة ثانية.  
 4- إذا حصلت بعد إجراء موازنة لدفتر حساباتك، على فرق في الحساب بمقدار خمسة عشر بنساً، فهي ستقدم على أن:

- (أ) - تنكب على العمل في مسألة الفارق هذه لمدة ساعات وساعات، معاهداً نفسك على عدم الكف عن ذلك حتى تجد المبلغ المفقود.  
 (ب) - تحاكم الأمر على أن خمسة عشر سنتاً قيمة لانتسحق في الواقع القلق عليها، لكنك تبقى مستيقظاً طوال الليل وأنت مستلقي على الفراش، يشغلك سؤال واحد؛ أين مكان الخطأ؟  
 (ج) - تحاكم الأمر على أن خمسة عشر سنتاً قيمة لانتسحق القلق عليها، ثم يتلاشى لديك القلق فعلاً.  
 تُعتبر الأجوبة (أ) و(ب) في جميع الأسئلة الواردة، رد فعل طبيعى وعفوي لشخص استكمالي مثبط الهممة.

وتدلل الأجوبة (ج) فقط على وعي صحي لتقدير الذات حق قدرها،  
وتدلل على حالة ذهنية ونفسية مرتاحة في تناغمها مع إيقاع الحياة عموماً.

يتغلب الاستكماليون المثبطو الهمة على كل العالمين في السؤال رقم واحد،  
ولا يستطيع أحد أن يبرزهم، عندما يتعلق الأمر بالتوقع المسبق لمصائبهم وإخفاقهم  
الشخصي.

ويظهر الاستكماليون المثبطو الهمة في السؤال رقم اثنين أيضاً في قراءة  
ما بين السطور، واستنباط ما يقصد الناس حقاً، والوصول دائماً وأبداً إلى نتيجة  
فحواها أنهم منبوذون ومستخف بهم.

وثمة تسليية مفضلة أخرى للاستكمالين مثبطين الهمة في السؤال رقم  
ثلاثة، وهي التضخيم والمبالغة في أخطائهم وعيوبهم. وأخيراً في السؤال رقم  
أربعة يجهد الاستكمالون المثبط الهمة نفسه في تحليلاته وحساباته لساعات  
طويلة، مزعجاً نفسه في المسألة إلى أن تأتي عفو اللحظة التي يحين فيها الإقلاع  
عن الاهتمام بها. ويخوض غمار جولات من المصارعة مع أقل المعضلات أهمية،  
لأنه يرغب أن يتم أي أمر من الأمور على الوجه الأكمل.

والآن، كيف أجبت أنت على الأسئلة؟ هل ألفيت نفسك ضمن الحالات  
المشروحة أدناه؟ إذا كان الأمر كذلك فلديك نزوع إذن لأن تكون استكمالياً  
مثبط الهمة. لكن لا تسمح لذلك بأن يؤدي بك إلى الخروج عن طورك، فلن  
تعدم الأمل!

إن بإمكانك تعلم التألف مع حياة تشتمل على قدر معين من عدم  
الإنسجام، وعلى قضايا غير كاملة تماماً، وأن تحتفظ في الآن نفسه بالقدرة على  
الابتسام بغض النظر عن طبيعة الظرف المحيط بك.

وتتحدث الدكتورة ميريام أورهودت في كتابها «الاستكمالية، الوجه  
السلبى لمن يتمتع بكفاءة فائقة عن الحد الطبيعي» عن عدة ألعاب، يميل  
الاستكماليون لأن يلعبوها<sup>(2)</sup>. وبالطبع لا يلعب كل الاستكمالين بالضرورة كل  
هذه الألعاب، لكن إذا تتمرغ في وحل هكذا نموذج سلوكي، فلا بد أن ترى  
نفسك منعماً في واحدة من هذه الألعاب:

**الأرجحة القصوى في الحالة المزاجية:** تتحدد الحالة المزاجية للاستكمال طرداً مع نجاحه أو فشله الأخير، فإذا أبدى المدير إعجابه بتقريره، فسيغمره إحساس وكأنه من صفوة العالم. أما إذا راودته فكرة أنه ثمة مجال لأداء عمله على نحو أحسن، فسيقوده إحساسه إلى عتم قعر حفرة عميقة.

**لعبة الأرقام:** وهذا يعني أن يعاير المرء جدارته حسب كم إنجازاته وليس حسب كفاءتها، وينتج عن ذلك أن لا يتم العمل بالكفاءة التي يتمتع بها، لكنه يواصل الاندفاع من مشروع إلى مشروع في سبيل إنجاز ما يكفي للشعور بالرضى عن نفسه.

**إعمال الفكر من خلال منظار:** عندما ينظر المرء هنا إلى أي أمر يُطرح عليه، تبدو المسألة لنا كما لو أنه ينظر من خلال منظار، مما يؤدي إلى أن يرى الأمور بحجم أكبر بكثير مما هي في الواقع. وعلى النقيض من ذلك يقلب طريقة تناول الأمور عكسياً عندما ينظر إلى ما أنجزه سابقاً، لتبدو له إنجازاته ذات حجم بالغ الصغر ودون أن يخامرهم أي شك في ذلك.

**تركيز الأنظار صوب المستقبل:** يتساءل المرء هنا إثر توصله إلى نتيجة طيبة في أمر معين: وماذا بعد؟ فليس ثمة أي وقت للاسترخاء والاستمتاع بتأمل نتائج عمله، بل كل ما يشغله شعور مسبق بالقلق والاهتمام بما سيأتي في لاحق الأيام. **تأنيب النفس على الماضي:** في حال عدم وجود شعور بالقلق تجاه المستقبل، فإن المرء هنا يجترّ في مخيلته أفكاراً سوداوية عن إخفاقات سابقة له، ويبحث في ذهنه عن السبب الذي منعه من تأدية العمل على نحو أفضل، ثم يلعب لعبة «لو...» «لو أنني فقط درست بجد أكبر...» «لو أنني فقط بذلت مجهوداً أعلى في إعداد التقرير...» وهلم جرا.

**تضع أهدافك في المقام الأول:** يعد المرء نفسه هنا على أن يرصد وقتاً للترفيه عن نفسه لاحقاً، فور وصوله إلى تحقيق بغيته. أو يعد نفسه على أن يمضي بعض الوقت لاحقاً مع أسرته، عندما تسمح ظروفه بذلك، أما الآن فلا بد له من مواصلة اندفاعه في إنجاز المشروع الذي بين يديه. ويصادف كل امرئ حالات يترتب عليه فيها وضع المرح والأصدقاء جانباً ليركّز جهوده على إنجاز المهمة التي

بين يديه، لكن الاستكمالي يميل لأن يفعل ذلك باستمرار، منتقلاً مباشرة من مهمة إلى أخرى، ونادراً ما يكرّس وقتاً للترويح عن نفسه أو لتزجيته مع أولئك الذين يحتلون موقعاً مهماً في حياته.

الفوز بالأمر على النحو الأمثل: «سأواصل العمل في هذا الأمر حتى أفوز به على الوجه الأمثل!»، وتترجم هذه اللعبة في مجال المدرسة بالمشهد التالي أو بما يمثله: «لماذا تعيد مادة الهندسة مرة ثانية هذه السنة؟ إنني أظن أنك حققت فيها نتائج مرضية إلى حدٍّ ما في السنة الفائتة».

- «لا.... لقد حصلت على نتيجة جيدة، ولن أتوانى عن إعادة هذه المادة حتى أحصل على نتيجة ممتازا».

التفكير على طريقة كل شيء أو لا شيء: لا يرضى الاستكمالي المثبط الهمة ما لم يكن الأفضل في كل ما يفعله، فهو لا يشعر بالرضى عن نفسه إلا إذا كان رئيساً في الفريق الرياضي الذي يشارك فيه، والمنشد المفرد في فرقة كورال الكنيسة. وتلك المرأة التي تفوز بالشريط الأزرق عن فطيرتها في المعرض السنوي للفنون النسوية، وربة البيت الأكثر ترتيباً، والأم المحظوظة في ثمانية أولاد رائعين، وإذا حدث وهزمتها (يتي لو سوانسون) في انتخابات مجلس آباء الحي، فستشعر كما لو أن ذلك فشل ذريع ونهائي.

والآن، هل أنت منغمس في ممارسة عدد من هذه الألعاب؟ كم عددها؟ أعط نفسك عشر نقاط عن كل واحدة، واجمع النقاط التي سجّلتها: 70 - 80 نقطة: احذرا. وإلا فإن صورتك ستنتشر في الموسوعة تحت عنوان «استكمالي مثبط الهمة».

50 - 60 نقطة: لامناص أمامك من إصابتك بالقرحة، لكن هناك بعض الأمل.

30 - 40 نقطة: لا بد من الإقرار بأنك تدبّر أمورك جيداً إلى حدٍ ما، قياساً بمولود بكر، لكن بإمكانك تحقيق الأفضل.

10 - 20 نقطة: من الطبيعي أن ينغمس أي إنسان في واحدة أو اثنتين من هذه الألعاب.

نقطة: إما أن تكون قادمًا من كوكب آخر، أو أنك لاتصرّح بالحقيقة!

أتذكرون شقيقتي سالي؟. طيّب فأنا لن أنسى ما حييت ذلك التصرف الذي أتت به عقب شرائي لقارب جديد، فلقد حدث أن اشتريت قارباً ليس كبير الحجم، أو من نوع قارب الرحلات، لكنه على أي حال قاربٌ ظريف. وكنت قد خطّطت في ذهني أن أقوم برحلات للصيد على متنه في بحيرة تشوتوكوا الواقعة إلى الشمال من نيويورك، حيث يتواجد كوخٌ صيفي لنا.

لقد انتفضتُ زهواً لحظة إنزال القارب إلى الماء، ثم ربطته إلى المرسى، وكنت في تلك اللحظة مثال الأخ الصغير المثار، والذي يغالب نفسه منتظراً تلك اللحظة التي يري فيها أخته الكبيرة ما قد اشتراه، ولم يستدع الأمر مني الانتظار لوقت طويل قبل أن تصل فعلاً إلى الرصيف وترى لعبتي الجديدة. واقتصرتُ على النظر إليها مبتسماً بابتهاج؛ دون أن يصدر عني أي تعليق منتظراً تعليقها على مكسي العظيم الجديد.

لكن العبارة الأولى التي تفوّهت بها، وبعد إلقاء نظرة خاطفة على داخل القارب: «آثار أقدام».

- «آثار أقدام؟»، عن أي شيء تتحدث سالي؟ نظرت إلى أرضية القارب، نعم ثمة ما يكفي من الدلائل لأن أؤكد أيضاً بأن هناك آثار أقدام على الدثار الكستنائي للمقاعد، ويبدو أنه أثناء إنزال القارب إلى الماء، كنت قد لوثت حذائي الرياضي بالطين، ودست بعدها على وسادة أحد المقاعد.

وقلت بطريقة مرحة حانياً جذعي فوق الآثار: «نعم، سالي تلك آثار أقدام. أيمكنك القول الآن إنها آثار أقدام؟»، أخذاً مسح الآثار بيدي. وانفجر كلانا بالضحك على ما جرى، لأن كلينا يعلم أن المسألة تؤكد نزوعها ك بنت بكر استكمالية لاكتشاف أي نقيصة في أي حالة تصادفها.

والآن، ما هي حالتك أنت؟ وما هي حالتك أنت؟ هل تخشين القيام بأي خطوة خارج البيت بدون إجراء كافة إجراءات الرينة؟ هل تقف أمام المرأة لتعقد ربطة عنقك ثم تفكّها وتعقدها وتفكّها وتعقدها حتى تأخذ وضعيتها الأمثل؟ هل أنت أسوأ ناقد لنفسك، وأقسى قاضٍ لها؟ هل تصاب بخيبة أمل حادة في

نفسك عندما تخفق في قضية معينة، وتقول لنفسك إنك لم تعد كفؤاً لأي أمر؟ فإذا كان الأمر كذلك، فربما يكون مفاجئاً لك أن تعلم أن عدداً من الناس الأكثر شهرة وتأثيراً في التاريخ، اعتُبروا فاشلين في إحدى مراحل حياتهم. وتذكر الدكتور (أدروولدت إليوت) خمسة أشخاص مشهورين، لم يحققوا نجاحات في كل مراحل حياتهم: تشارلز داروين: لم يحقق نتائج جيدة في المدرسة أثناء طفولته، ورسب في منهاج الطب الجامعي.

ألبرت آينشتاين: كانت نتائجه ضعيفة في كل مقررات شهادة المرحلة الثانوية تقريباً، وسقط في امتحانات القبول في الكلية الجامعية.

ونستون تشرشل: كان من الأخيرين في صفه في إحدى المدارس، وسقط في امتحان القبول في أخرى.

بابلو بيكاسو: كان بالكاد قادراً على القراءة والكتابة حين بلوغه العاشرة من عمره، وحين أخذ والده بقياده خارج صفوف المدرسة، وأما المدرس الخصوصي الذي استُؤجر لتدريسه فلقد كفَّ عن ذلك وأبدى تذمراً من متابعة تدريسه.

بول اهرليش: الحائز على جائزة نوبل للطب في عام 1908 ، كان تلميذاً بليداً يكره الامتحانات، ويعجز عن الإجابة عن موضوعات الفحص الشفهي، أو عن الإجابة كتابة في الفحوص النهائية.

ماذا يعني كل هذا بالنسبة لكم ولي؟ إنه يعني أنه في حال إخفاقنا في تحقيق هدفنا بين وقت وآخر، فإننا لن نكون وحدنا، بل سنرافق على هذا الطريق عدداً من الرجال العظام. إن ذلك يعني أيضاً أن فشلاً في مسألة أو مسألتين لا يعني نهاية العالم، ولا يعني ضمناً أننا لا نمتلك الأهلية لأن نبرز الخطى باتجاه تحقيق أمور عظيمة. فما كان سيحدث لو قُبِضَ لـ لويس باستور أن يقرَّر أنه ليس على قدِّ ذلك العمل العلمي لأنه لم يكن من المتفوقين في شعبة الكيمياء التي يدرس بها، ثم أثر المضي في سيرة حياتية أخرى؟. بل إن التصوُّر الأكثر مأسوية هنا، أن نتصوَّر ما كان سيحدث لو أن معلِّم بيتهوفن، والذي كان يدعو «مغفل لا أمل منه»<sup>(4)</sup>، نجح في إقناعه بعدم جدارته وأهليته، وما سيؤدي إليه ذلك من



عزوف هذا العبرقي الموسيقي العظيم عن تأليف أي نوبة موسيقية. وهل يمكن لأحد تقدير حجم الخسارة الرهيبة التي كانت ستحدث!!!!

يتعرض كل كائن بشري أثناء سعيه لتحقيق هذا الهدف أو ذاك للوقوع في الإخفاق، مهما كانت درجة الذكاء أو الموهبة أو الفأل الجيد التي يرفل بها المرء، والأسلوب الوحيد لتجنب الوقوع في الإخفاق، هو الجلوس في إحدى الزوايا، وعدم إتيان أي أمر على الإطلاق.

دعنا الآن نعالج الطريقة التي ستتعامل بها مع ما يعترض طريقك من إخفاق، فهل سيقهر كعدو ويتغلب عليك، أم سيكون معلماً لك. «نعم، لقد عرفت مكن الخلل في هذا الأمر، لذلك لن أرتكب الخطأ نفسه في المرة القادمة، فلقد أصبح لدي فهم أفضل للحالة».

وربما يصح اعتبار الفشل أفضل معلم في العالم لكن شرط أن تبذل قصارى جهدك للنظر إليه من زاوية موضوعية ومتوازنة، فأن ترفع يديك مستسلماً على طريقة: «لقد كنت أعرف أن ذلك سيحدث! فهذا ما يحصل معي دائماً»، لن يقدم لك أي ذرة من الفائدة، وإن الطريقة الوحيدة التي ستتعلم منها، وتحسن بها استثمار ما جرى، هي أن تتعلمي بدقة وعن كثب في العوامل التي أدت لأن يعترضك الفشل.

هناك أمر آخر أيضاً، وهو أنك لست مجبراً لأن تصدق أو حتى تصغي لأولئك الذين يعتبرونك غير صالح لقضية معينة. ومن طبع المولود البكر أن يجد نفسه مُسترحماً في القسم الأعظم من حياته في مجارة مقاييس معيارية لأناس آخرين، إلى الدرجة التي لن تتيح له على الأغلب إجراء وقفة نقدية لمعرفة ما يريده حقاً في حياته، فهو يستنزف حياته في مجارة آمال والديه فيه، وآمال أساتذته... وهلم جرا، وهو على استعداد في حدود معينة، لأن يحاول الاستجابة لآمال أي شخص فيه، وهذا ما يعني من ناحية أخرى أنه يميل لأن يصدق ما يقوله أي شخص عنه.

«لقد قال إنني كاتب فاشل، ولا بد أن يكون ذلك صحيحاً، ومن المفترض لي إذن الإقلاع عن ذلك».

«لقد قالت إنني لأجيد العزف على البيانو مطلقاً، ولا بد أنها محقّة في ذلك، فأنا بالتأكيد لم أخلق ليكون لي نصيب في حقل الموسيقى». من هو الذي يقول إن عليك إعاره الأذن الصاغية لأولئك المتحدّثين عنك بالسوء؟، فأنت لاتعيش حياتك لكي تسعدهم، ثم من الذي يعرف ما هي دوافعهم الحقيقية؟

هل تحمّل نفسك التزامات غير معقولة؟، لابد أنك تتذكر حديثي السابق عن ضرورة التقليل من ارتفاع عارضة القفز العالي في حياتك. فماذا يحدث معك على هذا الصعيد؟، وهل أنت من الطبيعة التي تحاول أن تتبين فيما إذا كانت قادرة على القفز فوق عارضة ارتفاعها سبعة أقدام، قبل أن تقفز فوق عارضة ارتفاعها أربعة أقدام؟ فإذا كان الأمر كذلك، فثمة عدة إجراءات ملموسة يمكنك اللجوء إليها لتقوم وضعك:

- 1 - تصوّر نكساتك على أنها خبرات تعليمية.
  - 2 - تعلّم أن تكلّل جهودك بتحقيق نتائج عالية الجودة بدلاً من النتائج الكاملة.
  - 3 - كوّن نظرة واقعية عن نفسك وقدراتك.
  - 4 - تعلّم أن تعيش في عالم الواقع.
  - 5 - واجه مخاوفك بجسارة.
  - 6 - تحمّل مسؤولية شؤونك الخاصة.
- دعونا الآن نعالج هذه الإجراءات واحدة فواحدة:

## تصوّر نكساتك على أنها خبرات تعليمية

كان المرحوم بيل فيك، مالك (Chicago white sex)، أول من أطلق العبارة «الريح ليس أولى الأوليات، بل إنه الأولوية الوحيدة»، والتقطت كلماته هذه، وكُثرت وأعيد صياغتها مرّة تلو أخرى، وكانت أبرز هذه الصياغات الجديدة تلك التي قالها المدرب الرياضي العظيم المرحوم فينس لومباردي.

وأنا على يقين أنك سمعت بها سابقاً، لكن سؤالي لك هو التالي: هل تعتقد أن الريح هو الأولوية الوحيدة؟

«من، أنا؟ أوه، تابع يا دكتور ليمان. من تظنني أكون؟ فأنا أعني أن الريح ليس كل شيء!».

طيب، أنا موافق... أنا متأكد أنك تعي ذلك، على الأقل ظاهرياً، لكن هل تعيه حقاً، من جَوَانِيَتِكَ النفسية، في المكان الذي تأخذ أهميتها فيه؟ ما هو شعورك الحقيقي عندما تتعرض لهزيمة منكرة في لعبة المطاردة العادية على يد جارك؟، وما هو رد فعلك عندما يهزمك أحد زملائك في العمل هزيمة مذلة في لعبة التنس؟ وهاكم سؤال قاس أيضاً لجميع المتزوجين منكم، والرجال حصراً: كيف تتلقى الأمر في حال أدت زوجتك مسألة معينة أحسن منك، سواء في لعبة التنس أم في لعبة الاحتمار أو البولينغ أم في المطاردة العادية؟ (ولا بد لي من القول هنا، بأنه إذا كان مثلك مثل جلّ الرجال، فسيشقى عليك تقبل الهزيمة في أي ميدان على يد زوجتك. لكن، بغض النظر الداعي لذلك، أجد لزماً علينا نحن المتزوجين تدير أمورنا على أن نبدو سمحاء النفس وباسمين عندما تهزمتنا زوجاتنا هزيمة منكرة في لعبة معينة أو أخرى!).

والآن، لو فرض علينا جميعاً أن نكون صريحين وصادقين فيما بيننا، فإن علينا أن نعترف في هذه الحالة أن لأحد منا يحب عن سابق إصرار وتصميم أن يخسر (وأي شخص يحب أن يخسر يحتاج في الواقع إلى معالجة نفسية!).

ومن الطبيعي تماماً أيضاً أن يكون وقع الخسارة عليك من قبل بعض الناس أقسى من وقعها من قبل أناس آخرين، فإذا صدف أن خضت مباراة في الغولف مع شخص متبجح ومتباه بنفسه، فإنك ومهما كانت صلتك بهذا الشخص، ستلقى ضربة قاسية ومؤلمة إذا حدث وتغلب عليك، لكن إذا كان شخصاً حسن الطوية، ويبدى باستمرار روحاً سمحاء، فسيكون للهزيمة وقع أكثر يسراً بكثير عليك، مع أنك ستظل تشعر بقدر من الغم جراء ذلك. لكن إذا لم يتلاش الغم بعد عدة دقائق أو إذا أدت الخسارة إلى جعل دمك يغلي إلى الدرجة التي تملكك على أن تخبط قبضتك على أقرب جدار إليك، إذن فتمة حاجة للعمل على تغيير تركيبتك النفسية.

وأنا لأتحدث فقط عن الألعاب، ولكن عن الخسارة في أي ميدان من

ميادين الحياة، فعندما تعتقد أن من المفروض أن تحصل على ترقية، لكنها شقت طريقها صوب شخص آخر، أو عندما تكون قد اشتغلت لمدة أسبوعين ليلاً ونهاراً على إعداد تقرير معين، لكن ارتأى مديرك أنه ليس صالحاً بما يكفي لعرضه على الزبون، أو عندما تستهلكك عمليات الطبخ والتجهيز لحفلة عشاء هامة يوماً كاملاً؛ دون أن ينتهي أي أمر على النحو الذي أريد له.. فتلك حالات واجهها معظمنا بين وقت وآخر، ومن الممكن أن تدفع أي إنسان لحالة من توتر الأعصاب غضباً وإحباطاً، لكن إذا كان المرء مولوداً بكرة استكمالياً، فسينتهي به الأمر إلى أن يخبط بكل كيانه، مرة ومرات، على أقرب جدار إليه!

والآن، كيف تتعامل مع مثل هكذا حالات؟ أولاً وبادئ ذي بدء. ستفعل خيراً لنفسك إذا عدت بنظرك إلى الوراء، وإلى المرات التي حدث أن أخفقت فيها أو خسرت، متحرّياً عما يمكن أن تتعلّم منها، فربما قصّرت عن تحقيق غاية معينة لأنك حملت نفسك ما لا تحتمل، أو أن ذلك حدث لأنك بصراحة لم تحاول بذل جهود كافية، أو أن تخوّفاتك كبحتك عن تحقيق أهدافك، أو أخيراً لا آخراً ربما لست مهتماً بما يكفي لأخذك هذه المهمة على عاتقك. فإذا توصّلت بعد استرجاع صادق للحالة ذهنياً إلى تحديد ما يقف وراء فشلك، فأنت على الأقل ستحصل على فكرة أفضل عن كيفية مقاربة الحالة في حال اعترضك في المستقبل فشل مماثل. أو أن هذا الاسترجاع بحد ذاته، يمكن أن يبيّن لك أن الخطأ ليس خطأك. فهل منحك مديرك فعلاً، وقتاً كافياً لأن تهيج نفسك على نحو وافي بالمراد؟ أو هل زوّدك بمعلومات خاطئة ولكنه الآن وبدلاً من مواجهة خطأه الشخصي، يصرّ على صبّ اللوم عليك؟ أم من الممكن أن مهارتك تتموضع في حقل غير الحقل الذي يطالبك مديرك أن تعمل فيه؟ وإذا كان أيّ من الافتراضات المذكورة أعلاه صحيحاً، فإن ذلك لن يجعل من فشلك أقل مما هو في الواقع، أو أقل تأثيراً على مشاعر الإحباط التي تتولّد لديك، لكن سيفيدك في أن تعرف بأنه لا وجود لأي مشكلة فطرية متأصلة عندك تؤدي لجعلك غير قادر على إحراز النجاح.

يتمتع كل كائن بشري بجوانب قوة وجوانب ضعف خاصة به، وإذا حصر

المرء نفسه في التركيز على جوانب الضعف، وتغاضي عن جوانب القوة، فهو لن يفلح في أي أمر.

وتحدّث كل من كارول هيات وليندا غوتليب في كتابهما «عندما يخفق الأذكى» عن حقيقة أن في الإخفاق دروساً عديدة لتتعلّم منها، فمن الممكن أن يعلّمنا الرحمة والتعاطف والتواضع، ومن الممكن أن يساعدنا في إعادة التفكير في أولوياتنا وإعادة ترتيبها. إن تذوّق طعم الإخفاق في مناسبة أو أخرى يرينا أن الوقوع فيه ليس سيئاً جداً في نهاية المطاف، فعندما يحصل ذلك، نصبح أكثر جرأة وأقل تخوفاً منه في المرة الثانية. وعندما لانهب الإخفاق، لانهب اقتحام المخاطر، ولم يتمكن أي إنسان من تحقيق أي إنجاز ذي معنى، دون تعريض نفسه لخطر ولو محدود من المخاطر.

وقالت هيات وغوتليب في كتابهما: إن أولئك الذين يخفقون يلزمهم تذكر أنفسهم أن بوسعهم:

- إجراء محاكمة ذهنية للخطأ الذي حدث وتصحيحه.

- إعادة تفسير لما حدث، ووضع تصوّر تقريبي يساعد على معرفة ما كان ممكناً.

- إعلان المرء نفسه قاضياً وحكماً على أفعاله<sup>(6)</sup>.

وتوردان أيضاً هذه العبارات المحكمة والصائبة عن دلالات الإخفاق، وهي عبارات اقتبسناها في كتابي «مجاراة مقاييس السلوك الرفيعة»، وأعتقد أنها ملائمة لاختتم بها هذه الفقرة:

- الإخفاق مُحْكَم على حدثٍ مفرد:

- إنه كلمة تُستخدم لتحديد وتسمي مرحلة معينة.

- إنه ليس إدانة للشخصية ككل.

- إنه ليس ظرفاً أبدياً.

- إنه ليس خطأ نهائياً قاتلاً.

- إنه ليس مرضاً اجتماعياً مُعدياً.

- إنه حكم على حدث مفرد.

ومن الضروري بالنسبة للمواليد البكر تعلّم التساهل مع أنفسهم عندما يخطئون. لـ بيلي جول أغنية ناجحة جداً غناها قبل عدة سنوات، وتُدعى: «لستَ إلا بشراً»، وكتبَت الأغنية بذهنية شباب في مُقتبل العمر، ولحنت بطريقة عاطفية وهي تحاول أن ترفع معنوياتهم في مواجهة ضغوط وأعباء الحياة الأمريكية الحديثة، وأنصح كل ابن بكر الإصغاء بانتباه إلى هذه الكلمات:

لستَ إلا بشراً، يجوز لك ارتكاب نصيبك من الأخطاء.

تفعل حسناً إذا أبقيت في ذهنك بأن ثمة لحظات،

سينتابك فيها إحساس وكأنك أحرق آثم.

ولتأخذ العبرة ممّا يحدث معك.

فالعبرة درسٌ لا يُدرّس في المدرسة.

ويخبرنا بيلي جول في هذه الكلمات المعبرة والصحيحة أنه بوسعك تعلّم الكثير الكثير من إخفاقاتك إذا جعلتها تتحول إلى درس لك.

وغنى بيلي جول أغنية ناجحة أخرى، ضمنَ فيها رسالة ممتازة، وتقول الأغنية:

«تماماً كما أنتِ، وما أنتِ عليه من هيئة».

حيث ينصح أميرته المحبوبة أن لا تغيّر من طبيعتها في محاولة منها لإسعادها وإرضائها، فهي تصبح مرعبة البشاعة إثر إجرائها ذلك. فهل أنت واحد من أولئك الناس الذين يشعرون بعدم الرضى عن أنفسهم وعمّا هم عليه فيبذلون جهوداً لاحدّ لها سعياً لتحويل أنفسهم إلى أناس آخرين؟ إذا كنت كذلك، قد يكون مفاجئاً لك أن تعرف كم هي القيمة الرفيعة التي يُسبغها الآخرون عليك، إذا نظرت إلى نفسك من خلال عيونهم.

## تعلّم أن تكلّل جهودك بتحقيق نتائج عالية الجودة بدلاً من النتائج الكاملة

هل أدلكم على طريقة ناجعة، تؤدي بكم لامحالة إلى الجنون المطبق؛ إنها ألا تستكينوا لأي نتيجة تحصلون عليها في أي عمل ما لم تكن كاملة. فإذا كنت تغني ضمن فرقة إنشاد، فتأكد أن صوتك هو الأوضح والأصفى والأعلى، وبأنك من يؤدي الوصلات المنفردة الهامة، وإذا كنت ترسم لوحة فتأكد أنها على الأقل في مستوى لوحة من لوحات رمبراندت. أتلعب البولنغ؟ لاتستكين أبداً قبل أن تفوز بـ 300 نقطة. أم تلعب الغولف؟ ما السبيل إلى تحقيق ثماني عشرة إصابة في ضربة واحدة؟

وأنا أعرف ما تفكر به الآن، فهو يقارب ما يلي: «أوه، خفف من درجة المبالغة! لا بد أنك تهزأ بنا. كل الوصلات المنفردة؟ رمبراندت؟ فوز بـ 300 نقطة؟ وهو ما يُعتبر عمل بطولي فذّ يحدث مرة واحدة في العمر مع أفضل لاعب في العالم! ثم إصابة ثماني عشرة حفرة على التوالي في ضربة واحدة؟ إنني لا أعتقد أن أحداً استطاع ذلك يوماً ما».

لكن، كما ترى، إنه الكمال، وهو نمط الحياة الذي يترقبه لأنفسهم عددٌ كبيرٌ من الأبناء البكر. لكنني من قبلي شاهدت عدداً كبيراً من الجولات الممتازة في الغولف، لكنني لم أشاهد أبداً أي واحدة خالية تماماً من العيوب، ورأيت كذلك عدداً من اللوحات الرائعة، لكن كان بإمكان أي واحد، وساعة يشاء تقريباً، إيجاد عيب صغير على الأقل إذا تحرّى الأمرُ بجدية مناسبة، ويمكنني القول أيضاً إنني أعرف عدداً من الناس ممن يعيشون فيك المسرة، والأذكىاء، ومن يتمتعون برهافة فنية، وحساسين، لكنني لم أصادف شخصاً واحداً يمكنني اعتباره كاملاً. وفي الحقيقة، لا يوجد في التاريخ البشري ككل إلا رجلٌ كامل واحدٌ فقط، فلماذا تعذب نفسك إذن.

وأعيد مرة أخرى ما قلته سابقاً بأن الحياة ليست لقاءً رياضياً، وبأنه لا يجلس إلى جانبك خمسة حكام، يراقبون ما تقوم به لتقييده في سجل النقاط

التي تخرزها في الحياة. وليس ثمة أي مسوّغ لأن تنخرط في سياق حياة تتحمل فيها نفسك ما لا تتحمل بهدف الوصول إلى عشر نقاط كاملة في كل أمر. وتأكد أن أخطائك لن تُنشر في الجريدة اليومية، كما لو أنك لاعب بايسبول محترف أو رئيس للولايات المتحدة. الحكم الوحيد عليك إنما هو أنت نفسك. ماذا يعني أن تكلل جهودك بتحقيق نتائج عالية الجودة بدلاً من النتائج الكاملة؟ هل يوجد حقاً خلاف بينهما؟، وإذا كان الأمر كذلك، ما هو هذا الخلاف؟ طيب، إنني أعتقد أنه يوجد على الأقل ثمانية اختلافات بين السعي وراء تحقيق نتائج عالية الجودة وهو ما يُعتبر في متناول اليد، وبين مطارق الكمال، وهو إذا ما أردنا أن نكون دقيقين، ليس في متناول اليد. هذه الاختلافات هي:

- 1 - إن من يطارد الكمال، يحاول الوصول إلى أهداف مستحيلة، في حين أن من يسعى ويكافح لتحقيق نتائج عالية الجودة يستمتع بالوصول إلى مقاييس رفيعة حقاً، وفي متناول اليد.
- 2 - يستند الاستكمالي في إضفاء قيمة لنفسه قياساً بالإجازات التي يحققها، بينما يُضفي من يسعى ويكافح لتحقيق نتائج عالية الجودة قيمة على نفسه لأنه ببساطة كما هو عليه.
- 3 - ينهار الاستكمالي بسهولة تحت وطأة خيبة الأمل، ويميل للاستسلام لذلك، بينما يمكن للشخص الذي يحث الخطى لتحقيق نتائج عالية الجودة أن يقع تحت وطأة خيبة الأمل أيضاً، وأن يتضرر من ذلك، لكن دون أن يسمح لنكساته بإعاقته عن رصف طريقه صوب غايته.
- 4 - يرى الاستكمالي الفشل ويتعامل معه باعتباره عدواً، مما يفسح أمامه المجال لكي يدمره، بينما يسعى من يكافح في سبيل أهداف عالية الجودة للتعلم من أخطائه ليتمكن في المستقبل من أداء عمله على نحو أفضل.
- 5 - يُعدّ الاستكمالي من النموذج الذي يميل لإجترار أخطائه في ذهنه، دون أن يستطيع الفكاهة منها، ويظن أن الناس الآخرين يتذكرونها أيضاً، أمّا من يسعى وراء نتائج عالية الجودة، فإنه بعد أن يبذل قصارى جهده لتصويب أخطائه والتعلم منها، ينسى أنها حدثت في يوم ما.



6 - يرغب الاستكمالي باحتلال الترتيب الأول في أي مجال كان، ولا يُسرّ إلا إذا كان في القمة، أما الذي يسعى لتحقيق نتائج عالية الجودة، فهو يُسرّ من نفسه مادام يعلم أنه بذل طاقته القصوى فيما يعمل.

7 - يكره الاستكمالي الانتقاد، ويورّط نفسه في أوضاع لا يحسد عليها من أجل تفادي ذلك، أما من يسعى وراء نتائج عالية الجودة، فربما لا يستسيغ دائماً طعم الانتقاد، إلا أنه عموماً يرحب به مادام يساعده على صقل وتطوير شخصيته.

8 - يعتقد الاستكمالي أن الفوز شديد الأهمية إلى الحدود القصوى، وأنه يتعيّن عليه أن يربح ليبقي تقديره الذاتي لنفسه سليماً، أما من يسعى وراء تحقيق نتائج عالية الجودة فيمكن أن يحل في المرتبة الثانية، لكنه يحافظ في الوقت نفسه على تصوّر ذاتي سوي لنفسه. ويستحوذ على الاستكمالي دائماً شعور بعدم الرغبة حتى بالمحاولة بإجراء العمل، ما لم يكن قادراً على إنجازها بمنتهى الكمال، أما الذي يسعى وراء تحقيق نتائج عالية الجودة، فهو من النوعية التي لا تتوانى عن اقتحام المخاطر، مردّداً بينه وبين نفسه: «خير، ربما لا أفلح في إنجاز العمل، لكن سأجرب القيام بمحاولة»، وهو من النوعية التي تحسّن أداؤها باستمرار وتنضج باطراد، وتجذب سبيلاً دائماً للمتعة في الحياة. أما الاستكمالي فإنه يضلّ طريقه إلى المتعة التي يُفترض أن تمنحها الحياة.

## كُونْ نظرة واقعية عن نفسك وقدراتك

هل صدف وشاهد أحدكم في يوم ما البرنامج التلفزيوني «لعبة ترتيب مواعيد غرامية»، وأنا لأعرف موقفكم من هذا البرنامج، لكنه بالنسبة لي يجعلني دائماً أرتعد استمرازا. إنه واحد من تلك البرامج التي أصادفها عَرَضاً عندما أقلب قنوات التلفزيون باحثاً عن برنامج ثقافي لا على التعيين، وأجد نفسي مدفوعاً لإبقاء القناة قليلاً لمدة دقيقة أو دقيقتين لمشاهدة البرنامج، وتبدو المسألة مشابهة لمصادفتك عَرَضاً حادثاً مرّوعاً في طريق للسير السريع، فأنت لاترغب بالنظر، لكن يتولّد لديك فضول ذو طابع مرضي، فلا تستطيع أن تمتنع عن مطّ رقبك لرؤية ما حدث. لكن دعونا أخيراً نكتفي بالقول إن هذا البرنامج ليس الفترة

الأكثر كياسةً على شاشة التلفزيون. يجري المشهد في هذا البرنامج على نحوٍ يشبه ما يلي:

- «(العازب جنسياً) رقم ثلاثة، صَنَّف نفسك ضمن درجات من واحد إلى عشرة».

- «أوه، إني على الأغلب أستحق تسع درجات... وربما تسع درجات ونصف... نعم، أو تسع درجات وثلاثة أرباع...».

وهكذا يمضي صعداً في إعطاء الدرجات لطلعته البهية، ولدرجة جاذبيته، بينما هو في الواقع شخص سقيم ووضيع له هيئة ديك منفوش الريش مغطى الوجه بيثورا

وتوصَّف (العازبات جنسياً) أنفسهنَّ على نحوٍ لاراذٍ له، بأنهن يستحقنَّ الدرجات: ثمانية وتسعة وعشرة، وهذا ما يجعلك، بعد فترة طويلة من سماعك ذلك، تعتقد أنهنَّ اشترينَ مراياهنَّ من أحد المهرجانات الفكاهية!

أليس شيئاً عظيماً شعور المرء بهذه الدرجة من الثقة بالنفس؟

أما في ما يتعلق بالضفَّة الأخرى لِطَيف التنوُّع البشري، فإني سأستهلّ حديثي بالتكلم عن فيلم سينمائي عُرض منذ عدة سنوات مضت ويُدعى «انتقام الناس البليدين»، ولم يكن من النوع المتميّز في فكاهيته، ولا يتضمن حبكة روائية ذات قيمة ولم يزل بالتأكيد إعجاب أي ناقد. لكنه حصّد نجاحاً مذهلاً، محققاً أرباحاً بملايين الدولارات في كوى قطع التذاكر. وفي اعتقادي أن السبب الذي أدّى لأن يكون الفيلم ناجحاً جداً إلى هذا الحد، هو أولاً وبادئ ذي بدء، أنه يقوم وفي هذا كل الحق، على فكرة أن ملايين من الأمريكيين سيترجّبون بفرصة رؤية أناس (بليدين) يكسبون في صراعهم مع أناس (رائعين)، وتلك بالطبع فكرة واقعية، لأننا اعتدنا على وضع أنفسنا على قدم المساواة مع الناس البليدين، وحين نراهم يكسبون جولة فإن ذلك سيبدو وكأننا نرى أنفسنا نكسب جولة.

بالغربة ما يجري!! إما أن يحصل الجميع على درجة عشرة أو أن يكون الجميع (بليدين)١٩. وحقيقة الأمر أن مجلَّ البشر هم في مكان ما بين هذين

الحدين، ونحن ببساطة نقع في منطقة (المعدل الوسط)، فنحن لسنا جميعاً نماذج لكريستي برينكلي وتوم سيليكز، ولسنا أيضاً نماذج لـ ألفريد ا. نيومانز وأوليف أوليز.

إن الصورة الذاتية عن النفس هي مشكلة لأي كان خصوصاً بالنسبة للأبناء البكر لأنه يتعين عليهم على الدوام أن يكونوا الأفضل. والبنت البكر التي تعرف أنها ليست بجاذبية أختها الأصغر منها ستبالغ بعيوبها الشخصية الخاصة بها، وبما ينقصها للوصول إلى الكمال. والإبن الأكبر الذي يعرف أن أخاه الأصغر أمهر منه في لعبة كرة القدم، سيعتبر نفسه غير ماهر على الإطلاق، وسيشبه نفسه بالمهرج في أفلام الأطفال الكوميديّة!

واعتقد أن جلنا لا يحوز على أساس متين من الثقة بالنفس، ونشعر بالنقص في اعتبارنا لذاتنا، رغم إصرارنا على التبخر هنا وهناك، وإخبارنا الآخرين أننا نستحق الدرجة (تسعة) و(عشرة). وتصبح المشكلة مركبة لما تحمله وسائل الدعاية من رسائل للبشر تقرر رؤوسنا يومياً. ومازلت أتوقع ذلك اليوم الذي أشاهد فيه امرأة بوجه مليء بالبثور تبيع سلعة معينة، على شاشة التلفزيون!

يقال لنا إنه لا حيلة لدينا أبداً لكي نبرهن عن أننا أشخاص أسوياء إلا باستخدام هذا الصنف من منظف الفم، أو هذا الصنف من معجون الأسنان، أو هذا النوع المتميز من الشامبو. ويعرض أحد أصحاب معامل صنع السيارات إعلاناً تجارياً، في الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات، ويظهر فيه مجموعة من الأشخاص - أظن أن من المفترض أن يكونوا مهندسي تصميم - جالسين جانباً، وأخذين في التحدث عن كل الجهود التي بُذلت لإنتاج نوع معين من السيارات، وفي سياق الحديث قال أحدهم: «نعم، إن المرء يساوي ما يسوق». ويومئ كل بقية الأشخاص برؤوسهم بالموافقة. ومن الواضح لنا أن الرسالة التي يحملها هذا الإعلان هي أنه ما لم تتمتع بقيادة إحدى سيارات هذه الشركة، فإن الناس، على الأغلب سيتحدثون عنك من خلف ظهرك، ضاحكين ومُشيرين إليك، وضارين بأيديهم على ظهور بعضهم، لأنهم يشعرون بالتفوق عليك.

كل هذا هراء! فأنت لاتساوي ما تسوق، ولا تساوي ما ترتدي من ثياب،

ولا تساوي درجة طلاوة القماش الذي تستخدمه، أو أي هراء آخر مماثل. أتذكر إعلاناً تجارياً قديماً كنت دائماً أصاب منه برودة فعل معاكسة للغاية المرجوة، حيث تأمل امرأة صبية رائعة الجمال، رغم ضآلة أملها في استمالة زميلها الجديد في المكتب، وتتوقع نحن بالطبع، فوراً ودون أي تردد، أنها ستتمكن من لفت انتباهه، هذا إذا كان الرجل فيه دم ويتنفس، فهي تتمتع بابتسامة لاتضاهى في جمالها، ووجه تام التناسق، وشعر حريري ناعم. لكن عندما تتقدم الصبية صوبه، وتشرف بقامتها المشوقة على مكتبه لتضع عليه بعض الأوراق، ويأخذ الرجل بالنظر إليها باستلطاف ويتأكد أمامنا أن الأجواء أجواءً غرامية، تُخلي ابتسامته مكانها. وعلى نحوٍ مفاجئ تماماً - لتكشيرة عابسة. والسبب! ما هو السبب؟ إن لدى هذه المخلوقة الفاتنة - كخ خ خ - قشرة في الرأس! نعم قشرة في الرأس، وليس ثمة أي شك في ذلك، ولا يوجد أي رجل ذي عقل سليم يرغب بأن يُشاهد مع امرأة رائعة الجمال حقاً، لكن لديها قشرة في الرأس. وهل يمكنك تصوّر هذا الرجل وتلك المرأة في أحد اللقاءات الغرامية؟، حيث يحدث أن يدخلوا مطعماً فاخراً، وتتوجه أعين جميع الحضور صوبهم، ويبدأ فوراً حديث هامش بين الحاضرين، قائلين لبعضهم عبارات مثل:

«ماذا يرمي هذا الرجل أن يفعل بهذه المرأة؟. أنا أقصد، حسبك أن تنظر إلى كل قشرة الرأس تلك!».

إن ذلك هزلي جداً ومضحك، نعم، لكن على الرغم من أن ملايين البشر يمكن أن يضحكوا من سخف هذا الإعلان التجاري، إلا أنهم سيصدقون في أعماقهم الداخلية الرسالة التي تعززها مجريات الإعلان. ونحن جميعاً قابلون أثر مشاعرياً بأن جدارتنا وقيمتنا الذاتية تتناسب طرذاً مع السلع التي نستخدمها. لكن الإبن البكر، وهو من تسيطر عليه رغبة عارمة بأن يكون الأفضل في أي أمر يأتيه، يقع أكثر من أي شخص آخر ضحيةً لمثل هكذا وعظ. وهناك الكثير من الإعلانات التجارية الأخرى، والتي تنقل هذه الرسالة الخبيثة، وبطريقة أكثر لطافةً وأكثر قدرةً على الإقناع بكثير وهكذا نواصل نحن مجرى حياتنا وكلنا ثقة أن مضمون هذه الرسالة صحيح.

وأذكر أنني قرأت قبل عدة سنوات عن مطعم في فلوريدا، كان قد توقّف عن فتح أبوابه لأن أسعاره كانت منخفضة أكثر من اللازم، نعم إن ما أقوله صحيح، كانت منخفضة أكثر من اللازم. ولا أعرف بالضبط الرقم الذي كانت عليه الأسعار، لكنها تقارب 1.99 دولار مقابل وجبة عشاء كاملة. ونُشر في الجريدة تعليقٌ للمالك المطعم، قال فيه، إن كل هدفه كان منح الناس فرصة للتنفس، وبأنه استطاع فعلاً ترتيب الأمر على أساس تقديم عشاء نوعي مقابل سعر منخفض، وفي الوقت نفسه تحقيق ربح كافٍ للاستمرار في فتح مطعمه، لكن كما يبدو لا أحد يرغب بتناول طعامه هناك، تفادياً لتشكّل تصوّر عن أنه رخيص!

وثمة وجّة آخر للمسألة، وهو أننا تعلّمنا عبر إعلانات الدعاية أن الأكثر غلاءً هو الأفضل، «إنه يكلف أكثر بالتأكيد، لكنني جديرٌ به»، مع أنه ليس من الضروري أن يكون الأمر كذلك.

والآن، دعوني أوضح موقعي، بأنني لست ضد الدعاية التجارية، باستثناء الدعاية التي تلعب على مخاوف البشر، أو التي تدفعهم إلى حالة انعدام الشعور بالأمان، أو التي تعزّز القناعة لديهم بأنهم لا يستحقون أي قيمة إن لم يكونوا كاملين. توجد قناعة أكيدة لدى الكثير منا، بأننا لانستحق قيمةً ما، إلا عندما نشدّ أنظار الآخرين إلينا، أو عندما نستطيع السيطرة على الوضع المحيط بنا، أو عندما نستطيع النظر باستعلاء إلى الآخرين لأن ما نستخدمه من سلع هو أكثر غلاءً أو أكثر كفاءةً. والحقيقة أن المرء غير مضطّر لفعل أي أمرٍ خاص، كأن يشتري سلعة خاصة أو يتصرف بطريقة معيّنة، ليستحق قيمته كإنسان، فهو يمتلك هذه القيمة لأنه هو كما هو، كائن بشري مخلوق على صورة الله! وهذا هو الشيء الرئيس الذي أنتم في حاجة لمعرفة عن أنفسكم، فالله خلقكم وهو يحبكم، لكن كما يقول المصنق القديم: «الله لا يخلق أشياء لا فضلات لها».

هل تُردّد بينك وبين نفسك بأنك لاتفعل أبداً أي شيء صحيح، أو أن لاشيء أبداً تمّ معك كما ينبغي؟ وبأن الناس الآخرين أفضل منك في كل المجالات على الإطلاق؟، فإذا كان الأمر كذلك، فلقد آن الأوان، لأن تتوقف عن

ممارسة الكذب مع نفسك، نعم ذلك ما هو عليه هذا الكلام، إنه أكاذيب. وعندما تردّد بينك وبين نفسك أكاذيباً كهذه، فأنت إذن تهمل اعتبارك الذاتي لنفسك، وتكبح إمكانياتك، بل ربّما تجسّد في حياتك واقعياً ما تتقوّله هذه الأكاذيب.

وعلى سبيل المثال، هل بذلت في يوم من الأيام، جهوداً حثيثة لتكثيف طباعك بما يتلاءم مع عادات فئة معينة من البشر، لأنك تعتقد أن ذلك سيحسن من صورتك في مخيلتهم، مع العلم أنك في جوائنتك العميقة لانتهم مطلقاً بهذه الفئة البشرية؟ هل تظاهرت يوماً بالسرور والسعادة، لظنك أن هذا ما يريده الناس منك، وحتى عندما تحاصر في الواقع رغبة في البكاء؟ نعم، نحن جميعاً أتينا ذلك النوع من التصرفات في هذه اللحظة أو تلك، لكن هناك عدد من الناس ممن يعيشون طوال أعمارهم على هذا النحو، غير متحين لأنفسهم الاقتصار ببساطة على أن يكونوا ما يريدون أن يكونوا عليه، لأنهم منشغلون عن ذلك جداً بصياغة شخصياتهم بما ينسجم مع ما يريده كل الناس سوى أنفسهم.

ولو سُئل ابنٌ بكرٍ عما يرغب أن يحققه في حياته، فسيجيب فوراً في عبارات توحى بثقة شديدة في النفس. لكن لو سُئل لماذا اختار تلك الخيارات، فسيردّ على نحو غير متوقع، بعبارات لا تتضمن الدرجة نفسها من الثقة بالنفس، وربما يكون الجواب أن والده يريده أن يصبح محامياً، أو أن والدته كانت تعتبر باستمرار عن رغبتها بأن يصبح طبيباً. إن الابن البكر الذي يتصرّف بحياته كما يريد، ويختار سبيله الخاص في الحياة، ويتخذ قراراته الشخصية من ذاته، هو نسبياً شخصٌ نادر الوجود.

بل إن المسألة قد تصل إلى الحد الذي يكون الوالدان قد غابا عن حياته منذ أمد طويل، كأن يكونا قد فارقا الحياة منذ عشرين عاماً مثلاً أو ثلاثين عاماً، لكن مع ذلك يظل ذلك الابن البكر النبيل والوفي يكرّس حياته في سبيلهما، وذلك عبر مجارة أحلامهما فيه. وتلك هي الشهامة والوفاء في أسمى معانيها، لكنه وفاء محزن على أي حال، وخصوصاً إذا كان ما يحلم به والداه حول مستقبله لا ينسجم أبداً مع ما يحلم به لنفسه. ويشتمل تكوين نظرة واقعية عن نفسك

اكتشاف ومعرفة ما أنت عليه حقاً، وأن تجتهد المهارات وجوانب القوة التي منحك الله إياها، لا المهارات وجوانب القوة التي يريد منك الآخرون أن تموزها.

ولتعرف مهاراتك وجوانب القوة عندك، خذ قلماً وورقة، وأجرب مكنونات نفسك، عبر الإجابة على الأسئلة التالية:

- 1 - ما الأمور التي أستمتع بإتيانها حقاً؟
- 2 - متى يُطري عليّ ويمدحني الآخرون؟
- 3 - ما هي المواد التي حققت فيها نتائج جيدة في المدرسة؟
- 4 - ما هو المتيسر لي؟
- 5 - ما هو المتعسر عليّ؟
- 6 - لو قُيِّض لي تغيير مجرى حياتي، فما الذي كنت سأقدم عليه، وعلى نحو مغاير لما أنا عليه الآن؟

اسأل نفسك أية أسئلة مشابهة أخرى يمكن أن تخطر على بالك، وابدل ما بوسعك لتكون صادقاً وصريحاً مع نفسك، وتأكد من أنك، إذا أجريت ذلك، ستعلم بعض الجوانب عن نفسك كنت تجهلها. وهذا يرتب عليك لاحقاً رسم خطواتك المقبلة بما يتوافق مع إجاباتك.

ثم تعلّم أن تتحدّث جهاراً بما يعبر عن نفسك فعلاً، وبما يخطر في ذهنك، لكن ليس بطريقة فجّة وصريحة جارحة، على طريقة: «لايهتني ما يفكر به الآخرون»، لكن بأقصى قدر ممكن من الهدوء والصرامة معاً.

وطبعاً لست الآن بصدد الحديث عن أزمة منتصف العمر أو حالة من حالاتها، وهي ما يقع فيها عدد كبير من الأبناء البكر، فسأتحدّث تفصيلاً عنها في الفصل القادم، لكن أقول الآن باختصار، إن ما يجعل الأبناء البكر عرضةً للانتقاد والاستسلام لـ «نزوات» مفاجئة عند ولوجهم مرحلة الكهولة، هو واقع أنهم أمضوا سنوات طويلة من أعمارهم، متخذّين مسارات تتفق مع ما يريده أي شخص آخر غيرهم، إلى أن يصلوا إلى سن الأربعين أو الخامسة والأربعين، فيعبر على بالهم فجأة: «هبي ي ي، أنا لم آت أبداً على أمر يتفق مع لإرادتي الشخصية»، وهكذا يُتاح لك أن ترى طبيب أسنان كهل، يغلق عيادته الناجحة

ويقر إلى (ويومئذ) مقرراً أن يصبح راعي بقر. وقد يعود عليه ذلك بالغم والأسى، إلا أنه مجرد تعبير عن تمرد مفتوح على كل الاحتمالات، ووسيلة ليظهر فيها أنه يتمرد ضد المسار الذي أخذ منه حياته، وليس لوجود رغبة أصيلة لديه لأن يصبح راعي بقر، بل إنه يريد أن يرهن أنه على استعداد لممارسة أشقّ خيار وحشي خطر على باله.

وبالطبع ليس هذا هو نوع السلوك الذي أدعوك إليه، بل إن ما أدعوك إليه هو أن تتعلّم أن تكون صريحاً وصادقاً مع نفسك في جميع المجالات» سواءً عظيمة الشأن أم قليلة، وفي كل شؤونك اليومية. وأن مواصلة الانزواء وراء الأقنعة، والتظاهر بمشاعر غير التي تضمهرها حقاً، إنما هو دليل على أنك عازم على مواصلة الاستسلام للشعور بالنبذ.

ورويث في كتابي «مجازاة مقاييس السلوك الرفيعة» قصة تلك المرأة التي تُدعى جوانيتا والمجروحة المشاعر لأن زملاءها في العمل تركوا أكثر من مرة عيد ميلادها يمر ويمضي دون إهدائها شيئاً، حتى ولو مجرد بطاقة تهنئة، في حين تُقابل أعياد ميلاد كل النسوة الأخريات في مكتبها بياقات من الزهور، وعدة أصناف من أطايب الطعام، وحفلات يشارك بها الجميع. وأحسّت جوانيتا بأنها مبخوسة القيمة وأن الآخرين يعاملونها بجفاء، وغاب عن ذهنها نهائياً ما كانت تردده باستمرار أمام زملائها من أنها لا تحتفل بأعياد ميلادها، وأنها لا ترغب أبداً أن يأتين بأي أمر يمت بصلة لذلك. ولقد بدا عليها في الواقع، في الفترة الأولى لاستلامها العمل في هذا المكتب مظاهر المعارضة الشديدة للاحتفال بعيد ميلادها إلى درجة أن الآخرين ظنّوا أنهم يؤدّون خدمة لها، إذا تركوا هذه المناسبة تمضي دون إعارة أي التفاتة لها. وكيف لهم أن يعرفوا أنه كان يُفترض فيهم أن لا يأخذوا على محمل الجد كل احتجاجاتها. فلقد كانت تظن أنه من غير اللائق أن يبدو عليها أنها تريد أن تكون مركز الاهتمام، في حين كانت في الواقع في حاجة ماسة لأن تكون محطّ اهتمامهم ورعايتهم.

ويقترح الدكتور ناثنيل براندن في كتابه «كيف ترفع مستوى اعتبارك الذاتي لنفسك» طريق لتعلّم الصرامة والصدق مع النفس عبر استخدام تقنية «تمة الجملة»<sup>(10)</sup>، ويذكر على سبيل المثال إتمام الجملة التالية:



«المرات التي أقل ما أحب نفسي فيها هي عندما....»، أضف كل ما يمكن أن يرد إلى ذهنك تنمة لهذه الجملة، شرط أن تكون صريحاً وصادقاً مع نفسك، ولا تبالي بما يمكن أن تسببه من جرح لمشاعرك! ثم أقلب الجملة عكسياً إلى: «المرات التي أكثر ما أحب نفسي فيها هي عندما....»، ومرة أخرى، أكتب قائمة بكل ما يمكن أن يرد إلى ذهنك، ومن ثم أحرص جاداً على أن تنحو في سلوكك بما يجعلك تحب نفسك أكثر. ولست مضطراً أبداً لأن تسير رغبات وتوقعات الآخرين فيك، بل يتعين عليك أن تكون أنت، وفقط أنت، وكما أنت عليه حقاً!

## تعلم أن تعيش في عالم الواقع

بالقدر نفسه تماماً الذي يجب عليك فيه تكوين نظرة واقعية عن نفسك، يجب عليك أيضاً تكوين نظرة صائبة ودقيقة عن العالم المحيط بك. لكن قبل أن أسترسل في حديثي عن هذا الأمر، اسمحوا لي بالإشارة إلى أنه لا يوجد أي ضرر على الإطلاق في استرسال المرء في عملية تخيل وهمي وأحلام يقظة، ما دامت لا تتحكم في مسار حياته، بل إن عملية التخييل السوية تعود بالنفع على المرء، وإن الإشكالات المنقصة لاتعترض حياة بعض الناس إلا لأنهم لا يعرفون الحد الذي يتوقف عنده عالم الأوهام والخيال، ليبدأ عالم الواقع.

وهناك أكثر من عالم «غير واقعي» يهرب إليه الأبناء البكر، ولديّ رغبة في التحدث قليلاً عن كل واحد من هذه العوالم على حدة:

- 1 - عالم المقارنة: ويدأب الإبن البكر في هذا العالم على مقارنة نفسه بالآخرين، وبمن هم دائماً أكثر قوة، وأكثر جمالاً وأناقة، وأكثر نجاحاً... وهلم جرا.
- 2 - عالم الماضي: ويُعتبر هذا العالم أحد الأمكنة التي يطيب دائماً للإبن البكر العيش فيها، وخصوصاً إذا كان ينظر إليه من خلال تلك العدسات ذات الألوان الوردية والرائجة دوماً!
- 3 - عالم أنا - لن - أختار، لا - تسألني: وهذا أحد الأمكنة الممتعة، حيث يرفض الناس أحد الخيارات التي ربما تعود عليهم بالفائدة.
- 4 - عالم أنا - لن - أقابل - بنعم - كإجابة: وليس هذا مكاناً لطيفاً لارتياده،

وأنت لاتريد بالتأكيد الإقامة فيه!. إنه عالم الناس الذين لايفتأون عن دفع أنفسهم صوب الفشل.

ودعونا الآن نقوم بجولة استكشافية سريعة لهذه العوالم.

## 1 - عالم المقارنة

عندما كنت في مرحلة الدراسة الثانوية، كان كل الفتية تقريباً يرغبون بأن يصيروا مثل إلفيس بريسلي، في حين كان حلم الفتيات - سواءً أقرّين بذلك أم لم يُقرّرن - بأن يكنّ مارلين مونرو، والحقيقة المؤسفة لكن التي تجعل الأمر أكثر تشويقاً أن كلا هذين الشخصين كانا قد فارقا الحياة قبل فترة زمنية طويلة نسبياً، ومات كلاهما في لحظة كان المفروض أن تكون لحظة الوصول إلى القمة في مسارهما الحياتي بعد حياة حافلة بجميع المعاني - الشهرة، والثروة، ولقباً معبودي الجماهير - لكن لم يكن هذا كافياً لجعلهما سعيدين.

ولن أنسى أبداً ما جرى لي في ذلك اليوم الصيفي من عام 1977 ، بعيد سماعي من راديو السيارة نبأ وفاة إلفيس بريسلي، فلقد كانت صدمتي كبيرة إلى الدرجة التي اضطرتت فيها لأن أصفّ سيارتي إلى جانب الطريق. ولكي تتفهموا الأمر جيداً الآن، عليكم أن تعرفوا أنني أحد الأشخاص المقتنون بموسيقى الروك أندرول سنوات الخمسينات والستينات، ومازلت أحتفظ في غرفة نومي بآلة تسجيل من الطراز القديم، مجهزة دائماً بأشرطة تسجيل لعدد من أروع المغنّين، مثل تشوك بيري، فانس دومينو، وبالطبع إلفيس. وأنا من الأشخاص الذين يحبون أن يبدأوا نهارهم باكراً، وعندما أكون في البيت، أحب أن أستقبل نهارى مباشرة تزجية فترة ممتعة من الوقت مع الروك أندرول (في حين أن زوجتي ساند، والتي لايمكن اعتبارها أبداً شخصاً صباحياً، لاتفهم السبب الذي يدفع أياً كان لأن يرغب باستقبال نهاره بـ «الحلوة الصغيرة ذات الستة عشر ربيعاً» أو «لاتكوني قاسية»، لكن كان ذلك أحد الأمور التي تعلمت زوجتي المولودة باكراً وعلى مدى سنواتنا سوياً، كيفية التعامل معها على نحوٍ طبيعي!).

ويمكنك أن تدرك الآن حالتي لحظة سماعي أن إلفيس قد مات، فلقد كان

الأمر كما لو أن شطراً عظيماً من طفولتي ويفاعتي قد مات أيضاً. الملك المتوَّج للروك أندرول ميت؟ لماذا؟ كيف؟ أمن الممكن أن ذلك صحيح؟

وقرأت لاحقاً عن الحالة التي كان عليها إلفيس عندما مات، فلقد تضخَّم جسده في الفترة الأخيرة لحياته ليصبح ثقيلاً جداً وبوزن يعادل 258 رطل إنكليزي، إلى درجة أن الأمر استدعى عدة رجال لحمل جثته إلى خارج قصره الفخم غريس لاند. وكان قد أمضى السنوات القليلة التي سبقت موته في حالة عزلة عن العالم الخارجي، وتنسك حقيقي عن ملايين المعجبين. وحدث أن عجز عن تذکر كلمات الأغنيات نفسها التي جعلته ثرياً، وذلك في أحد تلك الجولات الغنائية الأخيرة له، وكانت تلك الفترة ككل مؤشراً حقيقياً على أنه يترنح في (منطقة الأفول) الرهيبة للوجود، في الوقت الذي كان من المفترض أن يعيش حياة تأخذ معناها الحقيقي بمنزلتها حياة حتى الحد الأقصى كيف حدث أن أعجب عشرات الملايين منا بإلفيس بريسلي؟ كيف تمنى الكثير منا أن نصبح مثله؟ والآن، لو نظرنا إلى الخلف كم واحد منا يرغب ومن موقع الأفضلية هذا استبدال حياته بحياة إلفيس؟ أتجرأ وأقول إن العدد ليس كبيراً جداً، صحيح أن إلفيس بريسلي عاش حياة حافلة بجميع المسرات، لكن (جميع) هذه ليست كافية.

قد لا تكون ممن يقارنون أنفسهم بإلفيس بريسلي أو مايكل جاكسون، أو لست ممن يتمنين أن يكنّ كاثلين تيرنر أو ميريل ستريب، بل إن الأمر لا يتعدى بالنسبة لك أو لك مقارنة متواضعة برجل أو امرأة ممن يقطنان في الجهة المقابلة لمكان إقامتكما. يا الله! كيف أمكن لتلك المرأة أن تبرز كل هذه المسرات دفعة واحدة، أربعة أطفال رائعي الجمال، وزوج ناجح، يُيدي تصرفات تدل على أنه مغرم بها حتى العبادة! وهذه الفساتين الجميلة التي ترتدي، وكل تلك المستلزمات اليومية التي تجربها لإبقاء قوامها أهيئاً ورشيئاً. ومع كل ذلك تجد لديها وقتاً تصرفه في نشاطات ال PTA، وفي المشاركة في الغناء في جوقة الأناشيد في الكنيسة.. فماذا يحول دون أن تكوني مثلها في جل هذه الجوانب؟

ثم هنالك ذلك الشخص الساكن في البيت المجاور لبيتك، وهو نائب

رئيس مجلس إدارة أحد البنوك، وسيارته من آخر موديل لـ BMW ، وليس ذلك فقط، بل إنه يُحزّر سنوياً بطولة دورة التنس المحلية...آه!، لو أُتيح للمرء أن يكون مثله!

لكن أنتِ لاترين تلك المرأة القاطنة مقابلك عندما تبكي في فراشها في أواخر الليالي، لأن الكثير من آمالها لم يتحقق، وتشعر أنها وقعت في شرك زواج لأثر للحب فيه.

وأنتِ أيضاً لاترى ذلك الرجل الساكن في جوارك عندما يسفّ حبوب القاليوم، أو عندما يكرع كؤوس الجنّ والشراب ليساعده في التخفيف من وطأة همومه بعد يوم آخر من أعباء وهموم العمل المضنية والتي ترهق فؤاده.

ولايتوانى الإبن البكر عن بذل جهود متواصلة لتحسين وضعه، وما أن يصل إلى أحد المستويات في تطوّره حتى يضع نصب عينيه سويةً أخرى، ونادراً ما يُنّاح له التوقّف عن الكفاح والعمل لتذوّق حلاوة النجاح، لأن هناك شخصاً - دائماً وقُدماً - أكثر نجاحاً منه يرغب في اللحاق به. فلن يقُدّم المرء لنفسه إذن أي خدمة عند مقارنة نفسه بالآخرين، فالاحتمال كبيرٌ بوجود ملايين من البشر ممّن يتفوقون عليه في أكثر من مجال، قد يكونون أكثر غنى، أو أكثر أناقة ووسامةً، أو أكثر نجاحاً، أو أكثر ذكاءً. في حين يوجد على الضفة الأخرى ملايين أخرى من البشر ممّن ليس بوسعهم حتى الدخول في منافسة معه في هذه الميادين. والمهم بالنسبة للمرء هو العمل على استغلال قدراته للحد الأقصى، واستثمار المهارات التي وهبها الله وعدم تنقيل فكره هنا وهناك لإجراء مقارنات بينه وبين الآخرين.

ولقد ذكرت سابقاً أن من الخطأ اعتبار الحياة كلقاء رياضي أو سباقٍ في الفروسية. فلا ضير من أن يستغرق المرء بقدر ضئيل من أحلام اليقظة، متخيلاً نفسه كـ مايكل دوغلاس أو جيسكا لانج، لكن الضرر كل الضرر في مقارنة حياته بالحياة التي يظن أنهما يعيشانها، بل من الأسلم له بكثير عيش الحياة التي وهبها الله له.

واليكّم حادثة جرت معي أفنعتني أن النجاح الزائد عن الحد ليس أمراً

إيجائياً دائماً، فلقد كنت في نيويورك لإجراء لقاء تلفزيوني في (البرنامج الصباحي)، من قبل المذيعين ريجيس فيليبين وكاتي لي جيفورد، وكان سيجري في البرنامج نفسه أيضاً لقاءً آخران مع كل من دونالد أوكونور، وممثلة تلفزيونية مشهورة، ارتأيت أن أبقى اسمها طيّ الكتمان، لأسباب وجيهة لأتخفى عليكم. وفي الفترة القصيرة التي سبقت الإعلان عن بداية البرنامج، أُتيح لي إجراء حديث متبادل مع أوكونور، ونحن جالسان في غرفة الانتظار. ويا لهذه الشخصية الراقية المسرة للقلب، لقد كدت لا أصدق أنني أمام ذلك العملاق الأسطوري في البرامج الاستعراضية، وهو في هذه الهيئة الشخصية المترهبة التي بدا عليها في جلستنا معاً، وتبادلنا أطراف الحديث، وتناولنا القهوة في فناجين عادية. أمّا بالنسبة للممثلة، فلقد أظهرت عزوفاً عن التعاطي معنا بأي أمر، وطالبت عند قدومها بتأمين غرفة تبديل ملابس خاصة بها - فكان لها ذلك - وكانت طوال تلك الفترة مُحاطةً بكوكبة مرافقة من زملاء، ولو لم يُتَح لي التبصّر أكثر في الأمر، لكنت قد شككت بأننا في حضرة صاحبة الجلالة!

واستخلصت من هذا الحادث أمرين محددين، لاجدال في صحتهما:  
1 - بوسع هذا العالم استيعاب عدد كبير جداً من البشر من طراز دونالد أوكونور.

2 - كان من الخير أكثر لهذه الممثلة، لو كان لها قدرٌ أقل من النجاح.  
نعم، كنت أظن دائماً أن الحياة التي عاشها إلفيس بريسلي كانت بالتأكيد بمنزلة حلم جميل، لكن تبين لي لاحقاً أنها كانت حلماً، لكن حلماً كابوسياً بدون أدنى شك.

## 2 - عالم الماضي

من الخطورة العيش دائماً مع ذكريات الماضي، وذلك لسببين اثنين:  
الأول: أن من الممكن أن يكون الماضي حافلاً بالذكريات البالغة الظرافة إلى الحد الذي يحول دون رؤية الواقع الراهن.  
الثاني: ومن الممكن أن يكون حافلاً بالذكريات البالغة التعاسة إلى الحد

الذي يحول بين المرء وبين الاندفاع قدماً على طريق النجاح في حياته الراهنة.

لكن هل شهدت يوماً حادث سير؟ لقد جرى هذا معي مرة، وتبين لي أن ما يقولونه حول هذا الأمر صحيح، فإذا تحدثت أربعة أشخاص عن حادث واحد كانوا قد رأوه سوية، فإن رواياتهم عن الحادث ستكون مختلفة عن بعضها كلياً، وذلك لأن قدرة الناس على التصوّر والإدراك متباينة، فهم يظنون أنهم رأوا أشياء؛ لكنها لم تحدث في الواقع، ويُغفلون حدوث أشياء كانت قد حدثت بالفعل.

وثمة صديق لي يعلم مادة الصحافة في إحدى الجامعات، كان يجري تجربة لطلابه لتعليمهم ملاحظة ما يجري أمامهم، فيطلب من أحد أصدقائه بين الفنية والأخرى بدخول قاعة الصف وإيقاع الفوضى فيها بذريعة أو بأخرى، ثم حالما يغادر هذا (المتطّلق الداخل عنوة) قاعة الصف، ويُعاد فرض النظام، يطلب أستاذ الجامعة من طلابه أن يُخرجوا قلماً وورقة، ويصفوا ما حدث للتو، وذلك بعرض موجز للحادثة، يتضمن: من كان الرجل، كيف كان يبدو مظهره؟... وهكذا دواليك. ويذكر صديقي أنه كان دائماً يضحك من الإجابات التي يحصل عليها، حيث يعجز بعض الطلاب عن إلتقاط رأس الخيط في توصيف ما كانت عليه هيئة الرجل، أو ماذا يريد، في حين يتعامل آخرون مع الحادث بطريقة مضحكة كلياً، حادثة عن الصواب. ويقول صديقي إن عدداً قليلاً من الطلاب فقط يستطيع تقديم توصيف جيد نسبياً لما يحدث.

إذا كان هذا واقع الحال تجاه حدث راهن، فكيف يكون الأمر تجاه حدث أكل الدهر عليه وشرب؟! يمكنني تكثيف الأمر ببساطة في العبارة التالية: أياً يكن تصوّرك عن مجريات الماضي، فعلى الأغلب أنه غير دقيق في جميع تفاصيله. ويتجه بعض الناس بأبصارهم إلى الراء، معتقدين أن الأيام السالفة كانت أجمل، وأن ما يحدث في الواقع الراهن أسوأ ممّا كان يحدث في الماضي، أياً يكن الأمر المقارن، سواء كان في موضوع الموسيقى أم السينما أم الكتب أم نظام الحكم، أو الموضة، فهو مُحكماً ليس بالجودة التي كان عليها في العادة. ومن الواضح أن اتّخاذ هذه الصورة المحرّفة عن الماضي، والتي تجعل الحياة الفاتنة أفضل بكثير ممّا هي عليه اليوم، مسألة غير صحيحة. فليس ثمة أي خطأ يُذكر في ما يمكن

تسميته الحنين إلى الماضي. لقد ذكرت آنفاً أن لديّ شريط تسجيل يضم تسجيلات موسيقية من الخمسينات والستينات وأنا أحب موسيقى تلك الحقبة. لكنني أتذكر أيضاً مسائل أخرى جرت في تلك الأيام، مثل اليوم الذي انطلق فيه القمر الصناعي الروسي Sputnik، والمكاثية والتمييز العنصري، فأنا أعني أن لكل حقبة تاريخية مظاهر إيجابية ومظاهر سلبية وهذا هو واقع حال كل حقبة تاريخية في حياة المرء الشخصية.

والآن، يجدر بنا القول إن هناك بدون أي شك بعض الأبناء البكر الاستكماليين المثبطي الهمة ممن يجتزون دائماً ذكريات الماضي، لأنهم يُضفون على ذكرياتهم في تلك الأيام الخوالي حلّة رائعة ولا في الأحلام. لكن يميل من على هذه الشاكلة من البشر، على الأرجح إلى إتاحة المجال للماضي بأن يعيقهم راهناً، لأنهم لا بد تعثروا وفشلوا في مسألة معينة أو أخرى في الزمن السالف، ولا يريدون حدوث هذا مجدداً معهم.

«من؟ أنا أكتب هذا التقرير؟ لا، اسمع، أنا أسف، لقد حاولت كتابة تقرير سابقاً، وكان ذلك في عام 1984. ولم أفلح في ذلك أبداً، وأنا على يقين أنني سأحقق الآن».

«ماذا؟ أتعلّم برمجة الكمبيوتر؟ هي، لقد جرّبت ذلك مرّة، وذلك منذ عشرة سنوات، ولم أستطع فهم فكرة الأمر، وأنا عاجز عن ذلك الآن».

ويصبح الإخفاق على ضوء ذلك عكازاً، شيء يستند عليه المرء لكي لا يجد نفسه مجبراً على تحمّل أي مخاطر راهنة، فهل يمكنك بعد ذلك ترك حياتك تمضي على هذا النحو، بأن تعيش مع الماضي وتسمح له بأن يعيقك راهناً؟

لا بد أنك سمعت بالقول، بأنك في حال كنت تتعلّم ركوب الخيل، ووقعت عن الحصان أرضاً، فإن أفضل ما يمكنك عمله هو أن تمتطي ظهر الحصان ثانية. وهذا صحيح بدون أي شك، فيتعتن على المرء التعلّم من أخطائه، وإفساح المجال لها لتكون متكاً للارتقاء عليها صعداً على درب الحياة.

أنت لا يمكنك إذن نسيان كل ما يمتّ بصلة إلى الماضي، لأنك في هذه

الحالة سترتكب على الأرجح أخطاءك السابقة نفسها. لكن ليس في صالحك أيضاً أن تعيش في الماضي، وإتاحة المجال له ليحول بينك وبين الاستمتاع في حياتك الراهنة، أو يعيقك عن المضي قدماً صوب مستقبل أفضل باطّراد.

### 3. عالم - أنا - لن - أختار - لا - تسألني

ذكرت آنفاً أن الإبن البكر الاستكمالي المبهط الهمة، يجد غالباً ضيقاً من اتخاذ قراراته الشخصية الخاصة به بنفسه، ويعود ذلك لكونه اعتاد على أن ينحو في حياته على الدوام كما يرغب الأشخاص الآخرون.

فإذا رغبت في رؤية شخص من هذا الصنف وهو بحالة الارتباك، فما عليك إلا أن تأخذه إلى مطعم يقدم قائمة طعام تشمل عدة صفحات طويلاً، أو خذه إلى إحدى صالات العرض السينمائي المتعددة العروض، ثم اطلب منه أن يقرّر الفلم الذي يرغب بمشاهدته.

«آه، لا أعرف. ماذا ترغب أن تشاهد أنت؟».

«ليست مشكلة بالنسبة لي، أيّاً يكن. قرّر أنت».

«لأعرف أي فلم نشاهد، أي فيلم يبدو جيداً لك؟».

وبالتأكيد ستكون ليلتك ليلة عويصة إذا كنت تتعامل هنا مع شخص مُرضي حقيقي بكل معنى الكلمة، أي شخص يسعى لإرضاء الآخرين في أي أمر يصادفه على الإطلاق، فستبقى خارج الصالة واقفاً طوال الليلة، ولاعباً لعبة «أنت تقرّر» «لا، أنت تقرّر».

إنني أدرك أننا نعيش في عالم لا كمال فيه، فالشيطان يفسد الموجودات، والعالم ليس كما قصده الله أن يكون، وذلك يعني أن من الوارد في هذا العالم أن يعاني الناس الأبرياء، وأن تعترض طريقهم نائبات معينة، دون أي سبب يبين. ولقد قصدني في عيادتي للاستشارة مئات من البشر ممن عانوا من سوء الطالع أكثر مما هو محتمل. ومناسبة قلبي هذا أنني أودّ ألا تسيئوا فهمي فيما أنا عازم على قوله الآن، وتظنوا أنني لست متعاطفاً مع من أقصدهم بحديثي، فالحقيقة



هي أن الكثير مما يصادفنا في الحياة من سوء طالع، إنما هو نتيجة مباشرة لامتناعنا عن اتخاذ الخيار الذي كان من الممكن أن تكون فيه مصلحتنا.

إفترض أنك تسوق سيارتك على أحد الطرق، وأخذت سيارتك تصدر قرعة غير مفهومة. فما الذي ستفعله حينئذ؟ بوسعك بالطبع الاختصار على تشغيل الراديو ورفع صوته، إلى الدرجة التي تصمّ فيها أذنيك عن القرعة. وبوسعك أيضاً التوجّه إلى أقرب محل تصليح، والطلب من الميكانيكي إلقاء نظرة على محرّكها. ولا يخفى عليكم أن الخيار الثاني هو الخيار المنطقي الوحيد، بيد أن الاستكشالي المثبط الهمة بينكم سيختار تجاهل المشكلة وإتاحة المجال لها لتتفاقم نحو الأسوأ.

واليكم حالة يبلي التي تعيش حياة تعيسة لأن زوجها يفرط في تناول المشروبات الكحولية، إلى الدرجة التي يفقد القدرة بعدها على أداء أي عمل، سوى ممارسة عدوانيته عليها. ياللبائسة المسكينة يبلي، مع أنها كانت تعرف قبل أن تتزوجه أن دافيد يحب تناول الكحول، بل إنه ضربها مرة أو مرتين قبل أن يتزوّجا، إلا أنها لم تكن تتوقع ولا في الحلم أن زواجها منه سيؤول إلى نهاية كهذه. وكما ترون هنا، أن يبلي في مواجهة خيار كان عليها أن تتخذه، إلا أنها امتنعت عن ذلك. كان يتعيّن عليها رؤية مآلها هذا قبل فترة من حدوثه، فلقد كان دافيد مسرفاً في تناول الشراب، وعدوانياً تجاهها، ممّا كان يربّب عليها اتخاذ خيارٍ حاسم بأن تقول له: «الله معك»<sup>(\*)</sup>، إلا أنها لم تفعل.

ومن مصادفة الأقدار أن بذور أسلوب حياة يبلي مغروسة باكرّاً فيها، فلقد كان والدها عدوانياً أيضاً قبل أن ينتهي أمره إلى ترك البيت وهجر أسرته عندما كانت يبلي لا تزال في مرحلة الدراسة الابتدائية.

واليكم أيضاً حالة مارشال الذي لم يكف عن التعبير عن دهشته واستغرابه، وهو ينشج بالبكاء متكورّاً على نفسه أمامي، لماذا تركته ثيريسا، وعبر عن استعداداه لفعل المستحيل مقابل أن يعرف فقط ماذا تريد منه، مع أن الحقيقة هي أنها حاولت كثيراً ومنذ سنوات إخباره ماذا تريد، لكنه أعارها الأذن الصمّاء، فلقد كان دائماً مشغولاً عنها، وراغباً عن الحديث معها بحجّة:

«ليس الوقت مناسباً الآن أبداً، سنتحدث عن ذلك لاحقاً، موافقة؟».

إلا أنه لم يجد أبداً ذلك الوقت المناسب ليتحدث معها، وهكذا عيل صبرها أخيراً، وانفجر سخطها على لامبالاته وامتناعه عن إبداء أي نية في التغيير، على هذا النحو. ولقد كان بإمكانه بالتأكيد اتخاذ الخيار الذي كان فيه إنقاذاً لزواجه من هذا المصير، لكنه امتنع عن ذلك.

وترمينا الحياة باستمرار بحالات شبيهة بذلك، ممّا بإمكان المرء تغييرها لو اتخذ الخيار المناسب، أما إذا امتنع عن اتخاذ هذا الخيار، فليتحمل وزر عمله حينئذ.

ويذكر لنا ناتانيل براندين عدداً من الطرق تساعدنا على امتلاك القدرة على إيجاد الخيارات المناسبة الصحيحة:

- التفكير، حتى لو كان التفكير بمسألة ما شائكاً.

- بذل كل جهد ممكن لاستييان الأمور بوضوح، سواء حصل هذا الأمر تلقائياً ودون عنثرات، أم لا.

- إعاره الواقع ما يستحق من اعتبار، حتى لو كان ذلك مؤلماً، وبما يعاكس رغبة المداورة عن الواقع.

- إبداء إرادة المخاطرة التي تتطلبها حالة معينة، متغلباً على ما يعتریک من مشاعر خوف.

- التعامل بصدق ونزاهة مع النفس.

- أن تعيش في الحاضر وأن تبقى خيوطك مربوطه به، مؤثراً ذلك على التلطي والانزواء في عالم الخيال.

- إبداء إرادة رؤية أخطائك وتقويمها، مؤثراً ذلك على الإمعان في الخطأ.

وهكذا، إذا كنت تصرف كالنعامة، طامراً رأسك في الرمال، فلقد آن الأوان لاتخاذ الخيار الآن، وفوراً الآن، لتغيير ذلك الوضع، ومواجهة القرارات التي تدعوك الحياة لاتخاذها.

#### 4 - عالم - أنا - لن - اتلقى - نعم - كإجابة

يعيش بعض الناس في عالم وهمي من الفشل والنبد المتوَعَّع مسبقاً، وهكذا فهم يَلْفَقُون حبكة سلبية لكل ما هم في صدد عمله، بل إنهم يعبُدون الطريق لأنفسهم للوقوع في الفشل والإخفاق.

ويريد مثلاً ديريك المثبط الهمة ترتيب موعد مع أسرة لثمة ماري لو، فيقول: «آه، اعذرني على هذا الاتصال يا ماري لو، أنا أقصد... أعرف أن لديك أشغالات أهم من الحديث معي.. وأنا.. في تقديري أنك مرتبطة مسبقاً بموعد في ليلة السبت، لذلك... طيب، أعرف أنه ليس لديك رغبة بالخروج معي، أليس كذلك؟».

مارأيكم؟ ماذا سترد ماري لو على دعوة كهذه؟ هل ستوافق عليها، وعلى أنه ليس لديها أي موعد أبداً، وعلى افتراض أنها لاتضيق وقتها معه؟ ولماذا يا ترى يتعيّن عليها الإجابة بنعم، وتعكير نفسها بأمنية من «آه، يا مسكينة! أنا مفاجأ لأنك خرجت مع شخص متبطل مثلي؟»

كان يلزم ديريك أن يقول: «هبي، ماري لو، هل يا ترى لديك رغبة بالخروج معاً للعشاء، ومن ثم ارتياد السينما ليلة السبت؟» ثم يترك الأمور بعدها تمضي في هذا السياق، وليس ثمة أي مسوُغ بالنسبة له في اقحام نفسه في كل هذه التهويمات السلبية، فلو ارتأت ماري لو الإجابة بـ لا، فبوسعها ذلك دون أي حث من قبله، بل من المحتمل أن تفاجئه وتجب: نعم.

وبكلمات أخرى، لانهاء الوضع لنفسك للتعرض للنبد، واحرص دوماً على التمعّن فيما تتفوّه من عبارات، وحاول أن تكفّ عن الكلام حين تسمع نفسك تقول شيئاً سلبياً عن نفسك، أو بالأحرى أعد صياغة العبارة بقلب أكثر إيجابية. ثم أعر قليلاً من الوقت مساء كل يوم لمراجعة ما حدث معك خلال النهار، ولمعرفة عدد المرات التي مرت فيها ما تريد أن تفعله أو تقوله بوشم سلبي. كن حازماً في دأبك على تقليل عدد المرات التي تصدر فيها من فيك كلمات مثل «أنت لا يمكنك، لا تريد، لا ترغب»، فإذا واصلت الخطّ من قدر نفسك، بشكل واعٍ أو غير واعٍ، فإن الناس سيتقبلون حقيقة أنك تستحق هذا الشأن.

فالمحصلة النهائية، لا أحد يعرفك أفضل ممّا تعرف نفسك وإذا كان لديك رأي وضع عن نفسك، فما الذي يمنع الآخرين من عدم موافقتك؟  
صَنع في ذهنك أنك ستظل تسمع الإجابة «لا» من حين إلى آخر إثر تغييرك لسلوكك، لكنك ستلقَى إجابات بـ «نعم» أكثر بكثير ممّا اعتدت عليه سابقاً.  
والتدبير الخامس لتقليل ارتفاع عارضة القفز العالي في حياتك هي:

## واجه مخاوفك بجسارة

نحن جميعاً يساورنا الخوف في مسألة معيّنة أو أخرى، وسواء كان المرء نسخة كربونية عن رامبو، أم يظن نفسه أكثر خشونة من كلينت إيستوود، فثمة مسائل، من كل بد، تجعل نبضات قلبك تخفق بعنف، وتجعل شعر نقرتك ينتصب.

فهل أعدُّ الثعابين والعقارب، والحشرات من كل جنس وصنف، وركوب الطائرة، والتحدّث أمام جمهور في مكان عام وبوسعي مواصلة العدّ لأسود ربّما خمسين صفحة متسلسلاً قائمة طويلة بما يمكن أن يسبّب الفزع للناس، فربما كنت أنت تخشى العتمة، بينما يساور الآخر حالة من الرعب من فكرة التحدّث أمام جمهرة من البشر. وربما كنت تمضي ساعات ممضة من الغمّ الشديد وجلاً من حالة التهديد النووي، في حين تستحوذ على شخص آخر حالة قلق دائم من احتمالية انهيار مفاجئ في سوق الأوراق المالية. إن مخاوف الناس متنوّعة لكنها جميعاً حقيقية.

ويأبى بعض الناس الاعتراف بأنهم يخافون، إلّا أن الخوف حاضر عندهم مع ذلك، ولن يعود إنكارهم لذلك بالخير عليهم، والإنسان لا يتغلب على مشاعر خوفه إلّا إذا واجهها بجسارة، وبمعنى آخر، إذا تعلّم الإقرار بوجودها.

وبإمكان المرء أن يبدأ بالتدريج بتحليل مشاعر خوفه، والتيقّن من أن استحواذ مشاعر الخوف عليه في حالة معيّنة لاتعني أن ثمة أي عيب في بنيته الشخصية.

«يساورني الخوف لأن العتم مُطبق هنا، ولا أستطيع الرؤية، وهذا ما

يجعلني أشعر بعدم الأمان، ثم تلقائياً بالخوف» أو «تعتبرني مشاعر خوف من هذا الواجب بإلقاء خطاب أمام كامل من في القاعة، وأنا في الواقع، لست معتاداً على التحدث أمام جمهور، لذلك من الطبيعي والعادي تماماً أن أشعر بالخوف والارتباك».

ثم يتعين بعد ذلك القيام بخطوة إضافية، ومساءلة النفس عن أسوأ ما يمكن أن يحدث في حالة معينة: (والتي أتخيل) «خير إن شاء الله!»<sup>(٥)</sup> أنا متأكد أنه لا يوجد في الواقع أي رجال حرامية أو أشباح معي في هذه الغرفة المظلمة، وشيء لا أدري ما هو، داس على إصبعي وهرسها، أو أن شيئاً خبط رأسي، لكن حتى لو كان هذا حقيقياً، فلن يؤدي إلى موتي». أو «ربما نسيت كلام خطابي، أو تفوهت بكلمات بلهاء مما دفع جميع الحضور للضحك علي، لكنني أفترض أن ذلك لن يكون نهاية العالم».

وإذا تمكن المرء من تحليل مشاعر خوفه على هذا النحو، فإنه حينئذ يكون قد قطع الخطوة الأولى باتجاه التغلب عليها وتجاوزها. «نعم، هذه حيّة، والحيات تسبب الخوف لي دائماً. لكن ماذا يمكن لهذه الحيّة أن تفعل معي؟ فهي خشب علمي ليست سامة، وأنا متأكد أنها خائفة مني أيضاً بمقدار درجة خوفاً منها.... وهكذا وهكذا».

واني أعني أن ما تحدثت به حتى الآن إنما يمس بمشاعر الخوف التي من السهل نسبياً التغلب عليها، لكن المبدأ الأساسي هو نفسه، مهما كانت ماهية ما تخاف منه، أو درجة غور هذه المشاعر في أعماقك.

بل من الممكن أن تبدأ بالتعامل باستخفاف مع مخاوفك، كأن تستهل خطابك بإلقاء نكتة عن رؤية نفسك مضطراً لرفع صوتك لتجعل نفسك مسموعاً على نحوٍ يغطي على صوت اصطكاك ركبتيك مع بعضهما!

تعلّم الإقرار بأنك خائف، ولكن بين قدرتك على أن تضحك على ذلك، ثم متابعة ما أنت في صدد القيام به. أما إذا تحدّثت إليك نفسك بأن الشعور بالخوف نقيصة، وأنه يجدر بك ألا تخاف أبداً، فإنك حينئذ تنصب عارضة

القفز العالي الخاصة بك على ارتفاع عالٍ جداً، فالخوف جزء طبيعي من الكينونة البشرية، لكن حبسك أن تحرص على عدم السماح له بشللك أو جعلك تُظنّ بنفسك السوء.

وإذا وجدت أخيراً أن مشاعر الخوف قد هزمتك فعلاً وتهزمتك باستمرار وتشل قدراتك، ففي ذلك إعلان إلى أنه آن الأوان لأن تقصد اختصاصياً نفسياً للمعالجة، وسيعود عليك ذلك بالكثير من الخير، وأقله التخلص من مرض الرهاب.

## تحمل مسؤولية شؤونك الخاصة بك

ويتحمل المرء مسؤولية أعماله عبر اتجاهين:

- 1 - عبر إدراكه أنه وحده، ووحده فقط، المسؤول عما يفعل.
- 2 - عبر إدراكه أنه لا يتحمل وزر ما يقوله أو يفعله أي شخص آخر.

وتعرض الأبناء البكر مشاكل في كل من هذين المجالين:

بادئ ذي بدء أكثر ما استعرضناه سابقاً من أن الأبناء البكر يميلون لأن يعيشوا طوال أعمارهم بالمناحي التي تصب في خدمة سعادة الآخرين. فإذا أراد «الاباء»<sup>(\*)</sup> منه الدراسة في مدرسته النائية نفسها، فهو بالتأكيد لن يرتأي خذلانه. وإذا أرادت «الماما»<sup>(\*)</sup> أن تكون إبتها ملكة جمال مطلقة، طيب، من المحبذ في إبتها البكر إذن إبقاء أسنانها لماعة دائماً، وأن تحوز خبرة ممارسة الابتسام، وأن تواظب باجتهاد على دروس التدريب على الغناء.

مع أن الحقيقة، إذا دفعنا الأمور إلى نهاياتها القصوى، هي أنهما ليسا مسؤولين عما تؤول إليه حياتك - بل أنت وحدك المسؤول - ومن الحرّي بك أنخذ زمام السيطرة والتحكم في شؤونك. وطبعاً، أنا لأدفع المسألة إلى الحد الذي أحملك على ركل مؤخرات جميع من حولك طالباً منهم الابتعاد عن التدخل في مجريات حياتك، فنحن جميعاً نرغب برؤية أقربائنا وأصدقائنا سعداء، لذلك قد نأتي أحياناً أموراً ربّما لا نريد حقاً إتيانها، وما ذلك إلا لإرضائهم وإسعادهم،

لكن ليس ثقة أي داع يقتضي منك إفساح المجال لأي شخص آخر بالسيطرة عليك ولا شيء يُلزمك أيضاً في أن تحصر همك فقط في إسعاد الآخرين، بل بوسعك بذل طاقتك القصوى لتدُلَّ على تعاطفك مع حاجات الآخرين ورغباتهم، لكن لا تنزع من ذهنك حقيقة أن بعض الناس لن يصلوا إلى السعادة مهما فعلت من أجلهم، فهم سيكرّرون دائماً، هل من مزيد عند كل استجابة لهم؟

وكذلك لا شيء يُلزم الآخرين في أن يحصروا همهم فقط في إسعادك وشرح صدرك. فبوسعك أن تحبي زوجك، لكن لا يمكنك الاتكال عليه لجعلك سعيدة. وبإمكانك أن تحبي أطفالك، لكن لن تكوني منصفة إذا كنتِ تعتمدين عليهم لجعلك سعيدة. فلا شيء يحمل المرء على أن يمضي كامل حياته وهو يتلقّى اللوم على كل ما يفعله، وبالمقابل لا يمكنه أيضاً أن يمضي كامل حياته، صاباً اللوم على الآخرين في كل شيء. بل إن ضبط الأمر ضروري هنا!

وعندما نتقل إلى الحدث عن الشعور بالمسؤولية تجاه ما يفعله أو يقوله الناس الآخرون، فإننا نجد أن الأبناء البكر أساتذة مرموقون في هذا المجال، وربما يعود ذلك لسبب أنهم تعلّموا باكراً في حياتهم أن يلعبوا دور النموذج المثالي. وهم كانوا دائماً خاضعين لمراقبة أولئك الآخرين الذين ينمذجون حياتهم على منوال حياة هؤلاء الأوائل. وهكذا سيعود الخير كل الخير على جورج، إذا تقيّد بصرامة بكل قواعد السلوك المحافظ وفي كل القيم التي يشتمل عليها!

ولنأخذ الآن حالات توضّح لنا مسألة فرز المسؤوليات. فإذا عانى زوجك من يوم سيء في العمل، وعاد إلى البيت معك المزاج، فذلك ليس خطأك، فبوسعك التعاطف معه، وسؤاله فيما إذا كان يرغب بتدليك ظهره أو أي شيء من هذا القبيل، لكن يجب عليك ألاّ تسمح له بإلقاء اللوم على كاهلك وتحميلك وزر مزاجه المعكّر صفوه. وإذا اقتحم باب البيت مندفعاً مثل الدب الهائج، وهو يرغي ويزيد عن لأدري ما يكون، فإمكانك أن تعبّري له عن أسفك لأنه عانى من يوم مكثّر، وأنك لن تبخلي عليه بالمساعدة لتحسين حالته المكثّرة! لكن لا تفسحي المجال له بتحويلك إلى كبش فداء لأن مبيعاته كانت

ضحلة أو لأن مديره في العمل أنبه بقسوة. قفي في وجهه، وكوني صلبة، ولا تستسلمي!

وإذا أرادت منك جارتك القريبة حضانة أطفالها خلال فترة غيابها عن البيت للتسوق، وكنت مرتبطة مسبقاً بأشغال أخرى تمنعك عن تحقيق رغبتها، فهي ليست خطيئتك، وإذا حدث واستشاطت غيظاً من ذلك، فذلك فأل سيء لك، لكن لا تتركها لها أي مجال لأن تشعر بك بالذنب.

ويتمتع الأطفال بمهارة مميزة في جعل آبائهم يشعرون بالذنب:

«أنا متأكد أنني سأرسل في امتحان الرياضيات غداً، فأنا لم أفهم هذه المعضلة<sup>(\*)</sup>، ولم يبد أحد رغبة في مساعدتي!». «أوه، لا يهتمك يا شنوكي<sup>(\*\*)</sup>، فالماما ستساعدك. وسنعمل معاً حتى منتصف الليل إذا اضطررنا إلى ذلك. ولن أتركك إلا على أتم الاستعداد لتأدية هذا الامتحان المعهود!».

لا شيء يحملك على تحمل مسؤولية حالة الولد شنوكي، فلقد كان لديه أسبوعان ليعد نفسه للامتحان، وكان بوسعه إخطارك أو إخطار الأستاذ قبل عدة أيام من أنه يعاني من صعوبات في فهم هذه المادة. وإذا رسب في امتحانه، فليست تلك خطيئتك بالتأكيد، بل إنها في الحقيقة خطيئته هوا. لكن عندما قال بأن لا أحد يرغب بمساعدته فإنه بذلك يجعلك تشعر بالذنب، وهكذا ستنكب على العمل معه لساعات طوال، مع أنك في الواقع في أمس الحاجة لكل دقيقة من وقتك لتكرسه لعمل آخر ضروري لك. ونصيحتي لك أن لاتعير أي التفاتة إلى شكواه وتركه يخفق في الامتحان، وسيؤدي ذلك لقلل يتقاعس في المرة القادمة عن توجيه أسئلته عندما تعترضه أي صعوبة في فهم مسألة معينة.

أنت لاتحتمل وزر علامة لنجاحه الضعيفة، ولاتتحمل أيضاً وزر مشاكل زملائك في العمل. وإذا كنت ذا قلب رحيم، فتلك نعمة رائعة، لكن الحقيقة هي أن ثمة أناس ليسوا غير «علاقات عاطفية»، فإذا تركت الحبل لهم على الغارب،

---

(\*) - اسم عَلم بمعنى أبه. م.



فإنهم سيتعلقون بك، لأي شيء ظريف تتمتع به، وسيستزفون قواك طرأً.

أفترض أن لديك زميلاً في العمل يعاني من حالة اضطراب دائمة في حياته، وهو لا يقتصر فقط على اللجوء دائماً إليك لتفريغ ما يحمله من قصص عاطفية معك، بل إنه يقصر في عمله ويستنجد بك لمساعدته، وهو أيضاً يتميز بطريقة تواصل مع الآخرين تجعلك تشعر بالذنب تجاهه، وتحمّل وزر مشاكله، مع أنك في الواقع لا تدخل لك في ذلك. فماذا يجدر بك أن تفعل حيال ذلك؟ كن قاسياً وأخبره أنك غير قادر على تغطية تقصيره في العمل وتنفيذ واجباتك في آن واحد. وربما استشاط غيظاً وانفعل بحدة وزر وضعه، ويجب أن لا تنفصح أي مجال لأن تُشتغل على هذا النحو. وربما يكون مفيداً لك تنظيم لائحة بالقضايا التي أنت مسؤول عنها، والقضايا التي لست مسؤولاً عنها.

أنا لا أتحمل وزر أو مسؤولية:

أنا مسؤول عن:

- مزاج قريني الزوجي المعكّر صفوه	- ما أقيم من علاقات اجتماعية
- المطر الذي أفسد مخططات أطفالي	- كيفية تصريف وقتي.
في ذلك اليوم	
- عدم توفر امرأة تشرف بانتظام	- كيفية التصرف في جسدي.
على حضانة أطفال جارتي	
- إزدحام وعرقلة سير مفاجئة	- ما أحشو في ذهني من كتب
أخرتني عن موعد	أو أفلام أو... الخ
- الكيفية التي يعاملني وفقها الآخرون	- كيفية تعاملي مع البشر
- سعادة الناس الآخرين	- سعادتني الشخصية

وأؤكد مرة أخرى، أنني لأرغب في الدفع مطلقاً باتجاه عيش حياتكم باستخفاف كامل بأمانني الآخرين ورغباتهم منكم، ولا أريد أيضاً أن أعرض عليكم ضرورة إدارة ظهوركم للبشر حين يكونون في حاجة إليكم، لكن هناك فرق هائل بين مدّ يد العون لهم وبين تحمّل وزر مشاكلهم.

إن الحياة غير منصفة وتشتمل على مشاكل سواءً على شكل حوادث سير أم أمراض أو أزمات حب عاطفية، بما لاحيلة لك على الإطلاق في حلحلتها

لكن تذكّر بأنك إذا تنكّبت بنفسك مسؤولية حياتك، فستزداد حظوظك في تحقيق السعادة.

لقد آن الأوان لأن تكفّ عن هدر طاقاتك الشخصية عبثاً، فأنت لن تبلغ أبداً الكمال: ولن يصل إليه أي شخص آخر. بل تعلّم أن توطّد العزم على تحقيق نتائج عالية الجودة، وستأخذ حياتك منحى آخر، وستخطو بنجاح فوق عارضة القفز العالي.

## الفصل السادس

### الإبن البكر يلج منتصف العمر

كانت تدعى شارون، وتبلغ السادسة والثلاثين من العمر، متزوجة وأم لثلاثة أطفال. وكانت من ذوات القد الناعم الدقيق التكوين. أنيقة الملبس كنموذج لاغبار عليه للبنت البكر في بدلتها المحبوكة من القماش الصوفي الغليظ، وفي خفيها الأسودين، وفي أفرط أذنيها الدالّين على ذوقها الرفيع. يوحى مظهرها بأنها أصغر ممّا هي عليه بالفعل، باستثناء بعض التجاعيد الخفيفة التي تؤطر عينيها، وهي ثنيات تدل على أنها في الواقع تحب الابتسام فتكثر منه. لكن الابتسامة فارقت وجهها في الآونة الأخيرة، فبدت ممزّقة فيما بين نداء القلب ونداء العقل، وتحسيم الأمر مبدئياً الآن لصالح القلب.

وبدأت بسؤالها لي: «هل أنا كائن مدعاة للسخرية، دكتور ليمان؟».

- «ما رأيك أنت؟».

- «طيّب، إنني أعتقد أن المسألة تبدو وكأنها حالة من حالات الخروج عن

الطور».

إن شارون مصيبة فعلاً، فالمسألة تبدو كحالة من الخروج عن طورها، فهي على أهبّة هجر زوجها الذي عاشرته لمدة خمسة عشر عاماً، والذي يكنّ لها قدراً كبيراً من الحب، وكذلك أطفالها الثلاثة، من أجل شاب يافع في الثامنة عشر من العمر، تعرّفت عليه منذ ثلاثة أشهر فقط. وقالت:

«لقد كنت دائماً أمسك بإحكام بزمام حياتي، وتكتنفي حالة من

السعادة، وبالطبع ليست سعادة وبهجة غامرة، لكن لم يكن لديّ مطلقاً أي تذمر أو شكوى ذات أهمية، ولم أدرِ أبداً كم كانت حياتي رتيبة ومضجرة إلا بعد أن دخل (ريك) حياتي».

وربما ليست حالة شارون من الحالات المألوفة الحدوث، لأننا لن نصادف حالات عديدة من وقوع امرأة تبلغ السادسة والثلاثين من العمر، في الحب مع صبي بنصف عمرها، لكنها نموذج ساطع على أن الإبن البكر أكثر عرضة بكثير جداً من أي ابن آخر في الأسرة للوقوع في أزمة منتصف العمر.

فهو يظل يُضرب كمثال عن الشخصية المتناسكة القوية، إلى أن يأتي أحد الصباحات، في حوالي يوم ميلاده الأربعين، لينهض من فراشه ويفكر بينه وبين نفسه: «لقد تجاوزتني الحياة دون أن أشعر بها، فلقد كنت مهكاً كلياً في تنفيذ رغبات الآخرين مني، إلى الدرجة التي لم يتبقَّ لدي وقت لمعرفة ما أريده حقاً من الحياة». فيلجأ عندئذ الإبن البكر وكرد فعل على هذه الحالة، إلى الخروج والإقدام على بيع سيارته الرصينة مثلاً، واستبدالها بسيارة رياضية من ذوات السرعات المضاعفة. أو يترك العمل الذي واطب عليه لمدة عشرين سنة متواصلة ويقرر الانتقال إلى عمل آخر مختلف كلياً. أو أن يحسم أموره كما فعلت شارون بالضبط، ويقرر أنه تعب من وضعه كزوج وأب مخلص، وبأنه يفتقد الإثارة والمتعة في وضعه هذا، وبأنه بذل طاقته القصوى في تمثله لدوره هذا، فإلى أين أَدَّى به ذلك؟، إلى مآل فارغ من أي معنى، وسيتلفت حينئذ حواليه، ليرى امرأة صبية توحى بأنها أكثر إثارة بكثير من زوجته. فلماذا يا ترى لا تكون هي من يفتقده في حياته، امرأة أصغر سناً، امرأة أكثر إثارة، امرأة يمكنها جعله سعيداً حقاً. وهو لا يدرك بالطبع أنه لا يقوم بهذا إلا بتبديل نسق معين من المنغصات ونحيبات الأمل بآخر.

ففي حالة شارون مثلاً، قالت:

«لقد جرى الأمر فجأةً معي، بل قبل أن أدرك ما يحدث على أرض الواقع. ففي لقائي الأول مع ريك، وجدت الحديث معه سلساً جداً، ولعلمك، إنه أنضج بكثير جداً من معظم ممّن هم من جيله... ومن ثم... خير، أمرٌ يؤدي لآخر

وهكذا....، أما الآن فلا أعتقد أن لي سلوى في هذه الحياة بدونها، ولا في أي حال من الأحوال».

كانت شارون محظوظة في زوجها، فلقد كان يعرف بمسألة علاقتها الغرامية، ومع ذلك كان يسعى بتفانٍ وإخلاص للخروج من هذا المأزق، ووصل به الأمر إلى حد ترك عمله والاضطلاع بعمل آخر في بلدة قصية تبعد عن مكان إقامته مسافة تزيد عن مائتي ميل، آخذاً أفراد أسرته معه. لأنه كان يظن أنه يكفي إبعاد شارون عن هذا الشاب لتنتهي حالة الافتتان التي تشدها له وتعود الأمور مجدداً إلى نواصيها. لكن لم يثمر هذا الإجراء بعد عن أي نتيجة، بل إن شارون تفكر الآن جدّاً بحزم حقائبها، والشروع في بناء حياة جديدة مع عشيقها، وتقول:

«أنا بالتأكيد أحب أولادي، لكنني مع ذلك أحب ريك أكثر».

ولنتبين كيف يمكن للمرأة توحى بمظاهر نضوج جلية، وشعور عالٍ بالمسؤولية، إيجاد نفسها في حالة كهذه الحالة، لنستمع مجدداً إلى شارون وهي تتحدث:

«إني وصلت إلى حالة الإرهاق الشديد من تقمّص موقع الشخص الذي يتكئ عليه الجميع. وفي حدود ذاكرتي، لا أعرف نفسي إلا وأنا ألعب دور الركيزة للجميع، ومن يتوجب عليه تولّي مسؤولية كل القضايا جملةً واحدة. أه، لا أعتقد أنني كنت أعير اهتماماً كبيراً لذلك، أقصد، أنني كنت أقدر أن هذا ما يُفترض مني القيام به، مادام يجعل جميع من حولي سعداء». أما بالنسبة لصفات زوجها، فلقد أقوت شارون صراحةً أنه:

«شخص عظيم، وأب رائع، ومُعيل جيد، ووسيم أيضاً». ومع ذلك، يبدو أن هذا غير كافٍ بالنسبة لبنت بكر، معبأة حتى الحدود القصوى عن دورها في الحياة، ومفعمة بالرغبة في أن تبلغ ما لم تصله في أي لحظة من حياتها وفي جميع الاحتمالات المرجحة، لن تستطيع بلوغ ذلك أبداً.

ماذا قوّرت شارون أن تفعل؟ إنها لسوء حظها لم تعد لرشدها بعد. وحاولت إقناعها بأن التخلّي عن زوجها المخلص وعن أطفالها والشروع مع صبي

بعمر ثمانية عشر عاماً ليس إلّا غلطة من العيار الثقيل، معوّلاً أساساً على جِبِلَّتِها كَبنت بكر، والتي تُبدي في ظل الظروف الطبيعية والعادية قدرةً على محاكاة الأمر برأسها لا بقلبها. لكن عندما يندفع ابن بكر في حالة تمرّد، فلا شيء يُمكنه أن يدلّنا عمّا سيحدث، وخصوصاً لأنّه يتمرّد ضد جيلته الخاصة، ودوافعه الطبيعية لأنّ يسلك نمط حياة قويم، ولأنّ يعير اهتماماً لكلّ من يرتبط به بعلاقة معيّنة.

أتاني في عيادتي طوال سنوات دوامي بها، عددٌ كبير مماثل في وضعه لشارون سواءً من الذكور أو الإناث، وكان مجرى حديثي معهم يتناسب مع كل حالة، حيث لم يتورّط جميعهم في علاقات جنسية غير زوجية، بل اقتصر الأمر عند قسم منهم على مجرّد مشاعر بأنهم مقيّدون ومحصورون من قبل عائلاتهم، ونتيجةً لمسؤولياتهم، ويريدون إدخال دمٍ جديد إلى حياتهم. وأتذكّر الآن مارك وما قاله لي:

«لست واثقاً من أنني أنيت أمراً واحداً في أي يوم من أيام حياتي وكنت أرغب به حقاً، وينسحب هذا الأمر حتى على الطريقة التي جرى وفقها زواجي، فقيما كنا سارة وأنا سويةً في مشوار قصير، بدأت سارة بالحديث عن الزواج، ولم أكن في حينها متأكداً تماماً من أنني مهياً للزواج، لكنني رغبت بإسعادها، لذلك تزوجتها. وها أنا الآن بعد مضي عشرين سنة على ذلك، وبعد أن بلغت الأربعين، ومع ثلاثة أولاد يافعين في البيت، مازلت أؤدّي دوري بعمل ليس لديّ أي اهتمام به على الإطلاق.... لقد وقعت في الشرك. أشعر بأن وضعي في حال ميؤوس منه تماماً، وكما لو أن نسغ الحياة امْتُصّ مني بالكامل». وبالنسبة لي، فلّاني على يقين من أن رؤية مارك للحالة ليست دقيقاً تماماً، فلقد كانت رغبته في الزواج من سارة، ممّا لاجدال فيه، مماثلة تماماً لرغبة سارة، وأنا متأكّد أيضاً أن مشاعر ابتهاجه مماثلة تماماً لمشاعرها إثر حصولهما على الأطفال، لكن الدور الذي لعبه مارك «كشخص راشد ويمكن الاتكال عليه» طوال كل هذه السنوات يؤدي ضريته الآن.

ولحسن الحظ أن مارك واحدٌ من أخذوا بمشورتي ووجد أن بإمكانه التمتع بقدر أكبر من الحرية بدون إنهاء علاقاتهما الزوجية، وبأنّه بالتأكيد يحب سارة

وأطفالهما، وأنه لا يوجد أي مسوّغ للتضحية بهما لمجرّد «إيجاد» نفسه. أما أديل فلقد كانت واحدة ممن أُتيّنَ أتباع نصيحتي» وتركت زوجها ستيفن بعد أن دامت علاقتهما مدة إثني عشر عاماً لمجرّد أنه كان «مُضجراً». وبعد مرور عشر سنوات على هجر أديل لستيفن، سُجّل لأديل ثلاث زيجات انتهت بالطلاق وهي الآن مخطوبة لرجل جديد. لكن يمكن لكل من يصادفها الآن ملاحظة أن ثمة بالكاد وميض فرح وبهجة يشع من عينيها، رغم كل مظاهر التباهي التي تبديها بمجوهراتها الجديدة. وإذا سألتها فيما إذا كانت تشعر بالسعادة بزواجها الوشيك، فإنها ستستهجن الشك في ذلك وتقول: «طبعاً... أكيد...»، لكن الطريقة التي ستقول بها ذلك ستتيح لك أن تدرك في أنها ليست متيقّنة إلى هذا الحد، فلقد كان عليها التفكير في إجابتها! ثم تردف عبارتها بـ: «لعلك، لقد وصلت إلى قناعة أنني لن أعثر أبداً على شخص مثل ستيفن - إنه حقاً رجل استثنائي بكل معنى الكلمة».

ومن سوء حظ أديل أن زوجة ستيفن الثانية، روبرتا، تعرف أيضاً أنه رجل استثنائي، وهي ليست عازمة على تركه يبعد عنها.

لكن أديل حافظت طوال هذه الفترة على اتصال دائم بستييفن، بل إنها كانت تستشيريه بما يعترضها من مشاكل في علاقاتها مع أزواجها المتبدلين وعشاقها الكثير: «ما الذي يترتب عليّ عمله مع رالف؟».

«هل تعتقد أنني أحب طوني فعلاً؟ وأن عليّ أن أتزوجه؟... وهكذا دواليك».

وإن ما يدفع أديل لاستشارة ستيفن طوال هذه الفترة، هو إعجابها برجاحة عقله التي كانت تبدو لها سابقاً مضجرة، فهي تقول: «إنه شخصية متزنة وذو عقل راجح». وهي تحاكم الوضع الآن بأنها حينما تركت ستيفن ورحلت، إنما كانت تتصرف بأنانية. وهكذا يرى الإبن البكر غالباً الأمور، فهي إما أسود أو أبيض، وإما أن يكون «أنانياً» أو «غيرياً»، وعندما يتحول من الغيرية إلى الأنانية فإنه ينتقل من تطرّف إلى آخر.

وهكذا أعود وأكرر أن الشخص الذي يهرب من الوضع الذي يعيش فيه،

ومن جميع من يمت له بصلة، سيكتشف عاجلاً أو آجلاً، بأنه قد قاىض بنسق معين من المشاكل في العلاقات مع الآخرين مقابل نسق آخر، وبرزمة من منغصات عمل معين، برزمة أخرى، وسيكتشف أن المتاجرة بالأمان والاستقرار المالي مقابل «الحرية» هي مقايضة غير متكافئة إلا ضمن حالات استثنائية.

وتبين لي خلال ممارستي لعملي أن أعداد النساء المولودات بكرًا، ممن لايشعرن بالرضى عن زيجاتهن، وعن أوضاعهن العائلية، وممن يرتأين أن لامفرّ من الرحيل، هي أعداد أكبر (ولاستغروا أيها الرجال الأفاضل، فيما إذا خلّصت الواحدة منهنّ في سعيها وراء الرجل الفارس بدرعه البراق، والذي سيخلّصها من كل منغصات حياتها، إلى التعلّق برجل أصلع وذو بطن كبير بصورة معدّلة جزئياً عن أوسكار ذاغروش، والذي يُبقى الجيران في حالة يقظة دائمة نتيجة لشخيرهِ القالع!). ومع أن حقيقة وجود أعداد كبيرة من الرجال ممن يشعرون أنهم واقعون في أسر حياة بيتية لاتبعث على السرور، هي مسألة لايشك في صحتها، إلا أن النساء اللاتي يجدن أنفسهن في هذه الحالة هنّ الأكثر، وقد يعود ذلك لأن الزوج يجد غالباً تحقّقاً كاملاً لشخصيته في عمله أو نشاطات خارجية أخرى، في حين تظل الزوجة مقيدة وبألف قيد إلى البيت وشؤونهِ.

ولابدّ لي أن أصارحكم الآن بالقول إنني أعرف أنني جعلت الأمر يبدو كما لو أن الأبناء البكر يستحقّون اللوم دائماً في هذه الحالات، لكن ليست هذه هي الحقيقة على الإطلاق، فالزواج كأى علاقة ثنائية لا يستقيم إلا إذا كان إرتكازه مستقراً على كلا الطرفين، إلا أن الذي يحدث في الواقع أن الإبن البكر وفي معظم الحالات هو الشخص الذي يتحمّل القسط الأكبر من المسؤولية ليكفل له النجاح، فهو يضعّ ويتحمّل ويتفانى في المسألة، إلى الدرجة التي يعجز بعدها عن تقديم أي قدر إضافي من التضحية والتحمّل والتفاني، وفي الوقت نفسه لا يرى شريكه يبذل هذه الدرجة نفسها من الجهود، وعندها يحسم أمره ويقرر الهجران.

وتحدث أيضاً حالات يُفاجأ فيها أحد الزوجين من هجران شريكهِ الزوجي له، ومرةً كنت في تكسون واتّصل بي واحد من رجال الدين في واحدة من أضعخم وأشدّ الكنائس إنجيلية:



«اسمع... آ... دكتور ليمان، أيمكنني مراجعتك في العيادة، لإجراء حديث معك. المسألة متعلقة.... آ... إنها... عن زوجتي، فالظاهر أننا نواجه مشكلة في علاقتنا... أوه، ماذا ترتأي...، إجراء اتصال مباشر». وبوسعي القول إن الارتباك كان بادياً عليه، فلقد كان عمره في منتصف الخمسينات، ومضى على علاقتهما الزوجية أكثر من ثلاثين عاماً، ولم يكن يتخيل اللحظة أنه سيتحدث يوماً إلى أخصائي نفسي عن شؤون زواجه. وأكدّت له من قبلي أنه من دواعي سروري التحدّث إليه وزوجته، وأدرجت في جدول المواعيد موعداً معهم في الأسبوع التالي. ولم تكن الجلسة الأولى باعثة على السرور، فلقد تلمّست رغبته الأصيلة بمعالجة المشكلة من جذورها، بيد أن زوجته اقتصرت على الجلوس بدون إكتراث، والتحدّث بما هو ضروري حصراً، حين لامفتّ أمامها من الإجابة على أسئلتي. والتقيت بهما سوياً في أول الأمر، ثم كل واحد منهما على انفراد، إلا أنها مع ذلك لم تتجاوب معي، إلى أن انتهت في أحد الجلسات الفردية وبعد أن تعبت من ألعابها هذه، إلى توجيه السؤال التالي لي: «هل ثمة أي فائدة لك لو أخبرتك بالحقيقة؟».

- «طيب، يمكننا تجريب ذلك واختباره قليلاً، ثم نرى إذا كان ذلك مجدياً أم لا».

- «حسناً، يوجد رجل آخر».

- «ماذا تقصدين، يوجد رجل آخر».

وأنا أتحدّث طبعاً مع أحد أفراد الفئة الأقل احتمالاً على وجه البسيطة لأن يكون لديهم علاقات غرامية غير شرعية، لذلك لا غرو أنني لم أفهم ما تخبرني به!

- «أنا لديّ علاقة!».

وحالما الملت نفسي من آثار الصدمة، طلبت منها إخباري كيفية حدوث ذلك. وتبيّن لي أن زوجها (ولا غرابة أن يكون ابناً بكرةً أيضاً) كان مشغولاً جداً عنها في أداء ما يقتضيه دور السيد «مسيحي بامتياز»، إلى درجة أنه لا يقي لها أي وقت خاص يمضيه معها. وكانت تشعر في ذلك الوقت وقبل أن تبدأ بترتيب

مواعيد مع أي شخص غريب، بأنها مهجورة ومهملة، لأن زوجها كان مستهلكاً جداً بواجبات الكنيسة، ففي كل ليلة تقريباً كان لديه نوع أو آخر من الاجتماعات، وإذا لم يحصل ذلك، فإنه يقوم بزيارات لمن هم تحت رعايته الدينية في الكنيسة» للاطمئنان على سعادتهم الروحية. لقد كان يلف ويدور بلا هوادة، في محاولة دؤوبة لأن يجسد شخصية السيد «تحت تصرف الجميع»، ومع ذلك لم يستطع رغم جهوده الوفاء بجميع مستلزمات هذه الشخصية، بل أفسح المجال في سياق انهماكه هذا، لأن تتراجع أولوياته الشخصية في سلم اهتماماته إلى الموقع الأخير، وها هو الآن يدفع الثمن.

وأنا لا أقول ذلك لأجد عذراً لتصرف زوجته، فلا يوجد أي مبرر على الإطلاق يشرع لها تورطها في علاقة زنى، ولكنني أقول لأبين كيف وصلت زوجته إلى المرحلة التي تمّ فيها إغواؤها بسهولة بالدخول في مثل هكذا علاقة. وبعد أن فهمت ملابسات الحالة بالضبط صارت مهمة إعادة وصل العرى المفكوك إلى علاقتهما أسهل، لاحظوا أنني قلت (أسهل) ولم أقل (سهلة)، فالمسألة بالتأكيد ليست سهلة، لكن أصبحنا نحن الثلاثة الآن على يئنة ممّا نتعامل معه فعلياً. لقد كانت في الواقع لاتبادل الشخص الآخر أي عواطف غرام، لكن المسألة تقتصر على أنها تشعر بالوحدة وبدون طرف يبادلها الحب، وكانت في أمس الحاجة إلى أي شخص يعيرها الاهتمام.

ووافق زوجها بعد أن صار بوسعه رؤية دوره في حدوث ذلك، على أن له قسطاً من المسؤولية فيه، ولم يتوان عن إبداء رغبته في التغيير. وها هما الآن قد قطعاً شوطاً طيباً على طريق إعادة توثيق عرى علاقتهما الزوجية، فلقد كان بحق ولحسن الحظ، شخصية طيبة القلب، وليس من النوع الذي يقول: «هذا هو عملي يا امرأة، ويجدر بك الاعتقاد عليهما». الآن، دعونا نرى المسألة مع بعض، برفع الأيدي. كم امرأة من بينكنّ متزوجات إلى رجال يمضون من سبعين إلى ثمانين ساعة عمل أسبوعياً، ثم يقولون: «أنا لا أفعل ذلك إلا من أجلكم فقط؟». وبالطبع، هناك تنريعات على هذه العبارة، مثل: «خير، مازلت تتمتين الحصول على تلك السيارة الجديدة، أليس كذلك؟».

إذا أردتم أيها المواليد أباكراً تجتنب الوقوع في أزمة منتصف العمر، أو تسبب ذلك لأحد الأشخاص القريبين منكم، فإني سأعلمكم الآن، ودون أي إبطاء، أن من الأفضل لكم المضي صوب أولوياتكم مباشرة، ويعني ذلك أن يدرك كل واحد منكم أن من الضروري أن يكون شريكه الزوجي وأطفاله الأطراف الأولى بالرعاية في حياته.

هل سيطر عليك يوماً ما إحساس مماثل لما يحس به البحار بوباي<sup>(\*)</sup> حين يقول:

«لقد صمدت، واستنزفت كل طاقتي على الصمود، وليس بوسعي الصمود أكثر من ذلك؟». وهل توشك على الوقوع تحت تأثير غواية أزمة منتصف العمر؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن أول إجراء يترتب عليك تحقيقه، هو أن تعيد ترتيب أولوياتك، ضامناً فيها بأنك فهمت حقاً أي المسائل هي ضرورة لك.

ويلي ذلك عدّة خطوات أخرى، يتعين عليك إجراؤها، لما فيها من فائدة لك في هذا المجال:

- 1 - تعلّم التصرف بعفوية.
- 2 - تكفّل بتحقيق سعادتك الشخصية بنفسك.
- 3 - اجرد قائمة بالتعم التي تتمتع بها.
- 4 - ابذل جهوداً حثيثة لإحلال الاعتدال في كل مناحي حياتك.
- 5 - اكتشف قوة التسامح. واسمحوا لي الآن توضيح ما أعنيه بكل خطوة من هذه الخطوات:

## 1 - تعلّم التصرف بعفوية

أتنتي منذ فترة غير بعيدة جداً مراجعة أخبرتني بطريقة لاتخلو من الانفعال، بأنها اتبعت نصيحتي<sup>١</sup> وبأنها تعلّمت حقاً التصرف بعفوية. وكان جوابي على ذلك:

- «أوه، كيف تفعلين ذلك؟».

(\*) - شخصية مشهورة في أفلام الأطفال الأمريكية. م.

- «الأمر بسيط<sup>(٥)</sup>، مساء كل يوم ثلاثاء، أخرج مع ثلاث زميلات لي في العمل لتناول العشاء في أحد الأماكن العامة، ثم نرتاد بعدها السينما، ونقوم أحياناً بجولة على أرصفة المحلات ونتبضع!».

- «أوه، الظاهر أن ذلك مُسلي!».

- «نعم وهو كذلك!، فنحن نتخفف من هموم تحضير العشاء أو مساعدة الأولاد في الواجبات المدرسية، أو أي شيء من هذا القبيل. وندع أزواجنا يهتمون بذلك».

كتمت بالكاد إلحاحاً داخلياً في المهمة، فما سمعته يمثل إلى حد كبير سلوك ابن بكر حين يريد التصرف بعفوية فهو يُدرج في جدول مواعيده وقتاً لذلك، ويروح بعدها بإتيان الأمر نفسه أسبوعياً (ويذكرني هذا بأمر شاهدته في تلك الأيام التي كنت أحتل فيها منصب مساعد وكيل الطلاب في جامعة أريزونا في تكسون. فبينما كنت مرة أتمشى في أروقة مبنى اتحاد الطلبة، استوقفني إعلانٌ يقول: (اجتماع تنظيمي لنادي الفوضوية، الغرفة 302 = اتحاد الطلبة، اليوم، الساعة الرابعة بعد الظهر)، فحتى العفوية يمكن أن يكون لها إجراءات بيروقراطية.

لكن في المحصلة، كان ذلك بداية طيبة جداً بالنسبة لها، وخاصةً إذا أخذنا بعين الاعتبار أنها شخص أمضى مجمل حياته في رسم جداول المواعيد والالتزام الحرفي بها، وتحمل مسؤوليات الأمور حتى نهاياتها، ورسم الأهداف وإنجازها. من الضروري لكل مولود بكر تخصيص بعض الوقت للترويح عن نفسه، يعلق فيه العمل بجدول مواعيده اليومية ويفعل فيه أي أمر يلتي رغبة شخصية لديه، أما إذا شعر أن لامناص أمامه من إدراج موعد معين لـ «عفوئته»، فلا بدّ ممّا ليس منه بدّ، ولينظم موعداً لذلك. وليكن الانصراف مرة في الأسبوع لمشاهدة فيلم سينمائي، أو سرقة النفس في أحد الأيام للخروج إلى صيد السمك على ضفاف البحيرة، أو الانضمام إلى أحد فرق البولنغ، أو أي ضرب آخر من ضروب اللهو والتسلية.

ولكن أيّاً يكن ما يفعله كل واحد منكم وكل واحدة منكن، احرصني على

عدم إضاعة العمر متمصصة هيئة من تريد أن تكون عفوية، فتبددي عشرين سنة من الحياة الزوجية على شاب إمعة يضحك بسبب أو بدون سبب، أو على رجل (يسمع ويطيع)<sup>(٥)</sup>. ولا تتخلّى عمّا وصلتَ إليه من منصب في العمل، وعن التعويض التقاعدي لأنك قرأت خبراً في الجريدة يقول أن مرتبي حيوان السمور في إيداهو ضربوا أرقاماً قياسية في الثراء!

قد يحصل أن يشعر المرء أن حياته أضحت مملة ورتيبة، وأنه يلزمه إجراء تغيير جوهري قطعي، لكن الأمور لا تتم بهذه الطريقة، بل إن كل ما يحتاجه المرء إنما هو تخصيص فترات زمنية قصيرة للقيام ببعض النشاطات التي تتوافق حقاً مع رغباته. وحسبك اختلاصٌ قليل من الوقت للترويح عن نفسك، وستحصل حالاً على إطلالة جديدة كلياً على الحياة. وبوسعك حتى في أصغر مدينة أو قرية، حيث تظن أنه لا مجال لممارسة نشاطات متنوعة، وإيجاد هذا النوع من النشاط أو ذاك، والذي سيزيد في غنى حياتك. بإمكانك مثلاً المشاركة في نشاطات نادٍ فنيٍّ أو اجتماعيٍّ، أو أخذ دروس في العزف على الغيتار تحقيقاً لرغبة قديمة، أو الانضمام إلى فريق في البوليف، أو تعلّم السباحة الحرة أو أخذ دروس في الغناء، أو تعليم شبانٍ أميين القراءة والكتابة. وأياً يكن الأمر، فإن عليك تدبّر أمرك في اختلاص قليل من الوقت للترويح عن نفسك.

راقبوا الأمر بأنفسكم، وسترون معي أن عدداً هائلاً من الأبناء البكر، لم يُتَح لهم البتّة المرور في مرحلة المراهقة، فمن الصعوبة عليهم فعل أي أمر ذي طبيعة سطحية، كما يتصرف جلّ المراهقين، وذلك لأنهم الأكبر، المتأمل منهم دائماً البرهان على أنهم راشدون صغار السن، ففي الوقت الذي يصدر عن إخوتهم وأخواتهم الأصغر سلوكات طائشة وتصرفات غريبة عجيبة ما أنزل الله بها من سلطان (وباختصار، التصرف مثل مراهقين نموذجيين)، يحجمون هم عن ذلك. لكنهم في لاحق الأيام، وبعد انقضاء عشرين سنة جديدة من عمرهم، أي عندما يناهزون منتصف الثلاثينات - انطلق! لقد حانت فجأة مرحلة المراهقة. ويؤدي بي هذا إلى القول بصحة الافتراض من أننا جميعاً نمر بمرحلة المراهقة، إذ يتأخر بعضها عنها إلى مرحلة متقدمة من أعمارهم قياساً بالآخرين!

## 2. تكفل تحقيق سعادتك الشخصية بنفسك

هل سمعت يوماً قاعدة كيفين ليان الشهيرة بخصوص العلاقات الغرامية؟  
٣٩ طيب، إنها تنص على ما يلي:

(إذا قُدر لك الوقوع في حالة طلاق أو حالة فسخ لعلاقة عاطفية جديدة، لاتنغمس في علاقة أخرى إلا بعد مرور أربع سنوات على الأقل). أتخيل أنني أسمعك تقول: «ماذا؟». ولا بد أنك تعتقد أنني لست جدياً، لأن مدة من أربع سنوات تفرغ الأذان كفترة هائلة الطول. والحقيقة هي أنني أتبع مسلكاً على غرار ما يجري في قطاع الطرق العامة. إذ يُصب عادةً على زاوية منعطف خطر لافتة تدلنا على أن سرعة الأمان القصوى خمسة وعشرون ميلاً في الساعة، مع أنهم يعلمون عندما ينصبون هذه اللافتة، بأنك لن تسير بتلك الدرجة من البطء، لكنهم يعولون على تخفيض سرعتك إلى خمسة وثلاثين، وهي السرعة النموذجية لتجاوز المنعطف من الناحية الواقعية. عندما أخبرك إذن أن القاعدة العامة هي أربع سنوات، فأنا عارفٌ مسبقاً أن أكثر ما يمكن أن أمل به هو سنتين بيد أن أربع سنوات ستيح لك وقتاً أرحب لإعادة التام جراحك، ولتكون واقعاً من عدم دخول علاقة جديدة على أسس غير صحيحة.

ولقد مرت علي أعدادٌ لا تحصى من المشاكل التي وقعت مع أناس تورطوا في إقامة علاقة جديدة في فترة «نكوص».

ففي حالة ماري مثلاً والتي تحطمت على نحوٍ مفاجئ، علاقتها مع جو، والتي دامت لمدة أربع سنوات، مع أنها كانت توحى بأن مصيرها أن تتزوج في المذبح الكنسي، كانت كل علائم الانهيار النفسي باديةً عليها. إلا أنها أتت لرؤيتي بعد ستة أسابيع، وأخبرتني أنها خطبت لمروين، وكأنها تتباهى بذلك.

بدا لي الأمر شديد الغرابة، فقبل شهر وبضعة أيام، كانت ماري تعتقد أن حياتها قد تدمرت كلياً لأن الرجل الذي وهبته قلبها بإخلاص قوض علاقتها. ثم ها هي الآن غارقة بكل ذرة من كيائها في علاقة حب مع شخص صادفته للتو! يستحيل علي تصديق ذلك، بل إنني أعتقد أن ماري كانت ساخطة ومجروحة الفؤاد من انتهاء العلاقة التي كانت تظن أنها ستدوم إلى آخر العمر،

فتكبلت بأول شخص اعترض طريقها. وإني أعتقد أيضاً أن ماري من نوع النساء اللواتي تظن الواحدة منهن أنها في حال إدخال رجل إلى حياتها سيجلب لها السعادة معه، وكان (جو) هو الذي تعول عليه في ذلك، لكن عندما هجرها ورحل، توجهت نحو رجل آخر، منتظرة منه أن يجلب لها السعادة على طبق من فضة.

لايجوز للمرء انتظار أن تأتيه السعادة من شخص آخر، فالسعادة تأتي من داخل المرء، حين يشعر بالرضى عن نفسه وعن الحياة التي يعيشها. ولقد أتيت لي في عيادتي رؤية أناس تزوجوا وطلقوا أربع أو خمس مرات، ولم يتوقرو لأي واحدة من هذه الزيجات الاستمرار، وذلك لأن ما يعول على الشريك الزوجي من آمال كان غير معقولاً.

«حسناً، ها أنا تزوجتك، اجعلني (أو اجعليني) سعيدة<sup>(1)</sup>». إذن. إن الأمر لا يجري بهذه الطريقة، فالوشائج الحميمة لعلاقة غرامية طرية العود، يمكن أن تجعلك سعيداً لفترة محدودة من الزمن. لكن ما لم تع أن السعادة لا تأتي لك إلا من صميم أعماقك الداخلية، لن تدرك أبداً ذلك النوع الدائم منها وربما لست من النوع الذي يسعى وراء ولوج السعادة إلى حياته على هيئة شخص آخر، بل ربما تعتقد أن السعادة متضمنة في شراء بيت أكبر، أو في ترك العمل، أو بداية عمل جديد، أو الحصول على طفل، أو تربية الأولاد وجعلهم أطول قامة منك، أو الحصول على ترقية، أو أي أمر من آلاف المسائل الأخرى. وذلك مرة أخرى غير صحيح، فالسعادة لا تأتي لك إلا في تعلم كيف تحب شخصيتك وتقدر نفسك حتى قدرها وما تفعله بحياتك. والسعادة حالة ذهنية، وكذلك التعاسة، ولا تعتمد أي واحدة منهما على أي شيء ملموس، بما فيها حالتك الراهنة لحدث معين أو آخر.

يقول الدكتور هارولد هـ. بلومفيلد في كتابه «أعراض حالة أخيل»: «يعيش الكثير منا النصف الأول من مرحلة الرشد في حياتهم وهم يؤخرون إلى وقت لاحق الإحساس بالإشباع والرضى عن النفس، والنصف الثاني بالحسرة والأسف على ما فاتهم. يتراءى دائماً للإنسان أن التحقق سيحصل إثر بلوغ القمة التالية<sup>(1)</sup>».

مايريد الدكتور بلومفيلد قوله إن السعادة يمكن أن تلازمك حتى عندما تعترض طريقك مشاكل من كل حدب وصوب، وأنا أوافق على ذلك. ويقول أيضاً: «يعتقد كثير من الناس أن القلق والحصص النفسي والتوتر مسائل لا يمكن تفاديها ما داموا يخوضون صراعاً مع مشكلة معينة أو مخاض اتخاذ قرار ما. ويحد هذا الاعتقاد من قدراتهم على حل المشاكل، ويطيل محنتهم على نحو لا مبرر له. وقد تبدو الفكرة التالية لبعض الناس من نوع الأفكار الثورية، لكنني أؤكد أنه لا مبرر لأن تذكر المشاكل، فلكل امرئ نصيبه منها، لكن يمكن له وهو في مععانها اختيار حالة الرضى عن النفس، والمقدرة على الحب والحفاظ على الصحة»<sup>(2)</sup>. ويُشير لنا أن نتعلم «اختيار حالة الرضى عن النفس»، عبر تعلم زيادة «الحمد والشكر» على ما نحن فيه. وأنه بدلاً من ترك أنفسنا فريسة للقلق عن السبب الذي يحول بيننا وبين السعادة، فلنتعلم «تركيز الاهتمام على الجوانب الإيجابية وعلى إعطائها ما تستحق من قيمة»<sup>(3)</sup>.

إن بإمكانك بلوغ السعادة إذا وضعت نُصْب عينيك ذلك!

### 3 - إجرد قائمة بالنعيم التي تتمتع بها

كم مرة جلست بينك وبين نفسك، وفكرت في حالتك؟ هل أجريت عملية جرد لكل جوانب حياتك التي يُفترض أن تحمد ربك على تمتعك بها؟ - هل تتمتع بالصحة والعافية؟ هل تؤمن ما يكفيك من القوت اليومي؟ هل تعيش في بلد يتيح لك مطلق الحرية في أن تعيش حياتك كما تشاء؟ هل أنت من أسرة يعيش الحب بين جنبتها؟ هل تنعم بحبة شخص ما؟ هل تنعم بصديق وفي واحد على الأقل؟

يتوقّر في عالمنا عدد هائل من المسائل التي يجب أن نحمد ربنا ونشكره عليها، لكننا نستهن بمعظمها. ولا بد أن معظمنا سمع أولئك البشر الذين يرفعون عقيرتهم بالشكوى من حال العالم اليوم، مع أن الحقيقة أننا نشهد في عالمنا الراهن عدداً كبيراً من المسرات.

حشُبنا إمعان النظر في التقدّم الحاصل في ميدان الطب على مدى الخمسين سنة المنصرمة، وبتلك الأمراض العديدة التي كانت تعني للجيل السابق الموت



المحتم، وخاصةً في صفوف الأطفال، والتي يبرأ منها الإنسان بسهولة، أو استؤصلت شأفتها من الوجود. ومن كان منا واعياً في مرحلة الخمسينات يتذكّر حالة الهلع والاضطراب التي سببها شلل الأطفال، حين كان يُصاب به بالعدوى في كل صيف آلاف من اليافاعين الصغار ذكوراً وإناثاً، مخلفاً العديد منهم في حالة عجز، أو مزوّدين برئات اصطناعية. وأنا أتذكّر عدم السماح لنا بارتداد أحواض السباحة العامة نظراً لاحتمال العودة إلى البيت بعدوى الشلل. وأتذكّر أيضاً تلك الأطباق الممدودة أمامنا في قاعات السينما لجمع أموال تُرصد للأبحاث المكرّسة لهذا المرض. وليس كسب الحرب ضد الشلل إلا أحد جوانب التقدّم الحاصل في ميدان الطب خلال الخمسين سنة الفائتة.

ولنمنع النظر أيضاً في الخطوات الواسعة التي قُطعت في مجال الاتصالات والنقل. حسبك الآن تشغيل جهاز التلفزيون في بيتك، ومشاهدة أحداث، عبر الأقمار الاصطناعية، تجري في الوقت نفسه تماماً في النصف الآخر من الكرة الأرضية، وبوسعك أيضاً إذا شئت التحدّث إلى أحد الأشخاص القاطنين في أوربا؛ التقاط سماعة الهاتف وإجراء اتصال مباشر معه. وكان يلزم المرء أسبوعين أو أكثر لقطع الولايات المتحدة الأمريكية من أقصاها إلى أقصاها، في حين يمكن للمرء الآن استقلال الطائرة وقطع المسافة نفسها بأقل من خمس ساعات!

هل تتذكر أول مرة تناقلت فيها الأخبار ظهور أجهزة الكمبيوتر؟ كانت أشكالها غريبة جداً، وهائلة الحجم، وكان هناك ارتيابٌ خفيٌّ في أدائها لعملها، في حين أن الملايين ممّا الآن يمتلكونها في بيوتهم، ويستعملونها لأغراض شتى، سواءً لألعاب التسلية، أم لمساعدة الأولاد في واجباتهم المدرسية، أو إجراء موازنة لميزانية الأسرة. وكان يتعيّن على المرء سابقاً دفع مبلغ مليون دولار على الأقل للحصول على جهاز كمبيوتر، أما الآن فليس مضطراً لدفع أكثر من ألف دولار لشراء جهاز. ثم هل تقتني نوعاً معيناً أو آخر من آلة حاسبة بحجم الجيب؟ فإذا كان الأمر كذلك، كم دفعت للحصول عليها؟ عشر دولارات أو ما يقاربها؟ تذكّر كيف أنها كانت تكلف منذ عشرين سنة مبلغ مائة دولار. واليكم الآن هذا السؤال الأخير: هل تقتني جهاز تلفزيون ملوّن؟ أنا أتذكّر أول مرة رأيت

جهازاً فيها، وذلك عندما اشترى أناس يقطنون في بنايتنا نفسها واحداً في حوالي منتصف الخمسينات. وكم كان الأمر مثيراً حقاً، لقد كُتِبَ ندوخ وراء أي ذريعة نختلقها لنزور بيتهم، بهدف التفرّج فحسب على هذه اللعبة ذات الألوان، والتي تظهر كل الناس ببشرة خضراء وشعر برتقالي، لكن ياه، تصوّروا أنها بالألوان! وكان هذا يكفي لدفع ما يقدر بثروة صغيرة للحصول عليها.

أما الآن، فأنا أخالك تتصور أنني من النوع الذي يرى العالم مرتدياً مؤتمتاً<sup>(\*)</sup>، لكنني أعلمك أنني أدرك أن هناك ما يستدعي الغم في كل عصر من العصور، وأن ذلك ما يحصل دائماً وأبداً ما دمنا نعيش في هذا العالم. لكن بالمقابل لا يمكننا أبداً إنكار ما نتمتع به في هذا العالم من مزايا نحمد الله على تحقيقها لنا.

عندما تستحوذ على كيائك مشاعر الإحباط ووهن العزيمة، وبأنك على شفا التعرض لأزمة معيّنة، تنعّج مع نفسك عدة لحظات، لتختلي لوحك مع ورقة وقلم وتسجل قائمة بالمسائل التي تحمد ربك على تمتعك بها.

#### 4 - ابذل جهوداً حثيثة لإحلال الاعتدال في حياتك

تحدثت آنفاً عن تعلّم التصرف بعفوية، وهو أحد السبل الذي يمكنك عبره تحقيق الاعتدال في حياتك، ومن الممكن أيضاً أن يكون لإجراء تعديلات جزئية على هذا الجانب أو ذاك من مجريات حياتك اليومية، أثر إيجابي على أوضاعك ككل. هل تأخذ قسطاً معقولاً من النوم، أم أنك تنام أكثر من اللازم؟ هل تتناول كمية معقولة من الطعام كثيراً ونوعاً، وتقوم بتمارين رياضية معقولة؟ هل تشعر بالذنب من استنفاد المقدرة على تحمّل بذل المزيد والمزيد من الجهد؟ فإذا كان هذا هو حالك فعلاً، فهل بوسعك إجراء تقليص لواجباتك؟ إن أي مشكلة في أي جانب من هذه الجوانب أو مجموعة مركبة منها يمكن أن تجعلك تشعر بانحراف المزاج والقلق والاكتئاب.

---

(\*) - قطعة جلدية تُثَبَّت على رأس الحصان أو الحمار، وبمحاذاة عينيه، لتحصر رؤيته نحو الأمام فقط. م.

وإذا لم تكن تدري ما حلُّ بك، بل كل ما تعرفه هو أنك تشعر بالثَّكد كما لو أن كل ما يحيط بك موشك على التصدّع والانهيـار، فقد لاتكون المسألة إلّا برقيةً مستعجلة هامة يرسلها جسـدك إليك. ومن الممكن أن تشعر بأنك لست على ما يرام وبحالة من الانفعال، ويتراءى لك وكأنك في حاجة جديدة في الحياة، في حين أنك في الحقيقة لاتحتاج إلّا إلى تطوير عادات شخصية أكثر صحية.

وثمة حقل آخر يمس حياتك الروحية، جديـر بالمعالجة والبحث أيضاً. وأنا أقصد، هل تكترس وقتاً لربك؟ هل تتردّد بانتظام على أماكن العبادة؟ فالإنسان مخلوق روحاني يحتاج إلى أن يوطّد صلته بخالقه، وإذا لم يكن يؤدي واجباته على هذا الصعيد، فإنه سينأى بنفسه عن تحقيق الانشراح والسعادة الروحية. يترتّب عليك إذن، إذا لم يكن هذا المنحى من مناحي حياتك في حالة سوئية، إجراء التعديلات الضرورية عليه.

وربما ثمة ضرورة أيضاً لإجراء تعديل في علاقتك بقرينك الزوجي. فإذا كنت ابناً بكرةً استكمالياً، فإن قسماً كبيراً من أوقاتك، تمضيه على الأرجح في محاولة لإزالة كل نواقص وثرغات قرينك الزوجي، في سعي دؤوب لأن تجعله كاملاً. ليكن بعلمك أنك لن تبلغ منالك أبداً، ولن تقارب السعادة إلّا إذا تعلمت قبول لاكماله. فإذا كنت مثلاً تستشيط غيظاً منه لعصره كبسولة معجون الأسنان من الناحية العليا بدلاً من السفلى، اشترِ إذن كبسولتين، واحدة يستطيع عصرها كما يشاء، وأخرى يستطيع الحفاظ عليها سليمة.

تعرفون أنني الأخ الأصغر في أسرتي، وأدلل في سلوكي دائماً على أنني لست شخصاً مرتباً على الإطلاق، وكنت أعاني قبل عدة سنوات من مشكلة حقيقية في التعامل مع دفتر الحوالات المصرفية، فلقد كنت أكتب على طرف الحوالة الذي يُنتزع من الدفتر، وأنسى تسجيل رقم المبلغ على طرف الورقة الدائم في الدفتر، ثم أنسى بعد مرور بعض الوقت كل ما يتعلق بالموضوع. وجرى الأمر نفسه معي مرات عديدة، ولايتعلق الأمر بحوالات بقيمة خمسة دولارات أو عشرة، بل تحدّثوا عن حوالات ببلغ خمسين دولار أو مائة دولار أو أكثر حتى. ويحدث أحياناً أن تجري إدارة المصرف بعد فترة معينة من الزمن، اتصالاً معي:

«إي، دكتور ليمان، من المحبذ حضورك إلى هنا وإيداع مبلغ من المال على حسابك». وبإمكانكم تخيل كم يغيظ هذا الأمر زوجتي المولودة بكرًا، وهي محققة في ذلك، لكنها اهتمت أخيراً إلى حل، رتبت أوراق حوالات بورق كربون تحت كل واحدة منها، لذلك حتى لو نسيت كتابة رقم المبلغ على الطرف الدائم، سيبقى لديّ مع ذلك الرقم المسجل للحوالة الذي كنت قد كتبه أصلاً.

وهكذا يتعين عليك ألا تدع قرينك الزوجي اللاكامل يؤدي بك إلى الخروج عن طورك، بل بوسعك إجراء تعديل على ما يسبب لك التنغيص، ليشعر كلاكما بعدها أن المسألة سويت.

وقبل الانتقال إلى موضوع آخر، أجد من المفيد الإشارة إلى أن الزواج عقد شراكة بين طرفين، وما زال عدد كبير جداً من الرجال يعتقد أن العمل المنزلي من مهام المرأة حصراً، ومن هنا رُكِب القول القديم «عمل المرأة ما يينشغل»<sup>(٥)</sup>، لكن يا أيها الزوج، إذا كان بادياً على زوجتك الضيق والغم، وحالة تعب وإرهاق زائد عن الحد، فاسأل نفسك فيما إذا كان لك أي قسط من المسؤولية في وقوعها في هذه الحالة. فإذا كنت ممن يقدمون المساعدة بقدر المستطاع فذلك أمر عظيم وأنا أحييك على هذا، لكن إذا لم تكن نجيباً وشهماً، فأنا أقترح عليك جدياً ضرورة إجراء تعديل على ذلك. تقدّم! فالعمل المنزلي لن يؤدي بك إلى حتفك!

هل تساهم بنصيبك في مهام (الأبوة والأمومة)، أم تعتقد أن ذلك (عمل الزوجة)؟

كنت مرة في شيكاغو لإجراء مقابلة إذاعية في أحد البرامج، وجلبت معي جميع أفراد أسرتي. ورُتّب معدّو البرنامج الأمر وبدون علمي، على أن يحضروا أولادي للبرنامج نفسه لإجراء حديث معهم عن معنى أن يكون لديك أب أحصائي نفساني. وعندما وصلت إلى الاستوديو ووجدت أولادي يتحدثون في بث إذاعي على الهواء، لم أشعر بالسعادة أبداً آنئذ، فلم أكن أحبّ أبداً لجوء أي شخص إلى وضع أطفالي تحت الأضواء على النحو الذي جرى فيه الأمر، بدون مشورتي أو مشورة أهمهم أولاً على الأقل.

ودأب المذيع الذي يجري المقابلة بالإلحاف على كريسي في الأسئلة، أملاً أن تقدّم له بعض نقاط الضوء المساعدة على التبصّر في حياة طفلة لها أب كتب أبحاثاً، ويقدم محاضرات في الأبوة والأمومة والعلاقات العائلية. ونظرت كريسي أخيراً إلى الرجل بمعالم إحباط بادية على كل ملامح وجهها وقالت: «أنا لا أعتقد أنك تفهم، إنه مجرد بابا». حسناً، أنا سعيد بأن أكون «مجرد بابا» لأطفالي، ولن يكون بإمكانني طلب شرف أكبر من هذا، أو مسؤولية أكثر جدارة من ذلك.

## 5 - اكتشاف قوة التسامح

هناك علّة أخرى يمكن أن تبقيك في حالة من التوتر، وتشعر جزاءها كما لو أنك في حاجة لإجراء تغيير جوهري في حياتك، ألا وهي إبقاء نفسك محتقناً بالغضب، سواء كان الغضب مرتداً على نفسك أم موجهاً صوب شخص غيرك. واعلم أن الغضب لا يجدي معه إلا أمر واحد، وهو أن تتخلّص منه، وثمة طريقة واحدة للتخلّص منه، وهي مسامحة من سبّب لك الغضب كائنات من يكون.

كانت باتي أما لا تزال صبية، حين عادت أدراجها إلى بيت أهلها بعد فسخ علاقتها الزوجية. ورحب بها أبواها واستقبلوها في الأحضان، وبذلا أقصى ما يستطيعان ليكونا سنداً لها في محنتها. لكنهما كانا مع ذلك يثقان عليها، وما ذلك إلا لأنهما كانا يعاملانها كطفلة صغيرة، مع أنها كانت تبلغ الثامنة والعشرين من العمر، ولها طفلان وتمارس عملاً بدوام كامل. وكانت ترغب بالإفصاح عن مشاعرها لكنها لم تكن تعرف كيف، لذلك أتاحت المجال لمشاعر الغضب والإحباط بالتراكم والتقيح في أعماقها.

أشرت عليها بأن تكتب رسالة لوالديها تعبر لهما فيها عما يعتمل في داخلها، وأن لا تكتب الرسالة بعبارات ناقمة وجلفة بل تبدأها بلهجة ودودة، معبرة لهما عن درجة امتنانها لعهما دور السند لها، ولا استعدادهما وترحيبهما بإيوائها وأسرتها في بيتهما في هذه الفترة العصيبة، وبأنهما لم يخيبا أملها أبداً عن مدّ يد المساعدة لها، وبأنها ممتنة من كل قلبها لهذا الأمر، ثم بإمكانها بعد ذلك توضيح رؤيتها للمشكلة.

ونفذت باتي فعلاً ما أشرتُ عليها، وأجدى الأمر، فلم يكن أبواها يقدران أنهما يجرحان مشاعرها ويغضبانهما، فوق كل ما تعانیه جزاء طلاقها. فهذا من روعها، وحلحلا الأمر. وهكذا أضحت بقية فترة سَكَبها في بيت أهلها ريثما تجد وطفلاها سقفاً يؤويهم خاصاً بهم، فترة إبحار هادئ.

فإذا وُجِدَ شخص تشعر بضرورة وضع حدٍّ لتصرفاته، لكنك تتهيب مواجهته، فأنا أشير عليك أن تجلس وتخطّ رسالة له موضّحاً فيها مشاعرك، دون أن تكون حانقاً وجارحاً في نقدك، بل أفصح عن مشاعرك بالطف أسلوب ممكن. فقد تحصل بعد ذلك على اعتذار عن الخطأ، ثم تعيد توثيق عرى العلاقة. لكن حتى إذا لم يتحقق ذلك، فأنت على الأقل عبّرت عن نفسك، ويتعيّن عليك بعدها التحرّر من أي شعور بالمسؤولية تجاه مجريات الوضع. لكن إنّاك والاستسلام للغضب، فإن الضحية الوحيدة له هو أنت، قبل أي شخص آخر.

وإذا كنت حانقاً من شخص ما - وليكن أحد الأبوين أو كليهما على سبيل المثال - لكنه توفّي منذ زمن طويل، ويبدو أن كتابة رسالة له على ضوء ذلك ليس أمراً ذا جدوى أبداً من الناحية الواقعية. لكن نصيحتي لك أن تكتبها مع ذلك، لما يمكن أن تقدّمه لك من تخفيف لوطاة الوضع.

واسأل الله، في كل الظروف والأحوال، أن يمدّك بالعون على المغفرة وبمبشيقته على المغفرة، والله لا يردّ أبداً طلب من يسألونه العون.

أما إذا كان من الأسهل على المرء مسامحة شخص آخر من أن يسامح نفسه، وهذا يحدث خصوصاً إذا كان المرء استكمالياً، فإن الأجدى به أن يتذكّر أنه لا يوجد أبداً أي شخص كامل، فنحن جميعاً لنا عيوب، وليست عيوبه من عيار أثقل من عيوب الآخرين. على المرء إتاحة المجال لنفسه للتصرف كأني كائن بشري، وأن يخفّف من الأحمال المكثّسة على عاتقه!

وإذا ارتأيت ضرورة كتابة رسالة لنفسك، فاكبتها. وإذا ارتأيت ضرورة وقوفك أمام المرأة وإجراء حديث مسهب مع نفسك تسامح فيه نفسك، فافعل ذلك. وإن إضمار المرء موقفاً قاسياً وغير متسامح تجاه نفسه، يمكن أن يؤدي إلى تدمير حياته، لذلك اسعَ بإخلاص وتعقّل لمسامحة نفسك، الآن ودون أي إبطاء.

ثم أخيراً إذا كنت ترى مسوَّغاً لطلب المغفرة من قبل شخص آخر. فاذهب وافعل ذلك، فعدم الصفح يمكن أن يدمرك سواءً كنت بحاجة لأن تصفح أم يُصفَح عنك.

وأياً تكن الحال، إذا ارتأيت أن هناك حاجة لمنح أو طلب الغفران، فلا تتلَكَّأ عن ذلك! فذلك أمر شديد الأهمية، وهناك قوة هائلة في التسامح، وسيُزوِّدك فعلياً بالقدرة على التحرر والخلاص!

إذا كنت ابناً بكرًا يتعامل مع الحياة باعتباره رجلاً خارقاً، فلا تتخلَّ عن هذا التصوُّر كلياً، وشدَّ رحالك صوب قفار وباري الأسكا!

## التعامل مع أبوين معقرين

تعرض طريق الإبن البكر مشكلة أخرى، عند ولوجه مرحلة منتصف العمر، وهي أن أبويه أصبحا عاجزين، وقد يكونان في حاجة لعناية خاصة.

ما أشقَّ على النفس رؤية أبويك وهما يشيخان، ويصل الأمر لأن يُهَدَّ فؤادك في الصميم إذا حدث وأصيب والداك بالعجز الكلِّي، فأنت مدين لهما بالكثير، وتعود بك ذاكرتك دائماً إلى تلك الأيام حين كنت صغيراً بلا حيلة، وكيف كانا يقفان دون أي انقطاع إلى جانبك، مادَّين لك يد العون.

جمعتني جلسة جرت مؤخراً مع أحد الأصدقاء الأوفياء، وكان يكي بحسرة على اضطرابه لاتخاذ قرار بنقل أمه إلى دار للعجزة، فهو لا يحب ذلك. مع أنه يعلم أنه كان القرار العقلاني الوحيد، وأفضل ما يمكن إجراؤه معها، ومع ذلك غلبت عليه مشاعر الأسى والإثم. ولقد حاول في وقت سابق مع زوجته تأمين ما تحتاجه من عناية واهتمام، إثر قدومها إلى بيتهما، لكنهما رغم كل ما بذلا من جهود فشلا في ذلك، فالعناية والاهتمام بالأبوين المعقرين ليس مهتداً للفقود فحسب، لكن من الممكن أيضاً أن يكون مكلفاً - ومن سوء الحظ أن حصّة الأسد في تحمّل عبء ذلك يقع على «الشخص العريق في الاعتماد عليه» الإبن البكر.

يجب أن لايجري، وليس ثمة أي داعٍ لأن يجري الأمر على هذا النحو،

فإذا كان في الأسرة أولاد آخرون، يترتب عليهم المساهمة بحصتهم في الاهتمام ورعاية الوالدين مالياً وعاطفياً. وإليك ما يمكنك إجراؤه:

- 1 - تأكد أن إختوتك وأختواتك أصبحوا على بيّنة كاملة للوضع.
- 2 - اسمح لهم بأن يدلّوا بدلوهم فيما يرتأون أنه الأصلح للوالدين. وإذا كان أحدهم غير مقتنع بأهلية الطريقة التي تعالج بها الحالة، فأفسح له المجال لتحقيق الأمر بطريقة أفضل.
- 3 - أعلمهم، بأشد العبارات جلاءً، ما تنتظره منهم على هذا الصعيد. ويجب أن لا يبقى أي مجال للاعتذار مثل «ياالله، لو كنت أعلم مسبقاً....». فإذا كانت الوالدة تحتاج لأن يتردد عليها أولادها في زيارات أكثر، فأخبر الآخرين بذلك. وإذا كانت تحتاج لمبلغ إضافي من المال لسبب أو لآخر، فأخبرهم بذلك أيضاً.
- 4 - تذكّر أن تعير بعض الوقت للترويح عن نفسك. فمن الضروري لك الترفيه عن النفس، والضحك، اذهب لمشاهدة فيلم مضحك من حين إلى آخر.
- 5 - تذكّر أنك لست الوحيد في ذلك، فكل الناس تقريباً عانوا من هذا الأمر في وقت أو آخر، وربما وجدت عدداً من الناس ممن يمكنهم الانضمام إليك في محنتك وشدّ أوزك.
- 6 - سيكون بوسعك معالجة الحالة أحسن، إذا حضّرت نفسك جيداً لذلك. قم بزيارة لمكتبة محلية، وعاین عناوين الكتب المتوقّرة المتعلّقة بالتعامل مع أبوين معترّين.



## الباب الثاني

أنت وابنك البكر أو (أنتما وابنكما البكر)



## الفصل السابع

### طفل كامل، عالم لا كامل

إذا قرأنا يوماً إعلاناً في الجريدة ينص على ما يلي:

«مطلوب للخدمة، من يلزم أن يتمتع بحكمة سليمان، وصبر أيوب، وقوة شمشون، يحتاج لاستخدام قميص مخطط وصفارة حكم. على من تنقصه الشجاعة، والشخص المفرط الحساسية لأي تصرف معيب أن لا يقدم طلباً» هل تعرفون عن أي أناس نبحث؟ لا بد أن الأمر واضح، عن أب وأم. وليس أمراً بسيطاً أن يكون الإنسان أباً أو أمّاً. وتلك المسألة بالتحديد لم تتحسن ظروفها ونحن نقف على أعتاب القرن الحادي والعشرين، وحسبكم التفكير في الحالة المأزقية لأم تعيش في هذا العصر، فمن المنتظر منها على سبيل المثال تأمين إحضار اللحم إلى البيت، ومن ثم يُنتظر منها أيضاً أن تطهّوه. ويتأمل منها أفراد أسرتها أن تكون مهارتها في الطبخ كجوليا تشايلد، وفي قيادة السيارة كـ إ. ج. فويت، وتحفظ بطراز الذاكرة التي يُشاع عن أنها خاصية بالفيلة حصراً. أما بالنسبة لمهاراتها في مسألة التنظيم... فيُنتظر منها في كل مرة تذهب إلى دكان البقالة توفير مبلغ بين عشرين إلى ثلاثين دولار، إضافة إلى ما وفّرت من قسائم تموينية، ثم عليها أن تتذكّر أعياد ميلاد كل الأقارب المتناثرين ضمن دائرة قطرها ثلاثين ميلاً.

أما بالنسبة للأب العتيد فدعونا نسيغ عليه حكمة روبرت يونغ في كتابه «الأب زائد لا ينضب من المعرفة»، وصبر شخصية ميشيل لاندون وحسها العملي في قصة «كوخ صغير في البراري»، وكل المؤهلات الشاملة والمتعددة المناحي

للشخصية المقتدرة التي وضعها المرحوم هوف ييمونت في رسمه وتعريفه لسمات شخصية وورد كليشر. ويتعين عليه رمي كرة القدم مثل جون إلوي، ويقذف كرة البيسبول مثل جو ماغران، وفيما يتصل بالمحافظة على ما يدور في البيت ضمن قواعد الأصول والنظام، فإنه يتمتع بجملة مركبة من مهارات السيدين غودرينتش ووزارد.

ثم تأتي بعد ذلك المهارات اللازمة لممارسة الأمومة والأبوة والواقع يثبت صحة القول إنه توجد بعض الجوانب في الحياة، أفضل معلّم فيها هو الخبرة الحياتية نفسها، وأحد تلك الجوانب هو الأمومة والأبوة تحديداً.

ومن بين جميع أرواح الأم والأب الذين مّزوا عليّ في حياتي، لم أصادف أمّاً وأباً لا يعتقدان في بداية دخولهما هذه المرحلة من حياتهما، إلا وأنهما سيتجنّبان تكرار كل السلوكات غير الصحيحة الصادرة عن آباؤهم تجاههما، فهما يرّددان فيما بينهما:

«سنمارس أمومتنا وأبوتنا على الوجه الصحيح، وسنحاول أن نكون أفضل أم وأب في العالم، وسيكون ذلك استثنائيّ الروعة!» لكنني أيضاً، لم أصادف في حياتي أي زوج من أم وأب، لم يرفعا أيديهما استسلاماً في محطة من محطات مسيرتهما الأبوية، متسائلين باستغراب: «أين وجه الخطأ فيما يحدث؟». أو على الأقل: «ماذا نفعل الآن يائري؟». وباختصار، ليس هناك عمل أكثر مشقّة، وأكثر استنزافاً للوقت وأكثر إيلاًماً (أحياناً)، أو أكثر مردوداً كثواب (في النهاية)، من أن يصبح الإنسان أمّاً أو أباً.

وفي جوابي على سؤال يوجّه لي دائماً، عمّا يمكن اعتباره أكبر خطأ يقترفه الآباء أقول: إن أكبر خطأ هو أن تظنّوا بأن حبكم لأولادكم وحده، سيجعلهم على أحسن مايرام، فأولادكم يحتاجون لحبكم لكنهم يحتاجون أيضاً لقدوتكم وانضباطكم وإرشادكم لهم بطريقة أو أخرى.

وسيكر ابنكم البكر ليكون كاحتمال شبه قطعي نموذجاً مثالياً للولاء والإخلاص والطاعة والانضباط الذاتي، لكن المشكلة هي أنه ربما سيبالغ في ذلك في بعض المجالات بما فيها الانضباط الذاتي. لذلك من الضروري جداً للآباء

إبداء قدر كبير من الأناة في تعاملهم مع أبنائهم البكر، وتجنّب وضعهم تحت هاجس ترقّب الكثير منهم ممّا لاطاقة لهم به، أو ممارسة ضغط عليهم يتجاوز الحد، أو ممارسة نقد مبالغ فيه عليهم.

إن ابنتي الكبرى هولي على سبيل المثال، نموذجاً للمواطنة المثالية، فهي تعتقد أن القواعد والقوانين سنّت لثّنيّ، وتؤمن بداهةً أنه: «ثمة مكان لكل غرض، وكل غرض في مكان»، إلى درجة أنه لو قُتر القاضي وابن يوماً ترك (هيئة محلّفي الشعب)، فأنا أعتقد أن هولي بمستوى هكذا مهمّة.

ويخطر على بالي تلك الزهات التي كنا نأخذها فيها معنا إلى الشاطئ عندما كانت لاتزال طفلة تحب، وقبل حتى أن تعرف الكلام، فقد كانت تمضي إلى اللعب فور وصولنا، ثم تكزّ راجعة بعد فترة قصيرة، مبرزةً يديها أمامها، وتهمهم: «آنسنننه! آنسننه!».

- «ما أصابك؟ ما هذا».

- «آنسنننه! آنسننه!».

نعم<sup>(5)</sup>، سرعان ما نقدّر أن المسألة ليست إلّا أن يديها موشخة بالرمل، وهي غير قادرة على تحمّل بقاء يديها في هذه الحالة، وتريد ممّا أن نزله عنهما، ويُعتبر ذلك سلوكاً نموذجياً لبنت بكر استكمالية ومؤشراً تقريبياً على أسلوب هولي في مقاربتها للحياة.

ثم بعدئذٍ، هناك ابنتنا الوسطى كريسي. ولن أنسى أبداً ما حدث في اليوم الأول لذهاب كريسي إلى المدرسة. عندما كانت تناهز السنة السادسة من عمرها، وكما يحدث دائماً عند رؤية الإنسان لطفله يغادر إلى المدرسة لأول مرة، فلقد داهمتنا ساند وأنا مشاعر مختلطة من الأسى والاعتزاز، إثر متابعتها لها وهي تستقل حافلة المدرسة في ذلك الصباح. لكن عند حلول ظهيرة ذلك اليوم، وقدم الباص وتوقّف في الساحة المحاذية لبيتنا، ارتاعت ساند من عدم رؤيتها كريسي في أي مكان، وتبيّن لنا أيضاً أنها ليست في الباص، ولا يتذكّر السائق إن كان رآها. واتّصلنا هاتفياً بالمدرسة، لكننا لم نجدّها هناك، ولم نعرف ماذا ينبغي علينا عمله، وفكرنا جدّياً بالاتصال بالشرطة، عندما رنّ الهاتف فجأة،

وأتى من الطرف الآخر للخط صوت طفلة صغيرة يعكس مشاعر بهجة: - «هي، ماما».

زعت ساند بلهفة: «كريسي، أين أنت؟».

- «أنا في بيت أعزّ صديقة عندي!».

- «أين أنت؟ بيت مَنْ مِنْ صديقاتك؟».

سادت على الطرف الآخر للخط فترة صمت، ثم سُمع بعدئذ صوت كريسي تقول: «أعيدي إسمك مرة أخرى!!». هذا ما سمعته منها تسأل «أعزّ صديقة عندها».

ولم تحفل الصغيرة كريسي في التفكير بمعنى أن تترجّل من الحافلة في محطة غير محطة بيتها، ثم ترافق طفلة صغيرة أخرى، كانت قد تعرّفت عليها للتو، إلى بيتها. هل من الممكن صدور تصرف مماثل لذلك من قبل هولي؟ محال إطلاقاً، ولاحتى في مئة عام!

واليكم حادثة أخرى جرت عندما رغبت مرة ساند وأنا البقاء لوحدها في غرفتنا، إثر عودتي من إحدى رحلاتي العديدة، إذ لم نكن رأينا بعضنا منذ مدّة، لذلك حاولنا أن نختلس بضعة دقائق وحيدتين خلف بابٍ مقفل. لكن لافائدة! فبعد حوالي ثلاثين ثانية بدأ كلٌّ من كريسي وأخيها الصغير كيثين، والذي أقدر أن عمره في ذلك الوقت كان ثلاث سنوات، بالخبط بقوة على الباب. وسألت كريسي: - «أيمكننا الدخول؟».

فأجبتها: - «اغربي من هنا، فهناك سبب ضروري يستدعي منّا الماما وأنا إجراء حديث مع بعضنا لفترة قصيرة من الزمن» وساد الصمت لمدة دقيقتين فقط، ثم زعت كريسي بأعلى صوتها: «ما سمعنا شيئاً من حديثكما!».

- «ماذا؟»، يا الله كريسي. اتركينا لوحدها لبعض الوقت، موافقة؟».

- ومرةً أخرى، بعد حوالي دقيقتين من الصمت، أتى صوتها هذه المرة تقول:

- «بابا!»، هل يمكنك تمرير مصروفنا من تحت الباب؟».

ولم نتمالك أنفسنا هذه المرة ساند وأنا من القهقهة، إلى الدرجة التي فقدنا فيها القدرة على قطع بضعة خطوات إلى الباب وفتحه فيما لو أردنا ذلك. ودفع ذلك كرسيي لأن تصبح أكثر عناداً من السابق، وشرعت بالطرق بقوة على الباب وعندما لم نستجب مباشرة لقرعها الجنوني هذا، سمعناها تقول لأخيها الصغير:

- « كيثين، لن يسمحا لنا بالدخول، الأفضل أن تذهب وتحضر المطرقة! ».

وخوفاً على مصير الباب، خطونا سريعاً باتجاهه وأتخنا لهما الدخول. ويمكنني القول إن هولي كانت بدون أي شك ستمضي بعيداً عن هنا، وتركتنا لوحدها من المرة الأولى التي نطلب منها ذلك، فالأبناء البكر، والأبناء الأوسط كائنات تختلف جداً عن بعضها في الواقع.

## نموذجين من الأبناء البكر

الآن، لا بد لي من الإشارة إلى أنني لا أقصد إطلاقاً القول أن كل المولودين بكرّاً حالات متماثلة مع بعضها، لكن الحقيقة هي أن لديهم جميعاً استعداداً لأن يتأطروا ضمن أحد نموذجين، ما لم يستطع الواحد منهم الحفاظ على شكل من أشكال التوازن بينهما، وهذان النموذجان هما:

1 - المسائر.

2 - الجبار.

أما النموذج المسائر فهو الذي يسعى وراء إرضاء الآخرين، ومن يُشرك نفسه في علاقات اجتماعية لاحصر لها، ومن يحاول دائماً وأبداً الإثبات على تمتعه بما يكفي من الصفات لاعتباره إنساناً جيداً، وهو يريد كسب كل شيء، بما فيه صداقتك وإعجابك به، ويمضي وقتاً شاقاً في التعامل مع أي أمر يعطى له، أو ما يشعر أنه غير جدير به.

أما الطفل الجبار، فهو النموذج الذي يتعلم منذ نعومة أظفاره بأن كون الإنسان مولوداً بكرّاً كافٍ ليحمل معه قدراً عظيماً من السلطة: «أنا الأكبر سناً، وجسداً، فتح عينك أحسن لك»<sup>(\*)</sup>.

وهؤلاء الأخيرون هم ما يدعوهم صديقي الحميم جيمس دبوسون

«الأطفال ذوو الإرادة القوية»، وأنا أفضل أن أسميهم «الصقور الصغيرة الجبارة». وليس مهماً ما نطلقه من تسمية على هذين النموذجين، بل المهم بالنسبة لنا أن نعالجها منذ بوادهما الأولى التي تظهر في مرحلة باكرة من الطفولة.

## الطفل المسائر

لنفترض أننا نراقب الطفلة الصغيرة ميغان وهي تحاول رسم لوحة لقطة. ولكنها ما إن توشك على إنهاؤها حتى تنقض على الورقة وتجعلها في يدها وترميها بعيداً، وتخضع اللوحة اللاحقة لآلية التعامل نفسها، وكذلك اللوحة التالية ثم التي تليها وهكذا دواليك.

وسنلاحظ كذلك أن مشاعر الإحباط لديها تتصاعد بالتدرج مع كل لوحة جديدة ترميها بعيداً عنها. وإذا سألتها عما يجري معها، ستجيبك: «لم أستطع رسمها بدقة، إنها لاتأخذ شكلها الصحيح!».

ويمكنك القول إن الطفلة الصغيرة ميغان تظهر منذ الآن علامات على تطورها إلى استكمالية مثبّطة الهمة، من النوع المسائر الذي يسعى وراء الإطراء، وهي على استعداد لأن تقطع شوطاً بعيداً في محاولة البرهان على أنها قادرة، وذات شأن.

كيف يتعامل الأبوان مع حالة كهذه؟ ينبغي عليهما الجلوس مع الطفل والتحدّث إليه عن الجوانب الإيجابية لما تحقّقه من أعمال: «ماذا تعنين بأنك لاتستطيعين رسمها بدقة؟»، ما ترسمينه يبدو لي جميلاً».

- «حقاً؟».

- «أوه، نعم، تلك قطة رائعة، ثم إنك تعرفين أن القطط من الأشكال التي يصعب رسمها».

وهكذا يجري الحديث بعبارات من هذا القبيل، وأنا لأقترح عليكم هنا أن تكذبا على الطفلة وتقولاً لها بأنها رمبراندت<sup>(\*)</sup> عصرها، في حين أن لقطةها

(\*) رسام ونحات هولندي من عصر النهضة (1606 - 1669). م.



شكلاً مشوهاً، وإحدى أذنيها أضخم بأربع مِرات من الأذن الأخرى، لكن ركّزا نظركما على الجوانب الإيجابية، وابتحنا عن الطرق التي تمكّنكما بنزاهة وصدق من تشجيع الطفلة وكَيْل المديح والإطراء لها. وركّزا انتباهكما على مراقبة حالات أخرى تضع فيها ابتنكما الاستكمالية البكر نفسها تحت وطأة إجهادات زائدة عن الحد، وحاولا دائماً أن تتدخلّا في المسألة بهدف تعزيز الثقة بنفسها وتشجيعها. وينبغي أيضاً إبداء حرص خاص، لتتجنّباً توجيه عبارات تتضمن الإيحاء بأن ما تثمره جهود الطفلة القصوى، بعيد عن مطابقة المقاييس النظامية. ولنفترض أن الطفلة بذلت كل جهودها في محاولة ترتيب سريرها للمرة الأولى في حياتها ثم دعتكِ إلى دخول غرفتها لتريكِ ما حقّقته من «عمل - فذ»، وكان ردّ فعلكِ أوّل ما وقع نظرك على ثمرة جهودها أن تساءلت باستغراب بينك وبين نفسك فيما إذا كان أحدّ مازال نائماً تحت أغطية السرير، فهو مكتّل، ويتدلّى الشرشف من تحت الغطاء في أكثر من مكان. لكن تذكّري أن تلك محاولتها الأولى على كل حال.

ماذا أنت عازمة على فعله؟ ما طبيعة الخطاب الذي ستوجهينه لها؟ بالطبع لا يجوز لك القول:

«أوه، ميغان، ذلك أروع وأحسن ترتيب سرير، رأيته في حياتي». فهذا عبارة عن كذب. لكن إذا كانت قد بذلت فعلاً جهودها القصوى في تنفيذ العمل، وأنّ تعرفين ذلك، فينبغي عليك عدم إبداء مشاعرها. وقد يحدث أن تجيب بعض الأمهات أطفالهنّ بالقول إن هيئة السرير بعد ترتيبه رائعة، ثم ترسل الواحدة منهّن طفلتها إلى الخارج للعب، ومن ثم تعيد ترتيبه فور إختفاء البنت عن الأنظار، لكن بعد حوالي ساعتين، حين تؤولب الطفلة إلى البيت راجعة من اللعب، تلاحظ أن سريرها ليس ليس بالحالة التي تركته عليها، وقد تذهب إلى أمها وأبيها وتساءلها عن الخطب، أو لاتنفّوه بنت شفة، لكن أياً كان رد فعلها، فهي بالتأكيد عرفت أن المجهود الذي بذلته ليس مقبولاً، وأنه مازال أمامها شوطٌ إضافي يتعيّن عليها قطعه للبرهان على قدراتها.

ما يُقتضى فعله في هذه الحالة، قولٌ شبيه بما يلي:

«حبيبتي، كم هو عظيم منك ترتيبك للسريـر، فأنت تساعديني في ذلك، وأنا أقدر لك ذلك جداً».

ثم ينبغي بعدها على الأبوين ترك السريـر دون مس. ولا بد أن تأتي خلال الأيام القليلة القادمة اللحظة المناسبة لتعليم كيفية ترتيب السريـر والتدريب عليها. أما الآن، في هذه اللحظة، فليس الوقت مناسباً لذلك، حتى لا يرد إلى خاطر الطفلة بأنها: «أظن أنني لن أفلح في ذلك كما ينبغي».

لقد بذلت الطفلة جهداً صادقاً، وثمة حاجة لأن تحصل على شعور بالرضى عن نفسها وعمّا حقّفته.

وربما يوجّه السؤال التالي لي: «هل تقصد بأنه إذا أدّى طفلي عمله بدون اعتناء، فمن المفترض مني القبول بالأمر وتمريه؟». وجوابي هو النفي بالطبع، لكن إذا بذل الطفل جهوده القصوى، فينبغي أن يكون ذلك كافياً تماماً بالنسبة لكما. ويقتضى منك معرفة أولادكما جيداً، بما يكفي لتمكينكما من التمييز متى يذلون جهوداً ذات مدلول حقيقي وفعال، ومتى يقتصرون على إبداء مجرد تصرفات مستهترّة حمقاء. فلو كان ابنكما، على سبيل المثال، وبالـبـالـغ الثالثة عشر من العمر يعرف كيف يرتّب سريـره، لكنه اكتفى هذا الصباح بإتيان حركة عشوائية وبهتة فاترة على أطراف ملاءات السريـر، فليس ثمة أي مانع، في هذه الحالة، من الطلب منه العودة إلى غرفته، وإعادة العمل على الوجه الصحيح. لكن أعيد كـرة أخرى بأنه إذا بذل ابنكما كل طاقته، وحتى لو عجز بحدود معينة عن تحقيق نتائج مثالية، فيترتب عليكما عندها البحث عن بعض الجوانب الإيجابية لتركّزا نظركما عليها بهدف تشجيعه وإشعاره بأنه شخص ذو جدارة.

وربما تستدعي الضرورة تشجيع ابنكما على الدفاع عن حقوقه.

عندما كانت ابتدائي هولي وكريسي صغيرتين، كنّا أحياناً نسجل لهما حواراتهما وهما تلعبان. وعندما نعيد شريط التسجيل نجد في أكثر المرات، هولي وهي تأخذ كل الأشياء من بين يدي أختها الصغيرة، مع رغبة دائمة بالاستحواذ على أي شيء تلعب به كريسي. فرغم ما نؤثت به آنفاً من أن هولي كانت في معظم الأحيان تبذل قصارى جهدها لإرضاء أبويها، وللبرهان عن أنها نموذج

مثالي عن المواطنة الصالحة، لكن عندما تجد كريسي وهي تحاول انتهاك حزمها الخاص كبنت بكر، فتلك قصة أخرى.

وبالطبع، ليس ذلك من طينة السلوك الذي يطمئنك أن البنت الصغيرة ستنال جائزة نوبل للسلام في مُقبل أيامها، لكنه على أي حال سلوك شائع جداً - وطبيعي جداً - بالنسبة للأطفال.

لكن ليس بالنسبة للأطفال المساييرين الذين يسعون وراء إرضاء الآخرين. ييلي واحد من هذه النماذج، فهو يخرج لكي يلعب بسيارته الجديدة والمزودة بجهاز للتحكم عن بُعد، ويعود إلى البيت بدونها.

- «ييلي!، أين سيارتك؟».

- «أو» بادلنها بهذه مع بوبي».

وكان يمسك بيده كرة يسبول ملطخة بألوان عشبية وبغلاف خارجي على وشك الإهتراء الكامل.

- «بادلت بوبي سيارتك من طراز كوشرت الجديد، والتي تساوي كلفتها عشرين دولاراً مقابل هذه؟».

- «طبعاً، آه... في الواقع، هذا ما شاءه بوبي».

وطبعاً، من الناحية الفعلية، شاء ييلي ذلك أيضاً، لأنه أراد أيضاً كسب صداقة بوبي، فبيلي ليس مغفلاً إلى الحد الذي يجعله يظن أنها كانت مقايضة عادلة، لكنه فشل في مغالبة نفسه على رفض عرض بوبي. ويقع الأطفال المسايرون بسهولة ضحية الاحتيال:

- «هيا، ييلي، أنت في الواقع لا تريد لوح الحلوى هذا، أليس كذلك؟».

- «بالطبع..... لا..... أظن أنني لأريده».

- «ظريف!، أيمكنني الحصول عليه؟».

- «موافق».

ويقعون بسهولة أيضاً ضحايا للتلاعب بهم، وجزهم لإجراء مسائل

لا يريدونها من كل قلوبهم. وهم الأولاد الذين يعيشون ويموتون تحت وطأة شعور بالنبالة.

- «هيا، جودي، نحن ننوي سرقة ما تيسر لنا من العلكة المطاطية من دكان البقالة، ونرغب بأن تأخذ أنت أيضاً نصيبك منها».

- «لكن لا رغبة لديّ بسرقة أي شيء».

- «إذا كان لديك نية بالانضمام إلى شلتنا<sup>(\*)</sup>، فيجدر بك القيام بذلك».

- «طيب... موافق».

وعلى هذا المنوال تمضي حياة الإبن البكر المسامر، إذ يبدأ ذلك النمط السلوكي في الظهور لديه وهو في مقتبل العمر، ويُرافقه طوال حياته، فهو من سيكدّس عليه المدير العام باستمرار أشغالاً إضافية زائدة عن الحد، ومن لديه أصدقاء «يقترضون» أموالاً منه ولا يسدّدونها إطلاقاً، ومن سيخوض صراعاً أبدياً يهدف لابتياح احترام وإعجاب الآخرين بنبالاته.

يجب أن نضع حداً لهذا السلوك، وكلما بكرنا في ذلك كلما كان من الأسهل نسبياً نبذ هذه العادة السلبية، ولابد إذن من حث الصغير يلي على الشخوص بنفسه باتجاه بيت بوبي واسترجاع سيارته من هناك، ليس لأنه جنّ جنونك من مبادلة لعبة غالية الثمن بشيء يمكن اعتباره عملياً عديم القيمة، ولكن لأنك تعرف أنه يحب حقاً سيارته الكوفرت الصغيرة، وإنك تستحسن أن يستعيد حيازتها. ومن الضروري إذن دفعه لبلوغ حالة، يرى فيها أن مراعاة مشاعره الخاصة مسألة غاية في الأهمية.

ويصعب علينا جميعاً إثبات ذلك لأن معظمنا يساوره إحساس بالفرح والرضى عندما يرى أطفاله يؤثرون التفكير في الآخرين قبل أنفسهم، ويشاركونهم ألعابهم، ويتبعون عموماً في سلوكهم القاعدة الذهبية<sup>(\*\*)</sup>. لكنكم

---

(\*) - القاعدة الذهبية: قاعدة سلوكية أساسية تنظم سلوكاً إيجابياً جداً من الإنسان تجاه البشر الآخرين. م.

تذكرون أنني استفضت كثيراً في مكان سابق، في توضيحي لوجه الشبه بين وظيفة الأمومة والأبوة وبين السير على عارضة توازن، وعلى هذا الأساس أعتبر أن خط السلوك الذي نتناوله الآن بالتشريح، إنما هو أحد تلك الأماكن الخطرة التي من السهل أن تزلّ قدمنا فيها، ونسقط أرضاً من فوق تلك العارضة المحكمة التوازن. فدرجة الخلاف جذرية بين أن يتشارك أطفالنا مع الأطفال الآخرين لأننا نعرف أن هذا ما ينبغي أن يفعله أي إنسان، وبين العزوف عن الدفاع عن مصالحهم، وبهذا يتمكن الآخرون من استغلالهم والتحليل عليهم بسهولة تامة. وأنتما الأم الأب من يستطيع، بحكم قربكما الشديد من طفلكما، اكتشاف خلفيات ودوافع ابنكما الحقيقية. ولهذا يُعتمد عليكما أساساً، في جعل طفلكما يعي اعتباره وتقديره الذاتي لنفسه، فهو في حاجة لأن يعرف أن لديه حقوقاً، وأن حاجاته ورغباته لها أهمية رغبات وحاجات أي امرئ آخر. لاتدعاه يعتقد أن لرغباته الأسبقية على رغبات أي شخص آخر، لكن عليه أن يفهم أنه شخصية لها حضورها ودورها الخاص، وبأن له بالتأكيد كلمة في شؤون الأسرة. وبوسعكما إفهامه ذلك بأشكال بسيطة يومية، أو بأساليب أقل تواتراً ولكن ذات فعالية أبلغ.

- «بيلي، نحن نفكر بالذهاب معاً هذا المساء إلى المطعم لتناول العشاء، هل يا ترى نفضل الذهاب لمطعم معين؟».

- «أنا؟».

- «نعم أنت، هيا، أين تحب أن نذهب؟».

- «لأعرف، كما يشاء أي واحد منكما».

- «لا، نحن نرغب أن تختار أنت هذه الليلة، فنحن في الواقع، لانعرف أين نذهب».

- «طيب، أنا أفضل - إلى حيد ما - أن نذهب إلى ماكدونالد<sup>(\*)</sup>.... أقصد إذا كان يروق لكما ذلك».

(\*) - سلسلة مطاعم أمريكية تقدّم الوجبات السريعة. م.

- «عظيم جداً، وكنا نفكر بالذهاب إلى السينما بعد العشاء.... أو ربما نلعب قليلاً الغولف، أيهما تفضل؟».

يعتبر مثل هكذا أسلوب في التعامل مع الطفل المسامر، وسيلة ناجعة لمساعدته على رفع سويّة اعتباره لذاته.

## الطفل الجبار

وهذه هي الفئة الرئيسة الثانية التي ينتمي لها الأبناء البكر. ولن أتحدث عن كل جوانبها الآن، لأنني سأناقش في الفصل التالي مفهوم «انضباط الأمر الواقع» ببعض التفصيل، وهي طريقة مثلى للتعامل مع الطفل الجبار. لكن اسمحوا لي الآن بتنبهكم إلى أمر، وهو أن الطفل الجبار من نوعية الأطفال الذين يعرفون جيداً منذ نعومة أظفارهم كيف ينالون ما يريدون، لكن ما يمكن معالجته هنا هو التطلع إلى أن لا ينالوا ما يريدون ساعة يشاؤون. ويمكن لنا القول إن الطفل الجبار هو من يدرك باكراً جداً أنه باعتباره مولوداً بكرًا، فهو الأكبر والأقوى، وبأنه ليس لأحد في العائلة تحدّي موقعه كـ «ملك» متوّج على أخوته وأخواته. وهو، على الأرجح، من يحمل أبويه على ارتداء قميصيهما المخططين وتناول صفارتي التحكيم، ثم الشروع في تنفيذ مهامهما الرديفة كحكّمين. لكنه في الواقع، لا يعرف جيداً كيف يستبد بشخصيته على أخوته وأخواته فحسب، بل يمارس سطوته أيضاً على أمه وأبيه. ويصل إلى غايته بتشكيلة متنوعة من الخيل والأساليب، فهو سريع التعلّم، ويكتشف بسرعة كيف يستعبدك ويجرّك من قيادك، بل وحتى أن يقلب عليك سافللك!

وربما تتخيلون، عندما تفكرون بما تعني عبارة طفل (جبار)؛ شخصاً ينال ما يريد بواسطة خلقه المتنمّر، والذي لا يوفّر أحداً من شرّه، ويشكّل مصدر رعب لجميع من حوله. ومن الممكن أن تكون تلك هي الحال فعلاً، لكن من الممكن أيضاً أن تظهر عليه، بالقدر نفسه من الواقعية، أمارات الخجل والانطواء على النفس، ويجد ذلك تفسيره على أنه طريقة يستخدمها لنوال ما يريد.

الخجل: ينزع الطفل لأن يتكل دائماً على وجود أمه وأبيه إلى جانبه، لأن

خجله الشديد يحرمه من القدرة على التعبير عما يعمل في نفسه، فيجدان نفسيهما مكرهين على أن يفعلا ذلك بدلاً منه، ويتورطان إلى حدود غير معقولة في مجريات حياته بسبب ذلك، ولأنهما يظهران استعداداً دائماً للهرع إلى نجدته.

### صورة توضيحية رقم (7)

#### قائمة بحقوق الإبن البكر

- 1 - لديك كامل الحق في: اتخاذ خيارات شخصية خاصة بك في الحياة.
- 2 - تبني آراء شخصية خاصة.
- 3 - السير عكس التيار.
- 4 - التمتع بالسعادة.
- 5 - انتقاء أصدقائك الشخصيين الخاصين.
- 6 - التحكم بمسار حياتك.
- 7 - أن تكون كما تشاء.
- 8 - تخفيف الأعباء عن كاهلك من وقت لآخر.
- 9 - تغنيج نفسك بمناسبة أو أخرى.
- 10 - التعبير عن رأيك الشخصي الخاص.
- 11 - اختيار ما يتوافق مع صالحك فحسب.

ومن الممكن أن يلتبس للوهلة الأولى الأمر بين الطفل الخجول وبين الطفل المسامر، لكنهما يشكّلان في الواقع قطبين متفارقين. حيث يقارب الطفل الخجول في شخصيته شخصية المتئمر، فهو مثل الملك الذي يعتمد على خدمه في تنفيذ كل أشغاله عوضاً عنه، فالأم تتحدث عما يريد الحديث به، والأب يعيره اهتماماً استثنائياً خاصاً، ويتولّى الأخوة والأخوات إجراء الأعمال بدلاً عنه لمجرد أنه «شديد الخجل» من القيام بها بنفسه. باختصار، إن الطفل الخجول قادر على التلاعب بدون حدود.

فماذا تستطيعان أن تفعلتا تجاه هذه الحالة؟ يقتصر الأمر ببساطة على تشجيع الطفل على الجهر بما يريد، وسند نفسه بنفسه فإذا اتّحمتا له المجال لأن يتصرف بطبيعته الخجولة تلك دائماً، فلن يتعلّم أبداً كيف يقف بثبات على قدميه

الاثنين، وكيف يعبر عما يريد. فإذا لم تتوقفي أيتها الأم أبداً عن الإهرار إلى إغاثته، وظللت أيها الأب تردّد باستمرار لازمة:

«ليس يلي إلا شخصاً خجولاً، لذلك سنتركه وشأنه». فأنتما في هذه الحالة ستكونان «ممكنين» له، وتمهّدان له الطريق للانسحاب إلى قوقته.

وليس هناك علاج سحري للخجل، والطريقة الوحيدة للتغلب عليه هي أن توظّفا ابنكما في وضع يُقسره على التعبير عن نفسه وعن رغبته جهراً، ولتشرعا بذلك مثلاً في الطلب منه تحديد ما يريد من الطعام في المطعم:

- «هيا ياسالي، أخبرني النادلة ماذا تريدن». وتنكمش سالي على نفسها خجلاً، وهي تعضّ على إصبعها وتخفض نظرها أرضاً.

- «هيا يا حلوتي، فالسيدة تريد أن تعرف ماذا تريدن، ويتعيّن عليك إخبارها».

ولأقصد هنا أن تحوّل الأمر إلى معركة بينكما وبينها تستغرق ساعة أو أكثر، بل أقصد أن تشجعا الطفلة الخجولة بطريقة هادئة ولبقة لأن تجهز بما تريد، ودعوها تعرف أنه لكي تنال ما تريد يقتضي منها التحدث عن رغباتها، وستبدأ عبر ذلك بالتغلب على الخجل.

الدموع: تُعد الدموع سلاح الطفل المفضّل، والطريقة المثلى لكما كأب وأب لإفساد فعاليتها هي أن تتعلّما تجاهلها. ويظهر بعض الأطفال قدرات تمثيلية خارقة على البكاء لدى أي إشارة لذلك. لكن ينبغي على الأبوين معرفة التمييز بين دموع التماسيح هذه وبين تلك الأصيلة، وحينئذٍ يترتب عليهما ألا يستسلما.

نوبات الخنق والحرد: ويمت هذا الأمر بصلة قريى للدموع، وتتضمن أحياناً نوبة الخنق والحرد على سيول مدرارة منها. وثمة تشكيلة متنوعة من الطرق لانفجار هذه النوبات، فربما يحبس الطفل أنفاسه، أو يدق أقدامه على الأرض وينتحب بصوت عالٍ، أو يرمي بنفسه ويستلقي على الأرض ويرفض النهوض... وهكذا دواليك. وتدهشنا القدرات التي يتمتع بها الأطفال، وإمكانيتهم الخلاقة على الابتكار عندما يتعلّق الأمر بما اعتدنا على تسميته



«اندفاع النوبة». وما يزيد الأمر طرافةً هو أن الأطفال يتعلّمون من بعضهم، فإذا رأى طفلكما الصغير جوني بنت جيرانه جودي وقد وصلت إلى بغيتها بواسطة الانبطاح والتمرغ على الأرض مع البكاء والزعيق، فإن الاحتمال كبير أن يلجأ إلى تجريب الأمر نفسه في المرة القادمة حين يرغب تحقيق غرض معيّن لاتريدها له.

ويمكن لكما معالجة نوبات الحنق والحرد عبر تجاهلها وإهمالها، أو يمكن لكما إبعاد الطفل خارج مكان وجودكما، وتركه يواصل التعبير عن حنقه كما يشاء في ركن قصي منعزل في غرفته الشخصية. وأياً تكن الطريقة التي تتعاملون بها مع الحالة، فإن هناك خياراً، ينبغي لكما ألا تسمحا لأنفسكما حتى بالتفكير فيه، وهو أن تستسلما.

عروض استدرار الشفقة: يُعد اللجوء إلى «عرض استدرار الشفقة» أحد استحكامات القوة الأكثر فعالية التي يتمكن عبرها الطفل اليافع من الإمساك بخناق والديه. فلجؤه في مناسبة أو أخرى إلى وضع نفسه في حالة «يا للمسكين»، إنما هو وسيلة مضمونة لجر والديه إلى جانبه فوراً، وليعرضاً عليه عمل كل ما يوسعهما لمساعدته على التغلب على المحنة.

تري الأم ولدها إدغار البالغ الثامنة من العمر جالساً على طاولة غرفة الطعام، عاصراً رأسه بكفيه، وكتاب الرياضيات مفتوح أمامه... «ما الذي أصابك يا حبيبي».

- «آه، مجرّد أنني لأستطيع كتابة كل هذه الواجبات، فلقد أعطانا الأستاذ العجوز جونسون أطناناً من الطلاس». وفي الواقع، لم يطلب الصغير إدغار المساعدة، لكنه يظهر بمظهر الشخص البائس والمحبط إلى الدرجة التي تدفع أمه لأن تقرّر الجلوس لمدة دقيقة أو دقيقتين لتري فيما إذا كانت تستطيع لإسداء خدمة له تخرجه من هذه الحالة. لكنها بالكاد تدري ما الذي أقدمت عليه، قبل أن تجد نفسها وقد أنجزت الواجب المدرسي عوضاً عنها. وأنا أنفهم حالة الأم والأب عند لجوء ابنهما إلى عرض معيّن لاستدرار الشفقة، فهو يشدّهما من أوتار قلبهما، لذلك أنصحهما بالاكْتفاء بمنحه لمسة حنان وكلمة تشجيع، وتقديم أي نصيحة

يمكن أن تخطر على بالهما، ويجدا فيها فائدة له، لكن حذار من خداعهما بالعبوة استحكام القوة في عرض لاستدرا الشفقة<sup>(1)</sup>.

وهكذا، إذا علم ابنكما بأنه قادر على التلاعب بكما عبر استخدام واحدة أو أكثر من الآليات المذكورة، فعليكما إبداء الاحتراس إذن، لأنكما في هذه الحالة معرضان للوقوع على وجهيكما طباً. ولا حاجة لي هنا أن أذكر لكما أن الطفل الجبار سيتابع اللجوء إلى استخدام الحيل والآليات نفسها للتلاعب بكل من يصبح له صلة معه في مستقبل حياته.

وإذا شئتم معرفة أحد الأطفال الجبارة، ما عليكم إلا فتح كتابكم المقدس وتقلب الصفحات إلى قصة شمشون ودليله<sup>(2)</sup>. فإذا لم يصدق ظني بأن دليّة بنت بكر جبارة، فهي لابد أن تكون قد أخذت هذه الآلية عن شقيقها أو شقيقتها الأكبر. حسبكم الإمعان في الحيلة التي تلاعبت بها بشمشون العتيد ليكشف لها النقاب عن سرّ قوّته، فعلى الأغلب أنها كانت تستخدم باستمرار الآليات نفسها لتصل إلى غايتها من والديها العتيدين والعزيرين على قلبها، فهل ثمة أي مجال للشك في أن دليّة كانت امرأة حقيرة

هل يوجد أي «دليلات» طرّيات العود في نطاق أسرتكما؟ إن كنّ موجودات فقد حان الوقت للقضاء على حقارتهم في المهد وقبل أن تقوى أعرادهم، ولتكنّفاً عن الاستسلام لهم، ولتبيّننا لهم أن حيل القوة تلك لن تجدي نفعاً بعد الآن. تذكّرا أن الوقت ليس متأخراً لتغيير هذه الحالة فوراً.

## سبع قواعد لأداء أمثل للأمومة والأبوة

أوردت في كتابي «تصنيف الترتيب الولادي» قائمة بسبعة قواعد مكرّسة لبيان كيفية ممارسة أمومة وأبوة أكثر لجاعة مع أبنائكم البكر، وهي جديرة حقاً بالإعادة:

- 1 - عدم المساهمة في تعزيز نزوعات الاستكمال الكامنة مسبقاً عند ابنكما البكر، فلا تكونا «سعاة نحو الأحسن» في كل أمر يقوله ويفعله، وتعاملوا برفق حين تذكيره بما «ينبغي» أن يتمثّل في سلوكه.
- 2 - تفهّم الحاجة الخاصة للأبناء البكر لأن يعرفوا بالضبط ماهية القواعد. وذلك

بأن تكونا صبورين ولا تنصنا بالوقت لعرض الأمور بالتفصيل لابنكما «من الألف إلى الياء».

3 - الاعتراف بموقع الابن البكر في العائلة، وبضرورة أن يتمتع باعتباره الأكبر سناً، ببعض الامتيازات الخاصة، وذلك ليكون مؤهلاً للمسؤوليات الإضافية التي تعترض طريقه على الدوام كما يبدو.

4 - إعارة وقت خاص، يجتمع فيه الأبوان والابن البكر سويةً «اثنين + واحد»، فالأبناء البكر يتجاوبون مع صحة الراشدين أفضل من أي ترتيب ولادي آخر.

5 - الامتناع عن الطلب من ابنكما البكر القيام بـ «رعاية الأطفال» بدون ترتيب مسبق معه. وحاولا على الأقل دراسة الأمر معه ليرى فيما إذا كان جدول أعماله المقرر يسمح له بإعارة وقت لرعاية الأطفال في وقت لاحق من النهار أو في مساء ذلك اليوم نفسه.

6 - التأكد من أنكما لا تكذسان على ابنكما البكر مع تقدمة في العمر مسؤوليات زائدة عن اللزوم، بل خففا عنه بعض المسؤوليات وحملها للأبناء الأصغر إذا كانوا قادرين على أخذ هذه المهام على عاتقهم. وفي هذا الخصوص، أخبرني أحد الأبناء البكر في إحدى حلقات البحث أنه «إنسان نفايات»، ويقصد في ذلك أنه كان يُلزم بتحمل عبء كل شؤون البيت، في حين كان أخوته وأخواته ينفذون بجلودهم من ذلك بسهولة.

7 - تفهم واقع أن الأبناء البكر حساسون للانتقاد ولتصحيح ما ارتكبه من أخطاء فإذا واجه ابنكما البكر على سبيل المثال صعوبة في قراءة كلمة معينة أثناء قراءته نصاً عليكم، فلا تنقضا عليه فوراً لتقديم اللفظ الصحيح لها، بل امنحاه وقتاً كافياً لتلفظ الكلمة على مهل، ولا تقدما له العون إلا عندما يطلبه.

## أربع مشكلات خاصة وكيفية التعامل معها

لا بد لي من الإقرار بأنه لو قُيِّض لي تقديم قائمة تشمل كل المشكلات «الخاصة» التي يمكن أن تصادفكم أثناء تربية وتنشئة ابنكم البكر، فسأضطر لأن

أضع لها عنواناً هو «أربعة آلاف وثمانمائة واثنان وتسعون مشكلة خاصة وكيفية التعامل معها». فأنا لن أقدم لكما إذن قائمة شاملة، ولن أقدم لكما أيضاً وسيلة أشبه بعلبة إسعافات أولية صغيرة، قابلة لأن تشهراها للعمل في كل مرة تعترضكما فيها مشكلة مع ابنكما البكر. إلا أن ما يمكنني قوله هنا إن هناك إمكانية لأن تنشأ أربع مشكلات من النوع الأكثر شيوعاً، ولا بد من الاهتمام بها ومعالجتها بقدر من الخبرة والدراية.

## 1 - الإزاحة عن سدة العرش

إن لحظة إبصار ابنكما الأول للنور هي أيضاً لحظة تنويجه «أميراً متوجاً» أو «أميرة متوجة» للعائلة. فهو يحتكر لوحده كل طاقة أمه وأبيه على الرعاية، ولا يجد نفسه ملزماً بمشاركة أي شخص آخر في ألعابه، وهو قوة عين جدّه وتمز الأيام كذلك إلى أن تأتي فجأة تلك اللحظة التي يجلب فيها الأبناء صرة قماشية ملفوفة على بعضها إلى البيت، ويتعاملان معها بألفة، ويخبرانه أنها أخوه الجديد. ما هي الأفكار التي سترد إلى خاطره؟

- «أتدري؟، أظن أنهما عازمان على الاحتفاظ به! ما الذي يجري هنا؟ أليست طيباً ومخلصاً لهما بما فيه الكفاية؟ ما الذي حملهما يا ثرى على أن يجلبا إلى البيت ابناً آخر؟».

ويحدث أحياناً أن لا يُظهر الإبن البكر استياءه مباشرة، بل يُيدي في البداية وعلى نحو ملموس، مشاعر بهجة صادقة وحقيقية لأن يصبح لديه أخ أو أخت جديدة، لكن سرعان ما سيتضح له عقلياً وقلبياً ماذا يعني الحصول على طفل آخر غيره في الأسرة. وأعني أنها ستعني له أنه لم يعد الرقم الأوحد، ومركز اهتمام كل الناس الآخرين، وقوة عين كل كبار السن في العائلة. وأن من المنتظر منه القبول في مشاركته ألعابه، وسيطلب منه أن «ييدي كياسة»، ويتصرف بما يتناسب مع عمره، رغم أنه يتصرف باستمرار كذلك فعلاً.

ولا يعرف على وجه اليقين الطريقة التي سيردّ بها الإبن البكر على المغتصب، فإذا كان غراً تماماً، فإنه ربما يحزم أمره على أن يتنافس والطفل الرضيع على أرضية شروط الطفولة نفسها. وبكلمات أخرى، سيستعيد عهد طفولته

الشخصية، وربما يصبح شخصاً صعب الإرضاء في نوعية الطعام المقدم له، أو تتفاقم معه مشاكل حشوية ومثانوية في قضية التبرز والتبول، ومن الممكن أن يبدأ بتفجير ثورات حقن وحزء مزاجية، أو يسترجع طريقة حديث الطفل الرضيع. ولا يستطيع الوالدان، مهما قيل ويُقال، تجاهل حقيقة إتيان إبنهما البكر بكل هذه التصرفات أو بقسم منها، وسيتصرفان معه بالتأكيد، بما يتناسب مع وضعه

وهناك إمكانية للتخفيف من أثر الرضّ الناتج عن الإزاحة عن سدة العرش، وذلك بإجراء حديث صريح ومباشر مع ابنكما البكر، فهو قادر حتى لو لم يتجاوز عمره ثلاث سنوات فقط، على التجاوب مع عملية إفضائكما له بأرائكما: «تعرف يا هيكتور أن أخاك الصغير سيصل بعد فترة قصيرة إلى البيت من المستشفى» وهو كأخي لن يتردد بعد عدة سنوات وعندما يبلغ مستوى معقولاً من العمر، في التقدّم صوب أي أمر واللعب به، وربما سيكون عسيراً عليك منعه من الوصول إلى ألعابك، لذلك لماذا لاتفرز ألعابك وتضع منها ما لا تريده أبداً أن يلعب بها بعيداً عن متناول يده؟ إيه، وربما تجد أثناء إجرائك لذلك، بعض الألعاب التي لم تعد تلعب بها أبداً، والتي ربما لاتجد مانعاً من إعطائها للطفل، أو على الأقل السماح له باللعب بها بين وقت وآخر».

وهكذا تبينان له بهذا الأسلوب أنكما تقدّران قيمة أشياءه الخاصة وبأنه مازال ذا خطوة عندكما. ويمكن لكما مواصلة العمل بهذا الأسلوب من مقارنة الموضوع كلما أظهر ابنكما علامات على الغيرة والاستياء وبيننا له بشكل لابس فيه الأمور التي يقدر على فعلها، والتي يعجز عنها الطفل الرضيع:

«رايتك راكباً دراجتك، وبداً لي كأنك مستمتع حقاً بذلك. تصوّر أنّ أخاك الصغير غير قادر على ذلك فهو مازال صغيراً».

«انظرا، أنت تعرف كيف تكتب اسمك، يا لفخر! متى سيتعلم جوش يا ترى كيفية كتابة اسمه؟!».

وسيكون ذا فائدة له أيضاً، تذكيره ببعض الامتيازات الخاصة التي يتمتع بها لأنه الأكبر سناً:

«ستواصل السهر حتى الساعة الثامنة والنصف، لكن يُقتضى أن يذهب

جوش إلى فراشه في وقت أبكر، لأنه أصغر منك عمراً». أو:

«ستناول أكلتك المفضلة في عشاء هذه الليلة، فزوج وشرحات لحم، في حين أن أحاك المسكين جوش لا يستطيع تذوقها إطلاقاً، ويتعين عليه الاقتصاد على تناول طعام الرضّع لأنه لا يمتلك أسناناً بعداً».

ويترتب عليكما عدم المبالغة في إنجاز هذا الأمر، لأن تقديم جرعات كبيرة منها وفي غير محلّها ستؤدي لأن يساور الإبن البكر شعور بالتفوّق المطلق على شقيقه الأصغر. لكن كما قلت سابقاً، لن يكون أمراً ضاراً، في أي لحظة تشرع فيها الغيرة بالإطلال برأسها البشع، تذكير الإبن البكر بالموقع الخاص الذي يشغله في العائلة، وبالامتيازات التي يؤمنها له هذا الموقع.

ومن المفيد هنا أيضاً على نحو خاص، إعاره وقت مخصص لتمضيته معه بمفرده، حتى يتكيف بمرور الوقت مع قضية مجيء طفل آخر إلى العائلة. وحين وصول سن الأخ إلى حد معقول، استأجرا مربية حاضنة لتشرف على رعايته، وخلا ابنكما البكر في مشوار خارج البيت لإمضاء ليلة مخصصة له بما يتفق مع ذوقه ورغباته. وستظهران له بهذا الأسلوب أنه مازال ذا حظوة كبيرة جداً في حياتكما.

وربما يحتاج إلى تطمينه، وذلك بإعلامه أنكما مازلتما تحبانه بالدرجة نفسها التي كنتما تحبانه فيها قبل مجيء أخيه الصغير، وطمئنه أن لديكما ذخيرة معقولة من الضمّ والعناق والقبل تكفيكما أنى اتجهتما، وأنكما لستما مهتدين بالنضوب.

من الوارد واقعياً إذن أن يكون الخلع عن العرش حدثاً جليلاً في حياة الإبن البكر، وربما يترك ندوباً لائمهى، لكن ليس ثمة أي مسوّغ لذلك، وهو لن يكون كذلك إذا عرفتما كيف تتعاملان معه.

ويجري حدث الإزاحة عن العرش أيضاً عندما يتزوج الأب أو الأم ثانية ويجلب الواحد منهما أولاداً آخرين إلى العائلة وكان الصغير جوني على سبيل المثال درّة عيني أمه طوال عمره الذي يناهز السبع سنوات، وها قد أصبح له الآن، بغتة: أختان صغيرتان سيتشارك معهما الأضواء، وليس ذلك سهلاً عليه، وكذلك

على أمه وعلى زوج أمه. ويمكن أن تُعتبر هذه «العائلة التوليفة» العقبة الأكبر التي يترتب على الزواج الثاني التغلب عليها وتخطيها. ويوجد في حوزتي اسم علمي للعائلة التوليفة، فأنا أدعوها «خبیصة»!

وهكذا لكي تتعاملا بنجاح مع عائلة توليفة، يُقتضى منكما التعامل مع قضية الإزاحة عن العرش بالأساليب التي ناقشناها سابقاً، ويُتطلب منكما أيضاً إبداء رحابة صدر وقدرة كبيرة على الصبر!

ويتعين عليكما التأكد فيما إذا كان جميع الأولاد يحصلون على مقدار كافٍ من الحب والاهتمام.

ومن المفيد لكما في التعامل مع الوضع، أن تتنحيا عن لعب دور الحكم، فإذا كان الأطفال يتشاجرون فيما بينهم، فربما قبل أن تتورطوا في الفصل بينهم، فمن الأجدي هنا، ما لم يتعد الأمر، تحميلهم تبعات جميع قضاياهم الخاصة، وتركهم يعملون على التغلب على مشاكلهم بأنفسهم.

لاتسمحا للأطفال النزاعين إلى الشجار على أتفه الأمور، بأن يفسدوا الوصال بينكما كزوج وزوجة، بل أحياناً بعضكما واحزما أمركما على أن لاتسمحا لأي شيء - ولاحتي أولاد شريككم الزوجي - لأن يحدث شرخاً بينكما، وستصبحان بذلك قادرين على تخطي العاصفة بسلام.

## 2 - غياب الوالد المخالف لجنس الإبن

يظن عدد كبير جداً من الناس أن لديهم دلائل كافية للافتراض على نحوٍ طبيعي تماماً أن الروابط الأكثر أهمية في العلاقة بين الآباء والبنين، هي بين الأم وابنتها والأب وابنه، ويوردون حجة على ذلك ما نراه من عادة تسوّق الأم وابنتها معاً، وما نراه من جولات الصيد التي تجمع بين الأب وابنه معاً... وهلمّ جزاً. لكن لو عُرض عليّ تقديم رأي في هذا الذي يُقال، لعكست الآية وقلت إن هناك أعداداً أكبر بما لا يقاس من تسوّق أب وابنته معاً، ورحلات صيد لأم وابنها معاً. فأنا أعتقد اعتقاداً جازماً، وهو أيضاً مدعّم بسنوات من البحث والخبرة الشخصية، أن الروابط الأكثر أهمية هي بين الأب وابنته والأم وابنها.

وتلقّيت درساً موضوعياً في ذلك في أحد الأيام الفاتئة القرية، وذلك عند شرائي باقة من الزهور لأقدّمها كهديّة لساند من دون أي مناسبة خاصة، لكن فقط للتعبير عن حبي العارم لها بهذا الوسيلة. وعند وصول الزهور إلى البيت - وكانت رائعة التكوين - غمرتني بالضم والعناق قائلة: «أوه، حبيبي، يا الحلأوتها!».

وكما تتوقعون، تأثرت ساند عاطفياً من ذلك، وثمنت هذه اللقطة الحلوة، لكنني سأكذب لو قلت لكم إن الزهور كان لها وقعٌ سحريّ عليها.

وبعد مرور خمس عشرة دقيقة على ذلك، جاء كيّفين الصغير وتوجّه بخطاه صوب أمه مع ابتسامة عريضة مرتسمة على وجهه، وواضعاً إحدى يديه خلف ظهره: - «ماما، لقد أحضرت شيئاً لك!».

- «ماهو يا حبيبي؟».

وسحب كيّفين يده من خلف ظهره، وتبيّن أنه يقبض بجماع كفّه على باقة من البنفسج البرّي، جناها منذ لحظات من حديقة أزهار أمه. - «أحبك، يا ماما!».

يا ليتكم رأيتم تلك الهيئة التي بدا عليها محيا ساند في تلك اللحظة، فلقد كانت مفتونة بكل شعرة من كيائها. وتبيّن لي حينها أن باقي الغالية القيمة إلى حدّ ما، لا يمكن أن ترقى إلى مستوى تلك التي جلبها لها ابنها البكر، وأن قدرتي على المنافسة مع كيّفين كانت معدومة، لذلك كان لابدّ لي من رفع يدي استسلاماً والإقرار بهزيمتي! وتبيّن لنا من ذلك أن هناك رابطة وثيقة خاصة جداً بين الأم وابنها، وخصوصاً ابنها البكر. والعكس صحيح أيضاً، أي أن البنت البكر ستكون دوّة عين أبيها، وليس ثمة أي شك في ذلك إطلاقاً!

ويأتيني في عيادتي أمّهات مطلّقات وأرامل، بأعداد تتزايد باستمرار للأسف، وكانت مشكلتهنّ أنهنّ يواجهن مصاعب في تربية بناتهن لافتقادهنّ قدرة الاستفادة من وجود رجل في العائلة، وهي مهمّة عسيرة جداً عليهنّ، إلى حدود الإزعاج، فالبنات الصغيرة تحتلج إلى صورة حقيقية ظاهرة للذكر في حياتها.



ينبغي على الأم المطلقة أو الأرملة إذا كان لديها علاقة جيدة مع أيها أو أخيها أو عمها أو ابن عمها، إشراك ذلك الرجل في شؤون أسرتهما من أن لآخر. إلى حدّ أصل فيه إلى القول إنه لو كان أخوها المفضل لديها يعيش في ألبكرك<sup>(\*)</sup> وتعيش هي وبناتها أو بناتها في دوبك<sup>(\*\*)</sup>، فإني أترح عليها أن تأخذ عائلتها وتتجه رأساً صوب ولاية نيو مكسيكو، فللمسألة تلك الدرجة من الأهمية!

فإذا افتقدت أسرة معينة لحضور فقال لذكر حقيقي فيها، فإن البنات على الغالب سيتعاركن في الأيدي مع بعضهنّ ومع أمهنّ. وستصبح علاقتهنّ بالرجال لاحقاً في مقبل أعمارهنّ حالة نموذجية عن النوع غير السوي. وحتى لأعرض نفسي للاتهام ممّن يقرأ ذلك من أعضاء الحركات النسائية بأنني متعصب للذكر، أسارع للتأكيد أنني شهدت حدوث ذلك واقعياً مرات عديدة. واسمح لي أيضاً أن أضيف فوراً أن الأمر ينطبق بكل تفاصيله على الصبي وعلى أهمية حضور من يلعب دور النموذج الأنثوي الراشد في حياته.

ويشير ذلك نقطة أخرى أرغب بذكرها للأمهات المطلقات والأرامل ممّن لديهنّ صبيان، وهي أن لاتربكن أنفسكنّ بمحاولة أن تكنّ أمهات وآباء لأولادكنّ، فما هم في حاجةٍ إليه أكثر من أي شيء آخر في حياتهم، هو توفر علاقة جيدة مع أمهاتهم، فإذا وهبتنّ ذلك لهنّ، فأنتنّ تؤدّين دوركنّ الأبوي جيداً. ومن غير المجدي لكنّ هنا الانغماس في ممارسة الرياضة، أو إرباك أنفسكنّ بتعليمهنّ أنهنّ رمي الكرة وإصالتها لمسافة تبعد ثلاثين ياردة، بل بإمكانكنّ إدارة الأمر بأن توقرنّ لأولادكنّ رمز سلطة ذكوري في حياته، سواءً كان موجه الكشافة، أو موجه ديني شاب أو مدرّس خصوصي في حضانه للصغار أو أي رجل متوقّر، لكن لاتنسينّ بأن رمز العاطفة الرئيسي في حياة رجالكنّ الصغار هنّ أمهاتهم.

ولقد أبدى لي عددٌ كبير من النساء المطلقات والأرامل عن قلقهنّ من أن

(\*) - مدينة في وسط ولاية نيو مكسيكو في جنوب الولايات المتحدة - م -

(\*\*) - مدينة في شمال الولايات المتحدة الأمريكية. م.

يتعرض أبناؤهنّ إلى نوع معيّن أو آخر من مشاكل التوافق الجنسي بسبب غياب الأب في البيت، وكان جوابي على هذا، أمرّ تعلمته منذ زمن طويل جداً، وهو: إذا لم تتفاهم المسألة إلى حدود خطيرة ومدمرة، فلا تحاولن تقويمها.

ولابدّ لي أخيراً من الإضافة، أنني مدرك تماماً أنني حصرت تقديم المشورة للنساء المطلقات أو الأرامل، لكنني لأرغب بأن يشعر أي واحد منكم، أنتم الآباء الذين بدون زوجات، بأنه أهمل. فبالرغم من الحقيقة الجليّة بأن أعداد الأمهات اللواتي بدون أزواج أكثر بكثير جداً من الآباء الذين بدون زوجات، إلّا أنكم إذا كنتم آباءً بدون زوجات، مشمولون بالنصائح التي قدّمتها للتو، فلا تحاولوا أن تلعبوا دور الأمهات لبناتكن، بل ركّزوا فقط على طبيعتكم كأباء، هنّ في حاجة إليهم. وتذكروا أخيراً أن الشخص الأكثر تأثيراً في حياة أي طفل هو والده المخالف لجنسه.

### 3 - الحقن

وأقصد بذلك أن الإبن البكر يميل غالباً إلى السيادة والإشراف على أخيه أو أخته الأصغر سناً منه. وقصده في هذا المساعدة، لكن لسلوكه هذا، من الناحية الفعلية، آثار ضارة، لذلك ينبغي عليكم بحكم كونكما والدان الانتباه باستمرار لهذه المسألة.

ولقد جاءتني إلى العيادة - على سبيل المثال - إحدى الأمهات، وكان القلق يساورها على إنها تشاد البالغ من العمر أربعة وعشرين شهراً، إذ لم يكن تلفظه للكلمات يتناسب مع ما ينبغي أن يكون عليه في مثل ذلك العمر، وهو في الحقيقة يكاد لا يتكلّم شيئاً ذا معنى، وكانت تتساءل فيما إذا كان مصاباً «بعلّة معيّنة».

وفي الواقع، نعم، كان مصاباً بعلّة معيّنة، وتلك المعيّنة إنّما لها من العمر خمس سنوات واسمها بيرنس!، إذ أن تشاد لم يتكلّم بشيء لأنه ليس ثمة أي ضرورة للتكلم، فيبرنس تتكلّف بكل عملية التكلم عوضاً عنه.

«تشاد عطشان» «تشاد جوعان» «تشاد يريد معجنات» «تشاد يريد أن

يذهب إلى المرحاض». ومن حسن الحظ أن استطاع الطفل الصغير بطريقة من الطرق تعلّم المشي، فلقد كانت بيرنس تحوم حوله مثل الدجاجة الأم منذ اللحظة التي وُلد فيها، فإذا أراد الذهاب إلى مكان معين، فإنها تَحمله على ظهرها أو تلجأ إلى إيصاله في عريبتها الصغيرة الحمراء. لقد كانت تقطر حناناً ورقّةً، وحلاوةً وعدوبةً، بل كانت أماً صغيرة كاملة، لكنها كانت تخنق أخاها الصغير وتعيق نموه. وتلك هي الطريقة التي ارتأتها بيرنس للتعامل مع حدث إزاحتها عن سدة العرش أي بأن تكون أماً صغيرة بكل طاقتها، وعلى نحوٍ تصبح ضرورية ولا يمكن الاستغناء عن خدماتها.

ويمكنكم حل هذه المشكلة بسهولة كبيرة، لكن لا بدّ لكما من الاحتراس والتأنّي في البداية. وسيشقّ عليكما أحياناً تصوّر أن كل هذا الحب والاهتمام اللذين تغدقهما البنت البكر على الطفل، إنما هو عمل غير مفيد. ولنتصوّر الآن كيف يبدأ والد بيرنس وتشاد تنفيذ الحل عبر الإصرار على تشاد لإدارة شؤون نفسه فإذا قالت بيرنس إن تشاد عطشان، يمكن للأُم أن تردّ عليها:

- «إذا كان عطشاناً، فبوسعه إخباري بنفسه».

- «لكن يا ماما! إنه يحتاج لشربة ماء».

- «آسفة يا حلوتي، فأخوك يكاد يصبح صبيّاً كبيراً، ولقد وصل إلى عمر معقول ليطلب مني الشرب فيما إذا أرد ذلك» ويُقابل في البداية، هذا الأسلوب في الإجابة بالامتناع من قبل كلا الطفلين، وخصوصاً من قبل بيرنس، التي تحيط أخاها الصغير بذراعيها، وتصوّب نظرة ذات مغزى، إلى أمها وكأنها تقول فيها: «كيف يمكنك أن تتصرفي بخساسة إلى هذا الحد؟». وعندما يغادر تشاد بدون أن يشرب، لا يكون وقع ذلك سهلاً على الأم وبرادها إحساس أن الأمر يأخذ منحى سلبياً عكس المراد، إلّا أن وعيها بأنها لا تتصرف كذلك إلّا لمصلحة ابنها، يدفعها لمقاومة الإلحاح الداخلي بأن تناديه للعودة إلى الغرفة ومناولته كأساً من الماء. ولا يمضي وقت طويل حتى تبدأ شخصية تشاد كشخصية مستقلة تنمو، ويحسن أيضاً لفظه للمفردات إلى حدود معقولة، وعندما يريد شيئاً معيناً، فإنه يطلبه بنفسه، وتبقى علاقته مع أخته حميمة، لكنها تتوقف عن خنقه.

#### 4 - عندما يتفوّق الأخوة على الإبن البكر

من المفترض أن يكون ابنكما البكر «ملك على أخواته وأخوته»، لكن ماذا يحدث عندما لا يكون كذلك؟ لنفترض أن الأخت الصغيرة للإبن البكر تحقق نتائج أفضل منه في المدرسة، أو أن الأخ الأصغر يحقق إنجازات أفضل في الرياضة البدنية، أو لو أن قامة الإبن البكر كانت أقرب إلى قامة قزم، في حين يبدو أخوه الصغير وكأنه متجة لأن يكون لاعباً محورياً في كرة السلة في فريق دبية شيكاغو<sup>(\*)</sup>؟ أخيراً، ماذا لو أن ابنكما البكر معاقٌ بعلّة معيّنة حدّت من قدراته؟

والحقيقة أن رؤية الإبن البكر لأحد أخوته يتخطّاه في حقل معيّن من حقول النشاط يمثّل تناول جرعة دواء شديد المرارة، ويُستثنى فقط من ذلك أن لا يكون الأخ الأصغر من جنس الإبن البكر نفسه، وما ذلك إلا لأن البنات أسرع نضوجاً من الصبيان كقاعدة عامة، فإذا كان لديكما ابنٌ يبلغ عمره عشر سنوات، وبناتٌ يبلغ عمرها تسع سنوات، فإن الاحتمال الغالب أن تكون بنتكما أكثر نضجاً من الصبي، أي أن تكون أكبر حجماً، أو أكثر جدّة في أعمالها المدرسية وفي الشؤون الأخرى. والمسألة لاتأخذ في هذه الحالة، حجماً كبيراً لأن المنافسة بين شقيقين مختلفين في الجنس تقلّ حدّتها إلى هذا الحد أو ذاك عن تلك التي تكون بين صبيين أو بنتين، فمن البديهي القول بأن اهتمامات الصبيان مختلفة عنها عند البنات، ولذلك لن يخوضوا المنافسة في المجالات نفسها. ولن تضطرب ديبى مثلاً لأن أخاها الأصغر يستطيع رمي الكرة لمسافة أبعد بمرتين مما يستطيعه، بل هي ليست مهتمة أصلاً بكل كرة القدم وبكل ما يتعلّق بها. لكن إذا رمى جون البالغ من العمر ثمان سنوات الكرة إلى مسافة أبعد بعشرين ياردة مما يستطيع رميها جيمس البالغ الحادية عشرة من العمر، فثمة مشكلة هنا (الآن، لو كانت ديبى أختاً أصغر سناً، واستطاعت رمي الكرة إلى مسافة تعادل طول الملعب، فسيصبح جيمس في هذه الحالة في وضع لا يحسد عليه).

(\*) - أشهر الفرق العالمية في كرة السلة. م.

كيف تتعاملان إذن مع حالة تفوق الأخ الأصغر للإبن البكر المتفوق معه في الجنس؟ الجواب هو: بتأني وحرص شديد جداً، وبقدر كبير جداً من الاهتمام المتعاطف الحنون.

وصل أحد معارفي إلى أواخر الثلاثينات من عمره، ومع ذلك مازال يرتجف عندما يتذكر كيف اعتاد الناس على الظن بأن أخاه الأصغر أكبر منه. «طيب، كم سنة تزيده؟»، هكذا اعتاد الناس سؤال أخيه الأصغر. ويتذكر قائلاً:

«لقد كنت ألتقي دائماً هذا الأمر المزعج بشعور بالحرقه في بوابة معدتي، وخصوصاً عندما يخبرهم أنني الأكبر، وما أراه على وجوههم من صعوبة في تصديق ذلك».

كيف يمكن لإبنين للعائلة نفسها أن يكونا مختلفين إلى حد كبير في البنية؟! أي أن يكون أحدهما قصيراً وهزيلاً، وذا هيئة شاحبة عليلة، في حين أن الآخر طويل وعظمه ثخين وذو جسم رياضي. لكن واحسرتها!، ليست الحياة عادلة دائماً. ينبغي عليكما أنتما، بحكم كونكما أب وأم، أن تأتيا أي تصرف يخطر على بالكما، لتسكين مشاعر الألم الحاد الناتجة عن ذلك. فالأبوان الحكيمان سيتبينان جوانب القوة في شخصية الإبن البكر، ويعملان على تشجيعه فيها، فمن الضروري مساعدة الإبن البكر الذي تفوق أحد أخوته عليه في مجال معين، على إستعادة الثقة بنفسه:

«أسمع، لقد رأيت كيف كانت تعابير وجهك عندما سألك ذلك الرجل فيما إذا كان يبلي أخاك الأكبر. وأنا أعرف كم آذى ذلك مشاعرك، وأشعر بالأسف لذلك. لكنك تعرف موقعك الخاص عندي، وأنا لا أعادل بك بأي شخص آخر، وأنا مسرور جداً لأنك أكبر أولادي».

ولاتبالغا في الأمر ليصل إلى حدود السلبية، مواصلي التعبير مرّات ومرّات عن حزنكما لضالة جسد ابنكما البكر قياساً بضخامة جسد أخيه الأصغر، لأنكما إذا فعلتما ذلك، لاتعملان إلا على تكريس شعوره بالأسى تجاه وضعه، لكن كلّما تريان أن مشكلة معينة قد برزت، تصرفا بسرعة لتعيدا تطمين ابنكما

البكر بأنه ذو منزلة خاصة في نظركما، وما يهم هنا قبل أي اعتبار آخر الاهتمام في حالته.

لنفترض أن ابنكما البكر، معاق بعلّة معيّنة، وربما مثبتت إلى مقعد ذي عجلات، فكيف يمكن لكم مواساته حين رؤيته أشقائه الأصغر يحققون أشياء يعرف أنه عاجز عنها؟

بادئ ذي بدء، إلجأ إلى ما يمكن لكما أن تفعله مع ابن بكر غير معاق قد تفوق عليه أحد أخوته، مضمّنين ذلك جرعات إضافية من التشجيع. ثم تذكّرا حاجة الإبن البكر لأن يتاح له دائماً التمتع بامتيازات الشخص الأكبر سناً سواء في تأخره في موعد نومه، أو في مصروفه اليومي الأكبر أو... الخ. وحتى لو كان يعجز عن تحقيق ما يحققه أخوته وأخواته الأصغر سناً، لكن لا بدّ له أن يتمتع باعتباره الأكبر سناً ببعض الامتيازات الخاصة والتي لم تُمنح (بعد) لهم. وتذكّرا أيضاً أن أحد أفضل ما يمكن أن يصدر عنكما كأبوين هو التعبير عن مشاعركما لأبنائكما، وخلق جو من الإلفة معهم. فإذا عرفوا أن أمهم وأباهم فخوران بهم وأنهما يحبانهم من كل قلوبهما، فإنهم بذلك يتمكّنون إلى هذا الحد أو ذاك من تخطّي أي عاصفة تعترض طريقهم بسلام!

## الفصل الثامن

### ساعدنا ابنكما البكر ولا تلقي السلاح أمامه

أُدرج في جدول مواعيدي لأحد الأيام، دعوتي ضيفاً على أحد برامج الإذاعة لإجراء حديث حول كتابي «الجنس يبدأ في المطبخ»<sup>(١)</sup>، وقبل موعد بث البرنامج بقليل، وجددتني جالساً في الغرفة الخضراء - الغرفة التي يمكث فيها الضيوف قبل الدخول إلى غرفة البث على الهواء في برنامج إذاعي أو تلفزيوني - منتظراً وصول مقدم البرنامج، دون أي إشارة بعد على قرب حضوره، وبقي دقيقتان فقط على موعد البث. وفجأة، انفتح الباب بعنف، ودلف إلى داخل الغرفة رجل شاب طويل حاملاً نسخة من كتابي. وحين وصوله إلى حيث أجلس لافاً رجلاً على رجل، نَقَرَ بقوة أسفل قدمي بالكتاب الذي في يده، قائلاً:

«هيا، دكتور، جاء دورك».

ففكرت بيني وبين نفسي: «يا هذه التوطئة البديعة!». ثم في طريقنا من غرفة الانتظار إلى غرفة البث، اعتذر على تأخره، لكنه أوضح أنه لم يصل مبنى الإذاعة «إلا للتو».

وحين أخذنا أماكننا في غرفة البث، استرعى انتباهي فوراً أن عينيه كامدتان، وأن بؤبؤي عينيه متوسعان، وبدا الرجل وكأنه منحوت من حجر. ثم ألقى على غلاف الكتاب نظرة مسترقة لاهية وقال: «يبدأ الجنس في المطبخ» هه؟ كتاب عظيم!». وأضاف بعدها في نبرة راشحة بشيء من الازدراء: «أنا مسرور جداً لأنك لست واحداً من أولئك المؤمنين يبعث المسيح من جديد».

وأثير الضوء الأحمر مع هذا التعليق، وأصبحنا على الهواء. وقدّرت مسبقاً في ذهني تقديراً سلبياً لتلك الليلة، وبأنها مصيبة حقيقية، فالمذيع المضيف أمضى على الأغلب كل الليلة الفائتة في حفلة ساهرة، حتى أن من الواضح أنه لم يقرأ الكتاب، وإلا لما أقدم على إلقاء هذا التعليق على المؤمنين بيعت المسيح من جديد.

أما من قبلي، فلم أعرف أأصح انطباعه الخاطئ حالاً أو أقتصر على ترك الأمر على عواهنه لفترة معينة من الزمن ثم أرى ما يحصل. وحاكمت الأمر في ذهني بأنني إذا شرعت في الحديث على طريقة رجل «ورع جداً»، فإن المناسبة يمكن أن تتحوّل إلى معركة كلامية صريحة بين المذيع المضيف وبينني، وأنا لأرغب بأن يحدث هذا، لذلك ارتأيت ألا أتفوّه بشيء.

لكن أخذتني الدهشة عندما جرى البرنامج بطريقة سلسة، وأبدى الرجال تناسقاً تاماً في إدارة دقّة البرنامج، وبقيت خطوط الهاتف ساخنة طوال فترة البرنامج ونحن نتلقّى من المستمعين اتصالاً إثر آخر. وكان واحدٌ منها وفي حوالي منتصف البرنامج، من صبية، قالت فيه إنها عذراء تبلغ الرابعة والعشرين من العمر، وأنها تفكر بأن تبقى عذراء إلى ليلة عرسها: «وما أريد أن أعرف يا دكتور ليمان، فيما إذا كنت ترى أنّ ما أتصرفه صحيح». وغمزني المضيف غمزة شيطانية وقال مع بسمة متكلفة: «هيا، دكتور، ما تقول لهذه الفتاة التي تحرص على نذر نفسها لزوجها؟»، ودلّلت نبرة صوته أنه يعلم ما سيكون عليه جوابي، فلقد ظلّ أنني سأقول لهذه الصبية بأن تتخلّى عن جعل نفسها مهزلة، وأن تدبّر «حياتها»، وحتى أن تفضّ بكارتها مع أول رجل يرغب بهذا، وداهمني إثر سماعي لسؤاله، إحساس بوكزة خفيفة من الروح القدس، وجرى الأمر كما لو أن الرب يقول لي: «حسناً يا ليمان، أنت أمام الامتحان».

فاستهللت حديثي بالقول: «طيّب، تعرف أننا نتحدثنا سوياً قبل بداية البرنامج عن المؤمنين بيعت المسيح من جديد، وأنا واحد من هؤلاء الناس، ولهذا أعتقد أن هذه الشابة صائبة فيما تفعله». وألقيت نظرة متفحّصة على المضيف لأرى فيما إذا كان قد ابتلع سماعتي رأسه غيظاً، وتبيّن لي أن ذلك لم يحصل، فواصلت حديثي: «أعتقد أنها تتصرّف عين الحكمة، فهي تقلّل من احتمال



أصابها بسرطان عنق الرحم وعدد من الأمراض الأخرى، ورأيت أنها تريد من حظوظها بالحصول على زواج مديد وسعيد، وهي تمارس ما يعتبر عن احترام ذاتي ظاهر لنفسها، وتدلل على بنية نفسية سوية أيضاً.

وبقيت متحيرة مما سيكون عليه رد فعله، لأنني أعرف أن كلماتي لم تكن تلك التي توقعها المضيف مني. لكنه لبث ساكناً لمدة ثواني معدودة، ثم بدأ بالإيماء برأسه ببطء نحو الأسفل، ثم شَخَصَ بصره صوب لاقط الصوت مباشرة، وحمد كما لو أنه ينعم النظر في وجه صديق. ثم قال:

«تعرفون ولاشك حقيقة موقعي من هكذا قضايا، ومع ذلك فأنا أميل لما يقوله هذا الرجل، وأعتقد أنه يقول عين العقل».

حقيقة، لا أعرف إذا كان ثمة رجل أكثر دهشة مني إثر سماع تلك الكلمات تصدر عن فمه. لكنني تعلمت درساً بليغاً في تلك الليلة، مع أنه مسألة كنت ما أفناً أؤكد لسنوات طويلة على صحتها، أعني أنني تعلمت أهمية عدم إلقاء السلاح، وخصوصاً عندما تعلم أن ما تفعله صحيح.

ماذا يؤمل أن يقدمه ذلك في مسألة أدائكم لدوركم الأبوي لإبنكم البكر؟ الكثير.

ولنفكر قليلاً في وضع الإبن البكر المسكين، الذي يتبع القواعد، وييدي جدية بالغة في الالتزام بالأصول، ويضع لنفسه حدوداً دائمة لا يتعداها، وفي ما يمكن أن يحدث له إذا لم يرهن الأبوان عن ثبات على المبدأ.

فهو في حاجة ماسة جداً للثبات على المبدأ معه، ويحتاج للقاطع البات، ويحتاج لأن يعرف بأنه إذا فعل هذا أو ذاك، فإن العقوبة الطبيعية لذلك ستكون هذا الأمر الآخر.

وينبغي أيضاً أن أخبركم شيئاً آخر عن ابنكما البكر، وذلك بأنه شخص ذكي لمّا، فهو يعرف متى يكون والداه مقلقلي الرأي، ومن ثم يجبرهما على التراجع أمامه حتى الحدود القصوى قبل أن يعرفا ما حلّ بهما. وذكرت سابقاً مفهوم انضباط الأمر الواقع، وهو أحد مفاهيمي المفضلة، لأنه مُجَيِّد من الناحية

الواقعية، وهذا ما عرفته من خلال شهودي له مرّات عديدة يتحقّق على أرض الواقع.

ولا يعني انضباط الأمر الواقع فقط بأن تكونا ثابتي الرأي، وصامدين في المواجهة، بل يعني أيضاً أن يتحمّل إبنكما وزر أي عاقبة ناتجة عن أعماله. واليكم كيف شرحت ذلك في كتابي «صقل ذهنية الطفل دون فقدانك لرشدك»: «ترتكز الطريقة التوجيهية لتهديب النفس، على حقيقة أنه توجد لحظات - وأحياناً عدة مرات في الأسبوع - حيث يترتّب عليكما فيها سحب البساط من تحت أقدام «الصقور» الصغيرة وتركهم يقعون أرضاً، وأنا لا أقصد ذلك حرفياً بالطبع، لكن عندما أتحدث عن سحب البساط، أقصد تهديب الطفل نفسه على ذلك النحو الذي يقبل ويفهم فيه تبعة أعماله، ويتعلّم قابلية المحاسبة على أعماله»<sup>(2)</sup>.

فالبت البكر ماريان مثلاً كانت في التاسعة من عمرها، وكانت صعبة الإرضاء فيما يُقدّم لها من طعام، وتحوّل وقت الطعام إلى عكس ما يفترض أن يكون في أي عائلة، تحوّل من وقت سائر إلى كابوس. وانعكس هذا سلباً على أمها التي كانت تتكدّر جداً من مرور وقت العشاء على هذا المنوال، إذ لا تبدي ماريان الرغبة في تناول أي شيء. فماذا يمكن للأم أن تفعل لتغيّر تلك الحالة؟ والجواب بسيط، إذا لم تبدي ماريان رغبة في الأكل، فيجب أن لا تُجبر على ذلك وستحل حتماً تلك اللحظة التي يستحوذ عليها إحساس بالجوع، وسيشقّ عليها تحمّل ذلك طويلاً، ومن الممكن أن يُقرقر بطنها، أو تطلب من أمها وترجوها بإلحاح أن تناولها لقمة من طعام معين، وتصرّ مع ذلك على عدم استعدادها لتناول أي شيء.

وشككت الأم في البداية في قدرتها على التصرّف كذلك، فلقد بدا لها ك شكلاً من أشكال القسوة، لكنها وافقت أخيراً على أن تجربّه. وهذا ما جرى بعد عدة ليالٍ لاحقة، إذا أعدّت الأم على العشاء طبخة معكرونة، وهي ما كانت ماريان قد أوجت لها في مناسبات عديدة سابقة أنها لا تجبّها، لذلك لم تزعج الأم نفسها حتى بوضع أدوات الطعام الخاصة بها على المائدة. وعندما

رجعت البنت إلى البيت من اللعب، وقبل وقت قصير من حلول موعد الطعام، لاحظت أن أمراً لا يجري على الوجه الصحيح تماماً، فسألت أمها في نبرة صوت متشككة بعض الشيء: «ماذا يجري هنا؟».

فأجابت الأم بطريقة تعكس أكثر ما يمكنها إظهاره من مرح ورباطة جأش معاً: «ليس إلّا الخير يا عزيزتي، فنحن سنتناول معكرونة هذه الليلة، ولأنني أعرف مسبقاً أنك لاتبين المعكرونة، قدّرت بيني وبين نفسي أنه ليس مجتهداً إجبارك على أكلها».

وجمّدت ماريان ساكنة للحظة لتحاكم في ذهنها فيما إذا كانت أمها الحبيبة قد فقدت حقاً قدرتها على الصبر هذه المرة. لكن عندما أحسّت أن الأمر ليس مزحة وأن أمها جادة فيما تقول، ذهبت لتلقي نظرة على الموقد حيث كانت المعكرونة تُطبخ ثم تنشّقت بعمق مرّتين متتاليتين رائحة مكورات اللحم التي تُطبخ في القدر، دون أن ترفع نظرها عنه، وكم كانت الرائحة التي تفوح عن الطبخة طيبة هذه المرة!! «ماما، أعتقد أن من الممكن أن أكل هذه المعكرونة تحديداً».

وأسبّغت على قولها هذا هيئة، وكأن ذلك النوع من المعكرونة له طعم خاص واستثنائي جداً، رغم أنه في الواقع من النوع الذي تعدّه الأم دوماً. «حسناً يا عزيزتي، لماذا إذن لاتبصين مباشرة صوب المائدة وترتبي ما يخصّك من أدوات الطعام؟».

ونقّذت ماريان ما طلبت منها أمها بالضبط، والتهمت كميات كبيرة من المعكرونة واللحم ذلك المساء. وبلغ بها الأمر لاحقاً إلى أنها عبّرت لأمها عن إعجابها بال مذاق الطيب لتلك الأكلة.

لكن لم يضع ذلك نهاية لكل ما تبديه ماريان من تأفف عن الطعام، ولكن كلما عبّرت البنت لاحقاً عن تذمرها، تسارع الأم إلى القول: «لست مجبرة على تناول الطعام إذا كنت لاترغبين بذلك، لكن لاتنسي أنك لن تحصلي على أي شيء لاحقاً». ولم يمر وقت طويل حتى أقلعت ماريان عن إبداء أي تذمر، وأصبح وقت الطعام ممتعاً، كما ينبغي أن يكون. وذلك هو انضباط الأمر الواقع.

## النجدة! أم تغرق في الصف السادس!

جاءتني أم أخرى، كانت تشكو من أن ابنها على وشك السقوط في صفه المدرسي، وذلك بالرغم من أنها لم تقصّر عن بذل أي جهد في سبيل مساعدته.

ويتوضّح أماننا الآن الوضع التالي: لقد درست هذه المرأة المسكينة مقررات الصف السادس منذ حوالي عشرين سنة، وليس لديها أي رغبة الآن لأن تعيد دراستها ثانية، وخصوصاً في سن الثانية والثلاثين. ولكن هذا ما تفعله الآن أساساً. فمن المفروض أن تكون واجبات جنوبي المدرسية خاصة به حصراً، لكن كانت تشغلها باستمرار في الواقع، وفي كل مساء، إلى درجة أن لا تبقى لديها أي وقت لمشاهدة أي من برامجها المفضّلة أو لقراءة الصحف اليومية أو للخياطة، أو لأي أمر تجد في نفسها رغبةً به. فهي لكونها أمّاً بلا زوج، وتمارس عملاً بدوام كامل، فإن الوقت الذي تصرفه في إعداد وجبة العشاء وفي جلّي أوعية الطعام وترتيبها ومن ثم مساعدة جنوبي في واجباته المدرسية، يستهلك مساءها كاملاً إلى أن يحين موعد النوم.

ويصبح لنا القول هنا، إن الواجبات المدرسية تشكّل المحور الرابط للأسرة، فكما تبين لنا، أنها المسألة التي تبقى الأم وابنها معاً أطول فترة ممكنة. ولكن مع ذلك فإن ما يقلقها هو أن تحصيله الدراسي، رغم كل الزمن الذي كرّسته له، يسير من سيء إلى أسوأ، وأنه، كما يبدو لأي مراقب خارجي، لا يستثمر إلا جزءاً متواضعاً من قدراته. وقدّمث لها رأيي، وهو باختصار، أن جنوبي هو المعني بالحصول على علامات تخرّج جيدة في المدرسة وليس الأم، وأن المشكلة ربما تنحصر في أنه يتكل كثيراً وعلى نحوٍ مبالغ فيه على أمه الطيّبة، منتظراً منها انتشاله من الوضع الغارق فيه، لكنها لا تكون معه في قاعة الصف في النهار، وهذا ما يشعره بأنه لوحده دون معين. وأضفت لها القول إن جنوبي بكّر استكمالي مبطّ الهمة، وأنه ذو ضمير حي تجاه واجباته المدرسية، لكن المسألة تنحصر في أنه لا يثق بنفسه، ولا يعتقد أنه يفلح في تأدية واجباته اعتماداً على نفسه حصراً (وغالبا ما تكون هذه التكهّنات نتاجاً ذاتياً بحثاً، دون أي مبرر موضوعي لها).

ولم يفت على حديثنا هذا إلا أيام قليلة، حتى دقت ساعة العمل، فلقد اتصل ابنها معها هاتفياً، كما كان يفعل غالباً، وسألها متى ستعود إلى البيت، فكان جوابها:

- «لأعرف يا عزيزي، لماذا؟».

- «لأن عندي امتحان في الرياضيات غداً، وأنا مقتنع أنني سأسقط، فأنا لأفهم هذه الرموز اللامعنى لها، ومن الضروري لي جداً أن تأتي البيت باكراً لكي تساعدني في الدراسة».

- «آه، أنا آسفة يا حبيبي لأنني غير قادرة على ذلك، وأنا في الحقيقة، راسمة في ذهني أن ألعب التنس بعد انتهاء الدوام، وسأعود إلى البيت متأخرة قليلاً عن المعتاد».

وهي لم تكن تكذب في ذلك، ففي خطتها لذلك اليوم أن تلعب التنس - للمرة الأولى منذ عدة شهور، ورتبت أمرها أيضاً على إعاره بعض الوقت لحضانه أطفال الجيران، ثم تحضر مستلزمات العشاء لإبنها.

ولقد كانت في المرات السابقة تلغي مباشرة خططها للعب التنس، وتخطر مديرها بأن عندها ضرورة لمغادرة العمل قبل دقائق قليلة من انتهاء الدوام، وتهرع بسرعة إلى البيت لتساعد جوني على الخلاص من مأزقه. لكن لم يحدث ذلك هذه المرة. وصرخ الصبي كما لو أنه على شفا هاوية بلا قرار: «لكن ماذا سأفعل؟».

وفكرت الأم لدقيقة قبل أن تجيبه: «بسيطة، الأمر الوحيد الذي أقترحه عليك هو أن تدرس فعلياً دراسة جادة، وأن تبذل قصارى جهدك.

- «لكن يا ماما...».

- «آسفة يا حبيبي، ستحقق نتائج باهرة، أنا على يقين من هذا، ينبغي أن تذهب لشغلك الآن». ثم قطعت الخط. ولايغرتكم الطريقة الحازمة التي فعلت فيها ذلك، فلم يكن تصرفها هذا بالأمر اليسير عليها. ولقد داهمتها رغبة بأن تهرع إلى البيت فوراً، وتغيث ابنها الصغير، لكنها أحجمت عن ذلك. وانصرفت

بدلاً من ذلك إلى لعب التنس الذي أدّته بشكل رديء إلى حد ما، لأن عقلها كان في البيت وفي إنجاز الواجب المدرسي.

أعرفون ماذا حصل؟ ليس إلّا الخير، فلقد حصل جوني على نتيجة جيدة جداً في امتحانه، وكاد هو نفسه ألا يصدق ذلك. لكن عندما تلمّس ما هو قادرٌ على تحقيقه بدأ يحرز نجاحات في كل مقرراته. وليس ذلك فحسب، بل لم تعد الواجبات المدرسية مهمة شخصين معاً، ولاتستهلك كل الفترة المسائية كما كان يجري سابقاً وعلى مدى زمن طويل.

ولابدّ لي من القول الآن، إن من الممكن أن لاتحدث تلك النهاية السعيدة، بل من الممكن أن يسقط جوني في الامتحان، لكن أياً تكن الحصلة النهائية، فإنها مسؤولية جوني الخاصة، ومهمته أن يتحمّل تبعات أعماله.

إن لانضباط الأمر الواقع مردوداً إيجابياً عاجلاً أو آجلاً، ولا بد له أن يحدث في نهاية المطاف الأثر المرغوب في حياة أبنائكم. لكنني لأستطيع أن أضمن لكما بأن النتائج التي تبغيانها ستحدث على الفور، كما حصل ذلك في حالة ماريان وجوني، لكنني رويت قصة كل من هذين الطفلين كبرهان على أن النظام يعمل!

لديّ معرفة متواضعة عن استراتيجية التجارة في السوق، لكن الشركات ذات القدرة على تسويق نفسها ومنتجاتها بنجاح تعرف الحقيقة التالية:

## لاتختار نجاحات قصيرة الأجل على حساب أهداف طويلة الأجل

وهي استراتيجية تؤدي إلى الربح في كل من التجارة وفي التعامل مع الأطفال عموماً، والمولودين بكرةً على وجه الخصوص. وإليك ما أعنيه بكلامي، لنفرض أن أم جوني وضعت نُصب عينيها لتحقيق نجاحات قصيرة الأجل، فإنها كانت ستهرع إلى البيت وتساعد ابنها على تهية نفسه لامتحان الرياضيات، لكن حتى لو ساعدته على تحقيق نتيجة جيدة جداً هذه المرة، فلن يكون في ذلك أي فائدة له عندما يحين موعد الامتحان التالي، بل إننا بدلاً من ذلك سنرى

مشهداً متكرراً لجوني مذعوراً، وأمه مسرعة لنجدته، ويكافح الإثنين معاً  
ولساعات للتغلب مجدداً على عقبة أخرى.

الهدف ليس اجتياز الامتحان بنجاح، بل الهدف هو تحسين عادات جوني  
الدراسية، والإظهار له أنه قادر على التعلّم اعتماداً على نفسه، ثم وضع حدّ لهذه  
السلسلة اللانهائية من ليالي الواجبات المدرسية.

ويتضمن انضباط الأمر الواقع فتح عينيكما على كامل اللوحة الكبيرة،  
والوصول إلى فهم الماهية الحقيقية للأهداف الطويلة الأجل بالنسبة لأبنائكما.  
ويعني هذا الحد «واقع» شيئاً آخرأ أيضاً، إنه يعني أن تحاولا تكوين رؤية واقعية  
لقدرات أطفالكما، وبأن لاتمارسا ضغطاً زائدة عن الحد الطبيعي عليهم، وهذا  
أحد الأخطاء الشائعة التي يقع فيها الأبوان في تعاملهما مع أبنائهما البكر.  
والأخطاء الأربعة الأكثر شيوعاً هي:

- 1 - تعويل آمال غير مبرّرة على ابنكما البكر.
- 2 - استخدام ابنكما البكر كأداة تلقّي للخدمات.
- 3 - استخدام ابنكما البكر ككبش فداء.
- 4 - التشاجر أمام ابنكما البكر.

دعونا ندني النظر أكثر على كل واحد منهم:

## تعويل آمال غير مبرّرة على ابنكما البكر

إذا كانت غريترود الصغيرة تستنفد طاقتها القصوى لتعلّم ما يُلقى أمامها  
عن «المضاعفات» (مثال، كم مرة يضاعف الرقم 16/ الرقم اثنين؟)، ففي هذه  
الحالة لاتأمل منها أن تتغلب على الصيغ العالية المستوى في علم المثلثات وفي  
حساب التفاضل والتكامل.

وإذا حدث وتمكّن كورنيليوس هذا اليوم من قطع حوض السباحة للمرة  
الأولى، فليس هناك أي مسوّغ لأن تخرجه إلى البحر في اليوم اللاحق لذلك  
مباشرة، وتتاُمّل منه قطع القنال الإنكليزي سباحة! ولسوء الحظ، هذا ما تفعله  
بعض الأمهات والآباء كما يبدو.

ويتضمن أسلوب انضباط الأمر الواقع أعذاراً وظروفاً تخفيفية للأطفال تتناسب مع قدراتهم، ويتضمن إقراراً بأن كل الناس يرتكبون أخطاء (هناك فرق هائل بين الخطأ وبين المعصية عن سابق إصرار وتصميم)، واعترافاً بأن عيارات الأخطاء متفاوتة.

فإذا أوقعت هنريتا البالغة أربع سنوات، وعاء حليبيها أثناء تناول العشاء، فليست المسألة إلا واحدة من الأمور العادية، حتى لو كان حليبياً بالشوكولا وسال كله فوق سجادتك الجديدة الثمينة العاجية اللون، فالأطفال في سن الرابعة معرضون لأن يريقوا حليبيهم في أي لحظة، ولا يستوجب الأمر أي عقوبة.

وكذلك، إذا ترك هنري البالغ الحادية عشرة من العمر معطفه في خزانته الخاصة في المدرسة، فذلك أيضاً نوع نموذجي من أخطاء الأطفال، لكن إذا فعل ذلك في ستة أيام متتالية، وبعد أن ذكرته أمه مراراً وتكراراً أن لا ينساه، ففي هذه الحالة يصبح لفعله درجة خطأ أعلى بكثير ويقتضي تقويماً من قبلكما.

لكن رجاء أيها الآباء والأمهات لا تعولوا آمالاً غير مبررة على أبنائكم، ولا يهمني عدد الكتب التي قرأتم عن تحويل أطفال مازالوا يحجلون في مشيتهم إلى عابرة، أو عن تلك النظريات الجديدة التي رأت النور مؤخراً حول سعة وكم المواضيع التي يستطيع الأطفال الصغار استيعابها. فالحقيقة الساطعة هي أن الأطفال عبارة عن أطفال، ومن المفروض أن يُتاح لهم أن يكونوا ما هم عليه حقاً.

ويعيش أطفالنا في العصر الحديث وخصوصاً من هم قيد معالجتنا الآن، الأبناء البكر، تحت وطأة ضغط هائل تمارسُ الأمهات والآباء نسبة كبيرة منه. وهذا ما يجعلنا نصادف أطفالاً في السابعة أو الثامنة من العمر، وهم في حالة إعياء كامل، ويعطون عن أنفسهم انطباعات مشؤومة في المدرسة، وتتردد على ألسنتهم كلمة الموت.

تلقيت مرة اتصالاً هاتفياً من امرأة، وسألتني ببهاة فيما إذا كنت تعاملت مرة مع أطفال (موهوبين)، قالت:



- (لابد أن توافقني على أن ابنتي الصغيرة جوزفين طفلة موهوبة حقاً، بل في الواقع لابد أن تكون نابغة).

- «آه، حقاً؟. وكيف استدلت على هذا؟».

- «تصوّر... إن بوسعها العد العكسي من عشرة إلى واحد».

- «آه، هه. ثم ماذا؟».

- «ثم، يعني، مثل ما قلت، إن في إمكانها العد العكسي من عشرة إلى واحد».

راودتني رغبة بأن أقول: «سيدتي، أريحيني!» أو «سيدتي، أريحي طفلتك!» لكنني لم أنفد ذلك، بل أوضحت لها بأن العد العكسي من عشرة إلى واحد ليس حدثاً غير عادي بالنسبة لطفلة في الثالثة من العمر، إلا أن المشكلة التي برزت أمامي هي ما بدا لي من أن المرأة لم تصدقني. لكنني أتخيل منذ الآن سياق تطور الأحداث، وكيف ستلجأ هذه الأم لاحقاً إلى إعلام ابنتها بمقدار (خبيثة أملها) فيها، حين تعود إلى البيت بعلامات (متوسطة)، وكم ستأذى حينها الطفلة من ذلك:

لقد قلت سابقاً، بأن اعتقاد الأبوين أن الاختصار على غمر أطفالهما بالدفء والحنان كافٍ لوحده لجعلهم على خير ما يرام، إنما هو أخطر خطأ يرتكبه الأبوان.

أما الخطأ الأكثر شيوعاً من قبل الأبوين، فهو تعويل آمال غير مبررة على أولادهم، والإين البكر هو على الدوام تقريباً من يتلقى صدمة المبالغة في الآمال المعقودة عليه من قبل أمه وأبيه.

## استخدام ابنكما البكر كأداة تلقّي للصدمات

لايعوّل على الأبناء البكر إثبات قدرتهم على القيام فعلاً بكل شيء فحسب، لكن يجري التعامل معهم كأدوات تلقّي للصدمات. أي بكلمات أخرى، يتكئ أبأؤهم عليهم في قضايا ليسوا مهتمين عاطفياً على التعاطي معها بعد، كما يأملون منهم.

«حسناً، يا بني، دعني أخبرك أنني وأمك لسنا في وئام، ولا أعرف بالضبط كيف سندبر أمرنا تجاه هذه الحالة».

«دعيني أخبرك يا هاريت، أننا في ضيق مالياً، وليس لدينا المال الكافي لتأمين عيشنا، ومن القطنة يبع البيت، وشراء كوخ صغير نعيش تحت سقفه».

«هارلي، لست مرتاحاً أبداً لحالتي، ويساورني قلق دائم، وأخشى أن أكون مصاباً بمرض خبيث أو شيء من هذا القبيل». لتتصور الآن حال الإبن البكر بعد ذلك، إنه يستلقي على فراشه في الليل، مستعصباً عليه النوم، مثقلاً بهموم شديدة الوطأة عليه، مع أن المفروض أن يفكر في لعبة البيسبول وفي أفلام الرسوم المتحركة.

ويحدث مَرات أن تكون الأم مستاءة جداً من الأب، وفي حاجة ماسة لشخص للتحدث إليه، فتتجه إلى ابنها البكر مفضية كل همومها في جعبته. ونحن مرة أخرى أمام طفل لا يزال طري العود ندياً بعد، ولا يتخيل حتى في المنام أن من الممكن أن يساور الأم مشاعر كهذه، مكتشفاً نفسه وقد سَدَّتْ إليه أمه طعنة عميقة الغور في صميم إحساسه بالأمان. ولا يمكن لأحد نكران ضرورة حدوث حدٍّ معين من المسارعة بين الأبوين وأبنائهما، ولكن يجب أن يبقى ماثلاً في ذهنيكما أن الطفل ليس مهياً لتحمل إجهادات وضغوط الحياة وارتيايَّتها، ممَّا نعاني منه نحن البالغين كل يوم. فإذا تلمَّستما ضرورة التحدُّث إلى شخص آخر عن مشكلة مكدَّرة أو عميقة، فتوجَّها إلى صديق موثوق أو إلى رجل دين أو إلى أخصائي نفسي، ولكن إياكما واستخدام ابنكما البكر كـ (Sounding board) (أداة ترديد وتوجيه صوتي).

## استخدام ابنكما البكر ككبش فداء

ستتذكرون ولاريب إذا كان لكم عمر معقول، ذلك الإعلان التجاري التلفزيوني القديم، في سنوات الستينات، إذ يدخل الرجل إلى بيته إثر يوم عمل مجهد، وهو يميح أنفاساً لاهبة من لفافته، ثم يجأ فجأة بأعلى صوته: «بيلي! كم مرة أخبرتك بأن تبقي دراجتك الهوائية بعيداً عن الدرب؟». وبدا لنا الصغير ييلي

كما لو أن قلبه الغض قد انفطر، فأحني عندئذٍ والده الذي استحوذ عليه الندم يده برقة على رأسه، بينما نسمع نحن الخاطرة التي جالت في فكره «إنك تعاني من الصداع بدون أدنى ريب، لكن رجاءً لاتصبّه على رأس ييلي». والآن، وفي حال عدم تذكرك تزمة الإعلان، فإنني لن أتركك في حالة قلق وترقب، إذ سرعان ما يزرد الأب ويتلع جبتين من الإكسيدرین، فيعود الأب فوراً ودون المرور بأي فاصل انتقالي إلى حالته الطبيعية العادية سعيداً ومنشرح الصدر، ويقضي وقتاً بهيجاً مع ييلي.

نعم، كان ذلك إعلاناً تجارياً ناجعاً، فلقد أذى إلى بيع كميات كبيرة من الإكسيدرین، لكنه كان أيضاً مسرحية صغيرة ذات دلالة أخلاقية بليغة جداً، أي إذا كنتما تعانيان من آلام الصداع فلا تصبّاه على رؤوس أطفالكم وخصوصاً إذا كان من سبب لكما الصداع، مدير كثير الطلب والانتقاد، أو زوج عديم الإحساس أو صديق حكّاء في القيل والقال. وهذا لسوء الحظ مايفعله عدد كبير جداً من الرجال والنساء، فهم يتعاملون غالباً مع أبنائهم البكر كدريئة لتلقي الغضب والاستياء، اللذين تضمهما الأم من الناحية الواقعية تجاه الأب أو العكس بالعكس. اعتاد هارшил - على سبيل المثال - الخروج مع الشلّة<sup>(٥)</sup> بعد انتهاء الدوام، وعلى عدم إزعاج نفسه بالاتصال هاتفياً بزوجه مارجي ليخبرها عن ماهية مخططاته. فإذا كانت قد أعدت من قبّلها سفرة العشاء، ثم انتظرتة ولم يأت، فماذا يحدث عندئذٍ؟ يتكثّف موقف هارшил بأنه بذل مجهوداً مضيئاً في العمل طوال النهار، وأنه يستحق الآن تزجية قليل من الوقت في «الترويح عن نفسه»، وبأنها فاضية أشغال<sup>(٦)</sup>، مضخّمة حجم المسألة. وتكرّر حدوث مثل هذا الأمر مراراً وتكراراً، إلى الحد الذي جعل مارجي في حالة دائمة من الغيظ والاهتياج، وتصاعد غضبها شيئاً فشيئاً إلى الحد الذي أصبح من الصعوبة السيطرة عليه. وعندما حاولت التنفيس عن مشاعرها لهارшил، لم يعر ذلك أدنى اهتمام. أما عندما انفجرت بالصراخ والعويل، أزعجه ذلك قليلاً، لكنه أصرّ مع ذلك على عدم الإصغاء لها، وعلى عدم الشروع بتغيير تصرفاته.

ماذا صار يحدث مع مارجي بعدئذٍ؟ بدأت تلاحظ جوانب من سلوك ابنها

البكر جبرمي، البالغ من العمر ثماني سنوات تذكّرها بهار شيل، واعتادت على أن تقول له كلما بدّر منه تصرفاً معيناً أدّى إلى أوهى تكدير لصفوها:

«أنت مثل أيلك تماماً». ثم صارت تقرّعه على أي تصرف يأتي به، رغم حرص المسكين جبرمي على المواظبة على الحذر والمداراة، لكن لافائدة، فلم تُجد كما يبدو كل مساعيه الجادة للحفاظ على الوثام مع أمه.

ثم، وفي إحدى الليالي وبعد حفلة تقريع قاسية وزائدة عن الحد الطبيعي، مرّت أمام باب غرفة نومهِ وسمعتهُ يبكي بصوت خفيض. فلم تتمالك عن فتح الباب بسرعة وسؤاله عمّا أصابه:

- «إنه، إنه، إنه....» ولم يستطع كما يبدو أن يمنع احتباس الكلمات في حلقه.

فسألتهُ أمه مع شيء من فقدان الصبر: «إنه ماذا يا حبيبي؟».

- «إنه ليس إلّا أن... إلّا لم تعود لي تكثّن لي أي مشاعر حب، وأنا لا أعرف لماذا».

وكما تتخيلون، أفاد مارجي سماعها لهذه الكلمات، التي كان وقعها عليها كصدمة عنيفة لإعادتها إلى الواقع.

هل كان معها الحق في الغضب والاستياء؟ عندنا جميعاً قناعة عميقة في ذلك، لكن ليس لديها أدنى حق بأن تصبه على ابنها البكر، واتخذت قراراً حازماً منذ تلك اللحظة بالتوقف عن فعل ذلك، وأخذت علاقتها بابنها تتحسن باطراد.

أمّا بالنسبة لهارشيل، فلسوء الحظ لم تتحسن علاقتها به إلى أن أخبرته أخيراً أنها تطلب الطلاق. إذ كانت هذه الخطوة الفجائية القاسية كصدمة عنيفة له لإعادته إلى الواقع، وشرع منذئذٍ يبذل جهود صادقة وناجحة في معظمها لتعديل سلوكه. شهدت أيضاً حالات عديدة يتهم فيها أحد الزوجين ابنه البكر بإنحيازهِ إلى جانب الطرف الآخر في الخصومات الزوجية: «ليس ثمة أي شك يا بيتسي أنك ستقدمين فوراً على الانحياز إلى جانب أيلك! أنت دائماً تنحازين إلى جانب أيلك! أنت معه ضدي.... هل مقدّر لهذا أن يحدث دائماً؟». في

حين أن الحقيقة، هي أن كل ما تريده يتسبي هو حلول الوئام بين أمها وأبيها، وهي تبدل قصارى جهدها لأخذ جانب الحياد بينهما، بل ربما تستغرب كيف نُجَرَّ إلى المعركة. إنها مرة أخرى هنا تُستخدم ككبش فداء، وذنبها الوحيد أنها مكرهة على البقاء قريبة جداً من ساحة المعركة!

أيتها الأم، أيها الأب، تذكّرا عندما تكونان مستشيطين غضباً من شخص معين غير أولادكما، ألا تصبّيا غضبكما عليهم!

ولقد علقتني ابنتي البكر هولي الكثير عن الحياة. وكنت، على سبيل المثال، في إحدى الليالي «أتحامل عليها»<sup>(\*)</sup> بدون أدنى سبب مقنع. فباغتني بتصرفها عندما شخصت بصرها صوبي، على طاولة العشاء، وقالت:

«بابا، أنت تعرف ما ينبغي أن تتصرف؟ اقرأ كتابك!».

وهل هناك أبلغ من هذه الكلمات الصادرة عن طفلة تبلغ الحادية عشرة من عمرها. هولي محقّة، فأنا أستخدمها ككبش فداء.

## التشاجر أمام ابنكما البكر

يعتقد عدد كبير من الأمهات والآباء العصريين والمثاقفين أن خوضهم نزالات كلامية مفضوحة أمام أعين أطفالهم وأسماعهم إنما هي مسألة عادية. وهم لا يعتقدون بضرورة (وقاية) أطفالهم من واقع الحياة، ويعتقدون من جهة أخرى أن الشجار أمام أطفالهم اليافعين يعلمهم أن من الممكن أن يكون الناس متعارضين ويستطيعون مع ذلك النجاة بأنفسهم من الجفاء والبقاء أصدقاء. طيب، اسمحوا لي أن أعلّق على ذلك بأنه مجرد تخرّصات فارغة<sup>(\*)</sup>، وأولادكم بغنى عن هذه الجرعات من الواقع، وهي لاتقدّم أي خدمة لهم بأي حالٍ من الأحوال. وكل ما تؤدّي إليه هو إحساس بفقدان الأمان، وبانهيار في الاعتبار الذاتي لأنفسهم.

ويتلقّى الأبناء البكر عادةً الأذى من ذلك، نظراً لكونهم الأشخاص الأكثر قرباً وتأثراً مما يجري في الواقع، والذين يدركون أكثر من الآخرين ما يجري أمامهم على وجه الدقّة، بل سيكونون في الحقيقة من يحاولون الحجب بين

الأطفال الآخرين والواقع، واضعاً الواحد منهم على سبيل المثال، يديه على أذني أخته الصغيرة. فإذا كان لامر أمامكما من الشجار - وأظن أن أي زوجين سيجدان نفسيهما عاجلاً أم آجلاً أمام هكذا وضع - فانقلبا ساحة المعركة إلى وسط غرفة نومكما، خلف الأبواب الموصدة، واحرصا أيضاً على أن يبقى صوتكما خفياً. أيها الأبوان تذكرنا بأن مواكبة الحب لزواجكما هو المصدر الرئيسي لراحة وأمان طفلكما في عالم يعج بالاضطراب والأمان من جميع النواحي.

## المراهقة، أوقات عصيبة

الآن، نتقل للقول إن سماع كلمتكما كأبوين من قبل أولادكما، يحور على قدر من السهولة حين يكون أولادكما مازالوا في طور الطفولة، وتكون كلمتكما بمنزلة قانون. لكن ماذا يحدث عندما يكبر هؤلاء الكتاكيت الصغار الملاعين ويلجئون مرحلة المراهقة؟ كل ما يمكنني قوله بأن هناك أهمية أعلى بكثير من أي مرحلة أخرى من العمر، لأن ترسماً في ذهنيكما مخططاً مُحكماً لاجتياز تلك البحار الهائجة للمراهقة.

وكما يصح الأمر دائماً، يعني هذا استخدام انضباط الأمر الواقع، ويعني أيضاً تزويد أبائكما بمجال أرحب من الحرية ليختاروا لأنفسهم ما ينفعهم أو يضرهم، ويترتب عليكم منحهم الثقة بأنهم تعلموا عند دخولهم هذه المرحلة من حياتهم عدداً من القضايا، وتشربوا بعض القيم التي بذلتها كثيراً من الجهود وعلى مدى سنوات طويلة لتعليمهم إياها. راودت إيفلين، على سبيل المثال، فكرة الذهاب لحضور إحدى الحفلات، لكنها لم تكن متيقنة بأن هذا هو الخيار الأمثل بالنسبة لها، فهي تعرف أنه سيجري كما يحصل عادة، تناول للمشروبات الكحولية ولتغاطي تدخين مشترك، لكن إذا لم تذهب، فستشعر كما لو أنها مزدرة أو أنها تعتقر لشيء ما.

لذلك لجأت إلى سؤال أمها عما ترتأيه لها، فكان جواب الأم:

«لا أعرف يا حبيتي، فلقد بلغت السابعة عشرة من العمر، وصرت تعرفين

الخطأ من الصواب، وأنا واثقة أنك لن تفعلني إلا بما تعتقدينه الأصح». وغمر الأم شعور بالراحة، لأنها كانت واثقة أن إيفي حالما تفكر بالأمر ستقلع عن رغبتها بالذهاب، لذلك تدلت ذقتها خيبة إلى الحد الذي لامست فيه أرضية المطبخ عندما أخبرتها ابتتها في اليوم التالي بأنها قررت حضور الحفلة، بل إنها ترغب زيادة على ذلك بأن تصحبها أمها في سيارتها إلى مكان الحفل ولم يكن وقع ذلك حسناً على الأم، وكادت أن تحسم الأمر وتخبر ابتتها بأن عليها ألا تذهب، لكنها تذكرت أهمية إتاحة المجال لإيفي لاتخاذ خيارها الشخصي في المسألة، فاستكانت للأمر.

وعندما حلّ مساء الجمعة بعد يومين من ذلك التاريخ، وإثر توقف سيارتهما أمام المنزل الذي تُعقد الحفلة فيه، استقبلتا بالترحاب بالهتافات الصاخبة، وبحركات موسيقية بالآلات النحاسية الثقيلة. وكانت السيارات المصفوفة تشغل كامل جانبي الطريق. وتجمّع في الباحة الأمامية عدة فتيات وفتيان يحتسون البيرة واستعادت الأم بعض الأمل بأن تغتير إيفي رأيها حالما ترى ما يجري هنا، لكن لم يحصل هذا. ثم، قالت الأم لابنتها عندما همت بمغادرة السيارة: - «اسمعي، سأقود السيارة على هذا الطريق، قاطعةً بناءً أو أكثر، حتى أجد حيراً لصف سيارتي عنده، ثم سأنتظر عدة دقائق.... تحسباً».

- «طيب يا ماما».

ولم تضطر الأم للانتظار وقتاً طويلاً، فلم يكد ير خمس عشرة دقيقة حتى شاهدت ابتتها في المرأة، سائرة على الطريق باتجاهها. ثم أخبرت أمها بعد وصولها إليها.

- «أنا مسرورة جداً لأنك انتظرت، فالجرصة التي تجري هنا لم ترق لي، وأنا أفصل العودة إلى البيت».

والآن، يمكنني القول إن أي ابن يركن أخيراً إلى اتخاذ الخيار الصحيح يستحق الإطراء لتعزيز أنه، فاشخصاً إليه فوراً وأخبره أنكما فخوران به لاتخاذ الخيار الصائب. وهناك ضرورة لأن نؤكد لدى المراهقين شعوراً طيباً تجاه أنفسهم، لذلك لاتخشياً أبداً إشعار ابنكما باعتزازكما به عندما يصدر عنه سلوك صحيح.

لكن كونا حريصين على أن لاتربطنا تشجيعكما بمستوى الإنجازات المحققة، بل الأخرى أن ترتبط بالجهود المبذولة.

ماذا يعني هذا؟ إنه يعني أنه إذا بذل جوني في المدرسة جهوده القصوى، فليس المهم في هذه الحال عودته إلى البيت بعلامات ممتازة، بل المهم هو أن تقدّر الجهود التي بذلها في دراسته. ويجب أن يعرف ابنكما المراهق أن حصوله على علامات ممتازة ليس بأهمية أن يكون شخصاً ذا نوعية ممتازة!

هل تذكرن القصة الواردة في الكتاب المقدس عن الأرملة التي وضعت قطعتين نقديتين صغيرتين في خزانة المعبد؟<sup>(3)</sup>. بالتأكيد، ليست تلك القطعتان النقديتان بالمبلغ الهائل، وربما كانت فرنكين أو قرشين، ومع ذلك خاطب المسيح حواريه بأنها قد وضعت في «وعاء العطايا» أكثر من أي شخص آخر، لأنها أعطت كل ما تملك.

لايفتح بعض الأولاد أي كتاب إطلاقاً، ومع ذلك يعودون إلى البيت بعلامات ممتازة في جميع المواد، في حين يمضي آخرون ساعات طوال في الدراسة، ومع ذلك يصلون بالكاد لتحقيق علامات مقبولة أو متوسطة. لذلك يتعين عليكما ألاّ تحكمما على جهود المرء من خلال النتائج التي يحصل عليها. وتذكّرا دائماً أن بإمكانكما أن تتعاملا بسهولة أكبر مع المراهق البكر، لأنه على وجه العموم قاسٍ بحدودٍ معقولة على نفسه! زوّدها ببعض الإرشادات، وساعدها على اتخاذ القرار الأصح، ولاتردّداً أبداً في ذلك، لكن حذارٍ من أن تكونا مستبدّين، وتمارسا ضغطاً عليه أكثر من اللازم.

وفي حال ألّفى ابنكما المراهق نفسه في ضائقة من نوع معيّن، كأن يجد نفسه متكدّراً بعض الشيء أو مغتاضاً، أو مثقلاً تحت رحي الاستكمالية، فلا تستسلما للاعتقاد أن ابنكما أتى بأمر ما خاطئ، إذ أن المراهق البكر سيخوض مع نفسه صراعاً بين وقتٍ وآخر، لأنه يطرح عنه شرنقة الطفولة.

وقدّم دوغلاس هـ. بويل في كتابه «المراهقين - متى يحين القلق وما يفرض ذلك عليكما» ستة وسائل تمكن الأمهات والآباء من توفير أجواء محيطة مفيدة لأولادهم المراهقين على مواجهة صعوبات الحياة<sup>(4)</sup>:



حافظا على التواصل (القلبي) معهم: ويمكن توضيح ذلك بما يمكن وقعتته  
بالتالي: الإبقاء على جسور التواصل معهم مفتوحة، والتفاعل مع أولادكما  
بتصرفات تسبغ عليهم الحب.

عززا القدرة على الاستمتاع بالعمل وعلى الحب والحنان وعلى اللعب:  
وبكلمات أخرى علما أولادكما عادات إيجابية، وحاولا أن تنظرا فعليا في  
تعلمهم الاستمتاع بتلك المجالات الثلاثة في الحياة والعمل، سواء العمل الدراسي  
أم عمل ثانوي محدود بعد الواجبات المدرسية. وتبادل عواطف الحب والحنان،  
ويشمل ذلك علاقاتهم مع أشقائهم وشقيقاتهم، وأصدقائهم (وخصوصاً من  
الجنس الآخر) ومع ربهم. واللعب، أيأ كان الشكل الذي يمكن أن يأخذه.

ارفعوا مستوى التكيف مع الإجهاد إلى درجة عالية: أفضل طريقة تبيينان  
فيها لابنكما المراهق كيف يتعامل مع الإجهاد، هي أن تظهرها له أن بوسعكما  
أنفسكما التعامل مع الإجهاد براحة. فرغم أنكما ستضعان أنفسكما تحت تأثير  
أثقال هائلة، إلا أنها لن تعني لكما نهاية العالم، ولن تنهار حياتكما إلى حطام.  
اعملا على تشجيع تنمية جوانب القوة: ويشتمل هذا أساساً على التأكيد  
على أهمية العلامات الإيجابية في حياة ابنكما المراهق، واعملا على زيادة تلك  
العلامات آتياً وكيفما تستطيعان.

تكفلاً بتأمين مصادر الدعم والإسناد: لاتبدى أي تردد في مدّ أيديكما إلى  
الآخرين عندما تجدان أن هناك حاجة لذلك إلجأ باستمرار إلى تجريب طرق  
جديدة في المقاربة: إذا تبين أن إحدى الطرق غير صالحة، جرّبها طريقة أخرى  
غيرها.

## قواعد ليّمان في التعامل مع المراهقين البكر

دعوني أضيف لهذه البنود، وأقدم لكم من خبرتي الخاصة عدة قواعد  
جوهرية في التعامل مع المراهقين البكر.

- 1 - خصّ ابنكما المراهق بقدر أقل من الأعمال بدلاً من خصّه بالمزيد  
يعتقد بعض الناس أنه من المفروض عليكما خص ابنكما البكر بقدر من

المهام يزداد كلما تقدم في عمره، وأنا غير متفق مع هذا الرأي. فعندما يدخل ابنكما البكر في مرحلة الدراسة الثانوية، فإنه سينخرط في نشاطات متعدّدة يتطلّبها عمره، لذلك يترتّب عليكما تخفيض ما يتحمّله من أعباء في البيت لكي يستطيع إدراك مبتغاه في هذه النشاطات. فمن الممكن أن يجد لديه رغبة في العزف في فرقة موسيقية، أو المشاركة في مسرح المدرسة، أو الخروج للمشاركة في فريق لكرة القدم، ومجمل القول إن ابنكما المراهق يحتاج ويستحق الحصول على حريته بالعمل على إشراك نفسه أكثر فأكثر في هذه النشاطات المفيدة لصحته النفسية والجسدية. ومن هنا دواعي الاعتقاد بأنه عندما يدخل الابن البكر مرحلة الدراسة الثانوية، فإن هذا يعني الإيدان بيده تحمّل الأبناء الآخرين في الأسرة بعضاً من مسؤولياته.

## 2 - لا يستحق البكر اللوم دائماً

- «ماذا، إنه يتحامل علي ويضايقني!».

- «هارولد، توقّف عن ذلك فوراً. كم مرة أخبرتك أن تكون لطيفاً مع أخيك الصغير؟».

ألا يبدو وقع هذا الكلام مألوفاً لأذاننا؟

إنه بالتأكيد كذلك، لأنه ربما هو أحد الحوارات الأكثر شيوعاً في اللغة الإنكليزية. ولا يمكن لأحد إنكار أن هناك مناسبات عديدة يُقتضى فيها إسماع المولود بكراً عبارات من هذا النوع، لكن هناك بالمقابل مرّات عديدة لا يكون فيها البكر يستحق ذلك.

وإذا كنتما أيها الأبوين قد نسيتما، فإنني سأذكركما بأن الإخوة الصغار يستمتعون بإيقاع أخيهما البكر في أوضاع مأزقية، فهم لا يتورّعون عن استخدام كل أنواع الضغط والجرّ والإغراء الخادع، والتملّق، لكن عندما يحصلون أخيراً على ما كانوا يسعون وراءه، وعندما يُظهر الأخ البكر أدنى ميل نحو استخدام القوة لرد الأمور إلى نصابها، عندئذ «تعالى ماما، إنه يتجنّى عليّ ويضايقني مرة ثانية!».

كيف يتعامل الأخ البكر مع وضع كهذا؟ يحاول أن يعرض وجهة نظره: «لكن ماما، إنه.....».

«لا يهتمني ما فعله هو! فأنت الأكبر، وينبغي أن تكون أعقل منه».

وأثناء تلقي الإبن البكر محاضرة من أمه، ماذا يفعل أخوه الأصغر؟ إنه يقف على الأغلب هناك، في زاوية الغرفة، ماداً لسانه شماتةً من أخيه وساخرًا منه بحركات هزلية في وجهه.

وإذا كنت تستغرب كيف توصلت إلى هذه المعرفة الوثيقة بالأمر، فلا تنس أنني أنا نفسي أخٌ أصغر وأعرف جيداً كل حيل وأساليب التلاعب الماكرة منذ سنوات عديدة سابقة!

لماذا يُلقي اللوم دائماً على الإبن البكر؟ يقول بيل كوسبي إن ذلك يعود لأن الأمهات والآباء ليسوا مهتمين بالعدالة والإنصاف، بل ينحصر همهم في تهدئة الأمور<sup>(5)</sup>، وأعتقد أن ذلك يحتوي قدراً كبيراً من الصحة. وأعتقد أن الآباء والأمهات سينحازون تلقائياً للأخ الأصغر باعتباره الخاسر المحتمل، وهذا ليس دائماً عادلاً.

روى لي أحد الأصدقاء كيف كان وأخوه يحبان أن يتغالبا في مرحلة طفولتهما، وكان الأخ الأكبر هو من يربح الجولة دائماً، لكن صديقي لا يستسلم، وكل ما كان عليه القول هو: «أنا أستسلم»، وينتهي الأمر، لكنه يصر على رفض الإذعان لذلك. وهكذا كان أخوه يلوي يده إلى الخلف ويقول له:

- «قل أستسلم».

- «لا».

- «قل أستسلم!».

- «أنت ستكسر يدي!».

- «طيب، فقط قل أستسلم، وسأتوقف عن ذلك!».

- «ماما! ماما! إنه يكاد يكسر يدي! أوووو..... أوووو... أوووا».

وستحضر الأم لتتبع سبب كل هذا الصراخ والعيول، وسرعان ما تكون فكرة ظاهرية عن الوضع، بأن الأخ الأكبر يستخدم قوته ضد أخيه، وهو يستحق العقاب.

وأضاف صديقي: «أعرف!»، بلغت الثلاثين من العمر قبل أن أقدم له أي اعتذار عن كل تلك الفصول!.

حسناً، على الرغم من أن ييل كوسبي يتخذ منحى فكاهياً في معالجة الأمر، إلا أنني أعتقد أن على الأمهات والآباء أن يكونوا مهتمين بالعدالة، وأن عليهم أن يتذكروا أن الابن البكر لا يستخدم دائماً قواه على غير وجه حق!

### 3 - إعرافا جوانب القوة لدى ابنكما البكر:

تكن في كل طفل جوانب قوة وجوانب ضعف في شخصيته، ومهمة أبويه مساعدته على اكتشاف وتطوير جوانب القوة فيه.

ما هو المجال الذي تبرز فيه قوة ابنكما البكر؟ إنه ربما واحد من مئات الحقول التي يمكن أن تخطر على البال: فن، موسيقى، رياضة، علوم رياضية، كتابة، ميكانيك، نجارة، تصميم أزياء، إخراج مسرحي، خطابات جماهيرية.... الخ. إلى آخر قائمة طويلة منها.

وعندما تشهدان تحقيق ابنكما لنتيجة جيدة في مسألة معينة، فأشيرا له صراحة بذلك. وأخبراه:

- «تعرف، لقد أنجزت عملاً رائعاً في رسمك لهذه اللوحة».

- «أعتقد ذلك حقاً؟».

- «أنا مقتنع بما أقول، ومقدرتك الكبيرة واصحة بقوة!».

وليس سهلاً على الأمهات والآباء أحياناً التعامل بموضوعية في مسألة مواهب أولادهم. ولذلك إذا كان أحدكما يمتلك مهارة مميّزة في المسائل الرياضية، لكن ابنتكما مهتمة حصراً في مجال الموسيقى، فعليه أن لا يحاول قسرها على التحول إلى إنسانة ضليعة في الرياضيات أيضاً. ويحاول أيضاً بعض الأمهات والآباء أن يعيدوا إلى الحياة مجدداً سيرهم الحياتية من خلال أولادهم،

ولا يصل هذا المسعى، طبعاً، إلى تحقيق هدفه المنشود. وهكذا ينبغي على الأمهات والآباء أن يبحثوا عن مواهب أولادهم البكر الحقيقية، ويركزوا جهودهم على تطويرها، وليس تلك التي يرغبون ويتمنون أن تكون لديهم.

وثمة أمر آخر ينبغي عليكما أن تتذكراه، وهو أن بوسعكما تطوير مواهب ولدكما بدون ممارسة ضغط قاسٍ عليه. ولنقل على سبيل المثال أن ولدكما سباح ماهر، وأحب أن يدخل في سباق مع أحد والديه، مع أنه مازال في الثامنة من العمر بعد، أي ليس هناك أي فرصة أمامه ليهزمه. هل ينبغي على والده في هذه الحال التقدّم وهزيمة كل مخططاته الذهنية، في كل السباقات بينهما، مبنياً له أن المسافة الفاصلة بين قدرات كل منهما كبيرة؟ أم أن الأفضل أن يدعه يهزمه في كل السباقات لكي يعزّز له ثقته بنفسه؟ وجوابي هو النفي على كليهما، فإذا هزم الوالد الابن في كل المرات، فالاحتمال كبير أن يتحوّل إلى شخص مثبط الهمة ويقنع عن السباحة كلياً وليس هناك أيّ داعٍ لتثبيط همته. أما إذا تركه الوالد يهزمه دوماً في كل المرات، فسيعزّز لديه ثقة غير واقعية ومزيّفة في قدراته الطبيعية. ومن الأنسب والأكثر قبولاً هنا ترك الوالد ابنه يهزمه بين حين وآخر.

وعلى سبيل المثال، أنا طوال عمري أحب البيسبول، وستبقى في مخيلتي دائماً تلك المباراة التي لعبتها مع مجموعة أولاد أكبر مني سنّاً - بما فيها أخي وأختي - وذلك في الباحة الأمامية لبيتنا، وكنت حينها في الرابعة أو الخامسة من العمر. بطريقة أو بأخرى ضربت الكرة، والتي كانت ضرباً من الإعجاز بحد ذاتها، ثم بدأت بالركض حول القواعد، وما كدت أصل إلى القاعدة الأولى، حتى دحرج اللاعب الأساسي الكرة، وتوجّهت نحو القاعدة الثانية، وكان من المحتمل أن يخرجني بعيداً لمسافة ميل تقريباً، لكنه رمى الكرة على نحو سيء وذهبت الكرة نحو الميدان الوسطي، ومع الوقت الذي استغرق ليلتقطها أحد اللاعبين كنت قد درت حتى القاعدة الثالثة وتوجّهت مباشرة نحو القاعدة النهائية. وهنا جاء دور هذه الرمية، لكنها انزاحت عن مسارها الصحيح، ومزّت من أمام اللاعب الذي وظيفته الإمساك بها. وعندما انطلقت لدورة أخرى حول القواعد، شاعراً بعدم الاكتفاء بإنجاز دورة واحدة. وإذا أردتم معرفة ما حصل،

فلقد أنجزتها!. ليست نتيجة سيئة تلك التي حققتها!، دورتين في ضربة كرة أساسية واحدة!، وانتفشت حينها زهوراً بنفسية.

شاخصاً الآن يبصري نحو ذلك المشهد القديم، أدرك ما جرى على أرض الواقع، فلقد منح الأولاد الأكبر سناً فرصة للطفل الصغير لأن يربح، وهذا ما جعل الذكرى تعني الكثير في أدائي اللاحق. فأنا لن أنسى ما حييت تلك النشوة التي غمرتني في ذلك اليوم، والتي يعود إليها بالتأكيد، على الأقل جزئياً، شعفي برياضة البيسبول، هل نسيت ذلك الإنجاز، دورتين كاملتين في ضربة كرة واحدة.

#### 4 - كونا عادلين مع ابتكما البكر

لقد توصلت إثر مراقبة شخصية مباشرة طويلة، إلى أن الابنة البكر تتلقى على الغالب معاملة مجحفة، فهي تتحمل عبء مسؤوليات وتبعات لكونها بكر، لكن تتمتع بعدد قليل من مميزات كونها كذلك. وأتوقع أن يصوب بعض الناس نظرهم إليّ قائلين إنهم لا يعتقدون بصحة هذا الاستقراء المزدوج المعيار، لكن الطريقة التي يعاملون فيها بناتهم البكر تشي بأشياء مختلفة عن ذلك.

فمن المنتظر منها أن تبرهن على أنها ناضجة، وراجحة العقل، وحكيمة، بل يُتأمل منها أيضاً الالتزام بكل القواعد والأصول المتعارف عليها الموافقة لهذه الصفات. في حين يُسمح لأخيها الأصغر بالتححرر من القيود، وبالتمتع بحرية ولا في الخيال، ومن الممكن أيضاً أن يكون لديه تأثير أكبر منها على قرارات العائلة الهامة، ومن الممكن كذلك أن تكون ساعة مبيتها أبكر من ساعة مبيته، ويُنتظر منها كذلك التكفل بالمهام المتعلقة بشؤون البيت بقدر أكبر منه بكثير وهكذا، إلى آخر القائمة. (ويُنتظر من معظم الأبناء البكر التكفل بالمهام المتعلقة بشؤون البيت بقدر أكبر، كما تحدثنا بذلك سابقاً، لكن مع ذلك، سيكون هذا الأمر مبالغاً به جداً في حالة الأنثى البكر).

ونخلص إلى القول بعدم عدالة هذا الوضع، وهذا ما سيؤدي حتماً ضريبته، فهو سيتطور إما إلى التمرد كشكل من أشكال الانتقام، أو أن تكبر البنت مع الاعتقاد بأنه ليس من حقها الكيل لها بالمكيال نفسه الذي يُعامل به مع الآخرين

وأخيراً، ثمة نصيحة موجزة عظيمة لكما، إذا كنتما غير عادلين مع ابتكتكما البكر، وهي: «كفّا نهائياً عن ذلك!».

## 5 - تعلمّا كيف تَمزّان الأمر عبر دعاية غير فجّة

لنفترض أنكما التزمتما جيداً بالنصيحة المقدّمة كقاعدة ثالثة من هذه القواعد، وأصبحتما تعرفان بدقّة كل قدرات وإمكانيات ابتكتكما البكر ماري مارغريت، والتي كانت تتمتع بموهبة موسيقية كبيرة. وأنكما أردتما لها المشاركة في معكسر موسيقي لهذا الصيف، وأنها ليست على قناعة تامة بالأمر. فلجأتما إلى مقارنة الأمر لها بالقول: «ماري مارغريت، هناك معكسر موسيقي في هذا الصيف، وأنت ستذهبين، وهذا كل ما في الأمر».

قد تنجحان في هذه العبارات القاطعة المختصرة في دفعها لتحقيق رغبتكما، ولكنني أشك بأن تؤدي هذه المقاربة إلى غرس الرغبة عند ماري مارغريت لتنمي مواهبها الموسيقية. لذلك ما أقترحه عليكم أن تعلمّا تمرير المسألة في دعاية ناعمة وغير مباشرة، كأن يقال:

«ربما أنا منحازة عن الصواب، لكنني أعتقد أن لديك فعلاً موهبةً كبيرة جداً، وأتمنّى أن أراك تطوّرينها، مرة أخرى، إن ذلك مجرّد رأي شخصي، ولن أجبرك على الذهاب، لكن لديّ رغبة حقيقية أن تفكري بالأمر». وبكلمات أخرى، شجّعنا الطفلة على أن تتخذ قرارها بنفسها، لكن ساعداها على أن ترى أنه من مصلحتها المشاركة في المعسكر. وطبعاً من الممكن أن تفكر في الأمر وتقول: «ومع ذلك لا أريد الذهاب» لكن الاحتمال المرجح أكثر هو أن ترتأي أن المعسكر قد يكون فكرة معقولة بعد كل الاعتبارات الأخرى. والآن، ماذا لو أن ابتكتكما قصدت رأيكما في قضية معينة؟ يمكنني أن أستهل تعليقي بالقول إنها بادئ ذي بدء إشارة طيبة إلى حد ما، فالطفلة تحترم رأيكما، وإلا فإنها لن تقدّم بطلب ذلك منكما، ولكن مع ذلك إنه وقت ملائم للقيام بدعاية محدودة رشيقة الأسلوب:

«أولاً وقبل كل شيء، تذكّري يا حبيبتي أن ذلك مجرّد رأي شخصي...

وأنتي ربما أكون مخطئة، ولكنني مقتنعة بقوة أن هذا المعسكر الموسيقي سيكون فرصة جيدة جداً بالنسبة لك»...

ولنتأمل الآن بالذي سيحدث عندما تقول الأم عبارة مثل: «قد أكون مخطئة». فمن الوارد أن الابنة ستفكر تلقائياً: «ها، أُمِّي غير واثقة تماماً برأيها، يُستحسن أن أسأل شخصاً آخر غيرها»، وليس ذلك مهماً. بل إن ذلك يجعل لتأثيرك على قرارها قيمة أعلى فعلياً، فهو يبين أنك تبذلين جهوداً كبيرة لتتظري إلى الأمر من موقع الطفلة، وأنت لا تمارسين دور المستبد أو تحاولين إدارة شؤونها عوضاً عنها، وهي بالتأكيد ستقدّر لك ذلك. وستتولد لديها بالإضافة إلى ذلك شعور طيب عن حقيقة كونك كنت معها صريحة، ومقرّة أنك لا تعرفين كل الإجابات، وغير معصومة عن الخطأ. وسيرفع هذا النمط من الصدق والنزاهة من قيمة آرائك ولا يخفضها. لذلك إذا أردتما الوصول بابتكما البكر خلال سنوات المراهقة إلى بر الأمان، تذكّرا أن تشبّتا بأسلحتكما أمامه، واحفظا في ذهنيكما دائماً قواعد ليمان. ولكما أن تصدّقا ذلك أم لا، إنكما وابتكما البكر، ستبدآن حياة جديدة!

آه، نعم، ثمة نصيحة أخرى: لاتنسيا إعلام ابتكما البكر يومياً، أنكما تحبّانه.

#### صورة توضيحية رقم (8)

تذكّرا: أن المراهق العادي يُصاب بمعدّل نوبتين عاطفيتين فقط كل سنة، لكن المشكلة أن الواحدة منهما تدوم حوالي ستة أشهر.



## الفصل التاسع

### الإبن البكر بامتياز - الوحيد الأوحد

هل تعرفون ما يقال عن الأطفال الوحيدين؟، يُقال أنهم على الأغلب مُفسدون وأنانيون وكسالي وربما انطوائيون بهذه الدرجة أو تلك. وبأنهم كاحتمال شبه نهائي أمضوا جلّ أعمارهم، وهم مراكز ومحط اهتمام الآخرين، وأنه ربما كان يجري التعامل معهم وكأنهم عاجزون عن القيام بأبسط الأعمال فيتلقونها جاهزة، وأنهم يعيشون في كنف وفرة من الترف والرفاهية، حتى في أكثر العائلات فقراً. (وأنهم لا يجدون أنفسهم مضطرين لمشاركة الآخرين ألعابهم وأشياءهم الثمينة، شأننا جميعاً، لذلك ستبدو مقتنياتهم حتى لو كانت أقل قيمة من مقتنيات الآخرين، وكأنها أكثر قيمة).

إذا كان هذا هو حال الأطفال الوحيدين، فما الحال الذي يُتوقع لهم بعد أن يصلوا طور الرشد؟ وهل وصف (عقيمون) كافٍ لتوصيفهم بدقة؟

طيب، لنلقي نظرة على قائمة محدودة من أسماء أشخاص وحيدين تماماً، ولترّ إذا كان يثبت لنا في النهاية أنهم مطابقون لهذا التصوّر المختبري: فرانكلين د. روزفيلت، ليوناردو دافنشي، تشارلز ليندبرغ، تيد كوبرول، ستيف ألين، ت. بون ييكنز، كارل إكاهن، ديك كافيت، أنديرا غاندي. آه، يا لحفنة العقيمين هؤلاء!!!، يبدو أن عيائبي الأبناء الوحيدين مصيبون مئة في المئة، أليس كذلك؟؟

حسناً، أمل أن تكونوا قد عرفتم أنني لا أتفق مع هذا التصوّر المشوّه للأولاد

الوحيدين، والذي يقتنع به كما يبدو عدد كبير من الناس، فالأولاد الوحيدون بعيدون عن أن يكونوا من نوعية البشر التي اعتادت على تلقي الأشياء جاهزة، أو من يواصلون تلقي الخدمات من الآخرين طوال حياتهم، بل إنهم من أصحاب الإنجازات الرفيعة في كل حقول النشاط الإنساني. وفي الحقيقة، يميل الإبن الوحيد للتمتع بكل مواصفات الإبن البكر مضاعفةً حدّتها مرتين أو ثلاث مرات، ففي حين أن الإبن البكر منظم، نرى الإبن الوحيد رفيع التنظيم، وفي حين أن لدى الإبن البكر ميلاً لأن يصبح استكمالياً، فإن شهرة الإبن الوحيد كشخص استكمالي تجوب الآفاق، وإذا كنتم على يقين أن الإبن البكر ينجز عمله على الوجه الصحيح، فإن بإمكانكم أن تراهنوا على آخر قطعة نقود لديكم على الإبن الوحيد، ولن يخيب أملككم.

يمكنكم أن تتوقعوا نمطاً سلوكياً صارماً للإبن الوحيد، وعند ذلك ترون أن هناك أموراً سينأى بنفسه عن خوضها، وعلى سبيل المثال، تعرفون أنني أعيش في تكسون، وتتوقعون ربما أنني رابطٌ مصيري حتى الممات بمصير الفرق الرياضية لجامعة أريزونا. فأنا أحد أنصار ومشجعي فريق (القطط البرية) من جامعة أريزونا، ولأي شخص من جامعة ولاية أريزونا يلعب في فريق (شياطين الشمس). وهذا ما يجعلني أعتقد أن من الصواب تماماً دفع خمسة وعشرين دولاراً للحصول على لوحة مرخصة شخصية، أعلقها على السيارة، تقول: «ناصرنا جامعة ولاية أريزونا». وكان الهدف من حصولي عليها أولاً وقبل أي شيء آخر كونها تعمل على انتزاع البسمة من الآخرين، وخصوصاً عندما أسوق سيارتي في أرجاء تكسون وأنا أحب أن أرى الضحكة على وجوه البشر. وعندما أتوقف على الضوء الأحمر، أشخص ببصري إلى الخلف من خلال المرآة العاكسة فأرى أحد الأشخاص في السيارة الواقفة ورائي مشيراً إلى اللوحة المرخصة ويتسم لذلك، وأنا أحب رؤية مثل هكذا مشهد.

لكن الإبن الوحيد سينظر على الأغلب إلى لوحتي المرخصة، أو على الأقل حقيقة أنني أدفع خمسة وعشرين دولاراً إضافية لقاء حصولي على ذلك، ويتساءل: «ما الغاية من ذلك يا ترى؟». وطبعاً لا أقصد هنا القول إن الأبناء

الوحيدين يفتقدون حسّ الدعابة والمرح، لكن المسألة تنحصر في حقيقة أن دعابتهم ومرحهم سيكون على الأرجح تخطيطياً ومرتباً بطريقة منطقية أكثر من الآخرين، فهم ليسوا من طراز البشر الذين يمكن أن يقولوا: «... إلى الجحيم»<sup>(٥)</sup>، أنا مقتنع بفعل ذلك، للمتعة التي يحققها فحسب». فإذا شهدت سلوكاً عقوياً وتلقائياً من هذا الطراز من شخص أمامك، فأنا في شك كبير جداً من أنك تقف مع أحد الأبناء الوحيدين.

## المنزلة الرفيعة للإبن الوحيد

إن الأشخاص الذين أكنّ لهم أقصى حالات الإعجاب في هذا العالم هم مجموعة من الأبناء الوحيدين. أقول هذا وفي ذهني جيمس دوبسون، مؤلف الكتب الأكثر مبيعاً، والعالم النفسي صاحب مقولة «تركيز الاهتمام على العائلة». وفي حدود معلوماتي ليس هناك أي شخص قدم جهوداً أكثر من الدكتور دوبسون في سبيل تقويم صرح العائلة، فهو الرجل الذي كرّس جهوده دون كلل أو ملل في سبيل تحسين حياة العائلة. انظروا إلى أي قائمة للكتب الأكثر مبيعاً، وستجدون على الأغلب في كل واحدة منها كتابين أو ثلاثة كتب على الأقل من تأليف هذا الرجل العظيم، كتب في الأمومة والأبوة، وفي تهذيب النفس عند الأطفال، وفي معالجة العلاقات الزوجية.... الخ. وأفلامه تُعرض في الكنائس في كل أنحاء أمريكا، متجاوزة كل الحواجز الطائفية والعرقية. ومن المحتمل أن تشخصوا بأبصاركم الآن صوب جيمس دوبسون وتفكروا بينكم وبين أنفسكم: «كيف يمكن لشخص نشأ وترعرع كإبن وحيد أن يعرف شيئاً مفيداً عن التكوين الداخلي للعائلة الحديثة؟».

والحقيقة إنه يعرف الكثير جداً، وهناك أناس قد اتّبَعوا مشوراته في كل أنحاء هذا البلد، وبإمكانهم إخباركم كم هم مسرورون لفعلهم ذلك.

لقد استثمر الدكتور دوبسون السمات الخاصة لطبيعته كإبن وحيد في تحقيق دراساته، وهذا أحد الأسباب في تحقيقه لهذا النجاح، فهو مثقف ثقافة عائلة ومنظم وذو ضمير حي ورجل ثقة، وينحو لأن يكون متأكداً أن المشورة التي يمنحها في محلها تماماً، لأنه يعلم أن الناس يمنحونه ثقتهم.

وأنا أؤمن عالياً تلك المشورة العارضة التي تلقيتها منه في أحد الأيام غير البعيدة، عندما جمعتنا مائدة العشاء سوياً، هو وزوجتي وأنا. كان سؤاله لي: «جيم، إذا كان ثمة نصيحة عارضة يمكن أن تقدمها لي الآن، فما هي؟». وبدون أي تردد، شخص يبصره صوب ساند وقال: «كثيرين... قبل أن تشرع بأي عمل، وأياً يكن هذا العمل، ادرس الأمر مع ساند أولاً».

وتلك مشورة جيدة ومفيدة بالنسبة لأي رجل مقترن بامرأة ذكية وسديدة الرأي، بيد أنها مشورة نافعة ومفيدة على نحو مضاعف بالنسبة لرجل مثلي، أخ أصغر طرقي العود، ومقترن بامرأة مولودة بكرة وذات عقل راجح! وهذا النوع من المشورات السديدة، عادية جداً من ابن وحيد ذي خبرة عظيمة مثل جيمس دوبسون.

وهناك أبناء وحيدون آخرون كُثُر استحقوا احترامي وإعجابي ومن بينهم الشخصيات التلفزيونية ستيف آلن، وتيد كوبل وديك كافيت من شبكة A.B.C (وإذا لم تكن من قاطني ولاية أريزونا، فإنك على الأغلب لم تسمع بـ بات مكماهون، لكننا نحن المقيمين في هذه الولاية نعرف بأنه أحد أفضل الشخصيات الإذاعية والتلفزيونية العاملة، والرجل معجزة حقيقية في قدراته، وهو أحد الأبناء الوحيدين).

وأحد كتّاب المقالات الصحفية المفضّلين لدي هو داريل سيفورد، وهو ابن وحيد كتب كتاباً ممتازاً عن الموضوع نفسه، بل إن عنوان كتابه «الإبن الوحيد». وهكذا يمكنك أن تشهد بنفسك أيضاً، أن كل تلك الانتقادات الشائعة عن الأبناء الوحيدين، حائدة عن جادة الصواب. رغم أن الدكتور ألفريد أدلر الذي وضع الأسس الأولى للمدرسة في علم النفس تشدّد على أهمية ترتيب الولادة، والذي اقتبسنا عنه في مكان سابق من هذا الكتاب. كتب بعض العبارات القاسية بحق الأبناء الوحيدين، فلقد قال: «يواجه الإبن الوحيد مصاعب حقيقية في كل الجوانب المتعلقة باستقلاليته، وسيبرهن عاجلاً أم آجلاً عن أنه شخص عقيم في الحياة».

أنا آسف يا (ألفي) لكن: «ليس ضرورياً أن تجري الأمور كذلك». فأن يكون الإنسان ابناً وحيداً يعني أنه سيواجه مشاكل معينة خاصة، لكنه سيحوز أيضاً على جوانب قوة وقدرات خاصة في شخصيته.

## مشاكل خاصة بالأبناء الوحيدين

ستتحدث لاحقاً عن جوانب القوة والمكاسب المستمدة من كون المرء ابناً وحيداً، لكن دعونا أولاً نزيح الأثاث<sup>(٥)</sup> الرديء من طريقنا.

### 1 - أنا درّة ثمينة:

أذكرون ما قاله يوماً و.س. فيلد، عن أن من يكره الكلاب والأطفال ليس سيئاً بالضرورة؟ وأنا بالتأكيد غير متفقي بالرأي مع هذا الرجل المضحك، لكن إذا كان هناك شخص كاد أن يغيّر رأيي في هذا الخصوص، فهو طفلة صغيرة اسمها روث آن. فهذه البنت ذات الثمان سنوات من العمر كانت بتأ رهيبة بكل معنى الكلمة، ولا بد أنها تظن أن تلك النظرية التي تقول إن كواكب مجموعتنا الشمسية تدور حول الشمس غير صحيحة بل إنها، وبقدر ما يتعلق الأمر بشؤونها الخاصة، تدور حولها هي. وتعود المشكلة بالأصل إلى أن والديها جعلوا الأمر ولزمن طويل جداً يبدو على هذا النحو، فلقد كانا يلبيان لها أي شيء تريد، لكنها كانت بمرأ بلا قرار، ولسان حالها دائماً يقول «هل من مزيد»، دون أن تشبع أبداً. ورغم أنهما اعتادا على الاجتهاد والخنوع الدائم لتلبية طلباتها التي لا تنتهي، إلا أن أدنى نية من قبلهما لرد أحد طلباتها مهما كان تافهاً، تُواجه بنوبة غضب صاخب من النوع غير المألوف، تستحق بجدارة إدخالها في سجل غينيس للأرقام القياسية.

- «أنا آسفة يا روث آن، لم يعد بوسعك تناول المزيد من شراب الصودا، فلقد شربت حتى الآن ما يكفي».

- «آه، أنت بخيلة جداً عليّ، وأنت تمنعي عني كل شيء، أنا أكرهك!». إلى آخر قاموس كلمات الشكوى المماثلة.

وطبعاً كانت روث آن بتأ وحيدة. وهل تعرفون السبب الذي يجعلني

أعتبر ذلك طبيعياً؟! لأنه لو قُدِّر لي أن يكون لي بنت مماثلة لهذا الكائن الشيطاني الصغير، فلن أكون مستعداً للحصول على كائنات أخرى من الطراز نفسه. حتى التفكير بذلك قمين بأن يسبب لي، ومنذ الآن، حساسية جلدية! لكن هل تعلمون أن والدي روث آن بذلا الغالي والرخيص وعلى مدى عشر سنوات للترويق في إنجاب طفل، إلى أن وُقِّعا أخيراً في إنجابها، وليس ذلك فقط، بل إن أمها عانت من عمليتي إجهاض قبل ولادتها. فهل بوسعكم تخيل حالهما، لحظة نجاحهما في الحصول أخيراً على هذه البنت التي لا تقدر بثمن، إثر عمليتي الإجهاض هاتين!

ولاعجب إذن أن يبدأ في عملية إفساد تلك البنت الصغيرة المسخ منذ اللحظة التي غادرا بها المستشفى\* فهذا كله مفسر، لكنه غير مبرر إطلاقاً، لأنهما في الحقيقة وهبا الحياة لشبح شيطاني. وكما لو أنهما انتقلا إلى ولاية ترانسلفانيا، وقصدا رجلاً يدعى الدكتور فرانكينشتاين<sup>(\*)</sup>، الذي وصل عدداً من الأقطاب الكهربائية إلى صدغ بنتهما في شبكات لا تعرف بدايتها من نهايتها.

وعندما أتى بها والداها إلى العيادة، كان واضحاً أنهما يأملان بأنني سألوح فوق رأسها بعضاً سحرياً، أو أرش عليها قليلاً من المسحوق العجائبي لأغير سلوكها بين ليلة وضحاها، لكن هذا ليس ممكناً بالتأكيد. فالحل الوحيد هو أن يأخذ والداها جانب الصرامة معها، وهذا ما لم يكونا مهتمين لممارسته بعد.

واضطرت لأن آخذ الأمر بجدية معها. ولم يمضِ وقت طويل حتى لاحظت تلك (السيدة) الصغيرة أنني لست بصدد التعاطي معها بالطريقة نفسها

---

(\*) - (فرانكينشتاين) اسم لفيلم ظهر منذ عام 1931 ، في سيناريو مقتبس عن رواية لماري شيلي، وتوالى ظهور بطل الفيلم في أفلام عديدة. وتتلخص قصة الشخصية بالتالي: طبيب شاب سويسري نشيط اسمه فيكتور فرانكينشتاين، تموت والدته وهي تلد ابناً آخر... فيتولد لديه هاجس الانتصار على الموت، ويتطور هذا الهاجس فيعمل على جثث عديدة، ويأخذ من كل واحدة عضواً، ثم يعيد بناء كائن كامل من هذه الأعضاء، ويخلقه ككائنه هو، والذي يأتي مخيفاً ومخلوقاً مسخاً مربعاً، ولكن كان، ضد كل التوقعات، كائناً حياً. م.

التي يتحملها بها والداها. وطبعاً لم توقّر في البداية أي مظهر من مظاهر الفظاظة والأنفة يُمكن لطفل أن يظهرها. لكن حالما رأت أن ذلك لم يرهبني، سكّنت وأصبحت مطواعة أكثر.

والحقيقة أن الحالة التي بين أيدينا الآن، تستدعي مبدئياً تغييراً في سلوك والدي الطفلة وليس الطفلة نفسها. إذ عليهما التوقف فوراً عن الإذعان لها. وإذا حدث وانفجرت في إحدى نوبات البكاء والصراخ، فماذا ينبغي عليهما أن يفعلوا؟ إذا كانوا في مكان عام، وبدأت بالنحيب والشكوى للحصول على غرض معيّن، نصيحتي لهما أن يتركاها تصرخ كما يحلو لها.

- «لكن ماذا سيظن الناس؟».

- «إذا حدث ونظر إليكم أحد المارة، حسبكما التلّقت حواليكما، مع هزّ رأسيكما، والقول: أترى كيف يتصرف بعض أولاد الناس؟»، وعندئذ سيظن أنها في عهدتكما من قبل أناس آخرين!«.

ولم يكن يسيراً على والدي روث تغيير أسلوبهما معها. فرغم أنهما بذلا جهداً صادقاً لعدم الاستسلام لها، إلا أنهما واصلتا الوقوع في ذلك. لكنهما نجحا مع مرور الوقت بالتزام سلوك أكثر صرامة، بعد أن تعزّزت قناعتهما بأنهما إذا كانا يحبان ابنتهما حقاً، فأفضل ما يمكنهما عمله من أجلها هو تعلّم كيف يقولان كلمة لا، ثم الإصرار على هذه الكلمة حتى لو بكّت وانتحبت وصرخت وخبطت قدميها على الأرض، فالجواب ينبغي أن يظل لا! وطبعاً لم يكن من المتوقع تغيير حصيلة ثمان سنوات من الإفساد بين ليلة وضحاها، بيد أنها بدأت أخيراً في الدخول شيئاً فشيئاً في مرحلة جديدة. ويكاد المرء لا يصدق اليوم أن تلك الأميرة اللطيفة الصغيرة كانت صورة طبق الأصل عن السيدة فرانكينشتاين!

لا يتورّع والدا (الدّرة الخاصة) عن بذل كل ما يوسعهما بهدف إبقائها أكثر قرباً منهما، وتتلخّص الرسالة التي يوجّهانها له بـ «نحن صديقاك الوحيدان الحقيقيان، والشخصان الوحيدان اللذان يمكن لك منحهما ثقتك»، فهما يحبان ابنتهما جداً إلى حد أنهما يخشيان أن يشاركهما في ذلك أي شخص آخر.

ماذا يمكن أن يصبح هذا الطفل بعد أن يكبر؟ إما أن يصبح صبي الماما المدلل، والذي يظل أعزباً ومقيماً في البيت رغم بلوغه سن الأربعين، أو أن يتمرد ويقطع كل الوشائج التي تربطه بوالديه، وسواءً اتخذ هذا المنحى أو ذاك، فإن الطفل الذي يُحاط بمثل هكذا أجواء، مآله الضياع بالتأكيد.

يقول داريل سيفورد: «تعتبر الأمومة والأبوة الوظيفة الوحيدة التي تقتضي أن يتعد من ممارستها شيئاً فشيئاً عن العمل، وذلك بتهيئة وإعداد طفلكما لمغادرة البيت حين يحين الوقت للشروع في حياة خاصة مستقلة فإذا كان هذا هو المحور المركزي لوظيفة الأمومة والأبوة الناجحة، وأنا أعتقد بذلك حقاً، فعندئذٍ يترتب علينا القول إن عدداً كبيراً من الآباء لا يؤدي وظيفته على أكمل وجه، وذلك لأنهم يشجعون أبنائهم على البقاء تابعين لهم ومعتمدين عليهم، سواءً بوعي أم لا، ولأنهم يتابعون ذلك إلى ما بعد مرور وقت طويل على كونه ملائماً أو صحيحاً.

وتتزايد احتمالية حدوث هذا الأمر على نحوٍ مأساوي مع الإبن الوحيد لأن الوالدين سيواجهان لحظات قاسية لحمله على تغيير نمط حياته والانفصال عنهما، فالطفل غالباً جداً عليهما مما يدعوهما للإبقاء قريباً منهما، والحفاظ على الوحدة المثلثة الأطراف. وما يحزّ في النفس أن ينتهي هذا المخطط الذهني عند مرحلة معينة، وفي معظم الأحوال، هذا إذا لم نقل بشكل دائم، إلى عكس النهاية المبتغاة ويخسر الجميع، إذ يشعر الطفل وكأنهما بدأ بالتلاعب عليه، وبالغيت من ذلك، ويشعر الوالدان وكأنهما ضحية نكران للجميل، وسوء التقدير»<sup>(2)</sup>.

وهذا يماثل ما أدعوه «الحب الخائف»، إذ تستحوذ على الوالدين رغبة مستميتة لرد أي أذى أو ضرر خبيث عن طفلهما، إلى الحد الذي ينتهي بهما إلى خلق شخص قاصر عاطفياً. والحقيقة أن كل الأطفال يرتكبون أخطاء بين وقت وآخر. ويتعثّر أي طفل عند خطوة معينة من خطواته، ويتعرض أي طفل لأن تنهرس أصابع قدميه أو يُصدم عاطفياً. ولكن مهما كان هذا مؤلماً للطفل ولتجربته الغضبة، ومهما كان شاقاً على الأمهات والآباء الابتعاد بأنفسهم جانباً أثناء رؤيتهم لحدوث ذلك، إلا أن ذلك إحدى المسائل الحيوية لنضوج الطفل.



## 2 - المستقبل

كلّا، إن الأمر لا يتعلق بموقع أحد أعضاء فريق جامعة أريزونا في كرة القدم الأمريكية، بل إن «المستقبل» طفل يأخذ ويأخذ ويأخذ إلى الدرجة التي تجعل ذلك كل ما يعرف تحقيقه. وإذا أعلم بأن الكتاب المقدس يقول بأنه مبارك من أعطى أكثر ممن يأخذ، فإنه لن يأتي بشيء سوى بأن يرمق الآخرين بنظرة مجردة من المعنى وبوجه خالٍ من التعبير، فهو لن يعرف عن أي شيء يجري الحديث.

ويمتّ (المستقبل) بصلة قريى لـ (الدرة الثمينة)، مع فاروق جوهرى أولي بأن الأول (ظرف طبيعي) أكثر بكثير من الثاني للأبناء الوحيدين. إذ تذكرون أننا تحدثنا سابقاً عن الإزاحة عن سدة العرش، وهذا يحدث عندما يُنتهى الطفل عن عرشه من قبل أخ أو أخت أصغر منه، فتقلب حياته عليها سافلها لبرهة من الزمن، إلى أن يتعلّم المشاركة في اهتمام ورعاية الوالدين وفي ألعابه، وعلى المنوال نفسه في غرفته، في حين لا يُنتهى الابن الوحيد عن العرش إطلاقاً، ولذلك لا يتعلّم بالدرجة نفسها من السهولة عملية التشارك، بل إنه قد يذهب إلى مدرسة الحضانة، ويتأزّم هناك من مواجهته لحقيقة أن الأطفال الآخرين يرغبون أن يلعبوا في ألعابه، أيضاً!

وسرعان ما تستحكم بالأهات والآباء تمنّ لديهم ابن وحيدٌ عادةً العطاء الدائم والمفرط، سواءً في عيد الميلاد أم عيد ميلاده أو أي مناسبة أخرى يمكن أن تخطر على البال. إذ يُعطى الطفل كل ما يمكن أن يخطر على باله، وينال دوماً ما يريد من الأشياء النفيسة، إلى الحد الذي يملكه الضجر وفقدان الرغبة في ذلك. - «أنظر يا تومي، صاروخ ارتدادي نفث ثلاثي المراحل، جاهز لدخول المسابقات!». -

- «نعم.... (يتشاءب).... شكراً».

ويحب معظم الأطفال كعكة عيد الميلاد والمربطات، لكن ينبغي عليهما ألا تستجيبا لرغبتهم في ذلك، كلّا عنّ على بالهم، فأنتم تعرفون أن حشو الأطفال بكميات كبيرة زائدة عن الحد الطبيعي من هذه الأشياء عديمة القيمة لها أثر ضار عليهم. لكن يبدو أن عدداً كبيراً جداً من الأهات والآباء لا يدركون أن

الأطفال لديهم قدرة كبيرة على تلقّي عددٍ كبير جداً من الأشياء التي يقدمها الآخرون، سواء كانت ألعاباً أم أشرطة تسجيل أو كتب أو أي شيء آخر.

بادئ ذي بدئ، من الضروري تعليم الأطفال التشارك مع الآخرين، ولذلك تحتل مسألة إقامة الأولاد الوحيدين لعلاقات صداقة مع من هم في جيلهم أهمية استثنائية قصوى... وأيضاً لتعليمهم ال - نخذ وهات - في علاقاتهم الشخصية. وليس أمراً صحيحاً للطفل ملازمة والده طوال الوقت، أو المكوث أمام جهاز التلفزيون لساعات طويلة، حتى لو كانت العروض المقدمة عروضاً تربوية.

ومن الضروري لكما أن تعرفا أنه حتى لو استفضتما في الحديث معه عن أهمية التشارك مع الآخرين، أو دفعتماه لأن يصغي لأحاديث السيد روجر عن معنى المشاركة، فإنه لن يستوعب الأمر تماماً ما لم يمارسه واقعياً في مسألة معينة أو أخرى. ربّبت مرة إحدى الأمهات دعوة لصبيين صغيرين لمشاركة ابنها في اللعب، إلّا أنها لاحظت بعد مرور قليل من الوقت أنه كان يستأثر بجهاز لعبة الفيديو لنفسه بطريقة أنانية، ويتمنّع عن مشاركة الطفلين الآخرين. لكن إثر إلحاح الأم عليه سمح للطفلين الآخرين على مضض باللعب بدورهما. ولم يمر وقت طويل حتى شمعت الضحكات وصيحات الفرح والهتاف صادرة عن كامل جوقة الأطفال، بعد أن كانوا قابعين في السابق في صمت مطبق بلا أي صوت. فماذا حدث؟ لقد تعلّم ابنها أهمية ومتعة التشارك مع الآخرين، وبالإثارة الجديدة التي توفرها رؤية ما يمكن أن يحققه الصبيان الآخرون، ثم الدخول في تنافس معهما، وذلك مقابل الاقتصار على ممارسة اللعب لوحده وعلى انفراد. وثمة أمر آخر يقتضي أن يتعلّم هكذا أطفال، وهي أن الأغراض تتطلب عموماً العمل والتضحية ليكون المرء جديراً بالحصول عليها. إذ يصل الطفل الذي يحصل على أي شيء يريد جاهزاً من الآخرين، إلى افتراض خاطئ، وهو أن الأمور تجري دائماً على هذا المنوال، مما يؤدي به إلى توريط نفسه في مواقف تنبيه فظة له بقرار ما هي ضرورية!

- «بابا، هل يمكنني شراء تلك المجموعة من بطاقات كرة القدم؟».

- «طبعاً يمكنك ذلك، إذا كان لديك مالا».

- «آه.... لكن.... أنظر، إن ثمنها دولار، وأنا لأملك إلا خمسة وعشرين سنتاً».

- «لكنك تحصل على مصروف أسبوعي يعادل ثلاثة دولارات وخمسين سنتاً».

- «أعرف ذلك، لكنني صرفته، ولديّ رغبة حقيقية في الحصول على تلك البطاقات، ما رأيك بتسليفي المبلغ اللازم، وسأردّه لك من مصروفي القادم؟».

- «أنا آسف يا ولدي، لكن يترتب عليك في هذه الحال الانتظار حتى تحصل على مصروفك القادم، وأنتِذ، وفي حال استمرار رغبتك بالحصول عليها، فسيكون بوسعك العودة ثانية إلى المحل وشرائها».

وينبغي على الأب هنا عدم الانزياح شجرة عن موقفه، رغم الخسارة التي سيتعرض لها على صعيد شعبيته، على الأقل ليس في الوقت الراهن، إذ سيرد في خاطر الطفل حتى لو لم يصرح بذلك جهراً على أن والده يتمتّع بـ «خُلُق البخل». آه، لو عرف فقط كم كان شاقاً عليه إتيان ذلك الموقف! وكم هو ضروري.

### 3 - الغيتار وخاطف الأصدقاء

من الممكن أن يواجه الطفل الذي لم يتعلّم كيفية التشارك مع الآخرين في ألعابه، مصاعب في علاقاته الشخصية أيضاً، فمن الممكن أن تدفعه غيرته الطفلية إلى ضرب شكل من أشكال الحراسة على علاقاته مع الأصدقاء (الخلّص)، ساعياً إلى التيقّن أن لأحد آخر غيره يحاول انتهاك مجاله الحيوي. أو ربّما يغدو، في الوقت نفسه، ما سيدعوه الأطفال الآخرون كـ (خاطف - أصدقاء)، ذلك الطفل الذي يسعى دائماً لإبعاد أصدقائهم عنهم.

جاء بريان، البالغ الثامنة من العمر، في أحد الأيام إلى البيت، وأعلم أمه أنه «يكره» لاري.

- «لكنني كنت أظن أن لاري من أقرب الأصدقاء إليك».

- «من الآن فصاعداً، لا!». قال بريان ذلك مبرزاً شفته السفلى إلى الأمام بعزم ليبيّن أنه يقصد ما يقول.

- «لماذا؟ ماذا حدث؟».

- «إنه أبدى رغبة في اللعب مع جوستين الآن».

وقدّرت الأم أن بريان كان قد قصد بيت لاري بهدف اللعب معه، وبأن لاري قال له بأنه يفضل اللعب مع جوستين اليوم. ومن الطبيعي أن يجرّح حادث كهذا مشاعر بريان. لكن تبين لها بعد تقصُّ أكثر دقّةً لما جرى أن الأمر لم يكن كذلك من الناحية الفعلية، فكل ما رغب لاري فعله، هو دعوة جوستين للمشاركة في لعبة الأولاد شرطة وحرامية. أما بريان ذلك الإبن الوحيد والذي يحمل بعضاً من صفات (المستقبل)، فلم يكن يحمل أي ضغينة تجاه جوستين، لكنه ليس على استعداد لـ (مشاركة) لاري مع أي شخص آخر، ونظراً إلى رغبة لاري بالتودّد لجوستين عبر دعوته للمشاركة في اللعب معهما، على أنها انتهاك لحزّيه، وغداً الآن (بكره) لاري.

ولحسن الحظ عرفت أم بريان ما جرى فعلياً على أرض الواقع، وتمكّنت من إجراء حديث مع ابنها عن أهمية المشاركة مع الآخرين، وخططت في ذهنها أيضاً على أن تهيء لابنها فرصاً إضافية أخرى للمشاركة، وأن تبين له كذلك أهمية ذلك من خلال نشاطاتها الذاتية الخاصة بها.

ولابدّ لي من الإقرار الآن، بأن كل أشكال وألوان الغيرة حاضرة في العلاقة بين الأطفال الصغار، فأنا لا أقصد هنا القول بأن إبداء ابنكما لمظهر من مظاهر الغيرة أو إبداءه لتردّد تجاه مشاركته الآخرين في أصدقائه الخالص، إنما هو دلالة على مشكلة معيّنة، لكن إذا كانت هذه الغيرة من نمط اللازمة المتكرّرة باستمرار في حياة ابنكما، وإذا بدا أن ابنكما لا يحتفظ في الوقت الواحد إلا بصديق مقرب واحد. أو إذا كان يستبدل باستمرار (صديقاً خاصاً) بآخر، فهناك حاجة في هذه الحال للشروع في تقويم الأمور، تماماً كما تصرّفت والدّة بريان.

ولنعالج الآن كيفية التصرف مع (خاطف أصدقاء)، إذ يختلف هذا الطفل بدرجة طفيفة عن المستقبل في أنه يبدي رغبة في مشاركة الآخرين في إقتناء

الأشياء المادية، ولكن ليس ذلك إلا وسيلة لجذب وخطف الأصدقاء.

بوني طفلة في الحادية عشر من عمرها، اعتادت أمها على استراق السمع على محادثاتها الهاتفية والتي تجري بشكل مشابه لما يلي: «إذن ما هي مشاريعك اليوم؟ أه، حقاً؟ طيب، لماذا لا تمرين لعندي بدلاً من ذلك؟ لقد صنعت أمني للتو كعكاً محلي بالشوكولا، وسأدعك تستعيرين شريط التسجيل الجديد عندي. أكيدا، هي؟ لا، لا أبداً، نحن لسنا في حاجة إليها، أنت وأنا فقط، موافقة؟».

تحاول بوني على الدوام تقديم رشوة للبنات الأخريات ليصبحن صديقات لها، وفي هذا بحد ذاته ما يكفي من الدلالات السلبية، بيد أنها تستخدم رشواتها أيضاً لسرقة الصديقات وإبعادهن عن البنات الأخريات، وهي لاتفعل ذلك على المكشوف إلى الحد الذي تقول:

«سأعطيك عشرة دولارات إذا توقفت عن صداقتك لواندا»، لكنها تقترب من هذا الموقف كثيراً. وهي لاتبدي أي استعداد للمشاركة معها في صديقاتها، حتى للحظة واحدة:

«أنت لاترغبين بدعوة جودي لمصاحبتنا، أليس كذلك؟ حسناً، إذا أتت، فلن أحضر!».

والمشكلة في هذا النمط من السلوك ليس فقط في أنه يتضمن صلافة وأناانية، بل أيضاً لأنه يؤدي إلى نتيجة معاكسة للمبتغاة، أكثر مما يؤدي غرضه. إذ يقال لها:

«إذن في هذه الحال، إذا كنت لاترغبين في المجيء فلست مجبرة على فعل ذلك، وسنقضي جودي وأنا وقتاً ممتعاً معاً بدونك». ويصل الأمر إلى الحد الذي تفتقد عنده أي إمكانية على الرشوة لاستمالة صديقة، وهي لاتجيد أي طريقة أخرى للوصول إلى ذلك، فيسيطر عليها شيئاً فشيئاً شعور متزايد بالعزلة والوحدة والانقباض.

أخبرت بوني أمها، والدمع يترغرج في عينيها: «لاتحبتي البنات الأخريات، وأنا أعرف السبب».

فجرى حديث مستفيض بين بوني وأمها، أشارت فيها أمها إلى بعض الأغلاط التي كانت ارتكبتها، واقترحت لها طرقاً تمكّنها من تغيير سلوكها. ولم يكن أمر التغيير سهلاً بالنسبة لبوني، لكن لم يكن من مفر أمامها على موافقة أمها بأنها لم تكن تحقق أي نتائج مُرضية في كل الزمن الفائت، وأنها لم تترك أي انطباع إيجابي عند أي كان. إضافةً إلى أن الصديقات لسن حقاً صديقات إذا كان كل ما يرغب فيه في الواقع قطعة كعك محلّلة بالشوكولا، وفرصة لاستعارة الشريط الأخير لسندي لوبرا. ووافقت بوني على أن تحاول التخلّي عن غيرتها ونزعتها الاستفلاكية، وحتى لو راودتها مثل هذه المشاعر، فإنها ستبدّل قصارى جهدها لكتبها داخلها، وأنها ستختبر قدرتها على أن تكون صديقة أكثر من شخص واحد في وقت واحد، وتتيح للناس الآخرين الدرجة نفسها من الحرية.

وكانت البنات الأخريات مراتبات من سلوك بوني في بادئ الأمر، ولا يمكن لأحد لومهنّ على ذلك، فهن يتساءلن عن حقيقة دوافعها الراهنة. أما بالنسبة لبوني نفسها، فلم يكن أمر التغيير بالنسبة لها بكل تلك السهولة، بل إنه تقدّم تدريجي بطيء وطويل إلى الحد الذي يمكنها عنده استنشاق أنفاس الراحة، واعتبار نفسها جزءاً أصيلاً من مجموعة وتلقّت بوني طوال هذه الفترة، العون من أم صبورة إلى أقصى حد، إذ كانتا في الواقع تجريان حديثاً مسهباً في نهاية كل يوم حول ما كان قد حدث في ذلك اليوم. وكانتا قادرتين خلاله على التواصل بينهما بفاعلية، فلم تكن بوني تخشى إشراك أمها في معرفة مشاعرها الأكثر عمقاً، لأنها تعرف أن أمها لن تتوانى أبداً عن تفهّم ذلك، وكانت تحرص أيضاً على التفكير والتمعّن في كل نصيحة تقدمها لها أمها، لأنها تعرف أن هذه النصيحة بغرض المساعدة دائماً. وهكذا كانتا تتداولان فيما بينهما في كل نجاحات وإخفاقات بوني في علاقاتها مع البنات الأخريات، إلى أن صارت بعد فترة معينة من الزمن تعود بدرجة أقل فأقل تكراراً إلى أساليبها السابقة، وبدأت البنات الأخريات يتقبّلنها، وكوّنت لأول مرة في حياتها بعض العلاقات الصداقية الحقيقية، صديقات لا يحنّنها مقابل ما سيحصلن منها لقاء ذلك. بل إن موقفها من هذه المسألة تغيّر أيضاً، بعد اكتشافها الحقيقة المتضمنة في القول المأثور القديم، إن الأسلوب الوحيد لكسب صديق هو أن تكون صديقاً.

## 4 - المُستَهْدَف

إن الإبن الوحيد الذي يظن بأنه مركز الكون، يجسّد في سلوكه إلى جانب مشكلة كونه متمحوراً كلياً حول ذاته، عقدةً أخرى وهي أنه في حال حدوث أي أمر سيء، فإنه سيفترض آلياً أنه مستهدف في ذلك. ويحدث ذلك معه لسببين: (1) لأنه ينظر إلى نفسه باعتباره مركز كل ما يجري.

(2) لأنه كان في مأمن، وبعيداً عن أي شكل من أشكال قساوة الواقع في سنوات حياته الأولى. لنفترض أن المعلمة حبست كل طلاب صف روني في القاعة خلال فترة الاستراحة، فسيلازمه خلال ذلك شعورٌ بأنه هو الشخص المتعرّض للأذى الأشد بين جميع الطلاب، على الرغم من معرفته أن جميع رفاقه الصغار معاقبون معه. لماذا؟ لأنه الشخص الأكثر أهمية في الصف!

وإذا منحته المعلمة علامة ضعيف في مادة الإنشاء والتعبير، فإن ذلك حصل لمجرد أنها لاتبته، وليس لعدم إنجازه الوظيفة جيداً. ويمكننا القول بكلمات أخرى، إنه يضخّم الأهمية التي ينتمّع بها في كل شاردة وواردة، ويعتقد أنه الشخص المُستفرد بتعامل جائر بحقه. وهو يزرع عندما تمضي الحياة على نحو غير عادل، وهذا غالباً ما يحصل، تحت وطأة اكتئاب نفسي وشعور بالمرارة، مردداً «لماذا فعل الرب ذلك معي؟» «كيف يمكن لهذا الأمر أن يحصل معي؟!»، .... الخ. وأنا على يقين أننا جميعاً تقريباً ونجهد أنفسنا أسئلة كهذه بين وقت وآخر، لكن (المستهدف) لديه ميل لأن يوجهها مرات أكثر بكثير من معظم البشر.

هناك ضرورة لأن يدرك المستهدف بأن الحياة ليست دائماً درياً مفروشاً بالورود والرياحين، بل إن مسار حياة أي امرئ يحوي عدداً من المطبات والأماكن الوعرة، وأتذكّر هنا أحد الأفلام السينمائية المعروضة حديثاً، اسمه (الطريق إلى أمريكا)، مثل فيه إدي مورفي دور أمير في أحد البلدان الأفريقية الأسطورية. وكان في الفيلم يُرافق منذ لحظة نهوضه من الفراش في الصباح، وأينما سار بكوكبة من البنات، يرشّ في طريقه تويجات الزهور. وعندما اعترض على التعامل معه بهذه الطريقة، أتبه والده على ذلك وأخبره أنه من غير اللائق به كأُمير إلا السير الدائم على بساط من تويجات الزهور.

وليس ذلك بالتأكيد سوى هراء سخيف، ولكنه يذكّرني بأن عدداً كبيراً من الأمهات والآباء يقفون هذا الموقف، ويذلون الغالي والرخيص للتيقن من أن أولادهم الأعزاء «يسIRON دائماً على بساط من الزهور» ولكن ما هكذا تُشَقُّ دروب الحياة. إذ أن الأقدام ولأي سبب كان، ستطأ حافيةً أرضة الطرق يوماً ما، وسيجد الإنسان عندها أن الشمس تصب حممها على هذه الأرضة أو أنها وعرة، أو مليئة بالأحجار المستنة. أما أولئك الأسوياء في سلوكهم فيعرفون أن تلك الأخيرة تحدث عفواً في كل زمان ومكان - فركز المثلجات يذوب قبل أن يلتهمه المرء، ويحدث أن يمزق الإنسان الورق بإصبعه عفواً، أو يلاطم المرء على عمل لم يفعله - وعندما تحدث هذه الأمور، فإن هذا لا يعني أن الحياة (أو أي شخص كان) بصدد النيل منهم.

## مزيد من المساعدة للأبناء الوحيدين

من الممكن لآباء وأمّهات الأبناء الوحيدين القيام بعدة إجراءات خاصة أخرى، ليضمنوا لأولادهم مسيرة نضوج عقلي سوية ومستقرة في شخصياتهم الفردية.

### 1 - ضِعاً حِداً أقصى لكل شيء.

- يبدو لنا الأمر وكأنه شديد البساطة، بيد أنه ليس دائماً بالسهولة التي يبدو عليها.

- «تيمي، حَلَّت الساعة التاسعة، وحقان وقت ذهابك إلى النوم!».

- «آه، ماما.... ألا يمكنني السهر لساعة أخرى؟ لديّ رغبة حقيقية بمشاهدة هذا الفيلم!».

- «لكن، يا ابني، أنا.....».

- «بابا، أيمكنني ذلك، رجاء، رجاء....».

وهنا ينظر كل من الأم والأب إلى بعضهما، مع احتمال أن يكون لدى الأم رغبة بأن يخطر الأب ابنه بعدم الموافقة، أما الأب فغير متيقن مما تريده الأم،



ويحاول أن يقرأ في ملامح وجهها ما تريد - إلا أنه ورغم مرور خمس عشرة سنة على زواجهما، مازال غير قادرٍ على إتقان ذلك جيداً. ولذلك قال الأب:

«طيب، ربما يُفترض مني أن أوافق... لهذه المرة فقط».

أسمعتم الرجل وهو يقول: «لهذه المرة فقط؟» وما يعنيه على الأرجح هو: «لهذه المرة فقط هذه الليلة»، ومن ثم مرة أخرى فقط في مساء الغد، وهكذا دواليك. في حين ينبغي على الأبوين وضع حدود قصوى خاصة لكل أمر، ثم يتمسكان بها، وأنا لأقصد هنا بأن تحولاً يتكلم إلى مخفر شرطة، حيث تجري كل القضايا وفق دليل صارم، بل يُفترض منك إتيان ذلك بمرونة. وأن تتداولوا فيما بينكما على انفراد سياق تطوّر الأمور، والذي يمكن أن يجري على النحو التالي:

«ميعاد نوم تيمي في الساعة التاسعة، لكن من الممكن أن نسمح له بين وقت وآخر بالسهر لوقت أكثر تأخراً، هذا إذا كان لديه مبرر هام لذلك، لكن ليس أكثر من مرة واحدة في الشهر قطعاً».

ويجب أن لا يغيب عن بالكما، أن هذه المعالجة لا تتعلق من الناحية الفعلية بموعد ذهاب الطفل إلى فراشه فقط، بل من الضروري له أن يعرف الحدود القصوى التي حدّدتها له في كل مجال من مجالات الحياة، وبأنكما جدّيان في التعامل مع هذه الحدود.

## 2 - ربّاً أولوياتكما ترتيباً سوياً

هل يحتل ابنكما المقام الأول في حياتكما؟ إذا كان هذا هو واقع الحال، فإن أولويات حياتكما الزوجية ليست في حالة سوية! إذ أن المفروض في كل منكما أن يضع قرينه الزوجي في المقام الأول من حياته، والطفل في المقام الثاني. واعتقد أن قسماً منكم قد تأذت مشاعره حين يسمع مني هذا، لذلك أسارع إلى التوضيح أنني لأقصد القول هنا بأن تشدّا الرجال إلى حفلة راقصة، تاركين ابنتكما وحيدة في بيت غير مُدقّق! بل كل ما أقوله هنا هو أنه يتعيّن على كل

منكما وضع قرينه الزوجي في المقام الأول من أولوياته. وثمة قول رُدد مراراً وتكراراً، وأنا بدوري مقتنع قناعة راسخة به، ألا وهو أن أفضل ما يمكن أن يقوم به الرجل لصالح ابنه، هو أن يحب أمه (وطبعاً، العكس صحيح أيضاً).

ويترتب عليكما كأبوين أن تعرفا، هذا إذا لم تكونا قد لاحظتما ذلك من تلقاء ذاتكما أن لدى الأطفال ميلاً لأن يحاولوا الإيقاع بأمهم وأبيهم في أحابيلهم، في مسعى لمحاولة دفعهما للوقوف ضد بعضهما.

يتوجب على الأبوين مواجهة الطفل بجهة موحدة، بل إنني سأمضي إلى حد الاقتراح بأن يتفقا مع بعضهما على كيفية التعامل مع ما يمكن أن يستجد من أمور. وسيصب ذلك في مصلحة الطفل في أمر إضافي آخر وهو أن الطفل الذي يعرف أن أمه وأباه يحبان حقاً بعضهما، سيعود عليه ذلك بشعور أعلى بالأمان.

يقتضى منكما أيها الأبوان تخصيص فترة معينة من الوقت تمضيها سوياً مع بعضكما، وذلك بين آن وآخر، لتتيقنا خلال ذلك من أن العواطف المتبادلة فيما بينكما لا تتسرب إلى خارج عشكما الزوجي، وهذا ما يقودني إلى النقطة رقم ثلاثة.

### 3 - استخدما أماً مربية من وقت لآخر

يغمر دان وبربارة مشاعر الفخر لأنهما يأخذان الطفلة الصغيرة أنجيلا معهما أينما خلا، وبأنهما لم يتعاملا مع أم مربية حتى مرة واحدة طوال سنوات حياتها السبع.

لقد كانا منتفشين زهواً، عندما كانا يخبراني بذلك، ولم يكن بوسعهما فهمي عندما أعلمتهما رأيي بأنهما لم يكونا مصيبين في هذا. ودعونا الآن نواجه هذا الأمر صراحةً، إذ يُعتبر اللجوء إلى استخدام أم مربية بين آن وآخر جزءاً طبيعياً من سيورة نضوج الطفل، ولا تؤدي به إلى الإحساس بالهجر.

ويخطر على بالي أن أتساءل عما يفكر به أصدقاء دان وبربارة في كل مرة يلتقون معهما في المطعم، ويجدون أن أنجيلا ترافقهما! لذلك أرجوكم، وكُرمي

جميع الأشخاص المعنيين بالأمر، استخدمنا أمماً مربية من وقت لآخر.

#### 4 - هيتا الفرص لتنظيم لقاءات مع أطفال من العمر نفسه.

هناك ضرورة لإحاطة الأبناء الوحيدين بأطفال آخرين. إذ يتعلمون عبر ذلك التشارك، وتطوير شخصيتهم الاجتماعية، ويتعلمون كيفية التعامل في العلاقات الشخصية المتبادلة.

ويحزّ جداً في النفس رؤية أحد الأبناء الوحيدين، وقد أمضى معظم مرحلة طفولته مخالطاً فيها الناس الراشدين، إنه كمن وُلِدَ في غير عصره، فهو لا يعرف كيف يشترك في الألعاب مع الأطفال الآخرين، لذلك فإنه يُبْذَر ويُضْحَك عليه، ولا يجد نفسه بالمقابل منسجماً مع عالم الكبار.

كيف يمكن لكما إيجاد هؤلاء الأطفال الآخرين؟ من الممكن لي هنا الاقتراح عليكما بأن تسجلا إينكما في دار حضانة أو على الأقل في مدارس الأحد، هذا إذا لم يكن قد وصل إلى العمر الذي يؤهله لدخول المدرسة. وإذا لم تجدوا أطفالاً من عمره في الجوار المحيط ببيتكم، فنظماً له احتفالاً وادعوا إليه بعض الأطفال التابعين لكنيستكم. وسأمضي إلى حد القول إن تنمية العلاقات مع أطفال آخرين يكاد يُعتبر بأهمية التربية نفسها، وخصوصاً في السنوات الباكرة من العمر.

#### 5 - لاتبالغا في التعويض عن فقدان الأشقاء

كان لدى بيل وجونا رغبة بأن يكون لديهما عددٌ أكبر من الأطفال، إلا أن الطبيب أخبرهما بأنه لا توجد أي إمكانية لولادة أطفال جدد بعد ولادة ابنهما روجر. لذلك بدأ يفكران بينهما وبين نفسيهما «بالمسكين الصغير، إنه سيظل دائماً لوحده». ثم أخذوا، لتعديل ما يعتقدان أنه فاقده، بإغداق الألعاب والأطايب عليه، إلى الحد الذي يكفي لإغراق الملكة إليزابيث الثانية! أما بالنسبة لروجر فلم يكن يحس بأن شيئاً ما ينقصه، بل إنه سيكون سعيداً تماماً وممتناً لكما، وغير مستعبد لأن يقايض أي من ألعابه الباهظة القيمة بأخ أو أخت صغيرة! لاحتاجة لكما إذن إطلاقاً لأن تدفعا أي شكل من أشكال (التعويض) لإينكما

الوحيد. فالمسألة ليست علّة، بل هي ومن جوانب عديدة صفة رابحة جداً! ويجدر بكما سؤال الطفل المسكين روجر عن ذلك! أوجد في العالم درجة إفساد أكثر من ذلك؟!).

## جوانب القوة

أما الآن، فعلينا إلقاء نظرة سريعة على بعض مكامن القوة الأشد بروزاً عند الأبناء الوحيدون. فهم عموماً:

1 - أشخاص يُعتمد عليهم: يُعتبر الأبناء الوحيدون من صنف البشر الذين يمكنكم الاتكال عليهم، فإذا قالوا إن لديهم نية للقيام بعمل معين، فهم سيفعلونه حتماً، وضمان ذلك كلماتهم. وذلك شيء نادر ورائع في عالم اليوم.

2 - أصحاب ضمير حي: إذا أردت لمسألة لا على التعيين أن تتحقق على النحو الصحيح، فسلّمها لمولود بكر. وإذا أردتها خالية من العيوب تماماً فسلّمها لمولود بكر بامتياز، أي لابن وحيد!

3 - رفيعو التنظيم: وأنا أحد الأشخاص السيّمي التديير في هذا الجانب، إذ رغم انكباب زوجتي مراراً وتكراراً على درج جواربي لإعادة ترتيبها بانتظام، إلا أنه دائماً في حالة فوضى يُرثى لها، فمع أنني أمضي أحياناً مدة عشرين دقيقة نكشاً وتقليباً به، إلا أنني لا أوفق في الحصول على زوج متناسب مع بعضه. بيد أن الأمر سيكون مختلفاً فيما لو كنت ابناً وحيداً، فدرجة الخلاف واسعة جداً بين النمطين، بحيث إذا عنّ على بالي يوماً معرفة مكان غرض معين أو كيفية الوصول إليه، فأنا أقصد ابناً وحيداً في السؤال، إذ من المتوقع أن يستدل المرء عن طريقهم على الاتجاهات الأوضح والأكثر اختصاراً، وهم دائماً على حق!

4 - علماء: ذكرت سابقاً أن البرت أينشتاين كان ابناً وحيداً، وكذلك جان بول سارتر، فهل من دأج لقول المزيد عن هذا الجانب؟

5 - حذرون: يميل الأبناء ذوو الترتيب الولادي الأخير لأن ينحوا في سلوكهم

معنى المثل القائل «التردد طريق الخسران»، وتعلّمنا التجربة المرّة أن ذلك ليس صحيحاً دائماً.

في حين أن الأبناء الوحيدين ينصقل وعيهم وينحون في سلوكهم منحى المثل القائل «قس مرّات ومرّات قبل أن تقص» ويتراءى لنا نحن بقية البشر أنّ تردّد الأبناء الوحيدين إنّما هو نوع من الحماقة أحياناً، إلى أن يتبيّن لنا أخيراً أنهم على حق في تشكّكهم!

ينظر مجتمعنا إلى الأبناء الوحيدين لسبب من الأسباب كما لو أنهم مثار شفقة، كما لو أن كون المرء ابناً وحيداً يعني أنه معلول، مع أن الأمر ليس كذلك، بل هو بعيد جداً عن أن يكون كذلك. فحياة الإبن الوحيد في كل حركاتها وسكناتها تماثل حياة أي شخص آخر في غناها ونجاحاتها وتحصيلها النهائي.

إن كون المرء ابناً وحيداً يمكن أن يكون نوعاً خاصاً من أنواع المغامرة الواعدة، وخصوصاً إذا كان له والدان مستعدّان لبذل قصارى جهدهما لمساعدته على خوض تلك المغامرة إلى حدودها القصوى!



# الباب الثالث

## مصائب أسروية





## الفصل العاشر

### الإبن البكر والإدمان الكحولي، رؤية قاتمة للحالة

يبلغ عمر ديان تسعة وعشرين عاماً، وهي الأكبر سنّاً من بين ثلاثة أخوة. وكانت في سنوات طفولتها الأولى تظن أن والدها هو الشخص الأكثر نقاءً وطهارةً في العالم أجمع، إذ كان يادي الانشراح والسرور، ويضحك من كل قلبه، ولا يخل عليها بالمصروف أبداً حتى بدون أن تطلب ذلك أحياناً. وكانت تعلم أنه يواجه مصاعب في بقائه ملتزماً بعمل معين، وبأن عائلتها أشد عائلات الجوار فقراً، غير أن ذلك ليس خطيئة والدها على أي حال. سوى أنها، إلى جانب ذلك، لم تكن تفهم لماذا كانت أمها تبدو غالباً ساخطة وعصبية، ولماذا تعدم الحيلة في أن تصبح مثل أبيها الذي ليس له أي ذنب، كما يبدو، في عدم ثباته بأي عمل، فلماذا نوبات الهيجان العصبية على الفهم هذه؟

وفي أحد أيام دوامها المدرسي بعد أن أصبحت في الصف الرابع، شرعت مجموعة من الأولاد في مناكذتها وتعبيرها في حالة أبيها، مرددين بـ «ديان - أبوها واحد سكران!».

«ديان - أبوها واحد سكران!».

- «إنه ليس كذلك!».

وسدّت أذنيها بيديها، إلا أن الأطفال الآخرين لم يظهروا أي نية للتوقف

عن الاستهزاء بها، متابعين ترديدهم الصاحب لهذا الهتاف المَقْفَى والذي صاغه أحد الصبيان.

وعندما عجزت عن ثنيهم على التوقف، أطلقت ساقها للريح مغادرةً باحة المدرسة، وظلت تجري طوال مسافة الميل والنصف الفاصلة بين المدرسة وبيتها، واجتازت عدواً عتبة بيتها، مواصلة صعودها حتى غرفتها في الطابق الثاني، ودخلتها بسرعة وأرتجت الباب وراءها، معاهدةً نفسها على أن لا تخرج من الغرفة حتى تعود أمها من العمل، أو أن يعود والدها إلى البيت من المكان المتواجد فيه. ولن تتزحزح من مكانها حتى لو أتى إليها مدير المدرسة، وحاول دفعها للرجوع إلى المدرسة.

ولما مرور وقت غير طويل، سمعت صرير الباب الرئيسي للبيت يُفْتَح، فلم يكن بوسعها الإبطاء في النزول إلى الطابق الأرضي لإخبار والدها بما كان الأطفال يقولون عنه، لكن عندما همّت بفتح رتاج الباب، سمعت صوت ارتطام في الطابق الأرضي كما لو أن شيئاً أو شخصاً قد وقع.

وعندما نزلت الدرج بسرعة، وجدت ديان أباهاً منهاراً ومكثراً على أرضية المطبخ، وللوهلة الأولى ظنّت أنه ربما ميت، لكنه بعد لحظات رفع رأسه، ووجه نظره باتجاهها، وأخذ في الضحك (من ذلك النوع من الضحك الصاحب الجنوني). ويبدو أنه اندهش من رؤية ابنته في البيت في هذا الوقت الباكر من النهار.

وعندما حاول التحدث إليها، كان يتلعثم وتتداخل كلماته مع بعضها إلى الدرجة التي لا تفهم فيها إلا بصعوبة. وتبين لها أن عينيه كانتا تبدوان وكأنها كتلة غامقة اللون سابحة في بحر من اللون الأحمر، وشئت رائحة الويسكي في أنفاسه، وعرفت أنه سكران، وعرفت أيضاً للمرة الأولى في حياتها أن ما يقال لها صحيحاً، فوالدها مدمن على المشروبات الكحولية.

«يبدو الأمر وكأنه غير قابل للتصديق أنني لم أكن أدري بذلك سابقاً، أو ربما كنت أعرف، لكن عقلي لم يكن مهتماً لأن يسمح لي بتصديق ذلك».

وانتاب ديان فور رؤيتها لأبيها شعور عارم بالرعب، وبرد فعل حاد تجاهه. فكيف يمكنه أن يخدعها هكذا؟. وإن الأطفال على حق إذن، وشعرت بمغص شديد في معدتها. عادت أدراجها بسرعة إلى الطابق العلوي وأقفلت باب الغرفة على نفسها، ولم تخرج منها طوال بقية ذلك النهار.

«لقد كرهت والدي، وأخذت قراراً على نفسي بأن آخر ما يمكن أن يصدر عني في يوم ما، هو أن أصير مثله بعد أن أصبح كبيرة في السن». وهذا هو العهد نفسه الذي يأخذه يومياً على أنفسهم أبناء المدمنين على الكحول في كل أرجاء العالم. ولسوء الحظ يخرق عددٌ كبير جداً منهم هذا العهد، وديان واحدة ممن خرقوه. فبعد سنوات على ذلك، وجدت ديان نفسها مأخوذة شيئاً فشيئاً بالسُّلوى والراحة اللتين يمنحهما المشروب الكحولي لرأسها المضنك. واعتادت على أن تخاطب نفسها: «لن أكون أبداً مثل البابا»، وهي تمزج جرعتها الثالثة أو الرابعة من المشروب في ذلك اليوم. «لقد كان باباً مدمناً على الشراب، بينما أنا لست كذلك، فأنا بإمكانني أن أتوقف عنه ساعة أشياء، والأمر لا يتعدى كوني وفي هذا الوقت العصيب أحتاج إلى وسيلة ما لأهدئ أعصابي - فأنا أقضي الآن أحد أكثر أيامي ثنائة!».

وأخيراً، ومنذ حوالي سنتين، بدأت ديان تدرك حقيقة وضعها، فكما كانت تنكر ولوقت طويل سابق بأن ثمة خللاً يتعلق بوالدها، فهي الآن تنكر الأمر ذاته في نفسها. وكانت الحقيقة مؤلمة، إلا أنه كان لابد لها من مواجهة الحقيقة عارية، وهي أنها مدمنة على المشروبات الكحولية، وحالما استبان لها حقيقتها هذه، اتخذت عدة خطوات ضرورية لتغيير الحالة، بما فيها الانضمام إلى جمعية (A - مدمني كحول مغفلي الاسم)، وها هي اليوم مثابرة ومنذ ستة أشهر على وضعها المقتصد في تعاطي الشراب، وهي الآن في طريقها فعلياً لأن تتعافى كلياً. إلا أنها لاتني عن التساؤل: ماذا لو وقعت في لحظة ضعف معينة تحت تأثير حالة إغواء وانجرفت ثانية في ممارسة عاداتها القديمة؟ وماذا يمكن القول عن ابتهاج، ليسلي؟ وهل ستصبح مدمنة كحولياً أيضاً؟ وهذا السؤال الأخير في محله تماماً، فهل مقدّرٌ لليسلي الابنة البكر لمدمنة كحولية، أن تكرر السيرة الحياتية لأُمها، والتي هي بدورها أيضاً بنت بكر لرجل مدمن كحولياً؟

هل ثمة أي أمل بالنسبة للأبناء والبنات البكر لأشخاص مدمنين كحولياً؟  
الجواب بالتأكيد نعم، لكن الحقيقة المؤسفة هي أن أبناء المدمنين كحولياً  
يتجهون من تلقاء ذاتهم، في معظم الأحوال، صوب زجاجة الخمر - وخصوصاً  
الأبناء البكر منهم. إذ أن الإبن البكر لمدمن كحولياً، معرض أكثر من الأبناء  
الآخرين في الأسرة لأن يصبح مدمناً كحولياً أيضاً، وذلك لسببين:

أولاً وقبل كل شيء، لأنه كان من لعب دور متلقي الصدمات، فهو من  
كرّس نفسه ليحتمي أخوته وأخواته الصغار من منعكسات إدمان أمه أو أبيه،  
باعتباره الشخص الذي قُدِّر له واقعياً تحمّل مغبّة ذلك. وربما يظن المرء أن رؤية ما  
فعله الكحول مع الوالدين سيؤدّد الطفل بمبرر كافٍ لينأى بنفسه عن هذا السلوك  
الأرعن. وهذا صحيح من الناحية النظرية، لكن نادراً ما تأخذ الأمور هذا المسار،  
ولنتذكّر هنا ما جرى بالوعد الذي قطعه ديان على نفسها بأن لاتكون مثل أبيها  
عندما تكبر.

أما السبب الثاني الذي يجعل الإبن البكر يحصد المارّة الأشد من التعامل  
مع والدين مدمنين كحولياً، فهو أنه غالباً وغالباً جداً ما يكون الشخص الذي  
يسير على هدى سيرة والديه، فإما أن ينعم أخيراً بمآثرهما أو أن يضرس  
برعونتهما، وهكذا يمكن للمرء أن يرى نسبة عالية من الأبناء والبنات البكر  
لدكاترة ومحامين ووزراء وأساتذة.... الخ، اتخذوا سيرة الوالدين نبراساً ومنازّة  
لهم في حياتهم، وهذا هو الوجه الإيجابي، أما الوجه السلبي فستجده في أولئك  
الأبناء والبنات البكر لأشخاص منحلّين وفاسدين في هذا الجانب أو ذاك،  
كالإدمان الكحولي مثلاً، إذ يكرّر عدد كبير منهم مأساة الوالدين. ولا يعني هذا  
القول إن الأبناء البكر لوالدين مدمنين على الكحول مقدّر لهم من كل بد، أن  
يصبحوا أنفسهم مدمنين أيضاً، فهذا ليس ضربة لازب، بل من الممكن تجنبه.

تورد الجمعية الوطنية لأبناء الأشخاص المدمنين على الكحول عدّة سمات  
شخصية يتمتعون بها:

\* - «تشكل لدينا نزعة انعزالية، ونخاف مواجهة البشر، ورموز السلطة.

\* - تتكوّن لدينا نزعة السعي نحو الاستحسان، وفي هذا السياق تفقد شخصيتنا سماتها الفردية المميّزة.

\* - نصاب بالجزع والاضطراب من أي نوبة غضب، ومن أي انتقاد لسلوكنا.

\* - إما أن نصبح مدمنين على الكحول أو نتزوج واحداً منهم - أو كليهما - أو أن نجد نموذجاً آخرّاً للشخصية، وليكن خماراً مثلاً، يشكل عاملاً إجبارياً لنا لتحقيق نزعتنا المرضية للتهتك والإنحلال.

■ - نعيش حياتنا وهمّنا التوجّه صوب الضحايا ومدّ يد العون لهم، ونشعر بالانجذاب تجاه حالة الضعف هذه في علاقاتنا الغرامية، والصدّاقية.

\* - نبالغ بما نتمتع به من شعورٍ عالٍ بالمسؤولية، ومن الأسهل بالنسبة لنا الاهتمام بشؤون الآخرين بدلاً من الاهتمام بشؤوننا.

\* - يعترينا الشعور بالذنب حين نخدم مصالحنا الخاصة، في حين أننا نستسلم لمصالح الآخرين الخاصة.

\* - نصبح شغوفين بالإثارة.

\* - نخلط بين الحب والشفقة ونميل لأن (نحب) البشر الذين نتمكن من إغداق الشفقة والأمان عليهم.

\* - بعد أن كبّتنا ما انتابنا من مشاعر الصدمات والجروح العاطفية في طفولتنا، فقدنا المقدرة على الإحساس والتعبير الحر عن مشاعرنا كما هي.

\* - نحاكم أنفسنا بقسوة، ولدينا شعور حاد بالضّعة في اعتبارنا لذاتنا (ونقوم بتعويض<sup>(\*)</sup> ذلك أحياناً عبر الظهور بمظهر المتعالي).

■ - نحن شخصيات تابعة وترتاع من فكرة هجراننا، ونحن على استعداد للذل

---

(\*) - التعويض: عملية سيكولوجية يخفي بها المرء عجزاً معيناً أو شعوراً بالضّعة الخ. وذلك من خلال التفوّق في حقل معين. م.

تضحيات جسام بهدف التمسك بعلاقة معينة، خشيةً معاناة ألم الهجران، ونحن نُحكّم بشروط هذه النماذج من العلاقات.

• - إن الإدمان الكحولي وهنّ يشمل الأسرة ككل، ونحن نصبح مدمنين بالكمون - ونُصاب بأعراض هذا المرض رغم أننا لم نتعاط المشروب.

ويذيل ذلك بالكلمات الهامة التالية: «هذا توصيفٌ وليس اتهاماً».

وهو ليس توصيفاً ينطبق كلياً على كل ابن بكر لمدمن كحولي. إلا أن الأمر الأهم بالنسبة لأولئك الذين يكتشفون أنفسهم في صورة طبق الأصل لهذه القائمة من المواصفات الشخصية، هو أن يدركوا أن بوسعهم تغيير واقع الحال. والخطوة الأولى والأهم في حلحلة أي مشكلة في البنية الشخصية تنحصر في الإقرار بأن المشكلة موجودة.

ما هي بالضبط درجة شيع وصول أولاد المدمنين كحولياً في نهاية المطاف، إلى مصير الوالدين نفسه؟ وفقاً لكتاب (الرغبة المستميتة لتناول المشروب الكحولي) لمؤلفيه أندرسون سبيكارد وبربارة ر. طومسون، إن حوالي 30٪ من أبناء المدمنين كحولياً يتزوجون مدمنين كحولياً، و 50٪ منهم بالضبط يصبحون أنفسهم مدمنين كحولياً<sup>(1)</sup>.

إليك الآن بعض المشاكل التي تعترض أبناء المدمنين كحولياً. فلدينا بوب الذي يقول:

«كان يترئّب عليّ أن أكبر بسرعة غير معقولة، إذ عندما كان من المفروض على والديّ الاعتناء بي وحمل همّ سعادتي، كنت أنا من يعتني بهما. أما رون فيذكر: «لقد كنت دائماً في حالة خوف وارتباك، مرتبكاً لأنني كنت أفسد دائماً عما يفكر به أصدقاؤني تجاه حالة والدي، وخائفاً لأنني أتوقع أن يريني نجوم الظهر في كل لحظة».

أما أم رواندا فلم تكن ممن يلجأ إلى العنف في حالة السكر، بل إنها، وكما تذكر رواندا: «لاتعتبر لي أُمي عن أنها تحبّي إلا عندما تكون ثملة».

أما بالنسبة للورانس فإن نشأته في ظل والدين مدمنين كحولياً كان أشبه بالعيش في ظل كابوس «جيكمل وهайд»<sup>(\*)</sup>، «إذ يصبح والدي ساعة معافرتهم للخمير كريمين وبشوشين، ويسمحان لي تحت نشوة الخمر بأي أمر أشاء. ويجري الأمر كأن أقول لوالدي «هيي، بابا، هل تسمح لي باستخدام السيارة في ليلة الجمعة؟»، ويكون جوابه: «بالتأكيد يا ابني، لا تردد أبداً، هل تحتاج شيئاً من المال؟»، ثم تحلّ ليلة الجمعة فأجدّ التذكير برغبتني في استعمال السيارة، فيقول لي أنه كان يجدر بي ألا أطلب منه شيئاً عندما يكون ثملاً، ويتهمني بمحاولة استغلاله والتحايل عليه، لكن الحقيقة هي أنني لا يمكنني تفادي طلب أشياء منه عندما يكون سكراناً، وذلك لسبب بسيط، وهو أنه في حالة سكر في معظم الأوقات».

ويسرد كتاب (الرغبة المستميتة لتناول المشروب الكحولي) قصة امرأة وجدت نفسها أسيرة مشكلة أخرى شائعة في أوساط أبناء المدمنين كحولياً، إذ تبدو غير قادرة على قول الحقيقة.

وبدأت مشكلتها مذ كانت طفلة تجد نفسها مجبرة دائماً على الكذب بهدف إخفاء حالة والديها والتغطية عليهما، وهكذا استمرت الكذب، واستحكمت بها هذه العادة حتى بعد كبرها في السن، وبدون أي سبب موجب في معظم الأحوال: «لأجد نفسي إلا وأنا أتحدث في مسائل منافية للعقل، ثم بعدئذٍ أتحجّ كثيراً من أن أراجع عنها. وفقدت مع مرّ السنين عدداً كبيراً من الأصدقاء لأنهم اكتشفوا أنني لا أستحق أن أكون مصدر ثقة، وحلّت لحظة التحول عندما صادفت رجلاً حافظ على صداقته لي، بالرغم من اكتشافه أنني لا أقول الحقيقة دائماً، إذ أن تقبله لي وحبّه للمجابهة مكنتني من أن أواجه مشكلتي باستقامة. وأدركت أن إدمان والدي على معاورة الخمر كان سبباً كافياً بحد ذاته لأن أدمن على الكذب. وهكذا بواسطة لجوئي إلى الصلوات والأدعية الكثيرة، وبذلي مجهودات جادة، تعلّمت أخيراً كامراً راشدة ما يتعلمه معظم البشر منذ

(\*) - شخص ذو شخصية مزدوجة، جانب منها خيّر والآخر شرير. م.

طفولتهم - وذلك أن أقول الحق<sup>(2)</sup>. أما مارتا فهي نموذج للبنات البكر لوالدين مدمنين، كحولياً ممن تكوّنت شخصيتها على هيئة (البطلة)، فلقد تفتّح وعيها على أن والديها يقصّران عن خدمة دورهما الوظيفي في العائلة، لذلك انحصرت همتها في التعويض عن ذلك. فمذ كانت في الصف السادس في المدرسة بدأت تتكفل بالتسوّق وتأمين معظم مستلزمات المعيشة، وتتولّى إعداد وجبات الطعام، وتأخذ الثياب الوسخة إلى المصبغة، وتشرف على ضبط ميزانية البيت، بما لا يتعدّى سقف قدراتها على ذلك.

وكانت تلجأ أحياناً للإجهاد على مؤونة والديها من المشروب الكحولي، وتسفحه في المصرف حتى آخر قطرة، ويعتريها الأمل بأنه إذا جرى التخلص من المشروب، فإنهما سيمتنعان من تلقاء ذاتهما عن تأمين أي كمية جديدة منها، ولم يكن ذلك مجدياً بالطبع، لكنه لم يخلُ من بعض الفائدة أيضاً، لأن والديها كانا دائماً يفترضان أنهما قد شربا كل مؤونتهما.

وكانت مارتا من جهة أخرى، وكنتيجة لعدم توقّفها في حياة بيتية سعيدة، تحرق نفسها في العمل المدرسي<sup>3</sup> فكانت علاماتها لا تنقصر إلا قليلاً عن درجة الامتياز، وعضوة نشيطة في المجلس الطلابي وفي حلقات النقاش، بل كادت أن تنضم في نهاية المرحلة الثانوية إلى كل الأندية الطلابية. وإذا قلّبت صفحات الكتاب السنوي<sup>(4)</sup> لمرحلتها الثانوية، فستصادفون صورتها المشرقة الباسمة في كل صفحات الكتاب، ونحت عناوين مختلفة.

كانت تنغمس في العمل البيتي والمدرسي إلى الحد الذي تعدم الوقت للتفكير بما ألقته الحياة عليها من عبء غير عادل، فتتكبّ على وجهها في فراشها كل مساء مستنزفة القوى، ثم تكون أول من يستيقظ مع انبلاج النهار، لكي تستطيع مساعدة أخوتها وأخواتها الأصغر وتهيئهم للذهاب إلى المدرسة.

وهكذا مرّت السنوات وأنهت مارتا مرحلة الدراسة الثانوية، وغادرت

(\*) - كتاب مصوّر يطبع مرة واحدة في السنة، ليقدّم وقائع ومعلومات عن السنة الدراسية الفائتة. م.



البيت إثر قبولها في إحدى الكليات الجامعية العريقة، ثم أصبحت معلمة مدرسة. لكنها رغم مرور وقت طويل على مغادرتها البيت والسكنى في بيت مستقل، واطبقت على الاندفاع بسرعة تناهز 120 ميل في الساعة وعلى مدى ثمان عشرة ساعة يومياً، لبلوغ القدرة على البرهان أنها كائن إنساني قادر. وكانت تعرف أنها تهلك بذلك نفسها، لكن ليس باليد حيلة لوضع حد لذلك، فهي لم تتعلم مطلقاً الاسترخاء والراحة، أو أن تخصص وقتاً للترفيه عن نفسها. وحتى عندما تفكر مجرد تفكير في التخفف قليلاً من أعباء العمل، وتحاول إمضاء بعض الوقت دون أي التزامات جدية، فإنها تشعر بالذنب من ذلك، تكون مغفرتها أن تفعل العكس، أي أن تأخذ على عاتقها مسؤوليات إضافية وتحديات أضخم.

أما في علاقاتها الاجتماعية، فلقد كانت تندفع بحمّة تجاه أصدقائها، في مسعى لتولّي أمر الاعتناء بشؤونهم الحياتية، متحمّلة أمر الهموم الحياتية لكل من تعرفه تقريباً. ولم يكن تحتل المسؤولية هذا عن أصدقائها أمراً صعب المنال بالنسبة لها، إذ انصاع جلهم بسهولة لأساليبها في تدبير الأمور، بحيث لا يصبح لديهم أي مانع في إرضاء العنان لها في اتخاذ القرارات المتعلقة بحياتهم بدلاً منهم، وهم في هذه الناحية يماثلون تماماً والديها. لكنها في سياق ذلك لا تستطيع أن تُخفي خشيتها من تنمية علاقات مع أناس لا تتمكن من ربيّتهم، فهم ليسوا أهلاً لثقتها.

ولم تدمن مارتا نفسها على الكحول كما يحدث مع عدد كبير من أبناء مدمني الكحول، لكنها مثلهم أصيبت برضة نفسية عميقة نتيجة السلوك غير السوي لوالديها. واستدعى ذلك سنوات من المعالجة النفسية قبل أن تتمكن أخيراً من تغيير نمط حياتها، وتنهض من جديد من بين تلك الأجواء القائمة التي خيمت عليها نتيجة لإدمان والديها على الكحول.

وننتقل الآن لتتحدث عن روي الإبن البكر لوالدين مدمنين على الكحول، واللدان نجحاً بحدود كبيرة جداً في إخفاء إدمانها هذا عن أصدقائها وجيرانها. بحيث استطاع والده السيطرة على إدمانه الكحولي إلى الحد الذي استطاع التأهل لتولّي موقع وظيفي كمدير للمبيعات في وكالة تجارية محلية

للسيارات، في حين كانت أمه عضوةً نشيطة في الكنيسة والمنظمات الاجتماعية. وهكذا حظي والدا روي باحترام فعلي وإعجاب في أوساطهما الاجتماعية، لكن ما كان أحد يعرف ما كان يجري فعلياً داخل بيتهم، وراء تلك الواجهة المزيفة التي يقدمان نفسيهما بها دائماً إلى العالم الخارجي.

فهما في البيت، إما يعتفان بعضهما تحت تأثير نوبة انفعال هيجانية بتأثير السكر الشديد، أو أن يعتفا روي وأخوته الثلاثة الصغار. ورغم كل تلك الصورة العامة عن كفاءتهما وقدراتهما الذهنية التي استطاعا غرسها في أذهان معارفهما إلا أنهما كانا يديان في البيت عطالة كاملة عن كل شيء، «كنت أتخيل كيف يمضي كل منهما كامل نهاره دون هواة منكباً على عمله بتفانٍ وإخلاص، رغم أنني أعجز عن تكوين صورة دقيقة عن ذلك. إلا أنهما فور اجتياز عتبة باب الدار في نهاية النهار، يشخصان مباشرةً صوب خزانة الخمر ويشربان حتى الثمالة، ونترك نحن لتدبر أنفسنا لوحدها».

وتصرف روي مع واقع حاله هذا بطريقة مماثلة كثيراً للطريقة التي تصرفت وفقها مارتا، فقام مقام الوالدين في الجوانب الضرورية لأخوته، مساعداً إياهم على إنجاز واجباتهم المدرسية، ومتابعاً لمسائل نظافتهم، وفيما إذا كانوا قد استحموا، بل وحتى تعليمهم أصول اللياقة عندما يقتضي الأمر ذلك، أما بالنسبة له فقد نال علامات تامة، وانتهى به الأمر أخيراً لأن يرشح نفسه ويُقبل في أكاديمية القوى الجوية.

لكن حدث أن تذوّق الخمر هناك لأول مرة في حياته، وذلك خلال سنته الدراسية الأولى، «لقد اقتنعت أن هذا شيء رائع، واستهوتني الحالة التي شعرت بها وأنا في ذروة النشوة، لم أكن سكراناً، تعرف.... لكن الأمر لا يتعدى الوصول إلى النشوة الكافية لأشعر فعلاً بتحسن مزاجي».

وأقنع نفسه أيضاً بأنه غير طينة والديه: «لقد كنت أحس أنهما لا يملكان القدرة على التحكم به (المشروب)، في حين أنني كنت قادراً على ذلك، وكم كنت مخطئاً في هذا!». فلم يمر وقت طويل حتى أصبح المشروب الكحولي

المركز المحوري لحياته، ومما زاد الطين بلةً، زواجه اللاحق من امرأة مدمنة على تناول المسكرات، امرأة أم لأربعة أولاد صغار. لقد كانت مواصفات وضعه الجديد وكأنه كان يعمل على الارتداد بنفسه إلى الوراء، إلى أيام الصبا، ليعيد تقويم الأوضاع فربما ذكره أولئك الأولاد الأربعة بنفسه وبأخوته، فيتطلع إلى أن لا يتعرضوا في حياتهم للمعاناة نفسها التي تعرض لها مع أخوته. لكنه بدلاً من ذلك تصرف على نحوٍ خَدَم تأييد الحالة الكابوسية.

وما إن وصل إلى الثلاثين من عمره، حتى وعى نفسه مسرفاً في تعاطي المخدرات وتناول المشروب الكحولي، وصَدَمَ ناظره مرأى أكوام الديون التي وصلت إلى ثلاثة أضعاف راتبه السنوي تقريباً، أي باختصار خرجت حياته كلياً عن نطاق السيطرة. واستهدى روي، مثل مارتا إلى طريق العودة عن الوضع الغارق فيه، وكانت الخطوة الأولى بالنسبة له أيضاً، هي إدراك كونه مدمناً على تناول الكحول.

وقال إن هناك طريقتين كانا بالنسبة له بمنزلة عاملين مساعدين على الهدى عن الضلال والعودة إلى الحالة السوية: 1 - الرب. 2 - جمعية (مدمني كحول مغفلي الاسم) Alcoholic Anonymous أو (A - A) إذ عَرَفَه صديق له على A - A، وعَرَفَه رجل صادفه هناك على طريق الرب. «لقد كان ذلك بالنسبة لي بمنزلة ثنائية مركبة لا تُقهر».

ولابد لي الآن من القول إنني سررت لكم كل هذه التفاصيل التي جرت مع مارتا وروي، لأنهما شخصان استطاعا النجاح في الاهتمام إلى طريق العودة عن الدرك الأسفل الذي كانا يرتعان فيه.

فهل أنت مدمنٌ على تناول المشروبات الكحولية ممن لديهم قناعة عميقة بعجزهم عن تغيير الوضع؟ ها هو روي بَلَغَ الفلاح، وها هي مارتا أيضاً.

هل أنت ابنٌ لمدمن على الكحول، وواقع في مطب مماثل لحال مارتا وروي؟ إن قصتيهما عبرةٌ لك وكشاف لجوانب الخطأ في سلوكك، وتساعدك على تجنّب ما اقترفا من أخطاء.

وسواءً أكنت شخصاً يكافح للخلاص من إدمانه الكحولي، ويريد أن يتيقن من أن أولاده لن يتبعوا المسار نفسه المأساوي، أو كنت ابناً يافعاً لشخص مدمن على الكحول، ومازالت تتآكله الظنون والخاوف على يفاعته، فإن رسالتي لكم هي أن الأوضاع قابلة لأن تتحسن.

وإذا كنت الإبن البكر لشخص مدمن على الكحول، فيجب أن لا يغيب عن ذهنك أنه بوسعك وأفراد العائلة الآخرين (عيش حياة هائلة)، وحتى لو أبي الشخص المدمن تغيير طريقته الشخصية في الحياة. ولتذكر أيضاً بأنه على الرغم من أن الإدمان الكحولي مرض جماعي بالنسبة للعائلة، إلا أن البرء منه يجب أن يتم بشكل فردي وخاصة بالنسبة لكل فرد من أفراد العائلة، ومخطئ من يتوقع من كل أفراد العائلة تحقيق درجة التقدم نفسها على طريق استعادة عافيتهم، في اللحظة نفسها.

ومن خلاصة التفكير في الأمر، تبين لي أن هناك على الأقل ثمان خطوات يمكنك القيام بها لمعالجة ظاهرة الإدمان على تناول المشروبات الكحولية في عائلة كل منكم.

1 - الإقرار بالحجم الحقيقي للمشكلة: من غير الممكن لكم إنجاز أي خطوة باتجاه حلحلة المشكلة ما لم تقرّوا بأن المشكلة موجودة، فالشخص المدمن على الكحول، سيوجد على الغالب ميّزات لنفسه:

«ليست المسألة سوى أنني أتعرض لإجهاد زائد عن الحد، في العمل، وأحتاج إلى عدة جرعات تساعدني على إراحة أعصابي»، وهو يوجد بهذه الطريقة مشجّباً بدلاً من تركيز نظره على المشكلة الحقيقية، والتي هي إدمانه الكحولي. وتفعل عائلته أحياناً الأمر نفسه:

«يا مسكين يا بابا، إنه حقاً يبذل مجهوداً مضمناً في العمل، فمن يستطيع لومه على تناول عدة جرعات؟» لكن صندوقين كاملين من البيرة في كل ليلة إنما هي كمية أكبر من عدة جرعات من المشروب!.

اسمحوا لي الآن بأن أتحدث بشيء جانبي في هذا المجال. وهو أن من عادتي

معالجة ما أكتب من موضوعات بأكثر ما يمكن من اللطافة وحس الدعابة، وذلك لأنني أعتقد أنه مقدّر لكل من يملك حس ظرافة أصيل أن يبقى سليماً ومعافى من الناحية العقلية وربما الجسدية. لكن عندما أكون بوارد الحديث عن ظاهرة الإدمان الكحولي، فأنا لأعثر فيه إلا على النذر اليسير الذي يمكنني الحفاظ على ابتسامتي عند الحديث عنه، ولا أجد شيئاً يمكنني إهماله والاستهتار به.

ولقد شهدت بألم عيني تجارب مريرة عديدة بسبب ظاهرة الإدمان الكحولي، فهي ليست مسألة مازحة على الإطلاق، بل إنها مسألة جدية وخطيرة ويتوقّف عليها مصير البشر، وهذا ما يُعتبر بالنسبة لي جزءاً ناقصاً من اعترافي بالحجم الحقيقي للمشكلة.

2 - زيادة المعارف عن ظاهرة الإدمان الكحولي: لو أخبرك الطبيب أنك مصاب بمرض معين، أو أن أحد أحيائك كذلك، ألا ترعب عندئذٍ بالتحذري عن معلومات إضافية عن المسألة؟

حسناً، تلك هي الحالة فيما يتعلق بظاهرة الإدمان الكحولي، فكلما تزوّدت بمعارف إضافية عنها، كلما أصبحت أكثر جاهزية لمقارعتها، فلا تكتفٍ بديك وتنتظر حدوث معجزة، بل اعمل على زيادة معارفك عن جوانب الداء وأعراضه لتتمكن من معرفة كيفية التغلّب عليه!

3 - لا تحملوا همّ الماضي بأكثر ممّا يستحق: زُددت العبارة المقتبسة التالية أمامي عشرات المرات: «من ينسّ التاريخ محكومٌ عليه أن يعيشه ثانية»، وينسب هذا القول على تعدّد واختلاف الجهة المقتبسة إلى أكثر من مصدر، لكنه ينسب في غالب الأحيان إلى جورج سانتايانا، وأنا مقتنع بصحته، فإذا لم نأخذ دروساً من الأخطاء، سواء كانت من قبلنا أم من قبل أي شخص آخر، فإننا سنكرّر ارتكاب الحماقات بالطرق القديمة نفسها. لكن هاكم حكمة مائية طازجة من كيثين ليمان، وبإمكانكم اقتباسها مني:

«من يمضي قدراً كبيراً من وقته شاغلاً تفكيره بأمور الماضي لن يكون له حظ كبير في المستقبل».

إذ أن كل ماجرى معكم في الماضي، وأياً كان، قد جرى وانتهى، وحن الوقت لأن تتركوه يمضي كماضي.

تعلموا جيداً من أخطائكم وإخفاقاتكم، لكن لاتسمحوا لها بإعاقتكم عن التقدم، سواءً كانت إخفاقاتكم أم إخفاقات أحد أفراد عائلاتكم، فإذا اتخذ الواحد منكم موقفاً تجاه شخص معين آخر من عائلته، يماثل القول: «لقد عوّلت عليك مرّة وخيّبت أمني، لذلك لن أكرّر التعويل عليك ثانية»، فلن يقدم هذا الموقف خدمةً لأي طرف.

وربما ليس بالأمر الهين أن يدير المرء ظهره للماضي، لكن كلما عتت على البال أحداث ممضة معينة، ابدلوا أقصى جهودكم لمنعها عن أن تشغلكم أكثر من اللازم، وابدلوا مجهوداً واعياً لتكونوا واثقين من أنفسكم ومتطلعين إلى الأمام.

ويترتب عليّ القول الآن إنني لا أدعوكم لأن ترخوا العنان لأحد أفراد عائلة الواحد منكم، بالاستمرار في (غيته) بسلوكه الأناني أو تصرفاته المؤذية. إذ أنكم إذا أغمضتم عيونكم وتظاهرتُم بعدم حدوث ما يستحق الذكر على أرض الواقع، فإن الواحد منكم لن يؤدي بذلك أي خدمة للشخص محط الرعاية، بل إنه يصبح بهذا شخصاً (مُمكنًا)، عاملاً على خلق الأعداء، ومتيحاً للسلوك الخاطئ أن يستمر دون مواجهة وتصويب. أخيراً، أقول يجب أن تتعلموا التعامل مع مجريات الأمور دون الرجوع إلى الماضي البعيد، بل تعاملوا مع كل حالة كقضية موجودة في الحاضر، وتجنبوا الملمة حثالات التاريخ الغابر.

4 - لا تترقبوا حصول تحولات نوعية بين ليلة وضحاها: في الوقت الذي ينبغي عليكم عدم حصر أنفسكم في الماضي، يُفترض منكم أيضاً ألا تضعوه كلياً خارج نطاق تفكيركم، فالخبرة والتجربة تعلّمنا بأن الحياة مع شخص مدمن كحولياً ستأخذ مساراً متأرجحاً صعوداً وهبوطاً، وأن استعادته لوضعه السوي من الممكن أن تستدعي زمناً طويلاً نسبياً، وربما لن يكون خلال فترة الاستشفاء تلك شخصاً سلسَ المعشر بالنسبة للآخرين.

(يا للرجل!)، أحسّ بأنه أكثر قرباً من القلب عندما يكون مخموراً، على الأقل إنه عندئذٍ مرح، أنظر إليه الآن، إنه معكّر المزاج باستمراراً».

«كنت أظن أن تبرّمها الدائم راجع إلى حالة سكرها، لكن ها هي الآن مقتصدة في تناول الشراب منذ حوالي شهر، ومع ذلك تبرّم على الشاردة والواردة».

وهذه التصريحات أو تنويعات عليها سمعتها في هذه المناسبة أو تلك، وأنا أعي أن من قالوها لا يعتبرون في الواقع عن رغبتهم بأن يترد الأشخاص محط الرعاية، والذين في طور الاستشفاء إلى زجاجة الخمر، بل يعتبرون في هذا عن إحباطهم. فلقد كان الأمل يراودهم بأنه حالما يلجأ الشخص محط الرعاية إلى حالة اقتصاد في الشراب لبضعة أيام أو أسابيع، فإن جميع الأمور ستغدو على مايرام. وعندما لم تجرِ الأمور على هذا المنوال، أصيبوا بالخيبة والحنق من ذلك.

ويُرافق سيرورة استعادة المدمن كحولياً لحالته السوية عددٌ كبير من المصاعب إلى جانب الصعوبة الأكثر أهمية، وهي أن يتم التوقف عن تناول الخمر أصلاً. ولذلك فإن مرحلة العودة إلى الحالة السوية عملية طويلة وذات طابع تدريجي.

وشهدت شخصياً حدوث حالات كثيرة، رفع فيها أقارب الأشخاص المدمنين على الكحول، أثناء سعيهم لاستعادة حالته السوية، أيديهم استسلاماً لحالة يأس إثر اكتشافهم أن الشخص المقصود بعطفهم ورعايتهم قد خرق الوعد الذي قطعه على نفسه بأن يقتصد في تناول الخمر. في حين أن الحدث لا يدل إلا على أنه فآل سيء، وليس نهاية الكون، فهو كثيراً ما يحدث، ويمكن اعتباره نكسة مؤقتة لانكسة دائمة.

5 - تعلّموا منح الآخرين ثقّتكم: غالباً ما يكون من العسير على ابن الشخص المدمن كحولياً، منح الآخرين ثقته، بل إنه قد يصل حتى إلى تخلّل قليل من الشك في رؤيته للرب، هذا إذا أخذنا في الحسبان أن التصوّر الذهني لأي شخص عن الخالق يُصاغ في معظم الأحوال وفق كيفية علاقه مع والده

الحقيقة، فإذا كان الأب شخصاً مدمناً كحولياً لا يعوّل عليه كسند للآخرين، ومغرق في إعطاء الوعود الكاذبة، وليس بوسعه تبيين الفرق بين الكذبة المفصوحة والحقيقة، ففي هذه الحال يأخذ منحى التفكير في الرب كأب رحيم وموئل ثقة ولا ينطق إلا بالحق مجرى غير مسترٍ. عندئذ قد يعرف المرء عقلياً أن الرب موئل ثقة ورحيم ولا يريد له إلا الخير، لكنه يكون ربما أمراً بالغ الصعوبة بالنسبة له لأن يصل إلى تقبل هذه الحقائق عاطفياً. فالمرء يدرك أن ذلك صحيح عقلياً، لكنه لا يستطيع الإيمان التام به بأي حال من الأحوال.

لابدّ لي الآن من القول إن من الفطنة بقاء المرء حذراً، فلا يُقتضى منكم الإقدام على منح ثقتكم لأي شخص تصادفونه على قارعة الطريق، ولا يفترض منكم أيضاً النظر إلى البشر وكأنهم أنصاف آلهة معوّلين عليهم تحقيق ما ليس معقولاً، لكن ثمة ضرورة قصوى لأن يتعلم ابن الشخص المدمن كحولياً كيفية إزاحة تحصيلاته إرادياً وتعريض نفسه للنوائب، وإقامة علاقات مؤسسة على الثقة مع الآخرين.

ومن الممكن أن يقتضي الأمر منكم كبدية تعلّم التوكل على الرب، وأفضل سبيل لتحقيق ذلك هو قراءة كتابك المقدّس. وفي الحياة ستلتقي مع بشر يمكنهم أن يقولوا لك:

«لقد سلّمت أمري إلى الله طوال عشرين سنة (أو ثلاثين أو أربعين) من حياتي، ولم يخذلني إطلاقاً».

فإذا أدليت بدلوي هنا وقلت لكم: «قدرة الرب على أن يكون موئل رجاء قدرة لانتضب»، فربما ستهزّون رؤوسكم، وتتفقون معي، على الأقل بالمعنى النظري، لكنني لو أضفت إلى ذلك أنني خبرت من تجربتي المباشرة قدرته على أن يكون موئل ثقة لي، وأني شهدت في حياتي دليلاً عقب دليل على ذلك. وأنه لو كان بإمكانني رواية تلك الأحداث الشخصية التي برهنت لي قدرته على ذلك، فسيخلف ذلك أثراً أبلغ بكثير عنكم.

لكن كيف السبيل إلى تعلّم منح الثقة للآخرين؟ ليس من سبيل إلى ذلك إلا أن تمارسه فعلياً، وهذا كل ما في الأمر. وطبعاً، ليس الأمر بسيطاً إلى حد



الفجاجة، كأن تسحب حصيلة عمرك من المصرف، وتطلب من أحد المارة الذي صادفته للتو، إذا كان لديه أي مانع من إبقاء هذا المبلغ في عهده لفترة من الزمن، لكنني أدعوك أن تبذل كل ما في نطاق قدرتك لتهيئة التربة الصالحة لإقامة علاقات صداقة مؤسسة على الاحترام المتبادل، وضمناً على الثقة.

اسعوا لملاقاة أصدقاء يمكنكم الثقة بهم في الأمور الصغيرة، وسيتطور الأمر معكم لتثقوا بهم في القضايا الأكثر أهمية. ويحتاج كل إنسان لصديق يتكل عليه ويثق به، وينسج وإياه الأحلام المشتركة. وإذا لم يكن لديك صديق من هذا الطراز، فأنت في هذا تفتقد لواحد من أعظم كنوز الحياة.

أين يمكنكم ملاقة هذا الصديق؟ في كنيسة، في العمل، في النادي المهني أو منظمة اجتماعية، وفي نادي للسيارات، وفي المدرسة وفي غيرها من الأماكن، فهناك أناس طيبون وجديرون بالثقة أتى تتجهون إذا حاولتم جدياً نشدان واحد منهم.

6 - **تغلبوا على الحق على الذات:** غالباً ما يتعرض أولاد مدمني الكحول في صيرورة نحوهم إلى نوع من الإيذاء الجسدي أو اللفظي. فمن الممكن أن تستحوذ على الشخص المدمن كحولياً سورة غضب وإحباط، يفرغها في توجيه سياطه إلى الآخرين، بما فيهم قرينه الزوجي وأولاده. وربما يدخل في روع الأولاد أنهم يستحقون تعنيف والدهم المدمن كحولياً لهم. لأنه إذا خوطب أحدنا من قبل والده أنه طائش<sup>(\*)</sup> ولائرجى منه خير، فيشق عليه عدم تصديقه حتى لو كان يعرف أن الكحول قد سلبته القدرة على التفكير المتوازن. بل ربما يظن كذلك: «إنني على الأرجح السبب الرئيسي الذي دفعه لتناول الخمر أول مرة». وهذا غلطاً، فلا علاقة لك أبداً بذلك، وهذا هو الأمر الأول الذي ينبغي عليك معرفته. لذلك خاطب نفسك بالعبارة التالية حتى تنغرس عميقاً في فؤادك: «لا علاقة لي بتناول أيي للخمر، لا علاقة لي بتناول أيي للخمر»، وردّها مرات ومرات حتى يتبين لك أنك مقتنع بها وتقصدتها فعلاً.

وهناك في هذا المنحى نفسه عدّة نقاط أخرى، يتعيّن عليك حفظها في الذهن:

- تستحوذ على الشخص المدمن كحولياً حالة غضب ومرارة من نفسه ومن نصيبه في الحياة، لذلك فإنه ينفجر مراراً على نحو أعمى في وجه أي شخص يقع تحت ناظره، ولست مقصوداً أنت تحديداً بسورة غضبه.

- من طبع بعض الناس ميلهم الدائم إلى الانتقاد، فهم يكثرّون الشكوى من أي كان ويقصدونه بانتقاداتهم مخاطبته بالفاظ قاسية وجارحة، وليس بوسعك إرضاء هؤلاء الناس، مهما حاولت.

- لست مضطراً أبداً أن تصدّق ما يتفوّه به أي شخص أمامك، حتى لو كانا والديك، بل خصوصاً والديك، إذا كانا يسيقان ممارسة وظيفتهما الأبوية.

- أنت شخصية إنسانية فريدة. شخص مخلوق على صورة الرب. ولا أحد غيرك على سطح هذا الكوكب يمتلك مواهبك وكفاءاتك نفسها. ضع في ذهنك أنه لا يوجد شخصان لديهما بصمة الأصابع نفسها، وهذا مثال بحد ذاته على درجة خصوصيتك الفردية. إذ أنك تُخلقت ووُضعت على هذه الأرض لغاية لا يعلمها إلا الله. هل شاهدت يوماً المصق الذي يقول: «أنا أعرف أنني شخصية استثنائية، لأن الرب لا يخلق أشياء غير جديدة؟»، وهذا صحيح بالتأكيد، ويجدر بك أن تقتنع به، وخصوصاً تجاه نفسك. تذكر أيضاً أن هناك عدداً من المنظمات الممتازة ومجموعات الدعم والتي يمكنها تقديم العون لأقارب الأشخاص المدمنين كحولياً، حتى على مستوى الحالات الأكثر استعصاءً، إذ أن الدعم وصحبة أشخاص يعرفون جيداً الشروط التي تتمرّع بها، لأنهم أنفسهم يعيشون الشروط نفسها، إنما هما مسألان بالغا الأهمية. فإذا شئت العثور على هكذا مجموعة في منطقتك، ما عليك إلا أن تقلّب صفحات دليل هاتفك على عنوان (ظاهرة الإدمان الكحولي)، وتقرأ ما تحته.

7 - لاقمّحوروا حياتكم حول مسألة الإدمان الكحولي: يحدث في أي عائلة مصابة بداء الإدمان الكحولي، أن يصبح المرض مركز اهتمام كل فرد منها،

ومن اليسير علينا فهم سبب ذلك، فهي تخيّم بظلمها على كل ما يحدث في سياق حياة العائلة.

«هل يا ترى ستسكر أُمي اليوم عند عودتي من المدرسة إلى البيت؟».

«أمل أن تسير الأمور على ما يرام ونخرج في نزهة كما وعد البابا، لكنه على الأرجح سيسرف في تناول الشراب، ويفسد كل شيء مرة ثانية».

وعندما يشاركك حياتك شخص مدمن على الكحول، فإنك ستجد نفسك مُقسراً على العيش يوماً بيوم، ولن يكون بوسعك رسم أي خطة مستقبلية، لأنك لاتعرف ما سيجمله لك الغد، وستأخذ الحياة مساراً عشوائياً<sup>(٥)</sup>، بالطريقة نفسها التي تلخط لعبة المرأة المضحكة ملامح وجه الإنسان.

وعبّر الدكتور أندرسون سيبكارد عن الأمر على النحو التالي: «سواء استعاد الشخص المدمن كحولياً وضعه السوي أم لا، فمن الأهمية بمكان أن يتعلم أفراد الأسرة إبعاده عن احتلال مركز تفكيرهم، وبأن يملأوا فراغهم باهتمامات ونشاطات متجددة، ويتطلب الانفكاك عن أسر الدوران حول موضوع الشخص المدمن كحولياً بالنسبة للبعض قدراً هائلاً من الشجاعة، وسيحتاجون كدفعة ابتدائية كمأ كبيراً من الدعم والتشجيع من الأصدقاء ومن بقية أفراد العائلة»<sup>(٣)</sup>.

وتذكر مرة أخرى أن الأسلم أن تحافظ على التوازن في حياتك، فلا تبالغ في الأمر وتُشرك نفسك في عشرة نشاطات مختلفة دفعة واحدة، لكي لاتجد نفسك ملزماً على التفكير تجاه الآخرين، بالطريقة نفسها التي تصرفُ وفقها مارتا على سبيل المثال. لكن اللجوء إلى تنمية بعض الاهتمامات البرانيّة، ستدراً عنك هموم مسألة الإدمان الكحولي.

٨ - احرصوا على إبقاء خطوط التواصل مفتوحة: إن العائلة التي انشكبت بظاهرة الإدمان الكحولي هي على العموم مكان يجري فيه وعلى نطاق واسع ما دعاه شكسبير «جمعجة بلا طحين»، فهناك أعداد لاتحصى من الكلمات الفارغة تصطفق في الهواء، ويُنفّوه بها غالباً على هيئة صراخ وزعيق، سواءً

من قبل الشخص المدمن كحولياً، أو يوجهها شخص آخر إليه... لكن مع نذر يسير جداً من التواصل الحقيقي.

وهكذا يكثر اللغط والقليل والقال لكن دون حد معقول من الإصغاء. وإبقاء خطوط التواصل مفتوحةً يعني قدرتك على شد الشخص المدمن كحولياً لإعطائك الأذن الصاغية، فإذا خيَّب سلوكه ظنك فأخبره بذلك، لكن بأهدأ وألطف أسلوب ممكن، وبدون رفع وتيرة صوتك، أو العمل على إذلاله. ضع في ذهنك أن التواصل لا بد أن يكون معبراً باتجاهين لذلك يتعين عليك إعاره وقت خاص للإصغاء إلى بقية أفراد عائلتك بما فيهم الشخص المدمن كحولياً.

ولا تتوفر إمكانية لتحقيق أي تقدم بدون تواصل من القلب إلى القلب، وتزداد إمكانية نمو الحوار ومداه بقدر نزاهته، وصدقه.

وإذا ألفت نفسك في حاجة للمساعدة على فتح وتوسيع خطوط التواصل تلك، أو على تدارك الأضرار التي سببها الإدمان الكحولي في عائلتك، فأنا اقترح أن تلجأ إلى الأخصائي النفسي الخاص بالأسرة، واضعاً في ذهنك أن من الضروري إيجاد أخصائي نفسي يفهم الحالة، ويقتصر هدفه على تقديم العون لعائلتك خلال الأوقات العصيبة فإذا توترت في معالجة نفسانية لم تعجبك الطريقة التي تجري فيها، فما عليك إلا الانسحاب منها وقصد أخصائي نفسي آخر. وليس ثمة أي قانون يقول إنه ينبغي عليك الاستمرار في التعامل مع الأخصائي النفسي الذي بدأت معه المعالجة. لكن كل ما يمكنني قوله إن إيجاد أخصائي نفسي كفء وحريص يُعتبر أحد أفضل الخطوات التي تقوم بها عائلتك طوال تاريخها.

## الفصل الحادي عشر

### السّرّ المروّع

مرّ عشرون عاماً على الزواج السعيد لكارلا من باري الذي يعمل مدرساً للغة الإنكليزية في إحدى الثانويات، والذي أثبت قدرته على غرس هواية الأدب والإنشاء في صفوف طلابه.

وفي إحدى الأماسي الصيفية أصيبت كارلا بنوبة صداع شديد أبى أن ينفك عنها، فما كان منها إلّا إعلام زوجها بضرورة مغادرتها إلى الفراش قبل ساعة من المعتاد. وتركته يشاهد برامج التلفزيون مع ابنتيه اللتين تبلغ الكبرى منهما أربعة عشر ربيعاً والصغرى اثني عشر ربيعاً. وغرقت في النوم فور إسناد رأسها على الوسادة، وبقيت مستغرقة في النوم لمدة ساعتين، ثم استيقظت فجأة، وكان السكون يعم أرجاء البيت، ولم يكن باري بجوارها، فساورتها نفسها القيام بالبحث عنه. ولم تجد أي أثر له في غرفة الجلوس أو في ركن المطالعة. أين يكون يا ترى؟ فهو ليس ممّن يستهويه المشوار في وقت متأخر من الليل. هزّت كتفها كتعبير عن الحيرة والتسليم وقترت العودة بنفسها إلى السرير. فأياً يكن المكان المتواجد فيه، فلن يطول الوقت حتى يعود. لكن في طريق عودتها إلى غرفة نومها، خطر على بالها إلقاء نظرة خاطفة على ابنتها لتطمئن إذا كانتا نائمتين في سلام.

كانت البنت الصغرى ممددة على عرض السرير مفتوحة الذراعين، ويدل تنفسها الرتيب العميق على أنها مستغرقة في النوم بعمق. لكن فور فتحها لباب غرفة البنت الكبرى تلبّستها فكرة أن شيئاً مريباً يحدث، فأدارت زر الكهرباء

بسرعة، فانتفض كيائها رعباً واشمزازاً من هول المنظر الذي تبدى أمام ناظريها. إذ أن زوجها العزيز كان يشارك ابنتهما السرير، وفي وضعية الجماع الجنسي معها. لم تصدق ما تراه بعينيها، واحتارت فيما تقول أو تفعل، فجمدت واقفة في مكانها دون حراك مثبتة نظرها عليهما. وأخيراً دارت إلى الوراء وخرجت بسرعة من الغرفة، وانطلق زوجها في إثرها، وراح، وهو ما يزال يزرر سرواله، يترجأها أن لاتسرع بالحكم، ويعدها بأنه سيوضح كل شيء. فما كان من كارلا إلا أن زعقت في وجهه:

«توضّح؟ كيف يمكنك أن توضح؟ لا أريد إلا أن تخرج من البيت..... حالاً سريعاً؟».

ورفع باري يديه وأرخاهما على كتفيها قائلاً:

«هذه روعك الآن يا حبيبتى، لا يستحق الأمر كل هذا الضيق. وأنت لاترغبين حقاً أن أرحل. دعينا ننام الآن، ونؤجل بحث الموضوع، فالصباح رباح، وستحدث في الأمر».

ولم يكن بوسعها تصديق أنه حقاً غير مكترث بكل المسألة إلى هذه الدرجة. وهي تريده أن يحزم أغراضه ويرحل، فهي غير مستعدة لإبقائه في هذا المكان أبداً، إذ أنه يمكن أن يعتدي على البنتين كزّة أخرى.

وهكذا امتثل للأمر، ولملم عدّة حاجات شخصية له في حقيبة، مصدراً زفيراً عميقاً حاراً، تعبيراً، عن عجزه عن فهم السبب الذي دفعها لأن (تبالغ في رد فعلها) على هذا النحو. وعندما همّ بالرحيل، قال بطلاوة: «اسمعيني الآن يا حبيب... بعد مرور الوقت الكافي لأن تهدأ أعصابك، اتصلي بي، وعندئذ سنجلس بهدوء ونحدث عن كل هذا الأمر».

لكن كارلا متيقّنة أن تلك اللحظة لن تأتي. فكيف يمكن لأب من المفترض منه أن يكون حنوناً ومخلصاً، الإقدام بهذه الطريقة على فرض نفسه بالقوة على ابنته؟ وتساعدت وتيرة غضبها حين أخبرتها ابنتها لاحقاً أن والدها كان يمارس الجنس معها طوال أربع سنوات. وقالت تلك البنت الكبرى والدموع تنسكب مدراراً على وجنتيها:

«أنا أكرهه، وأنت لاتعرفين عدد المرات التي صليت ودعوت فيها الرب أن يأخذ روحه بضربة مباغته، وفي كل مرة يغيب فيها عن البيت في مكان ما، أقوم بالصلاة والدعاء أن لايرجع أبداً إلى البيت».

وأضافت أنها لم تخطر أمها بالأمر «لأنني أعرف مقدار حبك له».

في حين أخبرت البنت الصغرى أمها: «كنت أعتقد أن الآباء وُجدوا ليفعلوا فينا ذلك»، وقالت ذلك ببراعة ذات صلة واضحة بالطفولة.

لقد كانت المرارة تنضح من كارلا، وهي تتحدث معي: «أول إحساس انتابني أنني فاشلة كلياً كأم. أقصد أنه توفرت بالتأكيد بعض الإشارات على أن هذا يحدث - كان لامناص من ذلك - لكن قدّر لي لسبب أو لآخر أن أفشل في التقاطها... وربما أردت بمحض اختياري أن أتجاهلها.... واسترجعت في ذاكرتي كل تلك المرات التي وتخت فيها البنات لأنهما كانت تتكلمان بطريقة لاتنم عن الاحترام لوالدهما، أو حين تبخسان قيمة أشياء فعلها من أجلهما. لقد كان خلال كل هذه الفترة يُكرههما على ممارسة الجنس معه ويعتدي عليهما».

لقد تحدثنا في الفصل السابع عن ظاهرة الإدمان الكحولي، ويمكنني الآن الإضافة إلى ذلك أنني قرأت إحصاءات، أعتقد بصحة ما ورد فيها، تقول إن 55% من العنف الذي يحدث ضمن نطاق الأسرة يمت بصلة لظاهرة الإدمان الكحولي. ويتجلى قسم من هذا العنف في هيئة أب مدمن كحولياً، وهو يختطف أقرب أداة خشنة إليه، ويهاجم بها زوجته وأولاده، وهذا سلوك فظيع. لكن ما يمكن اعتباره جريمة بالمقاييس الأوسع، هو ذلك العنف الذي يتجلى في الهيئة التي أخذها في بيت كارلا. أب يغتصب ابنته اللتين من صلبه.

وهذا شيء فظيع، مأساة فظيعة، يتسبب الإدمان الكحولي، كما يبدو بسطوع، في زيادة فرص حدوثها في عائلة معينة دون أخرى. إلا أنه يجب الاعتراف مع ذلك، أنها تحدث في أي عائلة، وفي كافة أنحاء البلاد، سواء دخل الكحول في المعادلة أم لم يدخل.

هل تعلم أن واحدة من كل أربع بنات أمريكيات، تتعرض لتحرش جنسي من قبل أحد أفراد عائلتها، أبوها أو عمها أو خالها أو أخوها أو ابن عمها؟! وربما يبدو ذلك صعباً على التصديق، لكنه حقيقي، وحقيقي أيضاً أن البنت البكر هي الأكثر تعرضاً لذلك.

وعندما سمعت ذلك الرقم أول مرة، لم أكن أميل لتصديقه أيضاً، لكن سنوات ممارستي كاختصاصي نفساني أقنعتني أنه إذا كان ثمة خطأ في ذلك، فهو أن النسبة المثوية متدنية جداً. ووصل بي الأمر إلى الحد الذي كنت أسأل مراجعاتي النسوة، بصيغة أخذت تقريباً شكلاً روتينياً: «متى تعرضت أول مرة للتحرش الجنسي في البيت؟». وفور سماع هذا السؤال، ترسم عادةً معالم الجرح على وجه الزبونة، ويلي ذلك عبارة أو عبارتين تعبران عن الاحتجاج والاستنكار. ثم تنفتح بعد ذلك بوابات الطوفان، وسيلٌ من الدموع المختلطة بالكلمات المتلعثمة عن القصة: «لقد كنت في الثامنة من العمر، وكانت أمي قد ذهبت لتمضية عدة أيام عند أختها لإعانتها....».

ولابد أنكم عندما تفكرون في الرجل الذي يقدم على التحرش الجنسي بابنته، فستشكلون على الأغلب صورة محددة عنه في مخيلتكم، فهو غير مثقف، ودنيء، وبشيء من الرذالة والصبيانية، ولم يتولّ أي منصب ذي قيمة في حياته. وربما تتوارد إلى الذهن صورة عنه على هيئة شخص يجرجر جسده إثر خروجه للتو من مستنقع طيني، إنها لوحة تتضمن إثارة لكنها غير دقيقة، فالرجل الذي يتحرش جنسياً بابنته هو طبيب ومحام ومهندس ومحترم في وسطه الاجتماعي، وربما عضو نشيط في الكنيسة، ويدل على أنه يعيش حياة زوجية سعيدة. فهذه مشكلة تخترق كل الطبقات الاجتماعية بكافة مستوياتها وأشكالها.

وباعتبار أن الإبن البكر لأب (أو أم) مدمن كحولياً هو الذي يتحمل غالباً معظم المعاناة نتيجة لإدمان والدته أو والده، فإن البنت البكر عادةً هي التي ستعرض للاغتصاب وكأداة تفرغ جنسي لأبيها ذاته، فلأنها الأكبر سناً فهي في



معظم الأحيان الأنثى التي يلتفت إليها والدها. وهي لن تُلغي نفسها مكرهة على التعاطي فقط مع ما يمارس معها، بل تصبح أيضاً حامياً ضرورياً عن عذرية أخواتها الأصغر سناً، إذ يساورها القلق باستمرار عليهن، ولا يرتاح لها بال حتى تتيقن من أنهن لسنَّ وحيدات مع «باباهنَّ العزيز». فهي ربما ترى أنه فات الوقت الذي كان يمكن لها فيه إنقاذ نفسها، لكنها تحس بالمقابل أنه لامناص لها من لعب دور الملاك الحارس لأخواتها الأخريات.

ما نوع الثقة التي تضعها بنتٌ يافعة في أبيها؟ إنها عادةً لن تتردد أبداً في أن تفعل بالضبط ما يطلب منها، وأياً يكن هذا الشيء، فهي تؤمن بنواياه تجاهها وتعرف أنه لن يُقدم على أي تصرف يهدف لإذائها. فهو الذي يُمكنه رفع طفلة لها من العمر ثلاث سنوات ووضعها على حافة جدار عالٍ، ثم يهتف لها: «اقفري وسيلتقطك البابا»، ثم سيلتقطها كاحتمال شبه أكيد. لكنني أرى وبالمقدار الذي أجد فيه نفسي معنياً بالأمر، بأن الأب الذي يتحرش جنسياً بابنته مثله مثل من يتنحى جانباً ويدع ابنته تخبط على الأرض. لقد أثنته على حياتها، لكنه ليس جديراً بذلك.

وعادت الأمور إلى مجاريها الطبيعية بالنسبة لكارلا، وذلك بعد تحمّلها عناء عبور مسار شاق طويل. وكذلك الحال مع ابنتها، لكن لم يكن الأمر بتلك السهولة، إذ أثّلت البنت الكبرى على نحوٍ خاص بكوايس متواترة، يدخل فيها أبوها عنوةً إلى البيت ويغتصبها.

أما بالنسبة لباري فيها قد مرّت ست سنوات حتى الآن، ويصر على عدم إقراره بحجم الفعل الذي صدر عنه، وتقول كارلا: «مازال يتصرف كما لو أن الأمر ليس ذا شأن كبير، وواصل الطلب مني أن نرجع لبعضنا، ولكنه لم يعبّر حتى مرة واحدة للبنات عن أسفه. فهو يرسل لهما هدايا ومظاريف تحوي نقود في داخلها وعطور، وأشياء من هذا القبيل - لكنه لم يظهر أبداً حتى لدقيقة واحدة أي دلالة على الندم أو حتى إدراك ما فعله لبنتيه».

وبعد وقت قصير من كشف كارلا لما كان يفعله زوجها لبناتها، قامت

البتت الكبرى هولي بيوح عاطفي، وذلك عندما أخذتها إحدى معلماتها جانباً وسألتها عن ما دهاها، فلقد أدركت المعلمة أن شيئاً ما كان يقصّ مضجع البنت، وداهمها القلق عليها. أما هولي فإنها إثر جيشان مشاعرها باهتمام المعلمة بها، ولأنها في حاجة لشخص تتحدث إليه، أفضت بكامل القصة إلى معلمتها الجالسة بجوارها، مصغيةً والدموع تنهمر على مآقيها. وبعد أن أنهت هولي قصتها اعترفت المعلمة بأنها كانت هي أيضاً ضحية اعتداء جنسي في طفولتها، وأنها احتفظت بالأمر سرّاً لنفسها لأكثر من عشرين عاماً، ولم تخبر به أحداً على الإطلاق، ولا حتى أمها، ولكن الآن وبعد أن سمعت قصة هولي، لم تتمالك نفسها عن إشراكها في سرّها. ثم جلست ضحيتا الاعتداء الجنسي لصق بعضهما، متعانقتين، مضمدة الواحدة للأخرى جرحاً غائراً في الفؤاد.

هل هذا توافق عرضي يحدث بنسبة واحد على مليون، بأن تكون معلمة هولي أيضاً ضحية أخرى من ضحايا الاعتداء الجنسي؟ لا، فالاعتداء الجنسي هو بالتأكيد على تلك الدرجة من الشيع.

ودعوني أحيطكم علماً الآن أن كارلا لم تكن من نوع المرأة المتميزة القوة، فثمة مرات كاد فيها زوجها أن يتمكن من إقناعها بأن عليها أن تستقبله ثانية في البيت، لكنها بقيت في النهاية ثابتة الجنان، وأنا بدوري أشعر بالسعادة والحبور لسلوكها هذا وأجد لزاماً عليّ الآن القول إنني لست عادةً من مجذبي اللجوء إلى الطلاق كحل، لكنني أحيي كارلا لأنها تصرفت بإحساس عالٍ بالمسؤولية بصدد هذه القضية، إذ أن هاتين البنتين الطريتين العود، ليستا بحاجة في البيت لأب يعتدي عليهما، وإن إثارت سعادتهما وهناءهما على رغبته بالعودة إلى صفوف الأسرة إنما هو اختيار حكيم. فلقد كان بإمكانها القول: «حسناً... إنه معيل لاغبار عليه، وهو في المحصلة زوجي...»، أو شيئاً من هذا القبيل، إلا أنها لم تفعل، بل استجمعت شجاعته، وأبعدت زوجها عن مرأى النظر، وأخذت بنتها على وجه السرعة إلى العيادة النفسانية.

يقتضى على أي بنت وقعت ضحية اعتداء جنسي، في وقت سابق من

حياتها أو هي الآن كذلك، أن تذكر أنها ليست خطيئتها، وإن آخر ما يمكنها التفكير فيه هو إهالة قسط من الذنب على نفسها فوق كل ما تنوء تحته.

ويقتضى عليها أيضاً ألا تستكين وتكبت آلامها، بل الوقت مناسب الآن وفي كل وقت لفعل شيء تجاه هذه المسألة، وليعرف شخص آخر ما يجري أو ما جرى خلال تلك السنوات الماضية. ويجب عليها أن تسيطر على مجريات حياتها، ورجائي لها أخيراً أن لاتظن أنه لاحيلة لها تجاه الخضوع للسلوك العدواني لأي شخص كان.

قصدي في عيادتي عدد كبير من النساء اللاتي تعرضن لتحرشات جنسية في وقت سابق من حياتهن، وهنّ منذ ذلك الوقت وحتى الآن يئنّون بحمولة تقارب عشرة أطنان من التوتر الغاضب ومشاعر الإثم، وتميل الضحية النموذجية منهن لتوجيه غضبها باتجاه والدها أو عمها أو أي شخص تحرّش جنسياً بها، وذلك أمر ممكن فهمه وتبريره بالتأكيد. لكن عندما أبدأ بسبر المسألة على نحو أعمق أكتشف أن الشخص الذي تمتعض منه أكثر من الجميع هو ذاتها، وتشعر في أعماقها الداخلية أنها تستحق الاعتداء عليها جنسياً، أو أن سلوكاً صدر عنها كانت عاقبته ذلك وما ذلك إلا كلام فارغ! وهو بالتأكيد غير صحيح!

هناك ضرورة إذن لأن تصفح ضحية هكذا اعتداء عن نفسها، ولأن تفهم بأنها ليست خطيئتها، ثم أن تعمل على تغيير حياتها بما يضمن عدم حدوث ذلك مرة أخرى!

وفي كثير من أحاديثي مع نساء تعرضن في وقت أو آخر لتحرش جنسي، كنت أكتشف أنني الشخص الأول الذي يسمع بهذا الأمر، ومع أنه ربما جرى قبل عشرين سنة، وكانت طوال كل هذه السنوات تحمل في صدرها هذا السر الفظيع، دون إفشائه لأي كان. ولاتدري ماذا سيظن الناس عنها إذا اكتشفوا ذلك.

وروت لي واحدة من هذه الصبايا، وسأدعوها روز ماري، بببارات تخنقها الدموع، كيف أنها وَصَلَتْ في سن الخامسة عشر إلى حد حزم حقائبها والتصميم على هجر البيت، وأخبرت زوج أمها الذي كان يعتدي جنسياً عليها

طوال أشهر بأنها تنوي إطلاع أمها على ما يجري. وعندما سمع الرجل بذلك، رقع أمام قدميها وتوسّل منها المغفرة، ووعدها والدموع تترعرع في عينيه بأن ذلك لن يحدث مرةً أخرى، لأنها إذا أخبرت أمها فسينتهي بهما الأمر إلى الطلاق، ولا مصلحة لأحد في ذلك، وترجّاها أن تفكّ حقائبها وتوافق على البقاء. واستكانت البنت أخيراً للأمر، فهي بالمحصلة لا ترغب بتسبب الأذى لأمها.

ولم يعد زوج أمها يتحرّش جنسياً بها، وحدث هذا في الواقع ليس لأنه لم يحاول، بل لسبب أنها استجمعت كل طاقتها على الصبر، ولأنها كلما خطا خطوة باتجاهها أو أوما إليها ببعض الإشارات الجنسية، أخطرتة بأنه إذا لم يتركها بحال سبيلها، فإنها ستذهب رأساً إلى أمها. ولحسن الحظ أنه كان يرتعب من هذه التهديدات.

وهذّده روز ماري أيضاً بأنها ستبلّغ عنه إذا خطا أي خطوة غادرة تجاه شقيقتها الأصغر، «أنا لا أعتقد أنه لمسها في يوم ما، لكن كما تعرف، كنت في الواقع غير مطمئنة لذلك. وكان يساورني القلق عليهما طوال الوقت، لكن لم يكن لديّ الشجاعة لأن أتحدث معهما في ذلك، وهما لا تعرفان أيضاً ما يجري معي». وهكذا ساد في العائلة جوٌّ من الهدنة الخدرة على مدى سنوات مرحلة الدراسة الثانوية الثلاثة. لكن بعد حصولها على شهادة الدراسة الثانوية، ربّيت أمورها على أن تستقر في مدينة أخرى على بعد خمسمئة ميل من بيت والديها، ولمدة عشر سنوات لاحقة لا تراهم خلالها إلّا مرة واحدة في السنة. «لقد فقدت كلياً القدرة على البقاء بجوار تشارلي بعد ما فعله معي، ولم تفهم الماما الداعي الذي دفعني للتصرف على هذا النحو، وظنّنت أنني ناكرة للجميل ومتكبرة، وكنت بدوري عاجزة كلياً عن الدفاع عن نفسي. وعندما أكون بجواره كنت أحس فوراً باختلاجات اضطراب في نفسي، وبمغص في معدتي، وتتناوب رغبة ملحة بأن أضربه. مادمت لأجيد إخفاء مشاعري، فإنني أفضّل أن أنأى بنفسني بعيداً عنه». يعدّ الاعتداء الجنسي بحد ذاته انتهاكاً فظيلاً لجسد البنت الغض، إلّا أن ما يجعله ذا وقع أسوأ، هو أنه في معظم الحالات يحدث من قبل أناس أقرباء لها، أناس تثق بهم بدهياً. وأنا أعتقد أن الاعتداء الجنسي عمل أشبه ما يكون

بأخذ أروع حلّة ثياب يمكن للمرء شراءها، ثم تمزيقها إلى نصفين، ثم رمي القطعتين في عهدة أحد الأشخاص، قائلاً له:

«استلم هذا مني، وما عليك إلا أن تأخذه إلى خياط ماهر، وستعيد الحلّة إلى ما كانت عليه».

ولكن محال، فمهما كانت درجة المهارة التي يتمتع بها المرء في معالجة مثل هكذا حالات، فالندبة ستبقى ولن تزول آثار الجرح كلياً، وسيتجدّد الشعور بالألم. ورَوّت لي نساء التقيت بهنّ، بأنهنّ بذلن المستحيل لرمي ذلك الحدث وراء ظهورهنّ. لكن كلما ظننّ بأنهنّ قد نجحن في طمره مع مخلفات الماضي، يحدث أن يجمعهنّ اجتماع عائلي أو تجمع معيّن آخر، وذلك بعد فترة زمنية معينة، مع الشخص الذي تحرّش جنسياً بهنّ، فتظهر ثانية وبقوة كل تلك المشاعر القديمة من الغضب والعار والإثم والمقت الشديد.

فالأجدى بك إذن إذا كنت قد تعرضتٍ لتحرّش جنسي، أن تدركي حاجتك لأن تلجأي في زمان ومكان معين إلى كشف النقاب عن مشاعرك، أن تعبّري بالكلام عن الغضب والأذى الذي سبّبه أحد الغدارين بك. واقترحي هنا هو أن تعبّري عن مشاعرك، وعلى قدر المستطاع، في أكثر العبارات اقتراباً من لب المشكلة. وربما لا يكون من الأسلم هنا أن تشخصي بنفسك صوب والدك العزيز، لتفضي له بما خلفه على مشاعرك حدثٌ جرى منذ عدة سنوات، (لكن من جهة أخرى، ربما يستحق هذا الأمر وبدرجة كبيرة المحاولة)، فيجئ في هذه الحالة اللجوء إلى توجيه رسالة، تعبرين من خلالها عن مشاعرك بأكثر ما يمكن من الوضوح والإيجاز وإذا عجزت لسبب أو لآخر عن مخاطبة الشخص الذي تحرّش جنسياً بك سواء شفاهاً أو كتابةً، فلا تترددي أبداً في البحث عن أي شخص جدير بفهم الحالة، سواء كان زوجك أو رجل دين أو أخصائياً نفسانياً كفراً.

لكن حذار من أن تدعي نفسك في حالة من يعاني بصمت، تاركة كل مشاعر الغضب والعار هذه تحرّ في أعماقك، فهذا عبء ثقيل، وحمولة أثقل من أن تُحتمل، وأن الألوان لأن تزيحي النقاب عنها.



## الفصل الثاني عشر

### والدان نقّادان في مواجهة الإبن البكر

إن إلقاء نظرة على تاريخ نشأة ابن بكر في بيت أحد الأبوين فيه مدمن كحولي، إنما هو تسليط للضوء على تاريخ طفولة مليئة بالدموع والعذاب. وتصح الحالة نفسها حين تسترجع بنت بكر ماضيها، وتذكر أن براءتها قد سُلبت منها من قبل أب اعتدى جنسياً عليها.

لكن الاعتداء والأذى لا يأخذان دائماً صيغة أم مدمنة كحولياً أو أب معتد جنسياً، بل إن الأكثر شيوعاً أن ينشأ الإبن البكر محطّم الشخصية على يد من أدعوهما (أباً نقّاداً، وأماً نقّادة).

من هو الأب النقّاد أو الأم النقّادة بالضبط؟ ومن يشبهان؟ وهل نحن نتحدث هنا عن شخص مماثل نموذجياً للخالة زوجة الأب الشريرة لساندريللا، تلك الخالة ذات اللسان السليط واللاذع، والتي لا تكل ولا تمل من إهالة السباب على طفلتها الشقراء المسكينة؟ ربما يصح تشبيهنا هنا، نعم.

لكن من الممكن أيضاً أن تكون الأم النقّادة بطلاوة العسل وبحلاوته تماماً. فمن الممكن أن يطفح محيا الأم النقّادة بالعذوبة والضياء، وأت تبدي كل الحرص والاهتمام بابتها، ولكن على نحو يؤدي لامحالة إلى تدمير شخصية الطفلة الصغيرة، في تنوع مماثل في الجوهر لحالة (الخالة زوجة الأب السليطة). ولا تعرف الأم النقّادة أو الأب النقّاد غالباً، بأنهما يستبان الأذى لإبنهما البكر، فهما يعتقدان أنهما يضعان مصالح الإبن العليا فوق كل اعتبار آخر في سلم

أولوياتهما، لكنهما إما أن يكونا مخطئين في تصورهما هذا، أو ربما لا يعرفان الشيء الكثير عن جوهر المصالح العليا للأطفال!

ونحن هنا أيضاً نجد أن الإبن البكر في غالب الأحيان، هو من يتلقّى مقارعة الأبوين النقادين، ويعود ذلك لأنه من يُعوّل عليه عادةً أكثر من غيره، ولأنه أيضاً (حقل التجارب). فربما أدرك والدها بيتسي (على سبيل المثال)، عند دخول ابنتهما مرحلة الدراسة الثانوية، أنهما كانا خلال كل السنوات السابقة يتعاملان معها بقساوة شديدة، لذلك عزموا على تحسين تعاملهما معها ابتداءً من تلك اللحظة. وهذا خبر سار بالنسبة لبريندا البالغة العاشرة من العمر ولبوفورد البالغ سبع سنوات من عمره، لكنه لن يقدّم لبيتسي، أي نفع يذكر، إذ أن وصمتها (الاستكمالية المثبطة الهمة) قد تركت آثارها على شخصيتها مدبوغةً بحبر لا يمكن محوه!

واعتقد أن هناك عدة أشكال للتحلّي بصفة المبالغة في الانتقاد، يسبب غيرها الأمهات والآباء الأذى لأولادهم:

**التأنيب الشفاهي الفجّ والعلمي:** كنت في أحد الأيام القرية في سوق K منتظراً الضوء الأزرق الخاص بإيدان التسوّق، عندما مرّت بمحاذاتي وبخطوات ثقيلة، امرأة تستشيط غضباً. وكانت تدفع أمامها عربة تسوّق، واضعة فيها بنتاً صغيرة بعمر يقارب ربّما ثمانية عشر شهراً، وممسكةً يد طفل صغير له ملامح الخامسة من العمر. وكان من الواضح لي أن غضبها موجّه للطفل.....

- «لأعرف لماذا أحضرتك معي، فأنت لم تنفعني بأي شيء ولم تسبّب لي إلا الإزعاج...».

- «لكن، ماما». كان الطفل يكي، متوسلاً أمه إيقاف هذا الوابل من قريع الذي لازمه طوال الطريق..

- «لا أعرف كيف يمكنك أن تكون أحمقاً إلى هذا الحد، هذا هو أنت تماماً أحمقاً، أليس لديك أي ذرة عقل؟».

وكان الطفل منكس الرأس. وأنا لا أعرف ما فعل، إلا أن قلبي تفطّر تعاطفاً



معه. فربما كان قد أوقع أرضاً شاشة إلكترونية، أو كَسَّر شيئاً ما، وربما ينحصر الأمر في أنه طلب منها شراء قطعة من الحلوى أو لعبة بعد أن أبلغته بالألا يطلب منها شراء أي شيء. وعلى كل الأحوال، وأياً يكن (الذنب) الذي اقترفه ذلك الصبي الصغير، فإنه لا يستأهل ذلك الوابل من اللعنات الذي أهالته عليه أمه.

وبعد مرور برهة من الزمن شاهدت العائلة نفسها، وهي تقطع ساحة مركز وقوف السيارات، سائرين صوب سيارتهم. لكن في هذه المرة أفلت الطفل من يد أمه وتقدم عدة خطوات في الممر النازل. لحظة قدوم سيارة باتجاهه، ويمكنني الآن تكثيف الموقف بالقول إنه لم يتضمّن من الناحية الواقعية أي خطورة، إذ لم يجد السائق نفسه مضطراً للإنعطاف الحاد لتفادي صدم الطفل، أو لأن يكبس بسرعة على كوابح السيارة، بل إن الأمر لم يتعدّ عدم وضوح الرؤية في الممر، لكن مرة أخرى بدأت الأم في الصراخ:

«بدلاً من هذا الصراخ والعيول، ييلي، انتبه إلى ما تفعله!».

ثم صاحت، بصوت متهكّم: «صح<sup>(٥)</sup>، هذا عين الصواب! وانطلق رأساً! أركض إلى أمام السيارة واقتل نفسك. كَيْتَ ذلك خاتمة أحزاني: أليس كذلك؟!».

وواصلت الأم تقريرها الحاد لابنها طوال الطريق إلى سيارتهم الصالون، ولم أستطع سماع العبارات التي كانت تتفوّه بها، لكن دلائل الغضب والاستياء كانت بادية عليها بوضوح، حين كانت تُحمّل سيارتها بالأكياس، وحين كانت تحزم الطفلة الصغيرة إلى مقعد السيارة، وكذلك حين رجعت بسيارتها إلى الخلف، وكان ابنها حينها ملاصقاً لها تماماً على مقعد السيارة. وغالبتني رغبة أن أجري باتجاههم منادياً: «كفى! كفى!، ألا ترين ما تفعلن بيابنك؟»، لكن طبعاً، لم أفعل ذلك، فأنا أعلم ماذا سأسمع. والذي سيكون عبارات شبيهة بـ: «من تظن نفسك؟»، و«على أي حال ليس هذا شأنك»، ثم إثر ذلك ستفارق الأمور حتماً باتجاه الأسوأ بالنسبة للطفل. ومع ذلك فإني توجهت إلى الله بالدعاء من أجل الطفل، والتعست من الرب أن يهب المرأة القدرة على استبصار عواقب أفعالها، وأن يهبها أيضاً فضيلة السماحة الروحية لإيجاد الأعذار لابنها.

ويمكنني القول الآن، إن من الضروري إخضاع الطفل لقواعد الانضباط، إذا ارتكب خطأ ما وبشكل مقصود، لكن ليس بهذه الطريقة من التعنيف القارع، إذ أن هذا النوع من السلوك سيصدر عن الطفل إن شئنا أم أئينا. لكن يبدو أن بعض الأمهات والآباء لانهدا غلواؤهم أبداً.

«أنت مغفل بامتياز»، «يا أهبل!»، «يا معتوه» «أليس بإمكانك سلوك الصبح مرة واحدة؟!»، «أنت شخص ميثوس منه تماماً، أتعرف هذا؟ ميثوس منه!» «لم أر في حياتي ولداً أكثر فوضوية منك!»، «لاتصرف على طريقة الصغير الأخرق!»، «يا لسعادتني وهنائي عندما تغرب من وجهي!.....»

هل حدث أن خوطبتم من قبل آبائكم بعبارات من هذا القبيل؟ هل حدث أن خاطبتم بها ابناءكم في يوم ما؟ إن بعض الأمهات والآباء لا يدركون مقدار الحب والاحترام الذي يكتنه أولادهم لهم، وأنهم (أي الأولاد) يصدقون ما يقال لهم، وإذا «قالت الماما بأنني إنسان لآخر فيه، فلا بد أن ذلك صحيح».

إن الحياة عويصة على أبناء الآباء السفيهين.

**المبالغة في توجيه النقد (البقاء):** دعونا نسترق السمع إلى حديث يجري على مائدة غداء ضمت السيدة ثروكمورتون وابنتها هنريتا والسيدة بيريس بروبر. وكانت السيدة ثروكمورتون تخاطب صديقتها السيدة بروبر: «أنت تعرفين طبعاً أن أسرة ديلي قد سافرت إلى أوروبا مرة أخرى - اعتدلي في جلستك<sup>(\*)</sup>، هنريتا. وهم لن يعودوا قبل أربعة أسابيع على الأقل - هنريتا، حبيبتي» رجاءً حاولي ألا تشفطي<sup>(\*)</sup> الشوربا بهذه الطريقة. لذلك طلبوا مني أن أعني بقطتهم النادرة والمدللة - هنريتا لا تحني ظهرك<sup>(\*)</sup>، وارفعي كوعك<sup>(\*)</sup> من على الطاولة، لكن كما تعرفين أنا أتحمس من ملمس الققط ... لا! هنريتا، لا، لا ينبغي أن تطوي الفوطه بتلك الطريقة!.

ماذا يجري هنا؟، هل والدة هنريتا تبالغ في الانتقاد إلى الحد المؤذي؟ إذا نحن سألناها، ستجيب: «هل أنت تمرح؟ إنني فقط أعلم ابنتي بعض أصول اللياقة».

طيب، أنا آسف مدام ثروكمورتون، لأن أقول: إن ثمة أسلوب صحيح

وأسلوب خاطئ لإجراء هذا الأمر، وإن هناك لحظة زمانية ومكانية مناسبة لتلقين التعاليم، وليس هذه اللحظة. ويبدو أن بعض الأطفال يتمرغون في غبار حياة يسمعون خلالها دون انقطاع وابلأً مطّرداً من هذه (الانتقادات البتّة).

وأنا متأكد أننا جميعاً سمعنا عدداً كبيراً منها: «اعتدل في جلستك»<sup>(٥)</sup>، «لا تمشي باهتياج»<sup>(٦)</sup>، «إيه، يمكنك ربط عقدة قميصك أحسن»، «لو أنك جرّبت تسريح شعرك هذا الصباح» «لا تتناقل في مشيتك!»<sup>(٧)</sup>... حسبك فقط ملء الفراغ باسمك! أهنك أي وجه خطأ في أي من هذه التعليقات؟ لا، أبداً، من الناحية الواقعية. وخصوصاً إذا كانت صحيحة، فإذا كان المرء يغادر مسرعاً إلى المدرسة بدون تسريح شعره، فهو يحتاج إلى شخص بجانبه يطلب منه العودة إلى الحمام والوقوف أمام المرأة لتسريح شعره. وإذا كان يمشي بطريقة هوجاء أو يجرجر أقدامه، فمن الأمور الحسنة أن يهتم أحد ما بوضعية جسده، لكن المشكلة تكمن في عدم سماع الأولاد شيئاً سوى هذا السيل الجارف من الانتقاد.

وهناك آباء سريعو الإشارة إلى أخطاء أولادهم، لكنهم يحجمون حتى عن فتح أفواههم عندما يصدر عن أولادهم تصرفات حسنة. وفي هذا يرتكب الآباء خطأ، وأي خطأ!

عمل كل شيء عوضاً عن الطفل: وهذه مصيدة خطيرة أخرى يقع في شركها عدد كبير جداً من الأبناء البكر. ولقد أتيت باختصار على ذكر ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

ولنتحدث الآن عن الإبن البكر بروسي الذي طُلب منه في المدرسة وظيفة مشروع أشغال، فصمّم على أن ينجزه على الوجه الأمثل الذي يرضي غروره. وصادف أن كانوا يُدرّسون في صفهم (شعب الأسكيمو) وطرق حياتهم. لذلك ارتأى أن يصنع نموذجاً للمسكن التقليدي لهذا الشعب. فاستخدام مكعبات السكر بدلاً من الأحجار الجليدية ورفضها فوق بعضها. وشكّل عدداً من حيوان الرمة من قصاصات أوراق التشكيل الملونة، وثبّت مجمل هذه الأشياء داخل علبة أحذية. لكن المشكلة أن الكوخ الجليدي بدا في النهاية وكأنه أحد الملاكات العقارية للمدينة الحديثة، بينما بدا ما يُفترض أنه مجموعة من حيوان الرمة، أقرب

في شكلها إلى ديوك رومية مقدّمة على مائدة عيد الشكر، وشاء بروسي أن يُري أمه حصيلة شغله اليدوي، فناداها ووقف بجانبها ناظراً إلى ما أنجزه بخيلاء طاووس منفوش الريش. لكن الأم قاومت حافزاً داخلياً يدفعها للقول: «بروسي، ماذا تفعل الديوك الرومية تلك في صقيع القطب الشمالي؟!». لكنها بدلاً من ذلك أخبرته بأنه أنجز عملاً رائعاً، ثم أرسلته للعب خارج المنزل. وبدأت فور اجتيازه عتبة البيت خارجاً بفرز كل جزء من مكّونات العمل على حدة، ثم أعادت تصميمها من جديد.

لكن بروسي ليس شخصاً بليد الذهن، لذلك لاحظ بعد عودته أن ثمة تحسينات ملموسة قد طرأت على ثمرة مجهوده الأصلية. وبالرغم من كونه لم يتعدّ حدود الثامنة من العمر إلا أنه يدرك ماذا يعني هذا، فحصيلة عمله ليست مقبولة الإتقان، وفي هذا رسالة غير سارة للطفل، وربما سيمرّ وقت طويل قبل أن يستعيد القدرة على الاعتزاز بما ينجزه من أعمال.

أو تصوروا معي الطفلة الصغيرة نيلفينا، وهي تجلس إلى مائدة الطعام مع بقية أفراد عائلتها، محاولة للمرة الأولى في حياتها تقطيع قطعة لحم في صحنها. كل ما يمكن قوله إن حركتها البطيئة وغير الواثقة من نفسها كادت أن تصيب الأب بنوبة جلطة دماغية وهو يلقي بأنظاره عليها. ففي البداية أمسكت السكين بشكل شاقولي:

- «لا، يا عزيزتي، فهذا يجري بأسلوب آخر».

- «هكذا؟».

- «نعم يا عزيزتي هذا منتهى الروعة. لكن، الآن، لكن....». فهي الآن تضع السكين أمام الشوكة بدلاً من وضعها خلفها، وهذا ما أدّى إلى أن تفتل قطعة اللحم في الصحن دون التمكن من السيطرة عليها وقطعها. وما أن قوّم والدها الوضع بشكل سوي، حتى حرّث قطعة اللحم بحركة عنيفة، كادت أن تدلق كوب الحليب على الأرض، وبلغ السيل الزبيّ مع والدها، فتناول منها الصحن بعنف:

- «هاته، وسأقطع اللحم عنك».

- «لكن يا بابا، لديّ رغبة أن أفعل ذلك بنفسي!».

- «كنت أراقبك طوال الفترة الماضية، وتبين لي عجزك عن ذلك!». فإذا قُدِّر لك متابعة عملك بمعدّل الأداء نفسه، فستبقين هنا حتى الثلاثاء القادم!. لا، سأقوم بذلك عنك!».

ويُعدّ أمراً سيئاً جداً هنا، أن يفقد والد ميلفينا قدرته على الصبر، ولا يترك ابنته تقطع قطعة اللحم بنفسها، وبأن والدته روسي لم تدرك بأن أكثر ما يهم في الأمر هو أن يبدل ابنها قصارى جهده. وأرسل كلاهما عبر سلوكه رسالة فحواها: «أنت لست ماهراً بما يكفي لتدير شؤون نفسك بنفسك، وأنت ستعوز دائماً شخصاً يقف إلى جانبك، ويخلصك من الورطات التي تُلفي نفسك فيها».

وسيتطوّر هذا الأمر لاحقاً، بأن يقوم والد ميلفينا بإنجاز مشروعها المدرسي العلمي عنها. في حين ستنهض والدته روسي من فراشها صباح كل يوم خلال فترة امتحانية تحريرية لإبنها، لمساعدته على إنجاز وحل الأوراق الامتحانية وتسليمها في اليوم نفسه.

وإذا أخطرت أيّ والدين أن هذا النمط من السلوك، هو من الناحية الجوهريّة ذو طابع (نقاد) للطفل ومؤذٍ، فأنا على يقين أنهما سيعتقدان أنك تقتل قضية بهدف الإثارة، لكن الحقيقة هي أنهما لا يتحان المجال لأولادهما أن يكبروا ويفوا حاجاتهم بأنفسهم، وليشعروا بالرضى عن أنفسهم، بل إنهم سيضعون في تصوّرهم مسبقاً في مستقبل أعمارهم أن أي عمل ينفذونه محكومٌ عليه بالإخفاق وسيكون دأبهم دائماً البحث عن شخص يخلصهم من مأزقهم.

**تقرير مصير الطفل عنه:** كنت قد رويت لكم سابقاً قصة صبية شابة جاءتني العيادة وكانت تضطرم بالغضب والحلق من والديها، وتعاني أيضاً من انتقاص كامل في اعتبارها لذاتها. وكان يعسر عليها أول الأمر تقدير ما كان قد حدث معها وأذى بها لهذه الحال، لأنها عندما استعادت بذكرياتها طفولتها، فإن كل ما أمكنها تذكّره كان مسائل باعثة على البهجة والسرور. فلقد تلقّت دروساً في العزف على البيانو على مدى سنتين، واكتسبت مهارة في فن الباليه، وفي رياضة الجمباز، وشاركت سنوياً خلال الصيف في معسكر ترفيهي مغلق. وعاشت أسرتها وسط أجواء لا تبعث إلّا على الرضى والمسرّة، وكانت تنال دائماً

كل ما تتمناه في أي موضوع كان. حتى وصل الأمر بوالديها إلى حدّ بذل كل ما بوسعهما، ليؤمّنا قبول ابنتهما في واحدة من أعرق الكليات الجامعية في البلاد، ورغم أنهما في الواقع لا يصحّ عليهما إطلاق كلمة ميسورين مطلقاً، إلا أنهما ربّما أمرهما على نحوٍ يوفّر لهما القدرة على دفع كافة مصروفات دراستها هناك. أي أنها كانت بالمحصلة تنال دائماً كل ما تعوزه أو ترغب به، فلماذا إذن تفتقر إلى الثقة بنفسها على هذا النحو؟

عندما نمن النظر في الوقائع بإمعان أشدّ بقليل، فسيبتدئ أماننا نموذج مثير للاهتمام.

- «هل كنت راغبة حقاً بتلقّي تلك الدروس في العزف على البيانو؟»  
- «لا، مطلقاً. لكن أُمّي كانت مهتمة جداً بأن أتعلّم العزف على البيانو. وعندما توصّلت أخيراً وبعد سنتين إلى إقناعها بأن تجيز لي التوقف عن تلك الدروس، كنت أعلم أنني في الواقع قد خيّبت أُمّها».

- «والباليه؟»  
- «أتذكّر أنه دفعني إلى البكاء في الحصّة الأولى منه، لقد كرهته... على الأقل في البداية».

- «لكن أُمك...»  
- «آه، نعم... لقد أصرّت».

وتبيّن في النهاية أنه حتى الكلية الجامعية التي انتسبت إليها كانت الكلية نفسها التي تخرّج منها والدها.

ومع أن الاهتمام الحقيقي للورين كان ينصب على تحصيل شهادة علمية من مدرسة للفن، إلّا أن والدها كان راغباً منها تحصيل نجاحات في عالم الأعمال، وهذا ما جعلها تحصل على شهادة في إدارة الأعمال!

وكما ترون، كان والدا لورين يريدان دائماً (الأحسن) لإبنتهما، وهما حصراً من يعرف ماهية ذلك!

وليس الأمر كذلك فحسب، بل يُصابان بخيبة أمل في كل مرة تتوقف

فيها لورين عن متابعة المسار الذي أملا منها أن تصل إلى نهايته. وهي تحسّ بخيبة الأمل هذه، رغم أنهما في الواقع لا يشخصان بأنفسهما صوبها قائلين لها «لقد خيّت أملنا»، إلّا أنهما يُظهران ذلك بأساليب وإيماءات شتى. فعندما توقفت عن متابعة تلقّي دروس العزف على البيانو، كانت لغة التعابير الحزينة على وجه أمها وتهديداتها وحركاتها الجسدية أمام ابنتها تحمل في ثناياها الدرجة نفسها من الانكسار فيما لو أنها سارت صوب البنّت وقالت لها:

«أعتقد أنك بلهاء فعلاً، لأنك لم تواصلِي دروس تعلّم العزف على البيانو!».

أي أن والدي لورين كانا في الواقع، أكثر لطفاً بكثير من أن يقولوا لها جهرأً أي كلمة متعلقة بالموضوع، إلّا أن لورين كانت تتلقّى الرسالة بأنها خيّت أمل أمها وأبيها فيها. بل كانت نفسها اللاواعية تحدثها بـ:

«يا الله، كم هو طويل بال أمي وأبي المسكينين!، إنهما حريصان على بذل كل ما يوسعهما ليبدوا لطيفين جداً معي، في الوقت الذي أوصل فيه تخيب آمالهما!».

وتوصّلت لورين في نهاية المطاف إلى القناعة معي بأن والديها كانا من الناحية الفعلية ذوّي نزعة نقّادة لها، رغم أنهما لم ينبرا مطلقاً في وجهها، ولم يسيماها بأي واحد من النعوت والألقاب المهنية، ولم يشتماها لا بهذه الطريقة ولا بتلك. فها هي الآن وبعد أن وصلت إلى مرحلة متقدمة من العمر تتخبط في وضع لا يُحسد عليه، مُستنزفة القوى تماماً، تتأكلها الظنون في كل خطوة تخطوها، ومرتابة في قدراتها، وحاطة من قَدَر نفسها، وتتمرّ كذلك في أوقات عصيبة جداً حين يُطلب إليها اتخاذ قرار حول أي مسألة كانت، باحثة دائماً عمّن يحدّد عنها خياراتها. وهكذا أخذت الأمور معجراً حسناً بعد أن أدركت لورين أن ثقتها المزعزعة في نفسها عائدة إلى الأسلوب الذي تعامل به والداها معها باستمرار، وأصبحت مهتأة للسعي لتخفيف غلوائها على نفسها، لأخذ ناصية التفكير عن نفسها، وبما يتماشى مع رغباتها الحقيقية لأول مرة في حياتها، وصارت تُعمل عقلها في أي مسألة بطريقة مختلفة عن السابق، ولم يعد يرودها

أي شعور بالذنب فيما لو ارتأت لنفسها أمراً لا يستقيم مئة في المئة مع مايرتأيه والداه لها.

هل حالة لورين من النوع غير المؤلف؟ لا، مطلقاً فأنا أعرف عشرات من الرجال والنساء ممن تماثل حالتهم حالتها، أناس لم يبلغوا طور الرشد كأشخاص متزينين، ولا يتمتعون بثقة بالنفس، لأن أمهاتهم وآباءهم دأبوا على عدم تركهم وشأنهم.

## تصفية الحساب مع الماضي

إن الرضوض الناشئة عن سلوك الوالدين النقّادين مع أبنائهما، تُرخي أحياناً بظلالها السلبية عليهم طوال حياتهم، فمن الممكن أن يناهز المرء التسعين من عمره، ويظل، مع ذلك، يتعاطى مع مجريات الحياة على أرضية الأسلوب الذي تعامل فيه والداه معه في مرحلة الطفولة. أو ربما أصبح عمر المرء خمساً وخمسين عاماً، ومازال مضطراً أن يتحمّل ويصبر على والدين نقّادين وصعبي الإرضاء، والوالدين ليسا على استعداد أبداً لأن يعترفوا بأنه أصبح راشداً منذ زمن، ولم يعد ملائماً أبداً معاملته كطفل غصّ العودا

إلا أنه يمكن لهؤلاء الأشخاص منذ الآن، وفي أي لحظة، إزاحة ما تكّس على كاهلهم من أحمال زائدة نتيجة للطبع الانتقادي لأبائهم وأمهم، إذ يمكن تحرير أنفسهم من هذه القيود في أي سن أو مرحلة زمنية.

كيف يمكن القيام بذلك؟ الأمر الأمثل الذي يمكن أن يفعله المرء في هذا المجال هو إجراء محاكمة ذهنية عن السبب الذي جعل الوالدين أو مازال يجعلهما حتى الآن، وفي المقام الأول، صعبين المراس معه.

1 - مراعاة طبيعة اللحظة: يخرج كل الأمهات والآباء تقريباً عن طورهم، قت أو آخر، ويتفوّهون بعبارات مثل: «لست شاطراً بشيء سوى بئارة ضى هنا»، «أنت لاتفعل إلّا ما ينغصني». وما ذلك إلّا لأن الآباء والأمهات ييسو سوى كائنات بشرية، مخلوقات من لحم ودم، ومقدّر لهم أن يفقدوا السيطرة على أعصابهم ويقولون أشياء لا يقصدون معناها حقاً. فقد يحدث أن



يريق الطفل في يوم ما، دون قصد، زجاجة عصير الفاكهة المحلى على السجادة، وتخطبه أمه بعبارة من هذا القبيل، فهي لاتقصد بأنه فعلاً صبي أهرج، والأكثر إهراقاً للمشروبات من أي طفل آخر، أو بأنها لم يعد بوسعها الانتظار حتى يكبر ويحلّ عن وجهها، أو أشياء من هذا القبيل.

بل يحدث أن لايرتكب الطفل أي إثم، غير أن والده كان قد عانى من يوم عمل مضن ومجهّد إلى الحد الذي جعله عصبياً وهائجاً، ثم صب ذلك كله على رأس الطفل، هذه حالة أخرى يصح عليها مراعاة طبيعة اللحظة.

وقد يعتقد الناس أن الأطفال يتعلّمون من تلقاء ذاتهم الدقّة في اختيار اللحظة المناسبة لطلب أمر معيّن، بيد أنني ومن خبرتي الشخصية في علاقتي مع أولادي، توصّلت إلى أن الموضوع لايجري كذلك حتماً، بل يبدو أحياناً كما لو أنهم يُحكمون خيارهم لأسوأ لحظة على الإطلاق، للسؤال فيها عن غرض معيّن. فربّما كنت أقعي تحت مغسلة المطبخ مع مفتاحين إنكليزيين في يدي، مهموكاً كلياً في مجادلة مع أنابيب المياه الراشحة لإصلاحها، فيتقدّم صوبي أحد الأولاد وأنا في هذه الحالة، ويسألني إذا كان لديّ متسع من الوقت للمشاركة حالاً في لعبة من هذا النوع أو ذاك. وفي المقابل لو حدث أن كنت أستمتع بعدّة أيام عطلة نادرة، وتوقّر لي خلالها فسحة من الوقت خالية من أي التزامات، فلا أرى أي واحد منهم يعرض عليّ أي اقتراح، لا من ذلك النوع ولا من آخر. وهكذا كما يبدو لنا هي الطريقة التي يتصرّف وفقها الأولاد. وأذكر أنني عندما كنت صغير السن، كنت أيضاً أخطئ في اختيار المواعيد الأنسب لإجراء عمل معيّن، فالأولاد غير متناغمين دوماً مع مزاج الأم أو الأب، أو مع ما هو متاح لهما، وهذا ما يفتر ذلك التكرار الهائل للحالات التي يصدر فيها (السبب واللعن من الأم أو الأب).

2 - هل يغار الوالدان؟! ماذا؟ يشعر البابا بالغيرة مني؟ ذلك من رابع المستحيلات! لكن هل أنت متأكد حقاً؟

إذا سألتهم الأمهات والآباء عن ذلك، فسيجيب جلّهم بأنهم راغبون من كل قلبهم أن يترّهم أولادهم في كل ما بلغوه في الحياة، وأعتقد أنه يمكننا

الافتراض بأن القسم الأكبر منهم يظن بأن هذه الرغبة حقيقية وأصيلة، لكن إذا سمحنا لأنفسنا بسبر غور حقيقة مشاعرهم الحوَّانية، فسنصادف هذه المسحة أو تلك من الغيرة، والتي تعبّر عن نفسها بثورانات مواقف انتقاد.

كان والد جيمي، على سبيل المثال، يعبّر دائماً عمّا سيعتمره من مشاعر اعتزاز وفخر، عندما سيسجّل ابنه في كلية جامعية، فيكون بذلك أول فرد في العائلة بلغ ذلك المستوى. لكن وبغض النظر عن عدد المرات التي كرّر فيها التعبير عن اعتزازه بذلك، فإنه في سريره يستاء من حقيقة أنه أكره سابقاً على ترك مقاعد المدرسة مطروداً وهو في الصف العاشر. ونظراً لهذه الحقيقة، كان لا يفتأ عن تثبيط جيمي عن الماضي أبعد مما وصل إليه. إذ يهيل عليه باستمرار عبارات تصغير وتحقير ليحدّ من تقدّمه، غاضباً في ذلك النظر عن ميزاته الإيجابية، ومبالغاً في التأكيد والتركيز على الجوانب السلبية.

وأصيب جيمي بالإحباط نتيجة ذلك، وصار يميل للانطواء على نفسه، لا يعرف لماذا لا يبلغ رضى والده مهما فعل. بل إنه قد يكرّ على أسنانه، ويصعّم على بذل مجهود أعلى فأعلى فأعلى، لكن مهما فعل، ومهما بلغت درجة جهوده، فلا تثني والده عن موقفه منه، وتذهب هباءً منثوراً في نهاية المطاف. وانظروا كذلك إلى أم جودي، التي ما تفتأ تعبّر عن اعتزازها بجمال ابنتها وسيرتها الحسنة. ومع ذلك لا ترى في أصدقاء جودي الشباب الذين يأتونها البيت أي صفة ظريفة تستحق الإشادة، بل إنها أفضأ تفتّح معها مواضيع لا تهدف فيها إلّا إغاضتها إثر هذه المواعيد:

- «أتعرفين؟، أنت حقاً جميلة وجذابة لولا تلك الذقن الثانية لك».

- «ذقن ثانية؟».

- «نعم، ذقن ثانية... لكن طمّني بالك، فليس الأمر من الناحية الفعلية بهذه الدرجة من السوء، وخاصةً إذا كان بالإمكان تسريح شعرك بطريقة مناسبة، إذ سينفع ذلك في التخفيف من درجة التنافر». وهكذا إما أن تبدأ المسكينة جودي بالانطواء على نفسها أو تفقد اهتمامها بمظهرها. ولا يخطر في بالها أبداً ولا في أي حال من الأحوال أن أمها عيورة منها.

وهذا الأمر ليس نادر الحدوث بالدرجة التي يظنّها المرء، فلقد شهدته بنفسني حاصلاً مرات ومرات. فإذا كان والدك يوجهان الانتقاد لك بمبرر أو بدونه، فعليك في هذه الحال النظر إلى الأمر من منظور آخر، فقد لا يكونان إلا غيورين منك.

3 - هل الوالدان نقادان؟ لم تعرف شارلوت لماذا كانت أمها تؤنبها باستمرار، «إنني كما يبدو غير قادرة على إنجاز أي شيء كما ينبغي، فكل ما أقوم به غير مقبول منها، وصرت أتحال أنني خيبت أمها بكل معنى الكلمة».

وقاطعتها صديقتها ريتا بالقول: «أظن أن عليك أن تتمهلي قليلاً يا شارلوت، فأنا أعرف أمك، فهي لا تعجب شيئاً أكثر من إجادتها كيّل النقد والإشارة للسليبيات حول أي شأن كان».

- «ماذا تقصدين؟».

- «آه، انتبهي لي قليلاً الآن، أنا لا أقصد أنها لا تبدي احتراماً للغير، لكن هل صدف أن سمعت أمك يوماً تقول عبارة تشجيع لأي شخص كان؟!».

- «إذا أردت الحق، أنا....».

- «حتى أنني سألتها مرة عن صحتها، فقدّمت لي مداخلة شفوية استغرقت عشر دقائق عن كل عللها، بما في ذلك الهبوط في قوسي قدميها، والالتهاب الرحيمي، ومشاكل ماثنتها وجهازها البولي!».

وما يمكننا قوله هنا أن شارلوت تعاني من مشكلة، لكن المشكلة غير متعلقة بطبيعتها هي، بل إنها متعلقة حصراً وعلى نحو لا ليس فيه بطريقة أمها في التعاطي مع الحياة. أقصد القول إن هناك ففة من البشر يستحيل إرضائهم، وستعدم الوسيلة التي يمكن لك فيها تغيير واقع حالهم هذا.

ماذا يمكنك أن تفعل إذا ابتليت بوالدين من هذه الطينة (المستحيل إرضاءها؟).

لا يمكنك إجراء تعديل ذي قيمة على وضعهما ذاك، لكن فيما يخصك أنت تحديداً، يتعين عليك أن تضع في ذهنك دوماً أن طريقة تعاملهما معك، لا

علاقة لها مطلقاً بتقديرك لقدراتك الذاتية، ولقيمة ما تحقّقه من إنجازات في حياتك. وربما لن تستطيع ضبط نفسك بسهولة بما ينسجم مع ذلك، ولن تستطيع تحمّل الأمر ومواجهته بتكشيرة باسمة عريضة. لكن يُعتبر ذلك هو السلوك العقلاني الوحيد لمواجهة أمر اضطرارك التعامل مع والدين أو أحدهما من هذا الطراز.

#### 4 - هل خاب أمل أحد الوالدين في نفسه أو في قرينه الزوجي؟

تحدثنا آنفاً عن الإبن البكر حين تُرمى في المحرقة ككبش فداء، وشهدت بنفسي حالات عديدة يحدث فيها مثل هذا الأمر. ورغم صعوبة تشخيص ذلك أحياناً، إلا أن من الحريّ بنا هنا أن نتذكر أن الأم أو الأب ذا الطبيعة المدمنة على التقصّي عن الأخطاء، ربما هو في الحقيقة ناغم على نفسه أو على قرينه الزوجي، لا على الإبن البكر.

حيث يسرح الأب في تفكيره: «هذه هي حالتي، بلغت الأربعين من العمر، ومازلت أعمل العمل ذاته. لقد حدثتني نفسي سابقاً أنني سأصبح مليونيراً عند بلوغي الأربعين، لكن ها أنذا أمضيت عمري دون أن أحقق شيئاً يُذكر». ثم يأتي البيت حائقاً ومحبطاً، ويبدأ فوراً بالصراخ في وجه ابنه. لكن حين نبحث عن الشخص المعني حقاً بهذا الغضب الشديد، نجد أنه هو نفسه، لكن يصعب عليه فتح النار على نفسه، لذلك يلجأ إلى إيجاد بديل مناسب عنه.

أو أن تضطرم مشاعر الغضب عند الأم بعد مشادة بينها وبين زوجها، ثم يصادف أن يُقدم ابنها البكر على إجراء أمرٍ لا على التعيين، يذكرها بزوجها، فتصب جام غضبها عليه. وعندها يتساءل الإبن باستغراب: «ماذا فعلت؟»، والحقيقة أن ذنبه الوحيد أنه ترك نفسه عرضةً لرمي النيران!

وسأعيد مرةً ثانية ما قلته، وهو أنه ليس سهلاً على المرء، هذا إذا كان الأمر ممكنأً أصلاً، الوصول إلى معرفة كنه الأسباب التي تجعل بعض الأمهات والآباء ذوي طبيعة نزاعة للانتقاد، وتسعى وراء التقاط الأخطاء بوجه حق أو بدونه. إلا أن ما يمكنني قوله: هو إن على كل ابن لوالدين من هذه الطينة أن يضع في ذهنه أن هناك مروحة واسعة من الأسباب والمبررات لمثل هكذا سلوك، وتجد جميعها

تقريباً ما يسوّغها عند أولئك الأمهات والآباء. هل أنت مولود لأبوين نقّادين؟ إذا كنت كذلك، دعني أسألك سؤالاً آخر، هل مقدّر لأولادك مستقبلاً أن يصبحوا مواليداً لأبوين نقّادين؟ وهل ستفتح سيرة جديدة من مشاعر النبد والفسل وفنور الهمة؟ فإذا توصّلت إلى أنك ستنتقل بدورك لأولادك هذا الإرث المصّ، فبترتّب عليك اتخاذ بعض الخطوات لتغيير واقع الحال هذا.

بادئ ذي بدء، اجلس سويةً مع أولادك، واعتذر منهم، وأعلمهم أنك آسف من كل قلبك عن كل المواقف الخاطئة والتصرفات التي صدرت عنك سابقاً، وبأنك عازمٌ عليّ بذل كل ما بوسعك لتغيير الأوضاع. واعترف لهم مقدّماً بأن هناك احتمالاً أن تنزلق بين وقتٍ وآخر في مواقف من هذا النوع، إلّا أنك لن تقصّر عن بذل كل ما بوسعك للتخلص من هذه الطبيعة النقاة.

وعندما تعترف بمواطن ضعفك لأبنائك، فإنك في ذلك تشجّهم بما يساهم في تعزيز شخصيتهم، لأنك تدعهم يعرفون بأنك تحبهم وحريصٌ عليهم إلى الدرجة التي تجعل نفسك عرضةً للانتقاد من قبلهم، وستساعدهم أيضاً على أن يواجهوا أخطاءهم الشخصية بروح غير هيّابة.

وثمة أمر آخر، ينبغي عليك تحقيقه إذا كنت مولوداً لأبوين نقّادين، وهو أن تبذل مجهوداً صادقاً لمسامحتهم وتضرب صفحاً عن أخطائهم، حتى لو كانا المسؤولين عن دفعك في هذا المسار الحياتي الممجّج من الشعور بالنبد وعدم الثقة بالنفس، فليس ثمة أي فائدة لك إذا تركت نفسك تستسلم لمشاعر الغضب والاستياء. وتعلّم أيضاً كيف تكون متسامحاً مع نفسك عندما، وفيما إذا قصّرت عن تحقيق مبتغاك، واشخص بنفسك صوب والديك وسامحهما. ثم احزم أمرك على أن لا تسمح لتصرفاتهما معك بهماقتك عمّا أنت في صدد الوصول إليه. انزع عن عنقك بحزم وإلى الأبد تلك السلاسل التي أحكّم وثاقها عليك والداك النقاذان!



## الباب الرابع

في الختام، ليست  
اللوحة قاتمة كلياً





## الفصل الثالث عشر

### الإبن البكر والأصدقاء: تطوير العلاقات

تحفل حياة كل إنسان بمسائل تقترب من حد المهزلة، وإحداها تلك الذكريات التي تلازمه ما بقي حياً. وأنا لأقصد هنا تلك الأحداث الجلييلة والمفصلية والتي من النادر أن ينساها المرء، مثل لحظة الحصول على شهادة الدراسة الثانوية أو ليلة الزفاف، بل إنني أشير هنا إلى تلك الأحداث الرتيبة والمألوفة والمتكررة باستمرار في المراحل الباكرة من حياة المرء، والتي تنحفر في الذاكرة بوضوح إلى الحد الذي تبدو فيه وكأنها حدثت بالأمس.

وفي معظم ذكرياتي من هذا النوع هناك قاسم مشترك واحد، ألا وهو حضور أختي الكبرى سالي فيها، والتي كنت قد تحدثت عنها في غير مكان من هذه الصفحات. وتلك الذكريات واضحة في ذهني كما لو أنها حدثت بالأمس. ففي ذاكرتي صور لآتمحي عن حفلات أقمناها بدون مناسبة في حديقة البيت الخلفية، وكنا نعتبر فيها أنفسنا الضيفين الوحيدين. ولقد اعتادت شقيقتي لإرسالني إلى المتجر وانتظاري لمدة ربع ساعة أقطع فيها مسافة نصف ميل أو أكثر تفصل بين البيت والمتجر، لأعود إليها حاملاً زجاجتين من المياه الغازية وكيساً من شرائح البطاطا المقلية، (نعم، أتذكر تماماً تلك المشاهد التي تفصلني عنها الآن سنوات طويلة جداً)، وفور عودتي من المتجر، ننصب طاولتنا ونحضر الأكواب التي نشرب بها الشاي عادة، ثم نبدأ احتفالنا بدون أي مناسبة معينة على الإطلاق، سوى كوننا معاً، كما أفترض الآن، وإن ما يجعلني أتذكر تلك اللحظات بوضوح تام، كون سالي احتلت ومازالت تحتل وستحتل دائماً موقع

الشخص المتميّز وشديد الأهمية في حياتي الخاصة. وتلك هي حال الأبناء البكر دائماً، فهم يحتلون غالباً الدور الأبرز والأهم بدون أي منازع في حياة أشقائهم الأصغر سناً، والأثر الذي يتركونه عليهم من الصعب أن يُمحى. ومن الوارد جداً ألا يعرف المولودون بكرة كم من الوقت يُمضي أشقاؤهم في التفكير فيهم، أو بما يمكن أن يداهمهم من مشاعر غيرة في بعض الحالات، إذ أنهم يتمتعون من واقع أنه من المسموح لهم السهر لوقت أكثر تأخراً، وبأنهم يحصلون على مقدار أكبر من المصروف اليومي. وهم لا يتوانون عن إتيان بعض التصرفات بهدف إزعاجهم ومضايقتهم. وأنا أتذكر، على سبيل المثال، كيف قمت في أحد الصباحات المشرقة بإيقاظ سالي، مدلياً دودة أرض دبكة ومكتنزة أمام أرنبة أنفها. لكن يكمن خلف كل هذه المشاعر والتصرفات وبدون أي شك تعلق بهم واحترام وميلٌ لحاكاتهم.

ومازال يحضرني حتى الآن وكلما أعيد استحضار ذكرى تلك الحفلات المشتركة مع سالي، مسألة ملتبسة أثار في تفسيرها، وهي السبب الذي يجعل سالي شغوفة جداً بتزجية هذا الوقت معي، أو لماذا كانت تتحدث معي بذلك الأسلوب، محجمةً عن التعامل معي باعتباري طفلاً طريّ العود، أو كأخ صغير مزعج وثقيل الظل، بل كان دأبها الحديث معي من القلب إلى القلب كاشفةً لي عن أسرارها، وموجهةً لي حديثاً صريحاً ومباشراً عندما ترى ضرورة لذلك، ولا تتخلف عن بذل أي مجهود يمكن لتتيقن من أنني أنحو المنحى الصحيح في أي أمر.

ويحضرني الآن، على سبيل المثال، ذكرى أحد تلك الأحاديث التي جرت بيني وبينها، والتي اتخذت تقريباً المجرى التالي: - «هل تحب البنات؟». - «لا، أبداً، ولا بأي حالٍ من الأحوال، لهنن كريهات، وما الداعي لأن أحب البنات».

والحقيقة أنني كنت في تلك اللحظة منهمكاً بصنع عربة خشبية، إلى حد أنني لم أجد دافعاً لأن أرفع نظري صوبها، متحيراً في معرفة السبب الذي يجعلها تُقدم على إزعاجي بسؤالها في هذا الوقت بالذات.... نعم أيها السادة، لقد كانت ألواح صناديق التفاح الخشبية تلك مناسبة تماماً لتركيب الهيكل

الأساسي للعربة، ولكن من أين سأحصل على الدواليب المناسبة؟ هم م م م م ..... هل تفي يا ترى كراجات سالي القديمة بالفرض؟!

وتتابع سالي: «هل تحبني؟». وبدأ لي في حينها أن الوقت مناسب جداً لإعلان حبي لها الذي لا يحد، وذلك لسبب أساسي، ألا وهو أنني فكرت بصلاح كراجاتها تلك بالنسبة لعربتي.

- «لكني بنت».

- «هذا صحيح، لكن للمسألة هنا طعماً آخر، فأنت أختي، بالإضافة إلى أنك لا تماثلين أي بنت من البنات اللاتي أعرفهن، بالمناسبة أختاه<sup>(٩)</sup>، أذكرين تلك الكراجات القديمة....».

- «دعني الآن أشرح لك بعض الجوانب المتعلقة بالبنات....».

وإذا أردتم الصدق، فإنه لم يكن لدي أي رغبة بسماع شيء من هذا القليل، لكن ليس هناك أي شيء يمكنه أن يحول بين سالي وبين الاسترسال في حديثها. وهذا ما قامت به فعلاً، وتخلل حديثها الإشارة إلى الجوانب التي تميل إليها البنات في سلوكهن، وما هي الطريقة المثلى للتعامل معهن، والطريقة التي يستطيع من خلالها المرء استمالة عواطف بنت معينة صوبه أما من جهتي، فلقد كنت حينها، ودون أي ريب، أظن أن ذلك الحديث ليس إلا مسخرة، فما الذي يدفعني يا ترى، لأن أحصر اهتمامي من بين جميع المسائل الأخرى بمعرفة ما تحبه البنات؟! وكنت على قناعة تامة في تلك الفترة، مثلي مثل جميع الأولاد في السنة السادسة أو السابعة من عمرهم، بأنني سأكون فارساً لا يشق له عبار، رجلاً وحيداً تماماً مع كلبه في مواجهة العالم بأسره.

وبعد خمس أو ست سنوات لاحقة، وعندما تبين لي، وعلى عكس ما كنت أتوقع أن البنات لسنَ نقطة ضعف في المجتمع كما كنت أشبههن دائماً، تذكرت تلك الأحاديث مع أختي، ووجدت المعلومات التي حصلت عليها زاداً نافعاً جداً لي. وبالتأكيد، ليس حقل البنات الحقل الوحيد الذي استفدت فيه من معلومات سالي، فلقد قدّمت لي نفعاً في حقول عديدة، غير نصائحها ونقلها لي خبرتها فيها، وأنا أعني تماماً أنها ساهمت بصياغتي لأكون الشخص الذي أنا عليه الآن.

وإذا رجعت في ذاكرتي القهقري، إلى مرحلة مدرسة الحضانة، فإني أتذكر سالي حين كانت تؤثرني بالجلوس على مقعد دراجتها، في حين كانت تسير على قدميها بمحاذاتي طوال الطريق إلى المدرسة، والتي كانت تبعد بمسافة لا تقل عن ميل من البيت. ومهما كان الظرف الذي يحيط بي، فإن شعوراً من الطمأنينة والأمان كان يلازمني دائماً عندما تكون سالي بقربي.

وكلما خلوت إلى نفسي واسترجعت تفاصيل حياتي الشخصية، لا أستغرب أبداً زواجي من مولودة بكرأ، إذ يحضر في ذهني نوعية المعاملة التي كانت تعاملني بها شقيقتي البكرأ

## أصدقاء ومحبين

لست أقصد في حديثي هذا أن أعلمكم بكل تفاصيل مرحلة طفولتي، أو أن أثبت لكم فحسب درجة الأهمية التي كانت تحتلها شقيقتي عدي. فعلاقتي معها كانت مميزة، لاجدال في ذلك، لكن هناك ملايين الرجال والنساء على سطح المعمورة ممن لهم النظرة نفسها تجاه أشقائهم الأكبر. رغم أن الإبن البكر، وكما ذكرت ذلك سابقاً، قد لا يدرك عمق المشاعر التي يكتنّها أشقاؤه تجاهه، إلا أن ما لا يرقى إليه أي شك هو أن علاقته مع أخوته مسألة بالغة الخصوصية.

لكن ما نوعية العلاقات الأخرى التي ينشئها المولود بكرأ في مجرى حياته؟ ومن هم الأشخاص الذين يختارهم كأصدقاء أقرب وأكثر حميمية؟ وما طبيعة شخصية المرء الذي يختاره ليكون قرينه الزوجي؟

هناك أمر واحد يحدّد طبيعة الأشخاص الذين ينتقيهم المولود بكرأ لإقامة علاقات معهم، ألا وهو أنه يميل عموماً للانفتاح أكثر على من هم أكبر منه سناً أو أصغر منه سناً. ويعود ذلك لسبب أساسي وهو طبيعة العلاقة الخاصة التي تربط الإبن البكر بوالديه، ثم لاحقاً بإخوته الأصغر سناً.

فمن الأمور الواردة جداً إذن، أن يرتبط المولود بكرأ بعلاقات صداقية عديدة مع من هم أكبر منه سناً، ومع من هم أصغر منه سناً، في مقابل عدد محدود جداً من العلاقات الصداقية مع من لهم العمر نفسه، ويتراوح فارق السن بين المولود بكرأ وأصدقائه بين عشرة وخمس عشرة سنة إلى سنتين أو ثلاثة. ولقد

جرى منذ وقت ليس بعيداً، حديثٌ بيني وبين أحد معارفي من المواليد البكر، وذلك بعد عودته إلى المدينة عقب رحلة سفر في الريف لحضور الاحتفال السنوي العشرين لخريجي دورته الدراسية في المرحلة الثانوية، مع العلم أنه لم تُتَح الفرصة لروب للمشاركة في هذه الاجتماعات منذ الاجتماع الدوري العاشر، وهذا يجعلنا نتوقع درجة الشوق العارمة التي كان يضرها روب لهذا اللقاء مع أصدقائه القدامى في المدرسة منذ عشرين عاماً. لكن عندما استفسرت منه عن درجة المسرة التي لاقاها في الاجتماع، اكتفى بهزّ كتفيه مع ابتسامة واهنة وترديد عدة كلمات متقطعة:

«لقد كان الأمر.... كان.... ماشي الحال».

ولم تكن إجابته مقنعة تماماً لي، فنهرته قائلاً:

- «خير، ماذا حدث؟ هل هزّ فؤادك رؤية كوكبة من الناس متغضّني الوجوه

وشائبي فروة الرأس، بمن أعلموك أنك في ستهم نفسه؟».

فنفي ذلك ضاحكاً: - «لا، مطلقاً، ليس الأمر كذلك».

- «خير إذن، ماذا حدث؟».

- «إن الأمر لم يتعدّ كوني لم أوفق برؤية عدد كبير من أصدقائي القدامى كما كنت أظن قبلاً. أه، لقد كان أمراً حسناً أن أرى كل من تخرّجت وإياهم سوية في الصف، لكنني لم أكن أدرك أهدأ قبل حفلة السمر الساهرة والتي اجتمع بها الجميع أن علاقائي الصداقية الحقيقية لم تكن مع من هم في صفّي، بل كانت تربطني علاقة صداقية حميمة مع شخصين أو ثلاثة ممن كانوا على أعتاب التخرّج عندما كنت ما تزال في الصف الثاني، وكذلك مع صديقين آخرين كانا في الصف الثاني عندما كنت أنا على أعتاب التخرّج، ولقد كنت أتمنى من كل قلبي أن أراهم في الاجتماع، لكن بطبيعة الحال كان الأمر متعذراً، فلقد كانت سنة تخرّجهم في 1968».

وأعرف مولوداً بكرةً آخر يُدعى إريك، اعترف لي بعد أن استحضر من ذاكرته أيام دراسته في المرحلة الثانوية أن علاقته الصداقية الأكثر حميمية في تلك الفترة، كانت مع رجل وقور أكبر منه سناً، كان يدير بقالية لبيع الأدوات

القرطاسية في بلدتهم الصغيرة، ويمضي صديقي قائلاً: «كنت أتصوره في ذلك الوقت شيخاً كبير السن، رغم أنه كان على الأرجح، في حدود الأربعينات من عمره. وكنت أتولّى في تلك الفترة عملاً يومياً في فرع لمتجر أقوم به بعد انتهاء دوامي المدرسي، وكان يفصل بين انتهاء دوامي المدرسي وبين بداية هذا العمل ما يقارب النصف ساعة، اعتدت خلالها يومياً أن أمرّ عليه وأتناول أطراف الحديث معه. ويمكنني التأكيد لك أنه كان لي علاقات صداقية مع من هم في عمري، لكن لم تكن أحاديثي مع أي واحد منهم مماثلة في قربها من قلبي الدرجة التي وصلتها أحاديثي معه». وأردف إريك متذكراً: «كان لدينا دائماً مواضيع عديدة للحديث تشدنا لبعضنا، وكانت تبدو لي أكثر متعة بكثير من تلك الثروة التافهة التي كان الفتيان الآخرون يفضلونها في أحاديثهم. ولا أعلم السبب الكامن وراء اعتقادي هذا، لكننا كنا كلانا، كما يبدو، نتمتع بطول موجة واحدة في روحينا».

وهكذا يتبين لنا أن كلاً من روب وإريك، إنما مثالان ساطعان عن الأبناء البكر، فيما يظهرانه من مشاعر ارتياح أعلى مع أناس أكبر أو أصغر سناً منهما إلى هذه الدرجة أو تلك. وهل هناك ما يعيب في ذلك؟ بالتأكيد لا، فببر إقامة علاقات صداقة مع من هم أكبر سناً منا، نتيح المجال لأنفسنا للاستفادة من خلاصة تجربتهم وخبرتهم التي اكتسبوها في الحياة، وعبر إقامة علاقات صداقة مع من هم أصغر سناً منا، نفسح المجال لأنفسنا لنحافظ على روحنا الشابة واكتساب روح المعاصرة.

فإذا شعرت بالارتياح في العلاقة مع شخص معين، وتوفرت لديك الثقة به، حتى في مشاعرك الوجدانية الجوانية الأشد غوراً، فإن هذا الشخص مهياً لأن يكون صديقاً مخلصاً لك، وليس مهماً عندئذ سنوات العمر الفاصلة بينكما. أما إذا شعرت بعدم الارتياح، أو عدم قدرتك على الانفتاح على شخص معين، لسبب أو لآخر. فإن هذا الشخص مهياً لأن يكون في إطار معارفك، ولكن من الصعوبة عليك تطوير العلاقة معه لتصل إلى درجة الصداقة. والقاعدة العامة تشير لنا أن الأبناء البكر يشعرون بارتياح أعلى في العلاقة مع من هم أكبر أو أصغر سناً منهم.

هل فهمتم من حديثي هذا، أنني أدعو المولودين بكرأ لأن يسعوا لإقامة علاقات صداقة مع من يختلفون معهم في سوية أعمارهم؟ الجواب نعم... ولا فأنا بالتأكيد لا أقصد إخباركم أنه لا توجد أي إمكانية لإقامة علاقة صداقة حقيقية وعميقة ووطيدة مع من هم في العمر نفسه. وليس هناك أي مسوغ لأن يُحذف صديقٌ محتمل من القائمة، لأن له العمر نفسه، أو أن يُضاف شخصٌ آخر لها بسبب عمره فقط. لكن كل ما أرغب بالإشارة إليه، هو أنكم إذا كنتم تعانون من مصاعب في إقامة علاقات صداقة، فإن السبب ربما يعود إلى أنكم لا تستأنسون للأشخاص المساوين لكم في العمر. وأن الشعور بعدم الراحة في الاحتكاك مع البشر عموماً، والذي قد يعاني منه شخصٌ مولودٌ بكرأ، ربما يعود إلى أنه لا يرتاح فعلياً إلى من هم مساوون له في العمر حصراً، والمستحسن في هذه الحال أن يتوجه لإقامة علاقات مع فئات البشر الأكبر أو الأصغر سناً.

ولنأت الآن إلى حالة ديانا المولودة بكرأ، والتي تناهز الثانية والعشرين من العمر، والتي انضمت - بعد فترة قصيرة من نقل مكان إقامتها إلى إحدى المدن - إلى دروس مدارس الأحد في الكنيسة نفسها التي كان يقصدها كل من (دون) و(فيكي)، وهما زوجان في نهاية العقد الثالث من عمرهما. والذي جرى معها هو أنها ارتبطت فوراً معهما ودون أي عقبات بعلاقة وثيقة، في حين أنها عجزت عن إظهار أي مقدرة على عقد أدنى صلة مع من يماثلونها في العمر، ومرت أيام الأحد تباعاً أسبوعاً إثر أسبوع، وازداد معها شعورها بالغرابة في وسط الشباب اليافعين الذين يشاركونها مقاعد الدروس نفسها، ولم يغير من واقع الحال هذا، تلقّيها تحية عابرة من شخص في كل أحد، بل إن شعورها بالوحدة والخيبة ازداد إلى الحد الذي قررت أخيراً إعلام فيكي عن نيتها بالبحث عن كنيسة أخرى، وأنهت حديثها بالقول:

«أمل أن تبقى أصدقاء، فالأمر لا يتعدى أنني لم أجِد نفسي واحدة من الجماعة الموجودة هنا». لكن فيكي طلبت منها أن تبذل محاولة أخرى، وانضم إليها (دون) في ذلك، فهما لا يحتضان أن تترك الكنيسة، واستجابت ديانا لطلبهما. واقترح (دون) عليها بالإضافة إلى ذلك، أن تبدأ بحضور دروس الأحد معهما في فئتهما العمرية، هذا إذا لم يكن لديها مانع «وستجدن نفسك محاطة

بأناس يعتقدون أن فترات الترويح عن النفس تتألف من الجلوس على كرسي هزاز، واحتساء زجاجة من مشروب منشط».

وردت ديانا باحتجاج على ذلك: «أنت لست بتلك الدرجة من العتي في العمر، ثم إن فيكي على الأقل ليست كذلك». ثم وافقت ديانا بعد ذلك على أن تجرب ذلك.

وبعد ثلاثة أسابيع، لم تستطع ديانا إخفاء دهشتها، قائلة لفيكي: «الناس في فتكمما ودودون جداً، إنني أكاد لا أصدق أن هذه هي الكنيسة نفسها». وحسنت أمرها أخيراً على أن تواصل متابعة حضور الدروس في الكنيسة تلك، لأنها بدأت تشعر رويداً رويداً أثناء وجودها بين هؤلاء الناس، كما لو أنها في بيتها، غير أنها عبرت لدون وفيكي بأنها مازالت لاتفهم لماذا كان الناس في فتها العمرية غير ودودين معها.

كان شعور ديانا بعدم الارتياح في وسط من هم مساوين لها في العمر يتبدى في واقع ملموس لا يمكن نكرانه، فمن ناحيتها كانت لاتعرف كيفية تمهيد الأجواء المناسبة لخلق علاقات صداقية معهم، أما بالنسبة للآخرين فقد لاحظوا أنها صبية ذات شخصية جذابة، وأليفة المعشر، إلا أن إقامة علاقة معها تنطوي على درجة من الوعورة، ولم يفهموا أسباب ذلك، إلا أن ما شعروا به جميعاً أن ديانا كانت ترمي دائماً لإيصال رسالة لهم بأن (يقوا على مسافة معها)، وهذا ما قاموا به فعلاً.

في حين أنها شعرت ضمن فئة من يكبرونها في السن بقدر من الارتياح أكبر وقدر أقل من التكلف، حين وجدت جسوراً أكثر تمهيداً بين طبعها وطبعهم الوقور، ولم تخف إعجابها وتقديرها العالي لطريقة تعاطيهم الأكثر جدية مع العمل الدراسي. ومختصر القول إنها كانت منسجمة مع نفسها في صفوفهم ودون أي حواجز. وتبرهن عبر سلوكها هذا على أنها مولودة بكر نموذجية دون جدال، فلقد أضحت شخصية منطلقة في حياتها، حين وجدت نفسها منغمسة في وسط فئة من البشر تكبرها في السن.

وأجد نفسي مدفوعاً لتذكيركم مرة ثانية، على أن ما أتحدث به ليس صيفاً



صماء مشكلةً من حجر، وليس هناك أيّ قانون صارم لايقبل الخرق يقول إن المولود بكرةً لابد أن يفتح أكثر في علاقاته على من يكبرونه أو يصغرونه في السن، لكن ما يمكنني قوله لك إذا كنت شخصاً مولوداً بكرةً، إن ثمة احتمالاً كبيراً جداً أن تكون حالتك كذلك.

## إيثار الاعتبار الكيفية

هناك أمر آخر متعلّق بالعلاقات الصداقية للمولودين بكرةً، تجدر الإشارة الإشارة إليه، وهو أنهم لا يرغبون بإقامة قدر كبير من هذه العلاقات، وليس ذلك مشكلة في حد ذاته وبطبيعة الحال، لأن الكيف أكثر أهمية بكثير من الكم، فإذا كان لدى المرء علاقةً أو علاقتان صداقيتان حقيقتان متبنتان، فإنه عندئذٍ في ألف نعمة. زارني بالعيادة عدد من الأبناء البكر ممن كانوا يستسلمون لمشاعر الغيرة من إخوتهم المولودين وسطاً لما يظهره من ميل لامتلاك عدد كبير من العلاقات الصداقية. وذكر لي أحد هؤلاء المولودين بكرةً، مشيراً في حديثه إلى أخته الأصغر سناً منه، قائلاً: «إذا لم يكن جرس الهاتف يرن، فعندها يكون جرس الباب يرن، وهي دائماً وأبداً المقصودة في ذلك». وحقيقة الأمر أن المولودين وسطاً يجدون عموماً سهولة كبيرة في إقامة علاقات صداقية، إذ أن موقعهم الأوسط في الترتيب الولادي يعلمهم كيف يصبحون مفاوضين بارعين، وأساتذة كبار في الحلول الوسط، ومن نوعية البشر الذين يمتلكون القدرة على ربط وشائج مع أي شخص كان تقريباً. ومع ذلك، هناك مشكلة نصادفها عندهم، وهي أنهم يبدون أحياناً من النوعية التي تغيّر أصدقاءها، بالقدر والكيفية التي يغيّر فيها معظمنا غياراته الداخلية. وأنا أعرف بنتاً صبية من هذه النوعية، لها عشرات من العلاقات الصداقية، لكن يمكننا تشبيهها بجدول من الأسماء الدائمة التبدّل، بما فيها أسماء (علاقاتها الصداقية الأكثر حميمية) الثلاثة، التي تخضع للاستبدال كل فترة ستة أشهر تقريباً.

لذلك أقول للإبن البكر الذي تعذّب حقيقة عدم ارتباطه بعلاقات صداقية عديدة، بأن عليه أن يتذكّر بأن علاقة صداقية وطيدة ومستقرّة أثمن قيمةً من دزينة من العلاقات الصداقية التي يُفكّ عراها سريعاً

## اختيار القرين الزوجي

تبيّن لي من خبرتي أن الأشخاص الذين يفشلون في حياتهم الزوجية، يتنهون غالباً إلى هذا المصير لأنهم يحجمون عن اتّخاذ خيارات صائبة فيما يخص حياتهم العاطفية.

«لم أتمالك نفسي عن الوقوع في الحب معه، لقد ألفيت نفسي ودون أن أدري، منجرفة في تعميق العلاقة معه شيئاً فشيئاً» هذا ما يُقال عادةً، لكنني مع شديد أسفي أقول إنني لا أتفق أبداً مع هذا الذي يُقال، فربّما كان الواحد منكم سواءً امرأة أو رجل، قد استساغ متعة عاطفية عابرة، وربما كان في حالة عوز للحب، لكنه اسخرط في هذه الحالة وعيناه مفتوحتان على سعتهما - وربما قُدّر له أن لا يمعن النظر عن قرب في سمات من وقع معه في الحب، ولا أن يحلّل جوانب الوضع بالتفصيل ومن كافة جوانبه، لكن الخيار كان خياره وهو الذي يتحمل مسؤولية إثاره.

لقد أتاحت لي الفرصة عدّة مرات أن أكون ضيفاً في برنامج أوبرا وينفري<sup>(\*)</sup> التلفزيوني. وأنا من المعجبين جداً بأوبرا، وبقدرتها على أسر الألباب في برنامجها، إلّا أن إحدى المسائل التي أجد نفسي مختلفاً كلياً معها، هي الحكمة التي ترّددها بأن ينساق المرء وراء أهوائه، وأن يعوم مع التيار. وتنسى أن من الممكن، بل هذا ما يحدث غالباً، أن تقود الأهواء بالتجاهات خسيصة، فالنفس أمتارة بالسوء، لذلك أرى لزماً علينا أن نُحكّم عقل الأمور، ونلجأ إلى إخضاع جميع المسائل إلى حسناً الاجتماعي وعقلنا الواعي، بما في ذلك الحقل الذي تخص الفؤاد.

وأجد من المناسب الآن القول إنه في جلسات الاستشارات المتعلقة بأمور الزواج، كنت أسأل دائماً الزوجين المتخاصمين عن مواقعهما في الترتيب

---

(\*) - تُعتبر المذيعة التلفزيونية الأمريكية السوداء أوبرا وينفري من أشهر المذيعات الأمريكيات وأكثرهن جاذبيةً. م.

الولادي، وتخلصت من ذلك إلى نتيجة، وهي أن أسوأ ما يمكن أن يقدم عليه شخص مولود بكرًا، هو الزواج من شخص آخر له الترتيب الولادي نفسه.

وأنا لأقصد إطلاقاً هنا، الزعم أن كل زوجين يعانون من مشاكل في حياتهما الزوجية، إنما هما حصراً مولودان بكرًا، لكن عدداً لا يستهان به منهم هم حقاً كذلك. وهذا ما يثبت لي حقيقة أن عدد الأزواج الذين قصدوا عيادتي لأمر تخص حياتهم الزوجية، ومَن يتألف كل زوجين منهم من شخصين مولودين بكرًا، هو عدد لا يتناسب مع نسبتهم الكلية في الحياة الطبيعية.

وإذا كان فالاً سيئاً أن يرتبط شخصان مولودان بكرًا بعضهما في علاقة زوجية، فهل بإمكانكم أن تقدروا ماذا يحدث عندما يكون طرفا العلاقة ابنان وحيدان؟ مأل ذلك أن يصل إلى حد الكارثة التي لا تبقي ولا تذر وأخال مسبقاً، أنه سيواجه لي السؤال التالي:

«هل ترى إذن أن على ابنين وحيدين أو بكرين، عدم الإقدام أبداً على الزواج من بعضهما؟».

وجوابي أنني لا أرى ذلك، لأنه لا يمكنني نكران حقيقة ما يتمتع به الحب من قدرة على قهر كل الصعاب. لذلك ما يمكنني قوله لك إذا كنت ابناً بكرًا أو وحيداً، وتهتم بالزواج من شخص آخر مولود بكرًا أو وحيداً، فإنه من المستحسن أن تتيقن من أنك تضمن في فؤادك قدراً لا يحد من مشاعر الحب تجاه من يُقدّر له أن يكون قريبك الزوجي المقبل.

يتمتع الأبناء البكر بميل لأن يكونوا أقوياء الإرادة، وذوي ثقة عالية بالنفس، وكذلك لأن يكون لهم رؤى ووجهات نظر صارمة. وما عليك إلا أن تضع شخصين من هذا الطراز ضمن رباط علاقة زوجية، لتتاح لك غالباً، فرصة اكتشاف ما يمكن أن يحدث في جملة متشابكة من مقاصد وأهداف لا يمكن الانزياح عنها، ومدعمة بقوة لا تنضب. أي أن ما أقصده بالتحديد هو وجود قدر كبير من الانفعال والجلبة والاضطراب.

زارني مرة في العيادة زوجان مولودان بكرًا، مَن لم يكن بوسعهما حتى الكف عن المشادات أمامي، بما يمكنهما من الحديث معي، فعيل صبري أخيراً

وطردتهما من الغرفة، ناصحاً لهما: «إرحما إليّ مرة أخرى عندما تكونان مستعدين لإبداء جهد حقيقي لإنجاح زواجهكما».

وغابت عني أخبارهما كلياً لمدة شهر كامل تقريباً، مما جعلني أتصور أن زواجهما على حافة الانهيار، وأخذت ألوم نفسي على تصرّفي اللامسؤول معهما، حين تلقّيت فجأة مكالمات هاتفية من الزوج، ليسألني فيما إذا كان بوسعهما مراجعة عيادتي ومناقشة أمرهما معي، مبدئياً وعوداً على أنهما سيتجنّبان المشادة أمامي على الأقل. وكان قرارهما هذا باستئناف العلاج، وخلع قفازات الملاكمة على الأقل مؤقتاً، بمنزلة خطوة واسعة في سياق عملية المعالجة واستعادة العافية لعلاقتهما الزوجية.

إن أسّ المشكلة في العلاقة الزوجية بين مولودين بكرّاً، أن لدى كلّ منهما ميلاً فطرياً نحو الاستكمالية، ولدى كلي منهما أيضاً رؤية خاصة عن الكمال، ماهيته مختلفة عمّا لدى الآخر. لذلك فإن ما يقود هذين الزوجين إلى المحكمة الشرعية لطلب الطلاق، إنما هي مسائل غير كبيرة، بل غالباً وغالباً جداً ما تكون جملة مركّبة من مجموعة من المسائل الصغيرة، مثل طريقة عصرها أنبوب معجون الأسنان من طرف فتحته العلوية، أو تركه لمناشفه المبلّلة بالماء بعد غسلها ملقاة على أرضية الحمام.

وبلغ زوجان حافة الانفصال فيما بينهما، لأن العالم الذي يمارس فيه الزوج نزعتيه الاستكمالية كان ضمن دائرة مكتب العمل، في حين أن عالمها كان في نطاق شؤون البيت. وهكذا كانت الزوجة تعجز عن استيعاب التناقض بين أن يكون زوجها موسوساً بالترتيب والنظام في كل ما يتعلق بشؤون المكتب، وبين أن يترك دفاتره وكتبه وأوراقه وبقية أغراضه مبعثرة هنا وهناك، في كل ركن من أركان البيت.

في حين تجاوز زوجان آخران حدود التصرف الحضاري فيما بينهما، لأنهما كانا يتنازعان على الطريقة المثلى لسقاية الحديقة. إذ كان لدهيها خرطومان للمياه كل واحد منهما مزوّد بمرشّة بخاخ في نهايته، وتفضّل الزوجة دائماً أن تبدأ سقايتها بالخرطومين معاً من الجهة الخلفية للحديقة، لاقّة فيهما إلى الجهة الأمامية،

بينما يبدأ الزوج بوضع أحد المرشحين في الفناء الخلفي، ووضع الآخر في الفناء الأمامي، ثم يلفّ بهما حول البيت. ويعتقد كلٌّ منهما أن طريقته أسرع وأكثر اقتصادية في استخدام المياه، وتؤدي - المحصلة النهائية - إلى إنجاز العمل على نحو أفضل. وهكذا، وكما يتبدّى لكم، ليست المسألة إلا شكلاً من أشكال الحماسة، لاجدال في ذلك. لكن مع ذلك، لم يبدأ أي واحد منهما أدنى نية للزحزحة ولو إنشأ واحداً أو حتى شعرة عن موقفه. أكثّر مرة أخرى، أنني لأزعم هنا أن زوجين مولودين بكرًا، لا يمكنهما أن يكونا زوجين سعيدين، فأنا أعرف أن ذلك يحدث لأنني أشهده واقعا، فأختي سالي وزوجها المولود بكرًا ويز، يعيشان سوية حياة زوجية هاتمة. لكن هذا لا يحدث بدون اللجوء إلى حلول وسط، أي بدون ضمان الاعتراف بنزوعاتك الاستكمالية، وبقبولك الإذعان للنزوعات المقابلة عند الطرف الآخر. فالزواج الذي يأخذ سياق مناطق دائمة وصراع مفتوح بين الطرفين ليس زواجا على الإطلاق.

طبعاً لست هنا بصدد إحكام أسس الارتباط الزوجي، إنطلاقاً من الموقع في ترتيب الولادة كعامل وحيد، لكنني مقتنع تماماً أنه أحد الاعتبارات التي يجب أن تدخل في الحسبان عند اتخاذ قرار الزواج. ويصح عموماً القول: إن علاقة زوجية تتألف من طرفين لهما الموقع نفسه في الترتيب الولادي، وأياً يكن هذا الترتيب، علاقة غير مجبذة، وذلك لأن جوانب الضعف مشتركة بينهما، وسيجرح كلٌّ منهما الآخر للانزلاق والسقوط في جوانب الضعف هذه.

فمثلاً أستثقل فكرة تخيّلني لما يمكن أن يحدث فيما لو كنت قد تزوّجت امرأة مولودة أخيراً مثلي، تحوّل شؤون الغرام إلى هزل، ومنفلشة في التعامل مع القضايا المالية، إذ لكنت أصبحت مديناً بحالات مصرفية تبدأ من هذا المكان لتنتهي في أبعد نقطة ممكنة عنه، وستكون آخر همومي في الأولوية.

وهكذا إن الإجابة على التساؤل عمّن يكون القرين الزوجي الأمثل بالنسبة للمولود بكرًا، هي أن يكون مولوداً أخيراً، وأنا لا أقول ذلك لأن علاقتي الزوجية ناجحة جداً فحسب، بل لأن جملة مركبة من الأول والأخير تعمل بنجاحة لتقبل الشك، لأن جوانب القوة والضعف عند كلٍ من الزوج والزوجة تتجه في

هذه الحالة لتكميل بعضها. إذ أن طبع المولود أخيراً في خلط الهزل بمسائل الحب، يمكن أن يعلم المولود بكرة إرخاء أعصابه المشدودة، وتناول أمور الحياة بقدر أقل قليلاً من الجدّة، أمّا من جانب آخر فإن المولود بكرة يمكن أن يلعب دور الملاذ ونقطة الارتكاز للمولود أخيراً، ويلجأ إليه حين يشعر برغبة في الحديث لأحد ماء، وليعود إلى رشده من حالات التهويم والتقلب عشوائياً في حركة لاضابط لها، وسيكون كذلك بوسع المولود أخيراً تلطيف نزوعات قرينه الزوجي نحو الاستكمال، بينما بوسع المولود بكرة أن يساعد المولود أخيراً على أن يدرك أن ثقة أوقاتاً ينبغي فيها النظر إلى أمور الحياة بنظرة أكثر جدية.

لقد ترسخت لديّ قناعة بعد سنوات من الحوارات المباشرة والأبحاث، إلى أن تركيباً زوجياً يجمع بين أنثى مولودة أولاً وذكر مولود أخيراً، يتضمن إمكانية لأن يشكل أفضل وأنجح وحدة زوجية. والارتباط الزوجي بين أنثى بكر لها أخوة ذكور أصغر منها، وذكر مولود أخيراً له أخوات أكبر سنّاً منه ذو حظوظ كبيرة جداً في تحقيق سعادة استثنائية، وتناغم خاص بين الطرفين، لأن العوامل الأساسية الداخلة في تكوين العلاقة، تتيح الإمكانية لكل طرف أن يعرف جيداً كيف يفتح على الجنس الآخر. فالأخ الأصغر يعلم أن النساء مخلوقات بشرية تستوجب الاحترام وإعطائها حق قدرها، في حين أن الأخت الأكبر تعلم كيف تدير شؤون زوجها المولود أخيراً، وتكون بمنزلة ملاذ آمن هو في أمس الحاجة إليه. وهكذا نتوصل بعد إلقاء نظرة شمولية على علاقات المولود بكرة بفئات البشر الأخرى، إلى ثلاثة استنتاجات أساسية ينبغي إبقاؤها في الذهن:

1 - لدى المولودين بكرة ميلٌ للتعامل بقدر أكبر من الراحة، مع من هم أكبر أو أصغر منهم سنّاً.

2 - أن يكون لدى المرء صديقاً أو صديقان صدوقان خيّر من أن يكون له جيش من الأصحاب.

3 - إذا كان هناك ثقة زواج يمكن اعتباره نعمة سماوية، فهو على الأرجح بين مولود بكر، ومولود أخير.

## الفصل الرابع عشر

### الاستثمار الأقصى لميزات البكورية

في أحد أيام عيد الميلاد لعام 1986 « كنت في مكثبي، حين اتصلت ساند هاتفياً بي، وأعلمتني أنها تريد مني الذهاب معها في مساء ذلك اليوم لتناول العشاء في أحد المطاعم. ولا بدّ لي من الاعتراف الآن، أنني لم أحبّد انتقاءها لمكان تناول العشاء، أحد مطاعم شيّ اللحم على الماشي والأقلّ تكلفة في مدينة تكسون - والتي لا يمكن إنكار ظرافة فكرة إقامتها - إلا أنني سرعان ما حاكمت الأمر في ذهني على أن الأفضل كتم رغبتني في الاحتجاج على ذلك، فهي بالحصلة من سترتبّ عليه تحمّل تكاليف العشاء.

وعند إحدى الفواصل التي تخلّلت عشاءنا، مدّت ساند يدها إلى حقبيتها، وتناولت منها بطاقة عيد صبّمتها خصيصاً لي. وغمرني فوراً شعورٌ بالنشوة من هذه المبادرة الحلوة منها، لكنني لا أعتبر الأمر مسألة نادرة الحدوث أو غير مألوّفة بالنسبة لي، لأنها امرأة فطينة ومبتكرة دائماً. وكُتِبَ على البطاقة الأسئلة التالية:

«هل أنت على استعداد لأن تغيّر مشاريعك للصيف القادم؟»

«هل أنت على استعداد لأن تعمل حتى ساعة متأخراً ليلاً؟»

«هل أنت على استعداد لأن تجري تعديلاً على جدول أعمالك؟»

وتساءلت بيني وبين نفسي: «ماذا ترمي يا ثرى من عباراتها هذه؟»، وأدّرت البطاقة إلى الجهة الخلفية، حيث رأيت فيها رسماً لبابا نويل حاملاً في يده طفلاً

رضيعاً، مازالت لثنته لحمية بعد، وكتب بجانبه عبارة واحدة، هي: «عيد ميلاد سعيد!».

وشخصت بنظري صوبها لبرهة، محاولاً إيجاد جواب على تساؤلي فيما إذا كان هذا يعني ما قدّرت أنه يعنيه، فما كان منها إلّا أن أوّمت برأسها بإشارات موافقة، وعندها فلتت من بين شفّتي صرخة استحسان تعكس عواطفني المثارة، وهذا ما شدّ إلينا أنظار الناس الجالسين بقربنا في المطعم متسائلين عن مبرّر صراخي بهذه الطريقة، لكن لم أشعر بأي إحراج من ذلك، فلقد كنت مثاراً وفي أقصى حالات البهجة ولا أبالي حتى لو علم كل العالم بذلك! فطفل صغير جديد سيشاركنا عشنا البيتي الصغير عمّا قريب.

وثمة أمر آخر لابدّ لي من إخباركم به، وهو أنني لم أستطع الانتظار طويلاً عن مشاركة أولادنا لنا في هذا الخبر. فأنا بأي حال على دراية دقيقة بما يمكن أن يصدر عنهم كرد فعل على ذلك: فالبنات بالطبع ستغمرهنّ حالة من النشوة، أمّا كيثين فإنه على الأرجح لن يقع عليه الخبر وقعاً حسناً، فهو بغض النظر عن كل الاعتبارات الأخرى مازال طفلاً، ومن الممكن أن يستصعب التخلّي عن امتيازاته كطفل أصغر لصالح هذا المغتصب، فهذا يعني على الأقل أنه سيخسر الكثير من دلال أمه له!

ولنختبر الآن دقّة تقديراتي!

عندما أعلمت ابنتي البكر هولي بأنها ستحصل بعد فترة على أخ أو أخت صغيرة، كنت كمن سكب عليها سطلاً من المياه الباردة، فلقد جُمِدَتْ في مكانها، مثبتةً نظرة مذعورة باتجاهنا. فبادرتها الحديث: «تعالى هنا هولي، قولي شيئاً ما!». لكنها لم تعلق بأي حرف عن الموضوع، وأصبّيت باضطراب شديد هزّاً كيانها، إلى حد أنها لم تعد تتحدّث إلينا أيضاً، لمدة أربعة أيام! نعم، كانت تأتي إلى مائدة الطعام في أوقات الوجبات، ثم تتناول طعامها بصمت مطبق، وكلما وُحِّه إليها أحدنا سؤالاً ما، كانت إما تتجاهله أو تجيب عليه بأبسط وأقل عبارات ممكنة، وهكذا. أقلعنا أخيراً عن محاولتنا تلك.

أما كريسي، فلم تكن أحسن حالاً بكثير، فلقد أطبقت بكلتا يديها على



أذنيها وبدأت بالبكاء، مرددة بصوت أقرب إلى الصراخ: «لا أريد أن أسمع هذا، لا أريد أن أسمع هذا».

لقد تصرفت كلتا البنتين كما لو أن حبل ساند كان نوعاً من أنواع الخيانة! أوه، جاء الآن دور الصبي، وما كنت شغوفاً بالقيام به تحول إلى كابوس، فإذا كان رد فعل البنتين الأكبر كذلك، فتخيلوا إذن المشهد الذي سيحصل عندما نقرع أذن كيثين بهذا الخبر، لذلك كان تفكيري الأولي على الشكل التالي.

«ربما لا يقتضي متاً الأمر إخباره، فمن الممكن القيام بذلك لاحقاً، كأن تؤخر ذلك حتى يصبح عمر الطفل ثلاث سنوات».

ولم تر ساند تلك الفكرة سديدة، لذلك جلس كلانا إلى جانبه وبدنا على قلبنا:

- «إيه، كيثي... بودنا أنا وأمك إخبارك بخبر يهتمك معرفته».

- «ما هو، بابا؟».

- «خبير... إيه...»، هذا ما تفوهت به، وأنا أقلب في ذهني عن الطريقة الأمثل بالنسبة لدكتور نفساني في التعامل مع هذه الحالة. لكن ساند والتي تحب دائماً طرق المسائل مباشرة، قالت فوراً: «سأنجب طفلاً».

ردد كيثين: «أنت ستنجبن؟».

فخيل لي أن ما توقعته: «ها هو في طريقه إلى الحدوث».

هتف كيثين: «هي... ذلك فظي ي ي ي مع».

فقلدت عبارته مستنكراً: «فظي ي ي ي مع».

- «سلامة فهمك بابا... ذلك يعني (بدي ي ي ي مع».

- «آه، نعم».

ورمى كيئين بنفسه على والدته، وأخذ يعانقها هاتفاً: «إنه حقاً عظيم!»  
وهتف بانجاهي: «هيي، بابا!».

- «نعم؟».

- «مارأيك بأن نتوجه إلى المتجر لشراء قليلاً من السكاكر؟».

واقضى منا الأمر التوضيح أن الطفل لن يصبر النور إلا بعد ستة أشهر من الآن، وهناك متمعن من الوقت قبل أن تقوم في وقت لاحق بـ «شراء السكاكر». وخيب أمله سماعه ذلك، لكن لم يبد عليه أي اختلاجات نفس مضطربة لأنه على مشارف لحظة سيفقد إنطلاقاً منها ميزته كصغير العائلة المدلل. إذن هذا ما حدث في الواقع، لكن حتى يطمئن بالكم على الصغيرة الوليدة حنة وعلاقتها بأختيها، أعلمكم أنه لم تمض سوى بضعة أيام حتى تألفت شقيقتاها مع الأمر واستساغته. وائر ولادتها لم تستطعا انتظار رؤيتها حتى يحين جلبها من المستشفى إلى البيت، وتدفقتا عليها بعواطف حب وحنان لا يمكنهما المضي إلى أبعد منها فيما لو أرادتا ذلك.

والآن، ألا تتساءلون معي لماذا كان رد فعلهما على هذا النحو عند سماعهما في البداية أن أختيها في طريقها لأن ترى النور؟ مازلت أنا نفسي غير متيقن أنني فهمت الأمر من جميع جوانبه. ومن الناحية الأولية افترضت أن ذلك مرده شعورهما بالراحة والاستقرار في تركيبة العائلة كما هي عليه، وتوقعنا أن ولادة الطفلة سيحدث حتماً بعض التغيرات على مجرى حياتهما اليومي المعتاد، وكذلك مجرى الحياة اليومية للبابا والماما. ما غايتي من إخباركم بكل هذا؟ إن هدفي ينحصر في أن أعلمكم أنه ليس هناك أي أمر إطلاقاً متعلق بكون المرء مولوداً بكرة، مما يحكم قدره مسبقاً بأي نسق من أنساق السلوك. هناك قوانين عامة، لاجدال في ذلك، ويمكنني بالاستناد إليها أن أحدد بالضبط باحتمال صحة يزيد عن احتمال الخطأ، أين يقع موقع المرء في عائلته، معتمداً فقط على مراقبته لفترة من الزمن، وإلى توجيه بعض الأسئلة له.

ونظراً إلى أنه تبين باللمس صحة قياس جوانب معينة من الضعف أو

القوة في الشخصية إلى موقع المرء في الترتيب الولادي، يصبح من حقن القول إن كون المرء مولوداً بكرة يعني أنه وعلى الغالب الأعم سيكون نزاعاً بالفطرة للتمتع بجوانب القوة والضعف التي ناقشناها في هذا الكتاب، لكن لن يكون الأمر مثل ضربة اللازب. إن إمضائي قسماً لا يستهان به من حياتي المهنية مركزاً جهودي على دراسة نظام ترتيب الولادة، مردّه جزئياً أنني اكتشفت أنها وسيلة فعالة تُعين البشر على معرفة وفهم جوانب القوة في شخصيتهم، ولتتمكنوا من الاستفادة منها في حياتهم، وعلى معرفة وفهم جوانب الضعف في شخصيتهم، لكي ينافحوا لتحسين أوضاعهم في هذه الجوانب.

ولقد أتينا سابقاً على ذكر من دعوته (استكمالياً مثبط الهمة)، وقد يكون أحدكم عرضةً لأن ينطبق عليه مواصفات تلك الشخصية، ففي هذه الحال، يستطيع وحالما يعرف أن بإمكانه القيام ببعض الخطوات لتغيير سلوكه هذا، أن يشرع فوراً بإجراء ما يمكنه من العودة إلى السلوك الطبيعي السوي.

وأتينا سابقاً أيضاً على ذكر من يلعب دائماً دور الشخص النمذج المثال، والذي يعيش نتيجةً لذلك كما لو أنه يرتدي دائماً (Strait - Jacket) سترة بلا أكمام<sup>(\*)</sup>، فإذا توصل أي واحد منكم إلى أن نمط شخصيته متطابق مع هذا الطراز من الحياة، وأنه يحرق ويفني نفسه في سياق العملية، فبوسعه فوراً اتخاذ إجراءات ملموسة باتجاه الانتقال إلى حالة السواء.

وبصدد تحويل جوانب الضعف عند الإنسان إلى جوانب قوة، أجدني معجباً بما قاله الدكتور هارولد هـ. بلومفيلد في كتابه (أعراض حالة أخيل)، حيث ورد فيه: «يشير مصطلح كعب أخيل إلى ذلك الجزء من تكويننا، والذي يُعتبر نقطة الإعاقة الأكبر فيه ونقطة التحدي الأكبر أيضاً فيه، فإذا تمكنا من التسليم بكعب أخيل الخاص بنا، والتعلم منه أيضاً، أمكننا تحويله إلى مصدر

(\*) - سترة خاصة بالناس المجرمين أو المجانين لإعاقتهم عن ممارسة أعمال عدوانية، والمقصود هنا أن من يفترض بنفسه لعب دور النمذج المثال، يحجم عن إثبات كثير من الأفعال التي يمكن أن تعتبر مثلاً أو تشويشاً لهذه الصورة المفترضة. م.

طاقة، وإلى أن يلعب دور الحافز لنا في مجرى حياتنا، وجزء بنيوي من شخصيتنا كبشر. إننا ما زلنا مثل أخيل، لانفتأ تقاوم ونجالد أنفسنا وقابليتنا للعطب، وإلى نسيان جوانب قوتنا<sup>(١)</sup>.

إن معرفة المرء لجوانب ضعفه وفهمها، تُعتبر عاملاً مساعداً كبيراً له، ما دام يعني أن بوسعه التغيير، وجعل نفسه قوياً في جوانب الضعف هذه. أما معرفة المرء لجوانب قوته وفهمها، فهي عاملٌ مساعدٌ لاستثمارها بفعالية.

لقد يَئُت لنا مراقبتنا لـ هولي وكريسي وكيفين، أنهم كانوا غير مساقين مسبقاً للتصرف بطريقة معينة دون أخرى إثر سماعهم نبأ حمل أمهم بأخ أو أخت جديدة لهم، فهم ليسوا أشخاصاً مُسرَّعين يسرون على نحوٍ لاراد له على ضوء موقعهم في الترتيب الولادي للأسرة.

ويصح الأمر نفسه بالنسبة لك، فلا يوجد أي قيد يمنعك من أن تصبح ما تريد أن تكون عليه، وطاراز الشخصية التي تريد لنفسك، وإن زيادة خبرتك ومعرفتك بجوانب القوة والضعف الشائعة عند الأبناء البكر، إنما هي إحدى المفاتيح التي ستتيح لك فكّ الرتاج عن طاقتك الكامنة.

وربما وصل إلى أسماعك ما يفترضه البعض عني، إنطلاقاً من تأليفي عدداً من الكتب، ولظهوري المتكرر في مقابلات تلفزيونية، ولشاركتي في المؤتمرات وحلقات البحث، ولشهرة عيادتي الخاصة، بأنني من طراز البشر المفرطي الاجتهاد، ومَن يسعون وراء تحقيق المآثر، لكنني بدوري أؤكد لك أن ذلك بعيد عن الحقيقة بعد الأرض عن السماء. فهل تعلم أنت الحال التي يكون عليها الدرك الأسفل؟ أنا أعرف، لأنني أمضيت بعضاً من عمري هناك. فعندما كنت طالباً في المرحلة الثانوية كان مكاني في الصفوف الخلفية للقاعة، ولن تعثر على اسمي أبداً في أي لائحة من لوائح الشرف، وكن على يقين تام من أن طريقي لم يكن ممهداً إلى أي كلية جامعية معروفة. لقد كنت تائهاً أتخبط في عتم ما دون الإنجازات، وبدا درب مستقبلي وكأنه يفضي إلى طريق مسدود.

لكن قدّمت لي إحدى أساتذتي في أحد الأيام عوناً كبيراً حين ساعدتني على اكتشاف الدور الذي أَلعبه في الحياة والذي كنت مسروراً وراضياً به، ألا

وهو «خير من يكون الأسوأ». وكان لكلماتها في نفسي وقع الإبر الواخزة، لأنني بادئ ذي بدء، أدركت أنها تعبر عن الحقيقة، وأني كنت في القاع فعلاً. ولكن يترتب عليّ ألا أبقي هناك، فأنا أعرف أنني أمتلك القدرة على التحدي والمجابهة، وقرّرت أخيراً أن أعمل على التغيير!

ومن الممكن إذن أن يساورك إحساس أنك على شفا الدرك الأسفل في بعض مناحي الحياة، لكن صدّقني أن بإمكانك تغيير واقع الحال هذا. ولدى كل مولود بكر جوانب قوة يُقتضى منه استثمارها لتحقيق إمكانياته القصوى.

## البكورية قوة إذا أحسنت استثمارها

دعونا نجري جردة سريعة على الصفات المتأثية من بكورية المرء:

### 1. طبيعة قيادية:

إن الطبيعة القيادية للمولود بكراً ليست خافيةً على أحد، فإذا كنت ابناً بكراً، فأنت من نوعية البشر التي يُنتظر منها الإرشاد والتوجيه، ويتقدم الموقع القيادي الذي تتبوّأه طرداً مع اتساع المجال الحيوي لشخصيتك، فمزد مرحلة طفولتك ينحو أشقاؤك الأصغر سناً إلى الاتكال عليك في قيادتك لهم. وحالما يتقلّد المرء قميص القيادة، يصبح من الصعب خلعه عنه.

فلو قُيِّضَ لي أن أكون رئيساً لمؤسسة، فمن دواعي سروري أن يكون جميع نوابي ومساعدتي الأساسيين من المواليد بكراً، ومرد ذلك أنني أعرف الكفاءات القيادية التي يحوزها المولودون بكراً.

وأشهد في ابنتي البكر هولي ظهوراً لهذه القدرات القيادية في كل آين وحين، فلقد رشّحت نفسها حين بلغت الصف التاسع لمنصب عريفة الصف، لكن تبين لها بعد فرز وجمع الأصوات أنها خاسرة بفارق أربعة أصوات. ورغم حرصنا على تلطيف وقع الأمر عليها، لمعرفتنا أن الخسارة عسيرة الهضم عليها، وخاصةً حين تحصل بفارق ضئيل كحد السيف، إلا أننا لم نسمع منها ولا كلمة

تشير إلى تعكر صفوها، بل تقبّلت الهزيمة بوقار ورحابة صدر عاكسة سماتها الشخصية كمولودة بكرًا. ومضت بنا الأيام سنة أخرى، لتدخل علينا في إحدى الليالي ونحن جلوس على مائدة العشاء، وتعلن لنا:

«إيه، احزروا ماذا حدث؟ لقد أصبحت عريفة لصفّي العاشر».

لقد كان وقع الأمر طيّباً عليّ إلى الحد الذي يمكن لأيّ كان ملاحظة طقطقة عرى قميصي بتأثير انتفاخ صدري كأبٍ فخور جداً بابنته، ليس لأنها انتُخبت عريفة صفّها، ولكن لأنها لم تسمح للهزيمة بأن تحطّم معنوياتها أو أن تعيقها عن معاودة الكرة.

إن تمتع المرء بقدرات قيادية لا يعني أن يربح في كل آن، وإذا مُنيت بعدة إخفاقات في مجرى حياتك، فإن هذا لا يعني أنه أصبح محتمّاً عليك أن تبقى بعيداً عن الأضواء طوال حياتك، فالعالم في حاجة إلى أناس يمتلكون الشجاعة والإرادة لأن يقدّوا، فأعط نفسك فرصة إذن، وسترى أنه يوجد لقدراتك القيادية حظ في الحضور.

ولأنّخذ حالة الإبن الكر جورج، والذي كان يؤثّر الجلوس في اجتماع مجلس إدارة عمله، مع إبقاء فمه مغلقاً، دون أن ينبس ببنت شفة لأنه يخشى أن لايلقى اقتراحه التقدير الإيجابي، وربما احتدمت حدة النقاش بين زملائه، مختلفين حول قضية معينة، متقلّين في آرائهم وأفكارهم من جهة إلى أخرى دون الوصول إلى مقاربة حل للمسألة، في حين كان جورج غير مكترث بكل هذا، مع أنه توصّل في ذهنه إلى ما يتعيّن القيام به، أو على الأقل كان بوسعه استشراف الطريق إلى ذلك، لكنه يظن أنه لو أخبرهم بما في ذهنه، فسيقولون عنه أنه يهزم. ومع ذلك، فإنه في أحد الأيام، وبعد أن كان قد مضى على بداية الاجتماع عدة ساعات، وبدأ يشعر بالإرهاق والضجر، قرّر أخيراً أن يوضح بما توصّل إليه: «أعتقد أن ما يمكننا فعله هو...»، ثم قدّم حلاً ناجعاً للمسألة، وضحى جميع الحضور، لأنه، أولاً، تحدّث أخيراً بشيء ما، وثانياً لأن فكرته كانت بالضبط ما يبحثون عنه.

وتنحى به مديره العام إثر نهاية الاجتماع جانباً، وقال له: «لقد كان ذلك

عظيماً يا جورج!، كيف توصّلت إليه؟» وأخذ جورج منذئذ، وبعد أن تشجّع من نجاحه هذا بالجهر بآرائه أكثر فأكثر. وتوصّل إلى طريق مكنت شركته من إنجاز بعض أشغالها بنجاعة أعلى، ولأن توفّر عليها أموالاً، وتزيد من مبيعاتها.

لقد كان الجميع يقدر أن جورج المسكين ليس إلا شخصاً أحمقاً وسطحياً في تفكيره، لكن ذلك غير صحيح مطلقاً، فهو مولود طبيعياً كقائد، لكنه يعاني في الوقت نفسه من مشكلة النقص في اعتباره لذاته، وكان لهذا السبب يلجأ إلى إبقاء نفسه في العتم بعيداً عن الأضواء كل تلك السنوات. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل كم يوجد من أمثال جورج في هذا العالم؟ وكم هو مقدار الخسارة التي نتحملها جراء ذلك؟

## 2 - محلّ بارع

يُشار إلى المولودين بكراً بأنهم أناس يُكثِّرون طرح الأسئلة، وبأنهم يرغبون دائماً أن يعرفوا كل التفاصيل، إلى حد أنهم يجزفوننا أحياناً نحن النماذج الأقل صبراً إلى حدود الانفجار غيظاً.

لا يوجد أي داع لأن تعتذر عن طبيعتك السؤولة هذه، فليس هناك أي غلط في رغبتك معرفة كل التفاصيل، وما يمّدك ذلك من قدرة على معالجة محكمة للوضع. فأنت تعي أن بوسعك، حالما فهمت الحالة، إقرار الخطوات الكفيلة بالوصول إلى ما يقتضيه الأمر. إذا لم ينبّر لهذه المسائل أحد هؤلاء المؤسّسين المولودين بكراً، فإن البقية منا ستبقى تلف وتدور في مكانها إلى الأبد دون إحراز أي تقدّم.

هل تتذكّر لعبة المكعبات الملونة، والتي انتشرت على نطاق واسع قبل عدة سنوات؟ لقد كنت نافذ الصبر كلياً مع أشياء كهذه، فكنت أنكبّ لمدة دقائق معدودة عليها لإعادة ترتيبها، ثم وبعد أن أعجز عن الوصول إلى حل في بعض الأماكن ألق عن المتابعة بها. إن طبيعة (الطفل المدلّل للعائلة) التي نشأت على أساسها هي التي صاغتنني كشخص نافذ الصبر، وأهوّج بعض الشيء. في حين أنني بالمقابل رأيت بعيني من يمضي ساعات طويلة منكبّاً على هذه المكعبات،

عاملاً على دراستها وتحليلها، ثم إعادة تركيبها بصبر وأناة باعثة على الدهشة. وأنا على استعداد لأن أراهن بأن معظم هؤلاء الأشخاص الذين يكتبون بهمة عالية على حل هذه الأحجية إنما هم مولودون بكرًا.

هل أسمع أحدكم يقول: «حسنًا، وماذا بعد؟ إن الأبناء البكر ماهرون في حل الأحاجي. زد على ذلك خمسين سنتًا. وسيتيح لك ذلك إحساء فنجان من القهوة على هذا الاكتشاف!».

إن الاستهانة بذلك غير صحيحة، إذ أن إجراء مقاربات متأنية وتحليلية ومدروسة لفهم المسائل، يمكن أن يقدم لك خدمات لا يستهان بها. ويقتضي منك تعلم الاستخدام العملي لمثلكات التفكير المزود بها طبيعياً، في كل منحى من مناحي حياتك، وأن لاتدعنا نحن البقية - النافذي الصبر والمتهورين الواقفين واحداً إثر الآخر وراءك في ركب الحياة - تؤثر عليك بدفعك لاتخاذ قرار متسرع وغير مدروس جيداً. ويمكنك عموماً كمولود بكر أن تثق بنفسك في المسائل التي تتطلب اتخاذ خيارات متأنية.

لكن لا بد لي بالمقابل من التأكيد على أنني لا أتحدث هنا عن الماطلة والتسويق، والتحليل اللامتناهي للأمور والذي لا يحده سوى اللحد، عاكساً في ذلك أمراً واحداً فقط، ألا وهو خشيتك وتخوفك من اتخاذ قرار، لكنني أتحدث عن الحالة التي يجد فيها المولود البكر نفسه في مواجهة اتخاذ خيار استراتيجي - ولنقل تقلدًا موقع عمل آخر في مدينة أخرى، أو البقاء في الموقع الحالي -، فهو من النوع الذي سيلتقط في هذه الحالة ورقة وقلماً ويسطر عليها كل إيجابيات وسلبيات المسألة، حيث ستبند الأوجه الإيجابية لموقع العمل الجديد في أحد جوانب الورقة، بينما تبند الأوجه السلبية في الجانب الآخر، وبعد أن يدون كل ما يخطر على باله مما يتعلق بالأمر، ويعطي لنفسه مهلة كافية للتحميص فيه، يقرر بعدها ماذا عليه أن يفعل. وسيقف في هذه الأثناء المولود أخيراً جانباً، راسماً ابتسامة لامبالاة، وقائلاً: «تعالوا انظروا إلى هذا الرجل الذي يعجز عن حسم أموره»، لكن تذكر أن التفكير بتأنٍ مبالغ به قبل اتخاذ قرار ما، لا يمكن أن يفسد على المرء حياته.



### 3 - نفسية عالم

يقرأ المولودون بكرة عادةً عدداً من الكتب أكثر مما يقرأه الآخرون، وهذا ما يوقر لهم أفضلية معرفية على بقية البشر الآخرين في هذا العالم. ويعود سبب هذا الشغف بقراءة الكتب أولاً وقبل كل شيء، إلى أن الآباء يميلون إلى اتباع عادة شراء الكتب وقراءتها لهم بحماس.

ولنأخذ حالة بوفورد، والذي اشترى له والداه، بعد إصابته النور بفترة قصيرة أطناناً مما هبّ ودبّ من المتاع، ومن ضمنها الكتب. ثم أخذوا يقرأون له في الأمسيات وحين تحلّ ساعة نومه، قصصاً مثل: (القاطرة الصغيرة الجزيرة)، (القارب الشراعي)، (بابار قادم إلى أمريكا)، (البیوض الخضراء وفخذ الخنزير)، مكثرين قراءتها مرّات ومرّات. وهذا ما يدفع بوفورد، والذي نما لديه شغف بالقصص والحكايات، وتقدير عالٍ للقراءة، لأن يلبّخ دائماً على أبويه: «ماما، اقرأي لي القصة مرة أخرى».

لكن ها هو الولد الثاني برادفورد قد وُلِد، لينضم في الفترة الأولى إلى أخيه، في السماع لأمه أو لأبيه وهما يقرآن قصصاً عند حلول موعد نوم الأطفال. لكن مع توالي الأيام ستحين اللحظة التي تفقد فيها هذه العادة أهميتها لدى الأبوين، فكيف يمكن لهما تخصيص وقت للقراءة للطفلين، في الوقت الذي يأتي كلاهما البيت متعبين بعد يوم عمل طويل، ويتجهان إلى أقرب سرير للاستلقاء عليه. أما بالنسبة للكتب، فإنّهما سيرتبان أيضاً أن كل كتب بوفورد العتيقة تحت تصرّف برادفورد، وبوسعه قراءتها، وليس هناك أي داعٍ لشراء كتب جديدة له.

ولهذه الأسباب، لن تنمو ميول للقراءة لدى برادفورد، ولا ميول باتجاه المعرفة، كما يمكن أن يحدث مع أخيه الأكبر، والذي يصل لديه الأمر إلى الحد الذي نراه قد قرأ عدة كتب دراسية بسيطة لوحده، قبل مدّة من الوقت المفترض لدخوله المدرسة، والتي يصل إليها متحمّزاً وعلى أهبة الاستعداد للإقلاع فيها، بعد أن قطع شوطاً في منهاجه المدرسي قبل أقرانه في الصف.

ومن غير المستغرب إذن ذلك العدد الكبير من المولودين بكرًا بين صفوف المعلمين وأساتذة الجامعات والعلماء، أو من أصحاب المهن المشابهة والتي تتطلب ثقافة عالمة رفيعة المستوى.

وسأخصّص الآن بضع كلمات لمن تعود من بينكم طوال سنوات، على محاربة تلك القدرات الطبيعية التي يتمتّع بها في حقل (القدرة - الذهنية)، وهم ليسوا حالات نادرة كما يمكن أن يُظن للوهلة الأولى، وتزداد المشكلة تعقيداً عندما يكون هؤلاء، الذين يميلون للحطّ من قدراتهم الطبيعية وثقافتهم العالمة، مولودون بكرًا.

روى لي على سبيل المثال، أحد أصدقائي من المولودين بكرًا، كيف اعتاد عندما كان في المرحلة الابتدائية، على تقصّد تخطيء نفسه في عدة كلمات في مذاكرة الإملاء، لئلا يعتقد زملاؤه الآخرون في الصف أنه شديد الذكاء، ويتابع روايته لي قائلاً: «لقد صاروا أقلّ قساوة وشدة معي ما دمت أرتكب بين حين وآخر بعض الأخطاء لأظهر كبقية الصبية».

ويحدث أحياناً أن يبدأ الأمر بمزاولته كَلْعِيّة، لكن سرعان ما يسقط الإنسان في الفخ. ويصح هذا الأمر خصوصاً عند النساء المولودات بكرًا، ممّن يصدّقن الأكذوبة التي تقول إن الرجل لا يريد زوجة أكثر ذكاءً منه. وربما يصح هذا الأمر بالنسبة لبعض الرجال، لكنهم في الحقيقة، الرجال غير الجديرين باتخاذهم بعبولاً بأي حالٍ من الأحوال! إذ أن الرجل المثقف ثقافة حقيقية يريد زوجةً مقاربة له على الأقل في ثقافتها، لكي يكون بوسعها تحفيز وتحدي قدراته الثقافية.

فمن الممكن أن تصل، عندما تلعب تلك اللعبة من: «أوه، إنني في الحقيقة لست شخصاً بالغ الذكاء»، إلى حد تصديق ذلك، وربما يصبح لعب دور الأحمق عادةً تتأصّل بك، فتبدأ باتخاذ مناحي سيئة لحياتك. فإذا كنت تمارس هذه اللعبة انطلاقاً من لحظة ما في حياتك وجدت فيها مبرراً لذلك، فتوقّف عن ذلك فوراً! وليس ثمة أي ضير في كونك مثقفاً عالماً، بل سيفتح لك ذلك بوابات الحياة على مداها الأقصى.

## 4 - أستاذ ضليح في التنظيم

لابد أن الإبن البكر سمع في مرحلة طفولته الباكرة أمه مرددة العبارة: «هناك محل خاص لكل غرض، وكل غرض يوضع في محله»، ولابد أنها رددتها مراراً وتكراراً، لأنه، في الواقع، يؤمن بها إلى درجة الهيام.

وعندما أفكر بقضية تنظيم المولودين بكراً، يرد إلى ذهني فوراً (أنت إيفي) الأثيرة إلى قلبي، وتتولى إيفي مسؤولية تسويق كتبي، وتبرهن دائماً في عملها عن مهارة متميزة. ولاتظن أن ما تقوم به قليل الصعوبة، أو أنه مجرد وسيلة لكسب لقمة العيش، فأنت لم تشاهد مطلقاً كيفية تعاملي مع سجلاتي، (تذكر بأن ساند اضطرت لأن ترتب لي دفتر حوالات مصرفية ذي ورق كربون تحت كل ورقة منه، لأنني لم أفتأ أنسى تسجيل رقم الإيصال في الطرف الداخلي للورقة الدائم في الدفتر).

وحدث أكثر من مرة أن اتصلت إيفي هاتفياً بي لتسألني فيما إذا كان بوسعي إخبارها عن المصدر الذي أتت منه إحدى الحوالات المصرفية: «فجأة، وجدت هذه الحوالة بين يدي، متروكة بين مجموعة من الأوراق الأخرى، ولم أعرف مقابل أي شيء هي». ويحدث أحياناً أن لا أتمكن فوراً من معرفة الإجابة على ما يحير إيفي لكن إثر حثّ لذاكرتي من قبلها، أتوصل دائماً لإعادة الأمور إلى نصابها. لكن هيهات لي ذلك، لولا مساعدتها لي!

وحدث أن أجريت لي قبل عدة سنوات عملية مراجعة وتدقيق للحسابات من قبل دائرة ضريبة الدخل، بغية مراجعة أرقام مبالغ الهبات والمساعدات الخيرية المستحقة عليّ. فلقد راودني إحساس حينها أننا غير قادرين ساند وأنا على التبرع بما تعهدنا به سابقاً، لذلك استدعينا لإجراء مراجعة وتدقيق للحالة في مكتب دائرة الضريبة.

النجدة!، ها أنا مرة أخرى أجد نفسي في حاجة لطلب المولودة بكراً إيفي لتهدب لنجدتي، وهذا بالضبط ما فعلته. فلقد أتت برفقتي إلى مكتب دائرة الضريبة، حاملةً معها صندوقاً مليئاً بأوراق منظمة ومرتبّة بعناية، كانت عبارة عن

وصول الدفع والاستلام. وهكذا لم يستغرق لقاءنا مع الموظف مدقق الحسابات سوى خمس دقائق» فلقد قلب سريعاً وصولات الدفع، وتأكد أنها تتناسب مع أرقام متحصلات ضريبة الدخل المدفوعة من قبلي، فقال:

«هيا، انتهى الأمر، أنا آسف حقيقةً لأنني أزعجتك».

وخرجت من المكتب وأنا أحمد ربي وأشكره على هذه المولودة البكر (المنظمة).

ويحدث أن نلجأ نحن بقية البشر إلى الاستهزاء من حين إلى آخر بالمولود بكرًا المنظم، ناعتينه بلقب تحقيري يمس مسألة الترتيب، أو قائلين له بأنه مسلوب اللب كلياً في حرصه على البقاء منظمًا، لكن يكمن خلف ذلك أمرٌ واحد فقط لاغير، وهو أننا نغار منه. إذ يمضي البعض مئة ساعاتٍ طويلة كل أسبوع تقريباً في البحث والتنقيب عن غرض معين، نصرّ على أننا كنا قد «وضعناه في هذا المكان تماماً، وها قد ضاعت آثاره الآن». لكن سيتبين لنا لاحقاً، عندما نجده في مكان آخر، أننا فعلاً كنا قد تركناه في ذاك المكان وليس هذا!

طبعاً، لايقع أمر كهذا للمولود بكرًا المنظم، رغم أنني لأصل إلى حدود القول إن المولودين بكرًا ليسوا عرضةً للوقوع في هفوات متعلقة بالنسيان بين وقت وآخر، لكن الرقم الإجمالي لحصول ذلك معهم أقل بكثير مما يقابله لدى المولودين وسطاً والمولودين أخيراً.

ليست لعنة إذن أن يكون المرء منظمًا، بل إنها نعمة. ومن غير الغريب في هذه الحال أن يكون الإبن البكر على وجه العموم، الشخص المهيأ أكثر من غيره لأن يستلم أمور الموازنة المالية للأسرة، فهو أفضل من الجميع في إدارتها. وكذلك، فيما يتعلّق برسم خطوط مسار الرحلة الترفيهية لعائلة، يُثبت المولود بكرًا أيضاً على أنه الأكثر قدرة على تحديد كل محطات التوقف المناسبة، راسماً في ذهنه بدقة كل شاردة واردة متعلقة بالرحلة. وكذلك إذا قُيِّض لي أمر ترتيب دعوة على مائدة طعام، فإنني سأركن أمر ذلك إلى مولود بكر، لأنني سأكون واثقاً في هذه الحالة إلى أن كل الترتيبات اللازمة ستتم على النحو الأمثل.

ويرز المولدون بكرة، نتيجة لمهاراتهم التنظيمية، كمحامين وصحفيين ومحاسبين وأمناء مكاتب رفيعة الكفاءة. وبطبيعة الحال يمكنني إضافة إلى ذلك، بأنه لن يكون بوسعك اختيار من هو أفضل من مولود بكر لشغل منصب سكرتير تبحث عمّن يتولاه، شخص قادر على إدارة مكتب، وعلى جعل كل عمليات الإدارة تسير بانسياب ودون أي إرباكات.

ويتفوق أيضاً المولدون بكرة في عالم السينما، ويثبتون من خلاله قدرتهم على الاستثمار المركب لمهاراتهم التنظيمية والإبداعية. فلقد جرت العادة على النظر إلى عملية إخراج الأفلام العالمية الكبرى - على أنه عمل مثير وممتع، وأنا على قناعة تامة بأن هذه الرؤية صحيحة لكنها ناقصة، فهناك وجه آخر للأمر، وجه مضجر ويتطلب بذل جهد ماثب ومضني وطويل الأمد، وذلك في عملية إعادة ربط كل المشاهد مع بعضها بانسجام وتناسق، وفي عملية الانتظار لساعات وأيام طويلة للوصول إلى الوضع المناسب لتصوير اللقطة المطلوبة، ثم في إعادة تصوير المشاهد مرات ومرات للوصول إلى الأداء المطلوب.... الخ. ويبدو العمل من هذا الجانب عملاً قُذ على مقياس المولودين بكرة. وليس مستغرباً إذن ذلك النجاح الهائل في حقل السينما والذي حققه كل من المولودين بكرة ستيفن سبيلبرغ وجورج لوكاس.

وربما ما زلتُم تتذكرون الحوار الذي أجرته مع سكييتيكال ستيف، والذي أوردته في متن الفصل الأول، حيث ظنُّ أنني مخطئٌ كلياً، وأن دراستي ليست مبنية على أي أساس متعلق بترتيب الولادة، لأنه مولودٌ بكرة ومع ذلك لا يعتبر نفسه من صنف الناس المنظمين. جيداً، إذ يبدو مكتبه فعلاً في حالة فوضى شاملة، لكنه مع ذلك يعرف كيف يعثر من بين كل هذه الفوضى على أي غرض يريده. ومن الممكن أن تنطبق هذه الحالة عليك أيضاً، فلا تدع عزيزي المولد بكرة لهذه المظاهر السطحية الخارجية أن تخدعك، فالتنظيم والترتيب ليسا بالضرورة أموراً من الطينة نفسها. ولا تحط من قدر نفسك إذا أخذت شخصيتك مظهراً فوضوياً خارجياً، فخلف هذا المظهر، يكمن في أعماقك عزيزتي وعزيزي المولد بكرة قدرة رائعة على التنظيم، وليس هناك أي ضير في كونك منظمّاً على

هذا النحو، بل إنك كمولود بكر لا تتركز إلا لنمط الحياة البتاءة، والإنجاز ما رتبته في ذهنك من مشاريع. ولن يتحول الأمر إلى مشكلة إلا عندما تصبح حياتك أسيرة جداول ومخططات، وعندما تغلب عملية المجادلة التي تحوض معمعانها مع مشاريعك على جميع جوانب الحياة الأخرى.

ويمكنني القول على وجه الإجمال، إن نزوعك لأن تكون منظماً، هو أمر يعود عليك بقدر هائل من الفائدة. وستقدم للآخرين خدمة كبيرة أيضاً، إذا استطعت إشراكهم في مهارتك في هذا المجال، لأن العالم حافل بمن ينطبق عليهم القول المأثور بأنهم سيفقدون رؤوسهم إذا لم يوثقوا بإحكام إلى أعناقهم.

## 5. شخصية طليعية وذات آلية ذاتية

هناك كفاءة أخرى يتمتع بها المولدون بكرأ ويضرب بهم المثل بها، وهي نزوعهم للبقاء في الطليعة أمام الآخرين بخطوة، فهم يمتلكون القدرة على معرفة الواجبات التي ينبغي القيام بها، والشروع من تلقاء ذاتهم بإنجازها.

ففي ظروف العمل المكتبي الوظيفي يتطلب المولدون بكرأ، بشكل عام، قدرأ أقل من المراقبة والإشراف لأن لديهم آلية ذاتية في الحث على العمل، ومن النوعية التي تقيم نفسها بنفسها. ويعود ذلك من الناحية الأساسية إلى حقيقة أن والذي كل واحد منهم كانا يترقبان منه الكثير، ويتأصل ذلك في نفسه ويصبح يترقب الكثير من نفسه. ولهذا السبب يُظهر المولدون بكرأ مهارة فائقة في حال تقلد مهامهم مواقع إدارة الأعمال.

ويجب الإقرار مع ذلك أن ثمة وجهاً سلبياً لإنجاز الأعمال بالاعتماد الذاتي على النفس، وهو نمو نزوع لدى المولود البكر بالرغبة في تنكب زمام جميع الأعمال بنفسه، ويشق عليه دائماً تفويض الآخرين بأمر السلطة والمسؤولية، وهو الأمر الذي يقتضى منه تعلم ممارسته. وربما تذكرون الفترة التي كان فيها جيمي كارتر يترتب على سدة الرئاسة، فلقد كانت واحدة من الانتقادات التي كان يواجه بها دائماً، هي أنه كان يحاول تولي زمام جميع الأمور بنفسه، مما لم تقتصر نتيجته على أنه كان يستنزف نفسه في العمل إلى حد الإرهاق، بل إلى

أنه لم يستطع إنجاز قدرٍ من الأعمال مماثل لما كان من الممكن أن يحققه فيما لو فوّض آخرين بعددٍ من مسؤولياته، أكثر مما يفعل في الواقع.

وأرجو أن لا يفهم مني أحدٌ هنا أنني أجزئ ذلك النقد الموجّه لكارتر، لكن حصوله ليس مفاجئاً لي، لأنه يطال نوعية السلوك الذي يمكن للمرء أن يتوقّعه من مولود بكر. وترجع مشكلة المولود البكر من أحد جوانبها إلى إدراكه بأن أولئك الآخرين لن يتقنوا إنجاز العمل بالكفاءة التي ستكون عليها فيما لو تنطّح بنفسه لذلك، وربما لانخالفه في صحّة ذلك، لكن ليس في الأمر ذلك القدر من الغضاضة، وذلك لسبب بسيط، أنه ليس بوسع أي كائن إنساني على الإطلاق التواجد في كل الأماكن دفعةً واحدة، ولا حتى الأشخاص البارزين من الأبطال، لذلك لامندوحة من تعلّم التفويض.

إلا أنه لا بدّ لي من التأكيد على أن قدرة المولود البكر على أن يكون طليعاً وذاتي الحركة، ومعتمداً على نفسه، إنما هي ميزة تفوق في أهميتها أي مشكلة يمكن أن تُثار نتيجة لعدم قدرته على التفويض والتي هي في حد ذاتها مسألة يمكن التغلّب عليها وتجاوزها.

ويتعيّن على كل مولود بكر أن يتذكّر أنه غير قادر على القيام بكل شيء دفعة واحدة. عليه ألا يتعلّم التفويض فحسب، ولكن أن يُفكّل قدرته على مقابلة الآخرين بكلمة: «لا»، فمن المستحيل على المرء معالجة أيّ قضية، وهو لا يستطيع تحقيق كل ما يطلبه منه الآخرون، ويجب أن يعرف حدوده وإني أتوجّه من كل قلبي للمولودين بكرًا، لأطلب منهم تعلّم نهل قدر أقل من مشاغل الحياة لأنني أعرف ميلهم للانغماس في مشروعات أعمال زائدة عن الحد، إلى درجة عدم إبقاء أي فسحة زمنية يكرّسونها لشؤونهم الخاصة، وعائلاتهم، وتلك طريقة ناجعة جداً للوصول إلى تفكيك أواصر الأسرة وتهديم الصحة، وأخيراً إنهاك أنفسهم إلى حد الهلاك.

أنت بالتأكيد الشخص الذي يعتمد الجميع عليه، لكنك لست أطلساً<sup>(\*)</sup>،

(\*) - أطلس: نصف إله ونصف بشر، أنيط به مهمة حمل السماء على كتفيه. م.

وغير قادرٍ على التنقل هنا وهناك متنكباً أثقال العالم على كاهلك!

ويتمتع المولود بكرة بكفاءات عديدة أخرى، ذات فوائد جمة له، سواء في مجال حياته الشخصية أم المهنية. ويجوز لي القول إن معظم هذه الكفاءات إنما هي تنويعات على ما أتينا على ذكره في متن هذا الكتاب.

ونوجز كلامنا بالقول إن لدى المولود البكر نزوعاً لأن يكون صارماً في دقته، وشديداً في عنايته بالتفاصيل وكذلك مبدعاً في ذات الوقت. وهو على الغالب واثق من نفسه ومن قدراته الذاتية الخاصة - ما لم يكن قد وقع في شرك الاستكمالية المثبطة الهمة، والتي أوردنا سابقاً كيفية البرء منها.

وتداولنا سابقاً عدداً من المواقع الوظيفية والتي تبدو وكأنها صُممت خصيصاً للمولود البكر، وتشمل القائمة على:

- |                         |                  |
|-------------------------|------------------|
| - محاسب.                | - قبطان طائرة.   |
| - مهندس معماري.         | - محامي.         |
| - رئيس مجلس إدارة شركة. | - مخطط مدن.      |
| - مدير إدارة مصرف.      | - عالم كومبيوتر. |
| - رئيس تحرير صحيفة.     | - مهندس.         |
| - مخرج أو منتج سينمائي. | - صحفي.          |
| - أمين مكتبة.           | - موسيقي.        |
| - قس أبرشية.            | - طبيب.          |
| - سياسي.                | - عالم أبحاث.    |
| - سكرتير إدارة.         | - جراح.          |
| - معلّم.....(*)         |                  |

وهذه مجرد قائمة جزئية فقط، لكنها كافية لإعطائك فكرة أولية عن المهن العديدة التي يفلح بها الأبقار على نحو لايجارى.

---

(\*) - يقصد المؤلف في إيراد هذه القائمة، أن المولود البكر يفلح في كل المجالات التي تتطلب إثبات كفاءة مميزة. م.



وهنا تجدر الإشارة إلى صحة ما يقال بأن لدى المولود بكرةً عِلَّه أيضاً، لكن يمكن لكثير من هذه العلل - مثل الحرص على البقاء في حالة من يُتَوَقَّع منه دائماً الأفضل، أو الإحساس بضرورة التفوق على أقرانه داخل البيت في كَمِّ العمل المبذول، أو أن يُلْفِي نفسه في موقع المطالب بأن يكون أهلاً لأن يُضْرَب به المثل من قبل الآخرين.... الخ - يمكن لها أن تتحوّل في النهاية لتثبت عن كونها نِعَم وفوائد على المدى الطويل إذا كنت مولوداً بكرةً، فثمة احتمال كبير، لأن تكون قد عرّكتك الحياة، ولأن تصاب شخصيتك ببعض الرضات، مرّها ما تعرضت له في مجرى نشأتك من تأنيب وتحقير... ودعوات لأن تكبّر عقلك. بل ربما ساورك إحساس منذ مراحل الطفولة الباكّة، كما لو أنك في معسكر تدريب للمجنّدين.

طبعاً، لم يكن وقع كل ذلك سهلاً عليك، لكنك بالمقابل اكتسبت شخصية إنسان أكثر صلابة وقدرة، نتيجة لكل تلك الحن التي مرّت عليك. وبوسع كل مولود بكرة، إذ أراد، التحكم في صياغة شخصيته، فإمّا أن يختار إفساح المجال لما يثقل كاهله من أعباء موقعه الولادي، لتحويله إلى شخص انفعالي غضوب وحاد الطبع، أو أن يتمكن من تجيير كل ذلك لصالحه! وإذا تمحق فعلاً أن جبرها لصالحه، عندئذٍ أدعو العالم قاطبةً لأن يتنبه، فهذا قد وصل ذلك الشخص المقبل على صنع مأثرة!

إن كون المرء مولوداً بكرةً يُعتبر عن حق، هبة رائعة، ويجدر بكم الاستفادة منها.

انتهى.



## ملاحظات

### الفصل الأول

- 1 - «السمات المشتركة بين العلماء، وذوي الرتب العسكرية العليا، ونواب البرلمان» - دراسة بقلم ريتشارد رويجنهافت. أُخذ عن تقرير في مجلة (علم النفس اليوم)، أعدّه جاك هورن، عدد أيار 1976.
- 2 - المصدر السابق.
- 3 - «التطبيق العلمي لعلم نفس الفرد»، دكتور ألفريد أدلر، لندن.
- 4 - «لا يصحّ ثناء أي كان»، نيويورك، جين غودسيل، 1988.
- 5 - «ما ينبغي أن تعنيه الحياة لك»، أدلر، نيويورك، 1958.
- 6 - «أخوة وأخوات»، كارل كونيغ، 1963.

### الفصل الثالث

- 1 - لوك، 15.

### الفصل الرابع

- 1 - جينيس.

### الفصل الخامس

- 1 - «تصنيف الترتيب الولادي»، دكتور كيثين ليمن، 1985.
- 2 - «الاستكمالية، الوجه السلبي لمن يتمتع بكفاءة فائقة عن الحد»، دكتور مريام أدير هولدت - إليوت، 1987.
- 3 - المصدر السابق.
- 4 - «لا يصحّ ثناء أي كان»، غودسيل.
- 5 - «الكتاب الوطني للاقتباسات الأمريكية»، بروس بوهل، 1967.
- 6 - «متى يخفق الأذكاء؟»، كارول هيات وليندا غوتليب، نيويورك، 1987.
- 7 - «مجاراة مقاييس السلوك الرفيع»، دكتور كيثين ليمن، 1988.

- 8 - «متى يخفق الأذكاء»، هياة وغوتليب.
- 9 - «لست إلا بشراً»، بيل جول، 1985 .
- 10 - «كيف ترفع مستوى اعتبارك الذاتي لنفسك»، ناتانيل براندن، 1987.
- 11 - المصدر السابق.

### الفصل السادس

- 1 - «أعراض حالة أحيل»، دكتور هارولد، هـ. بلومفيلد، 1985.
- 2 - المصدر السابق.
- 3 - المصدر السابق.

### الفصل السابع

- 1 - «صقل ذهنية الطفل دون فقدانك لرشدك» دكتور كيفين ليمان، 1984.
- 2 - «تصنيف الترتيب الولادي»، ليمان.

### الفصل الثامن

- 1 - «الجنس يبدأ في المطبخ»، دكتور كيفين ليمان، 1983.
- 2 - «صقل ذهنية الطفل دون فقدانك لرشدك»، دكتور ليمان.
- 3 - مارك 12: 42 - 44.
- 4 - «المراهقين - متى يحين القلق، وما يفرض ذلك عليك»، 1986.
- 5 - «بيل كوسي بنفسه»، بيل كوسي، 1984.

### الفصل التاسع

- 1 - «مهم الطبيعة البشرية»، ألفرد أدجلر، 1969.
- 2 - «الإبن الوحيد»، داريل سيفورد، 1988.

### الفصل العاشر

- 1 - «الرغبة المستميتة لتناول المشروب الكحولي»، دكتور أندرسون سبيكارد وريبارا وطومسون.
- 2 - المصدر السابق.
- 3 - المصدر السابق.

### الفصل الحادي عشر

- 1 - «أعراض حالة أخيل»، بلومفيلد.

## المحتويات

5	* مقدمة الناشر
7	* الباب الأول: نموذج شخصية المولود البكر
9	1 - كم هو شاق احتلالك موقع الإبن البكر!
45	2 - الكلفة المرتفعة لاحتلالك موقع الإبن البكر.
71	3 - كيف أغفر لوالدي؟
87	4 - المنافسة بين الأخوة جاءتنا منذ بدأها هائل.
99	5 - الاستكمال.
141	6 - الإبن البكر يلج مرحلة منتصف العمر.
163	* الباب الثاني: أنت وابنتك البكر
165	7 - طفل كامل، عالم لاكامل.
193	8 - ساعدا ابنتكما البكر ولاتلقيا السلاح أمامه.
219	9 - الإبن البكر بامتياز - الوحيد الأوحد.
241	* الباب الثالث: مصائب أسروية
243	10 - الإبن البكر والإدمان الكحولي، رؤية قائمة للحالة.
263	11 - السر المرقع
273	12 - والدان نقادان في مواجهة الإبن البكر
289	* الباب الرابع: في الختام، ليست اللوحة قائمة كلياً
291	13 - الإبن البكر والأصدقاء: تطوير العلاقات
305	14 - الاستثمار الأقصى لميزات البكورية

## صدر عن الدار

هرمس مثلث العظمة (النبى إدريس)	تأليف: لويس مينارد
الفرعون الأخير أو زوال حضارة	تأليف: فرانسيس فيفر
مفهوم العدل في الإسلام	تأليف: د. مجيد خنّوري
موسوعة الجيب لقواعد الإنكليزية	إعداد: نورالدين البهلول
أصحاب الجلالة - الأهرامات	تأليف: ف. زاماروفسكي
نُشْه مكافحاً ضدّ عصرة	تأليف: رودولف شتاينر
قوّة الأسطورة	تأليف: جوزيف كامبل
أقاصيص شرقية	تأليف: مارغريت يورسينار

## قيد الطباعة

الجنس في أديان العالم	تأليف: جفري بارندر
الفيسكونت المشطور (رواية)	تأليف: إيتالو كالفينو
الجنس وطبيعة الأشياء	تأليف: ن. ج. بيريل
الجنس ومنابع الموت	تأليف: د. وليام كلارك

## إصدارات قادمة

- \* - دكتاتورية العقل في الغرب
- \* - الجئة كما رآها الكتّاب والفلاسفة والفنّانون عبر العصور
- \* - الحضارة اللاواعية
- \* - الرجال من المزيخ والنساء من الزهرة



General Organization Of the Alexan-  
dria Library (GOAL)

328

*Bibliotheca Alexandrina*



## شخصية المولود البكر

... يعتمد الجميع عليه لتتّكّب زمام جميع الأشغال. يأخذ على عاتقه معظم أشغال مكتب عمله بما ينوف عن حصته المفترضة. يُخرجه عن طوره رؤيته الأشياء غير مُنجزّة. سريع في اكتشاف العيوب، ويناكد كثيراً قرينه الزوجي، ويشرف على تربية أطفاله، ويبالغ في تعويل آمال غير منطقية على الآخرين. لديه دائماً جدول أولويات، ويؤثر إلى حدّ الولوج إبقاء الأشياء منظّمة وفي متناول يده.

فإذا كانت هذه الخصائص تصف شخصيتك، فإنك على الأرجح شخص مولوداً بكرّاً وكما سيخبرنا المؤلّف، فإن كون المرء مولوداً بكرّاً هو بحدّ ذاته أقسى عمل مقدّر له أن يتولّاه في حياته؛ إذ سيرزح تحت وطأة ضغوط لا تُطاق، ولن يحتمّله الناس دوماً مسؤولية إنجاز كل الأعمال فحسب، بل سيكون هو نفسه قاسياً على نفسه بقدر أكبر من الحدّ المسوّغ به. ولأنه يجد نفسه أحياناً مستنزّف القوى كلياً ومرهقاً ومجهداً حتى الرمق الأخير، فإنه سيجد نفسه في أحيان أخرى مستسلماً لشعور بالاستياء والمرارة... لكن هناك طرق تعلّمك الاستفادة من الوجوه الإيجابية لهذه الخصائص نفسها التي جعلتك ما أنت عليه. وسيبيّن لك المؤلّف كيف يتحكّم ترتيبك الولادي في صياغة شخصيتك ونمط علاقاتك مع أصدقائك وأفراد عائلتك واهتماماتك في مسائل الحب، وسيرة حياتك عموماً - لكن سيعلمك في الوقت نفسه كيف تستثمر كل ذلك لصالحك خير استثمار. تعلّم كيف تتغلّب على الاستكتمالية الخائفة، وتتوقّف عن تدمير نفسك، وكيف تبرأ من الجروح التي تعرّضت لها في طور الطفولة ورافقتك طوال حياتك، وكيف تنتصب واقفاً على قدميك بعد الإخفاق وتصبح أشدّ صلابةً وأكثر ثقةً بالنفس، وكيف تطوّر علاقاتك نحو الأحسن وتبلغ السعادة الحقيقية.

وإذا كان هذا الكتاب يعين المولودين بكرّاً على الانعقاد من ربكة الضغوط التي يجدون أنفسهم رازحين تحتها، فإنه أيضاً يعين الأهل والدارسين على فهم شخصية المولودين بكرّاً، وبالتالي مساعدتهم على تطوير قدراتهم وتجاوز سلبياتهم.